فاضل العزاوي





منشورات الجمل

رواية

فاضل العزاوي، **الأسلاف**، رواية


مكتبة
الفكر الجديد

فاضل العزاوي

الأسلاف

روايـة



فاضل العزاوي، شاعر وناثر، وُلِد في مدينة كركوك في العراق. درس الأدب الإنكليزي في جامعة بغداد والصحافة والعلوم السياسية في جامعة لايبزج وحاز على درجة الدكتوراه عن أطروحة حول الثقافة العربية. عمل في الصحافة العراقية والعربية وأصدر مجلة الشعر ٦٩. نشر أكثر من عشرين مجموعة شعرية ورواية وكتاباً نقدياً، فضلاً عن الكتب التي ترجمها عن الإنكليزية والألمانية أو إليهما. كما ترجم العديد من أعماله إلى اللغات الأخرى مثل الإنكليزية والألمانية والفرنسية والاسبانية والايطالية والسويدية والنرويجية والهولندية والتركية والفارسية والكردية والصينية والاندونيسية والهندية. غادر العراق في مطلع ١٩٧٧ ويعيش منذ العام ١٩٨٣ في برلين ككاتب متفرغ ينشر أعماله بالعربية والانكليزية والألمانية. صدرت له عن منشورات الجمل أعماله الشعرية في مجلدين والعديد من رواياته وترجماته الشعرية والروائية.

فاضل العزاوي: **الأسلاف**، رواية، الطبعة الثانية ٢٠١٧

تلفون وفاكس: ٠٠٩٦١ ١ ٣٥٢٣٠٤
ص.ب: ١١٣/٥٤٣٨ ـ بيروت ـ لبنان

© *Al-Kamel Verlag* 2001
Postfach 1127 . 71687 Freiberg a. N. - Germany
WebSite: www.al-kamel.de
E-Mail: alkamel.verlag@gmail.com



مصغياً إلى الطيور تغني على الأشجار الندية
مرت عليّ مئة عام منذ الآن
لكني كنت خلالها ميتاً
وثمة شخص آخر غيري يصغي إليها .

باتريك كافاناغ (١٩٠٦ ـ ١٩٦٧)




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الأول

المسافر وطريقه




مكتبة
الفكر الجديد

١

ما قبل الرواية ـ كتاب الشيطان

في شهر آذار من العام الماضي، فيما أنا أغادر شقتي في الطريق إلى مقهى إيطالي يقع في زاوية من شارع أونتر دين ليندن الشهير، أقصده عادة كلما نزلت إلى المدينة وجدت مظروفاً كبيراً، ذا لون داكن الصفرة داخل صندوقي البريدي الواقع أسفل صناديق كثيرة أخرى، ملتصقة بجدار مدخل البناية التي أقيم فيها في حي ليشتينبيرغ.

ألقيت نظرة سريعة عليه كما أفعل دائماً مع ما يصلني من رسائل فلم أرَ اسم مرسله مدوناً على الغلاف، مما قلل من اهتمامي به، مخمناً أنه ربما احتوى على منشورات من تلك التي يواظب بعض الأحزاب السياسية المعارضة المقيمة في الخارج على إرسالها إليّ أو على نصوص قصائد وقصص من أصدقاء قدامى أو حتى من أناس غرباء لا أعرفهم، يطلبون رأيي فيها أو يأملون في أن أعثر لهم على ناشر لها. ولذلك أعدته إلى موضعه داخل الصندوق، من دون أن أفتحه، مفكراً في إخراجه ثانية عندما أعود في المساء إلى البيت. فقد كان يطيب لي أن أجلس في مقهاي وأدخن، خالي البال من هموم الحياة الكثيرة، أن أحتسي فنجاناً من القهوة فيما أتفرج على السابلة المتنزهين من وراء واجهته الزجاجية، ممازحاً ندله الذين كنت أعرفهم



واحداً واحداً، وهم جميعاً صقليون، لا يتوانون عن ذبحك إذا ما اقتضى الأمر.

طوال ساعتين أو ثلاث ساعات كنت أترك العنان لخيالي يسرح بي بعيداً في الزمان مثل شريط سينمائي تعرضه آلة خفية: ها أنذا أجلس في الحي الحكومي في ما بعد ظهيرة يوم ٢٠ حزيران ١٩٣٢ وأحدق من مكاني في فيلهلم شتراسه في مبنى رئيس الوزراء البروسي. ثمة رجل يحمل في يده حقيبة، يسير قادماً من لايبزغير شتراسه، متوجهاً إلى باريسير بلاتز، يقف فجأة مبهوراً وهو يرى الفوهرر يهبط مسرعاً من شاحنة عسكرية ويتوجه إلى قصر رئيس الرايخ الذي كان يقع في الجهة المقابلة من الشارع. ترى ما الذي كان الفوهرر يفعله هنا؟ أقول لنفسي: إنه الآن في طريقه إلى التاريخ، رغم أن الكثيرين ما كانوا يرون فيه يومذاك سوى مهرج آخر من أولئك الذين يمتلئ بهم قدر الشعوب. هذا هو الحي الحكومي. كل الدولة في مكان واحد! إنها الحكمة التي تفتق عنها ذهن بسمارك ذات مرة في بروسيا. فقد أراد لكل موظفي الرايخ أن يكونوا تحت متناول يده في أي لحظة. لكن البنايات فارغة الآن، فقد دمرتها أمطار القنابل والصواريخ خلال أعوام الحرب الطويلة الدامية. من مكاني أراقب الفوهرر ينتقل ثانية، داخلاً إلى مبنى وزارة الداخلية الذي يحمل الرقم ٧٣ في شارع أونتر دين ليندن، ذلك المبنى الذي دخله الألوف أيضاً في طريقهم إلى الموت. بعد قليل يخرج متجهاً إلى مبنى الرايخستاغ، عابراً قوس بوابة براندنبورغ التاريخية بخيولها النافرة لينصب نفسه امبراطوراً على العالم، تتبعه مواكب حاملي المشاعل الليلية. فكرت أن ألحق به لأقطع الطريق عليه، لكنه كان قد مات منذ زمن طويل، ولم أكن حينذاك قد ولدت بعد.

تذكرت المظروف ثانية، كنت أكره أن أشغل يدي بما يمكن أن



يفسد عليّ متعة جلوسي في المقهى أو يقلقني. فإذا ما حملت المظروف معي فسوف أظل أرغم نفسي على التفكير به طوال الوقت حتى لا أنساه عندما أنهض، تاركاً المقهى. إن تأجيل فتح رسالة ما لا يخلو من المتعة أيضاً. ها أن ثمة ما لا تعرفه يخفي نفسه عنك وراء غلاف مغلق. إنه ينتظرك لتمد يدك إليه وتلتقطه بأصابعك التي سوف تفضه، مخرجاً إياه من وحدته العميقة. عند ذاك لن تكون وحدك. سوف ترى أحداً ما يتحدث إليك من بعيد، ليقول لك أمراً، ما كنت تعرف به من قبل. كان ذلك يقدم لي بعض السلوى في وحدتي تلك مع نفسي.

في المساء أخرجت المظروف من الصندوق وصعدت به إلى شقتي الواقعة في الطابق الخامس من العمارة التي أسكن فيها، ملقياً به فوق منضدة الكتابة الطافحة بالأوراق والمجلات والكتب. تركته هناك وجلست أمام التلفزيون، منتظراً نشرة الساعة السابعة في التلفزيون، لأعرف أي جرائم ارتكبت وحروب نشبت في العالم خلال نهاري الذي أمضيت نصفه في النوم ونصفه الآخر في المقهى، منصتاً إلى نكتة يرويها صديق عاطل عن العمل أو مندفعاً في إبداء الرأي حول مستقبل البشرية ثم نادماً بعد ذلك على سوء تقديري وطيشي وتهوري.

لم أعد أتذكر تماماً ما فعلته بعد ذلك. ولكن لا بدَّ أنني ذهبت إلى المطبخ وأعددت شاياً كالعادة، فأنا رجل يقتات على الشاي إذا جاز التعبير. أما العشاء فيمكن لي أن أقول إنني لم أفطن إليه إلا في آخر الليل، مثلما يحدث معي دائماً تقريباً. ولكن ماذا يهمني كل ذلك الآن؟ ربما كان مفيداً أن أنقل هذه الصورة عن حياتي حتى لا تغيب عن البال، باعتباري شريكاً أيضاً في هذه القصة بطريقة ما، كصديق على الأقل لبطلها، رغم أن دوري لا يزيد عن دور شاهد الإثبات



فيها، وهي قصة بدت لي فكاهية نوعاً ما في البداية ثم انتهت بما لم أتوقعه قط.

نسيت المظروف على مكتبي حتى اليوم التالي، فلم أنتبه إليه إلا صدفة عندما كنت أبحث عن نظارتي الطبية التي غالباً ما أنسى في أي ركن من البيت وضعتها فيه. التقطته هذه المرة وحملته معي إلى مائدة الطعام في الصالة وفتحته قبل أن أتناول وجبة فطوري، حيث وجدت رزمة كبيرة من الأوراق المطبوعة بالكومبيوتر مع رسالة قصيرة موجهة إلي:

صديقي العزيز

تحياتي

أرجو ألا تستغرب إن كنت قد اخترتك أنت بالذات من بين كل الذين أعرفهم، وهم كثيرون، لتكون الشخص الذي أسلمه هذه الرواية التي كثيراً ما فكرت في كتابتها فأخفقت حتى جاء الشيطان وكتبها لي، تاركاً إياها كاملة على منضدتي قبل أن يرحل ويقول لي:

ـ لا تتعب نفسك كثيراً، فقد كتبت لك بنفسي الرواية التي طالما حلمت بها، وهو أمر لا يتعلق بعجزك عن الكتابة كما تتوهم، وإنما لأنها رواية لا يمكن أن يكتبها أحد سواي. صحيح أنك عشت وقائع هذه القصة معي، بيد أنك لم تدرك أبداً أنك لم تكن سوى ممثل في مسرحية قمت أنا نفسي بإخراج بعض فصولها على الأقل، فيما تولدت دليلة إخراج فصولها الأخرى. مسرحية ملعونة عن بلد حكم عليه القدر باللعنة.

قرأت رواية الشيطان هذه، المرة تلو الأخرى، في ليالي وحدتي المختارة في شقتي التي أقمت فيها سنين طويلة، مغلقاً بابها عليّ، بعيداً عن الشر الذي كان قد استفحل في العالم، حتى بت أعتقد أنني أنا نفسي كاتبها. ولكن ماذا يهم إن كنت أنا كاتبها أم كان الشيطان



نفسه؟ كان على أحد ما أن يكتبها، وقد كتبها الشيطان لي، وهو أمر ينبغي لي أن أشكره عليه.

صدقني أنني اعتبرتك دائماً الأقرب إلى روحي رغم كل المسافة التي ظلّت قائمة بيننا، ربما لأنني أردت لك أنت الآخر أن تغلق بابك على نفسك وتقطع الكثير مما يربطك بهذا العالم العامر بالأكاذيب والأضاليل، أن تغيب مثلي عن الأنظار. أجل، لايكتشف المرء الحقيقة إلا عندما يكون قادراً على الابتعاد عن الآخرين والاستغناء عن العالم كله إذا اقتضى الأمر. هناك شقق مغلقة مهجورة كثيرة على أي حال، لم يكتشفها الناس لحسن الحظ، تصلح أن تكون مخابئ عصرية لأمثالنا من الناس المسحورين. إن كل ما يحتاجه المرء هو صعود عمارة ما حتى يجد مغارة تنتظره. ولقد صعدت الكثير من العمارات التي تركت على جدرانها آثاري. فقط حين مللت العزلة هبطت من منفاي إلى العالم، مثل كل أولئك الملعونين المصابين بجذام الروح، بعد ربع قرن من الغياب عن الناس. لا، لا أريد أن أدعي هنا أنني أنتميت إلى أحد سوى نفسي. هذا وحده منحني القدرة على الحياة، مثلما جعلني أمس بأصابعي الموت أيضاً. وماذا يطلب المرء من هذا العالم أكثر من أن يحيا ويموت!

إنني ذاهب هذه المرة وغيابي قد يطول كثيراً. لا تسألني إلى أين ذاهب أنا الآن ولا عن الطريق التي سوف أسلكها، فلكل منا طريقه التي سوف يسلكها، حتى بدون أن يعرف إلى أين تؤدي به. هي ذي طريقي تمتد أمامي وعليّ أن أذهب أخيراً بعد أن بلغت النقطة التي لا عودة بعدها. هذا هو كل ما في الأمر.

أرجو ألا أكون قد أخطأت حينما منحت نفسي الحق في أن أعهد إليك بهذه الرواية التي ربما ذكرتك أنت أيضاً بتاريخ ذلك البلد البعيد الذي عشنا فيه سوية ذات يوم. لا أعرف في الحقيقة إن كانت ستهمك



على الإطلاق. ولذلك فأنت حر في أن تغفلها أو أن تنشرها بين الناس، وربما كان من الأفضل أن تنسبها إلى نفسك، إذ من سيصدقك لو وضعت اسم الشيطان عليها كمؤلف لها، فأنت تعرف أنه ما من رواية حقيقية تكتب، طلباً للمجد كما يفعل بعض الأدباء، وهو أمر لا يهمنا نحن الاثنين، ولا حتى من أجل الآخرين، كما يزعم أدلاء الأرواح الضالة، وإنما من أجل أن يكون المرء وفياً لنفسه وتاريخه قبل كل شيء. وماذا يهم إن ظل كاتبها الحقيقي مجهولاً؟ الصرخة الحقيقية هي تلك التي لا نعرف حتى الفم الذي صرخ بها. صرخة خرساء نطلقها ضد الليل كله، لنشعر فقط أننا قد فعلنا شيئاً ما من أجل أرواحنا قبل أن نغادر المنصة التي نقف عليها.

أكره كلمات الوداع ولذلك سأقول لك إلى اللقاء ربما في زمن آخر، أفضل من الزمن الذي عشنا فيه، أنا وأنت وكل الآخرين.

صديقك الأمير

كانت قد مضت شهور طويلة على آخر مرة التقيت فيها الأمير، رغم أنه لم يكن ليبعد كثيراً عني، إذ كنا نعيش في الحي ذاته في برلين، رائياً في الليالي الباردة التي أعود فيها متأخراً من الحانة إلى بيتي نافذة شقته المضاءة الواقعة في إحدى العمارات العالية المطلة على الشارع فأعلم أنه لا يزال مستيقظاً كعادته وأفكّر أنه ربما كان ينظم قصيدة أو يكتب رواية عن حياته الماضية. كنت قد نسيته مع الزمن، ولا يبدو لي أنه اهتم هو الآخر كثيراً بالسؤال عني. فرغم أننا كنا نعرف بعضنا منذ زمن طويل إلا أننا لم نقترب من بعضنا كثيراً هنا، كما لو أننا كنا قد اتفقنا على المسافة التي ينبغي أن تظل قائمة بيننا. ومع ذلك يمكن لي أن أقول إنني عرفته جيداً، بل وشاركته الكثير من مغامراته أيضاً. في البداية كنت غالباً ما ألتقيه في المقهى



الذي أمضي فيه مساءاتي في الباب الشرقي في بغداد قبل الذهاب إلى الحانة. كان يأتي ويجلس قريباً منا، نحن الأدباء والشعراء الشبان حينذاك، منصتاً إلى أحاديثنا، ولا يتفوه بكلمة واحدة حتى اعتقدت أنه ربما كان واحداً من رجال الأمن الذين يحومون حولنا، باذلين الكثير من الجهد لفهم أحاديثنا التي لم يكونوا يفقهون شيئاً منها والتي غالباً ما تعلقت بأخبار أدباء وفلاسفة أجانب لم يسمعوا بأسمائهم من قبل. ولكن لا بدَّ لي من أن أعترف هنا أنه أزعجني حينذاك بصمته المريب وعينيه القلقتين اللتين كانتا تتفحصان الجميع بدون رحمة. أذكر أنني همست بأذن صديق كان يجلس على التخت لصقي في المقهى:

ـ هل تعرف هذا الذي يجلس دائماً قريباً منا ويصغي بانتباه إلى كل جملة نتفوه بها؟

ضحك صديقي وقال بصوت عال:

ـ أنت تقصد الأمير، كلا، لا خوف منه، إنه أحد ضحايانا. تصور أنه يعتبرنا نحن الأدباء صنفاً آخر من البشر، حتى انه ترك مواصلة دراسته الجامعية بدعوى أنه لا ينبغي للمرء أن يبلي سراويله على مقاعد الدراسة.

قلت ساخراً:

ـ رامبو آخر، أليس كذلك؟ لا بدَّ أنه ساذج، ألا يمكن أن ننصح له بالعودة إلى الدراسة؟

هز صديقي رأسه:

ـ لا جدوى من الحديث معه، إنه مجنون تماماً.

لا أريد أن أقول هنا إنه كان مجنوناً بقدر ما كان منقاداً لهواه بعض الشيء. كان اسمه الكامل هو عادل سليم الأمير، لكنه كان يبتكر لنفسه بين الحين والآخر لقباً جديداً مثل «عابر الجسور» أو «رجل المغارة» أو «الغائب»، مدعياً بطريقة فلسفية مضحكة أن على



الإنسان أن يغيّر اسمه بين الحين والآخر حتى لا يظل أسير اسم واحد وليتحرر من نفسه هو بالذات. وحينما كان يغيب عنا أحياناً أسابيع طويلة ثم يظهر فجأة كمن نبع من ثقب في باطن الأرض يبتسم لنا ويقول إن أجمل ما في الحياة هو أن يغيب المرء بين الحين والآخر ليجعل الآخرين ينتظرونه. كان يرى أن سحر القديسين لا يكمن في حضورهم وإنما في غياباتهم الطويلة في الكهوف والمغاور، حيث تنفتح أمام أعينهم أبواب الأبدية فيرون الحقيقة كما لم يروها من قبل حينما كانوا ضائعين في لجة الحياة اليومية بين الناس. وقد عاش هو الآخر حقاً فترة من الزمن غائباً في مغارة على نهر دجلة، ملأها بالكتب قبل أي شيء آخر، بعد أن تشرد حيناً من الزمن في الشوارع.

كان يصطحبنا أحياناً إلى مغارته التي يضيئها فانوس زيتي في الليل فنجلس على بطانيات مهترئة فرش بها الأرض وندخن، محتسين بضع كؤوس من العرق الزحلاوي الذي كان يفضله. وفي خلال تلك الجلسات التي كانت تمتد أحياناً حتى الصباح عرفت كل شيء عنه تقريباً، مدهشاً إياي بقصصه الغريبة التي ما كان يمكن لشخص واقعي مثلي أن يصدقها، ومن بينها قصص عن صداقته مع شخص كان يزعم أنه شيطان متخفف يكتب له رواياته وقصائده، كما فعل مع الشعراء العرب المشهورين مثل امرئ القيس والنابغة الذبياني في الجاهلية، وعن علاقته الغريبة بفتاة ظل يصر حتى النهاية على أنها ملاك هابط من كوكب آخر ليدله على طريقه في متاهة هذا العالم الذي لم يعد ثمة الكثير الذي يشده إليه، كما كان يدعي. كنا نضحك قائلين:

ـ لا يمكن للمرء أن يكون صديقاً للشيطان والملاك معاً، فإما الملاك أو الشيطان؟ قل لنا كيف تجمع بين صداقتيهما!

ـ آه، لا فرق كثيراً بينهما، إنهما ممثلان في مسرحية واحدة، وهذا هو كل ما في الأمر.



وحينما سخرنا ذات مرة من مثل هذه الخرافات التي يؤمن بها وأثرنا غضبه علينا واستياءه منا راح وجلب معه شيطانه المزعوم إلى المقهى، طالباً منه أن يقدم لنا واحدة من معجزاته الكثيرة:

ـ هيا أثبت لهم أنك قادر على فعل كل شيء!

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟

ـ يمكنك أن تطير مثلاً. أنت تستطيع ذلك، أليس كذلك؟ هيا أرنا عبقريتك أو اذهب إلى الشيطان!

لكن الرجل ظل يبتسم لنا كمن يريد أن يقول لا تصدقوا مثل هذا الهراء، فأنا لست أسوأ أو أفضل منكم، قبل أن يفتح فمه هازئاً:

ـ حسناً، سوف ألعب الطاولي معهم وأغلبهم.

وهكذا قامرنا معه على كل ما معنا من نقود فغلبنا جميعاً. كان ينادي على الزار قبل أن يرميه فيأتيه كما يشاء:

ـ هذه هي معجزتي، ماذا أفعل أكثر من ذلك؟

وفي مرة أخرى دعانا الأمير إلى معرض رسم أقامته دليلته الملاك في قاعة كولبنكيان في بغداد تحت عنوان غريب هو «معراج إلى نهاية الكون». أدهشتنا فتاته حقاً بلوحاتها الغريبة العاكسة لتحولاتها الروحية التي كان يقول عنها إنها مستوحاة من حياتها الماضية في الجنة، كاشفة فيها عن حساسية عالية يندر العثور عليها عند الرسامين الآخرين من البشر الفانين، ولكن كل ذلك لم يكن حجة كافية لنؤمن بأنها حقاً ملاك هابط من السماء.

ولعل الأغرب من ذلك كله هو تلك القصة القصيرة التي نشرها في إحدى المجلات الأدبية الصادرة في بغداد قبل سنين طويلة، والتي روى فيها حكاية هبوط شيطانه وفتاته الملاك فوق الكرة الأرضية، زاعماً أن الشيطان هو الذي قصها عليه بكل تفاصيلها، مقترحاً عليه حتى عنوانها وهو «اللعنة»، إلا أنه اختار لها عنواناً آخر وجده أكثر ملاءمة لقصته.



لحسن الحظ أنني ظللت محتفظاً بها حتى الآن بين أوراقي التي حملتها معي إلى المنفى والتي أجد ضرورة في إعادة نشرها هنا، لأنها تتعلق بطريقة ما بذلك الجانب السحري المعتم في شخصيته، الجانب الذي يضفي على أحداث روايته معناها الخاص بها:

. . . .

. . . .

قصة قصيرة

هنا في بلد صغير فوق الكرة الأرضية

صيحات عويل مجهولة قادمة من مكان ما في الكون شقت هدوء السماء فجأة، صيحات رجال ونساء وأطفال ظلوا يطلقون بلا انقطاع نداءات استغاثة صادرة من قلوب يائسة:

ـ الرحمة، الرحمة! أنقذونا من آلامنا وعذاباتنا!

استلفتت النداءات الملتقطة في قاعة المراقبة البيضوية انتباه الملاك السماوي الموكل بإدارة شؤون مجرة درب التبانة فسأل موظفيه الذين كانوا يجلسون وراء مراصدهم وكومبيوتراتهم ويتابعون بحمية ما يجري في كل تلك المليارات التي لا عد لها من الكواكب:

ـ ما هذا الصراخ والعويل، ماذا يحدث هناك؟

فرد عليه أحدهم، وهو يسوي بأصابع يده اليمنى نظارته الطبية:

يبدو يا سيدي أن لعنة ما حلت بأحد الكواكب البعيدة في مجرتنا، لقد أفلحنا لحسن الحظ في تحديد موقعه في المجهر أخيراً بعد بحث مضن وشاق عنه بين هذه المتاهة الكبرى من النجوم. إنه كوكب صغير جداً، يطلق عليه سكانه اسم «الكرة الأرضية».

هز الملاك السماوي رأسه:



ـ لم أسمع باسم هذا الكوكب من قبل، أين يقع؟
ـ إنه كوكب أزرق صغير يقع في الطرف الآخر من المجرة.
تساءل الملاك السماوي:
ـ ماذا حدث؟ لا يبدو أنه انفجر أو ارتطم بكوكب آخر ما دام سكانه لا يزالون يطلقون صيحات الإغاثة. أريد أن أعرف ما يحدث هناك. قدموا لي كل المعلومات المتعلقة بهذا الكوكب المستجير!
بعد نصف ساعة أو ما يقرب من ذلك جاءه موظف كان يشرف على شؤون شعبة الكواكب السيارة الصغيرة في المجرة وقدم له التقرير الذي كان قد طلبه، قائلاً:
ـ كل شيء يبدو هادئاً هناك الآن، الحروب الكبيرة نفسها توقفت منذ سنين ولم تعد ثمة سوى حروب صغيرة لا قيمة لها، مثلما كان عليه الأمر دائماً.
رفع الملاك السماوي رأسه، متكئاعلى مقعد مكتبه الأنيق وهو يتفحص الأوراق بين يديه، قبل أن يقول له:
ـ إذا كان كل شيء على ما يرام، فلماذا كل هذا العويل المدمر للأعصاب إذن؟
إنه قادم يا سيدي من بلد ما هناك يطلقون عله اسم العراق.
ـ وماذا جرى هناك في هذا العراق؟
قال الموظف مبرراً:
ـ يبدو أنه أصيب بطريقة ما باللعنة، من الواضح أن الأمر يتعلق بخطأ ما، خطأ في التاريخ.
ـ خطأ في التاريخ؟ أي خطأ؟
اكتشفنا أن الشيطان انتهز فرصة غياب الملائكة عن هذا البلد فكتب له تاريخه على هواه.
تساءل الملاك السماوي مستغرباً:



ـ كيف حدث ذلك؟ إنه أمر لا يكاد يعقل، من أوعز للملائكة بالتخلي عن هذا البلد وتركه فريسة سهلة للشيطان؟ هذا أمر يتعارض تماماً مع منطق الحياة نفسها.

ثم أضاف بعد لحظة تأمل:

ـ حسناً، علينا أن نعيد الآن كل شيء إلى نصابه قبل أن تفلت الأمور من أيدينا نحن أيضاً، ينبغي تغيير القوانين الطبيعية نفسها، إذا ما اقتضى الأمر. لا أريد أن أظل أسمع إلى الأبد هذه الصرخات البريئة اليائسة التي تفطر القلب.

حينما مثل الشيطان الذي كان الملاك السماوي قد أرسل من جاء به إليه من مقصورته في الجحيم الذي اعتاد أن يقضي معظم أوقات فراغه فيه ووقف أمامه مطأطئ الرأس انفجر به، موبخاً إياه على فعلته الشائنة تلك:

ـ ما كان ينبغي لك أيها الشيطان أن تستفرد بالعراق وتقلب تاريخه بالطريقة التي فعلتها. من أعطاك الحق في إنزال اللعنة عليه؟ لقد تجاوزت بعملك هذا كل الحدود المسموحة لك، أليس كذلك؟

لكن الشيطان أنكر التهمة الموجهة إليه بإباء:

ـ لست مسؤولاً عما حدث هناك، فإذا كان ثمة من يتحمل وزر اللعنة التي حلّت بذلك البلد سيئ الحظ فهو الملائكة التي استنكفت حتى من إلقاء نظرة عابرة عليه من عليائها. أنت تعرف أن ثمة من يلقي بذنب كل ما يحدث من مآس في الكون علي وحدي وهذا أمر ليس عادلاً وينقصه الإنصاف.

قاطعه الملاك السماوي مهدئاً إياه:

ـ لا أريدك أن تفقد أعصابك أنت الآخر، لنترك الإتهامات جانباً، فما يهم الآن هو رفع عقوبة اللعنة التي حلّت بذلك البلد، لعنة تاريخه الذي فلت زمامه من يده مثل حصان جامح.



أطرق الشيطان برأسه إلى الأرض، كمن يبحث عن حل:

ـ حسناً، ماذا يمكن لي أن أفعل لأعيد الحصان إلى حظيرته؟

ابتسم الملاك السماوي الذي قرأ أفكاره:

ـ هناك الكثير الذي يمكن لك أن تفعله، أريدك أن تعود ثانية إلى الأرض مع دليلة الملاك لتعيدا كتابة تاريخ ذاك البلد الجريح من جديد بشيء من الرعاية على الأقل، إبدآ الزمان من أوله، أقلبا كل شيء رأساً على عقب حتي تزول عنه اللعنة ويعود بلداً مثل أي بلد آخر فوق ذاك الكوكب، إجعلا سكانه يشعرون مرة أخرى بأنهم بشر حقاً مثل كل البشر الآخرين. إنني لا أطيق الاستثناءات، كما تعلم، ولا أجد ثمة ما يبررها، ها ماذا تقول؟

قال الشيطان موافقاً:

ـ حسناً يا سيدي، سأبذل ما في جهدي لأمهد الطريق أمام دليلة الملاك، هذا هو كل ما يمكن لي أن أعدك به.

رد الملاك:

ـ هذا يكفيني، يمكنك أن تذهب الآن إلى دليلة الملاك "تي تنتظرك منذ ساعات في الصالة لتهبطا سوية فوق الكرة الأرضية، أرجو أن تفلحا في مهمتكما هذه المرة، رافقتكما السلامة!

....

....

هكذا تنتهي هذه القصة القصيرة حتى بدون أن نعرف إن كان الشيطان ودليلة الملاك سيفلحان في تنفيذ المهمة التي أوكلت إليهما أم أنهما سيخفقان في مسعاهما، وهو أمر لا يبدو لي أن شاعرنا الأمير اهتم به كثيراً، فقد ظل دائماً يتحدث عن اللعنة، أو ما كان يسميه لعنة القدر، كما يتحدث المرء عن أكثر الأمور حقيقية في الحياة.

في المرة الأخيرة التي التقيته فيها في بغداد روى لي أن الشرطة



تبحث عن دليلته الملاك بعد أن اكتشف الجواسيس هويتها الحقيقية، متهمينها بتدبير مؤامرة ما من تلك المؤامرات الكثيرة التي كان الجميع يحوكونها ليل نهار. همس في أذني بأنه لم يبقَ أمامه هو الآخر سوى الفرار إلى الخارج للإفلات من المصيدة التي تنتظره، لكونه الرجل الوحيد الذي أحبته في حياتها فوق الأرض.

ثم قال لي كمن يريد أن يطمئن نفسه:

ـ ولكن لا أحد يقدر على دليلة التي ستعرف كيف تفلت من أيديهم. لا أعرف كم سيتوجب عليّ أن أنتظرها في المنفى، لكنني واثق من أنها ستلحق بي إلى هناك أيضاً. أليس كذلك؟

بدا لي أنه يهرف مثل مجنون فقد صوابه. ثم اختفى فلم أعد أسمع به حتى عرفت أنه كان قد خرج بالفعل إلى المنفى هو الآخر في آخر لحظة مع كثيرين غيره غادروا البلاد، ناجياً من الموت الذي كان يترصدهم.

سببت لي رسالته تلك الكثير من القلق. من الواضح أنه لم يرد أن يخبرني بنواياه، مكتفياً بالتلميح فقط، ومع ذلك لم يكن من الصعب عليّ أن أدرك الخطر الذي تضمنته لغته تلك، بدون أن أكونَ قادراً على فعل شيء من أجله سوى الانتظار. بعد شهر أو أكثر من ذلك رن جرس الهاتف ذات ليلة في شقتي. كان المتحدث شخصاً قال إن اسمه الشيطان وإنه يعرفني أنا الآخر أيضاً، مبلغاً إياي بأن الحماقة بلغت بالأمير ورفيقته الملاك حد أن يهبطا متسللين بمظلتيهما من طائرة محلقة فوق الصحراء الغربية وإنه يخشى أن يكونا قد ماتا عطشاً في البادية المقفرة أو افترستهما الذئاب الجائعة وهما في طريقهما إلى بغداد البعيدة، ملقياً باللوم على عاتق دليلة التي قال إنها طالما حرضت الأمير ضده بدعاوى وهمية وأغرته بأنها تعرف الطرق كلها:

ـ كنت قد قررت عدم العودة إلى الأرض ثانية بعد رحيلي الأخير



عنها حتى رأيت من مكمني في الجحيم الخطر المحيق بحياتهما. سوف أذهب أنا الآخر إلى هناك لأرى إن كان في إمكاني مد يد العون لهما، فهما صديقان لي رغم كل شيء.

إنني لا أؤمن بالشيطان بالطبع وما كان يمكن لي أن أصدقه، فربما كان الرجل واحداً من المهرجين الكثيرين الذين يمتلئ بهم الوطن والمنفى على حد سواء، رغم أن شاعرنا الأمير تحدث عنه طويلاً في روايته هذه، وهو ما يمكن أن أعتبره من شطحات خياله التي عرفتها عنه دائماً.

اختفى الأمير حقاً بعد ذلك ولم أعد أسمع أحداً يذكر إسمه أمامي. ولكن سواء أكان الأمير لا يزال حياً أم التهمت جثته الذئاب، وهو ما يصعب عليّ أن أصدقه، فقد وجدت أن من الوفاء له أن أنشر هذه الرواية التي تعرض جزءاً من سيرة حياته العجيبة، سواء أكان هو مؤلفها أم شيطانه المزعوم، (ما الفرق؟) لتتعرفوا على شاعر مجهول لا يكاد أحد يعرف عنه شيئاً، لأحفظ ذكراه من غدر الزمن. فإذا ما قدر له أن يعود في زمن آخر كما زعم في رسالته إليّ فإنه قد يعثر على نسخة مطبوعة من روايته هذه في إحدى المكتبات العامة، فيتذكر، كما أفعل أنا نفسي الآن، كم كانت الحياة الماضية جارحة وقاسية مثل سيف يحمله القدر في يمناه قاطعاً به رؤوس ضحاياه الواحد بعد الآخر. ومع ذلك لا أريد أن أفقد الأمل بقدرته على النجاة هذه المرة أيضاً، مثل كل المرات السابقة، فقد كانت معجزته، إن كانت ثمة معجزة في الأمر، هي أنه ظل رغم الموت كله على قيد الحياة، بادئاً طريقه دائماً من جديد.

أجل، أعرف أنه سيعيش.

الناشر فاضل العزاوي



٢

العاشق الذي مر بالحانة

لا أحد يعرف تماماً من شيّد تلك القلعة الحجرية الهائلة التي تنتصب وسط المدينة ومتى حدث ذلك. فقد كانت موجودة دائماً هناك، قلعة هائلة ترتفع على الضفة اليمنى لنهر خاصة صو الذي يشطر المدينة إلى صوبين، لا يربط بينهما سوى جسر حجري وحيد كان العثمانيون قد بنوه في الحرب العالمية الأولى ليمر عليه جنودهم الذاهبون إلى القفقاس لمحاربة الروس. وما عدا بعض البيوت التركمانية المبنية بالحجر والجص، القائمة على الطريق التي يصعدها المرء قادماً من القورية في طريقه إلى المدينة القديمة أو بالعكس، فإن جميع سكانها تقريباً كانوا من النصارى الكلدانيين الذين تطلق عليهم المدينة اسم «نصارى القلعة» ويعيشون في بيوت متلاصقة مع بعضها داخل أزقة ضيقة تلتوي على نفسها مثل متاهة يصعب الخروج منها. ورغم أن لا شيء كان يحدث في المدينة في تلك الأيام فإن ثمة من كان يفضل أن يسلك طريق السوق الكبير الأطول، حين عودته إلى بيته في الليل من الحانات السرية أو السينمات التي كان العرض الثاني فيها ينتهي متأخراً، بزعم أن ثمة شباناً سلكوا ذلك الطريق في الظلام فاختفوا أياماً أو ربما أسابيع قبل أن يظهروا ثانية وقد جنوا من الحب.

كان أولئك العشاق، وكلهم من التركمان، يجلسون عادة على



الحاجز الحجري الممتد على طول النهر، مولين وجوههم صوب القلعة، ساهين عن العالم كله فلا يفعلون شيئاً سوى الوقوف بين الحين والآخر والإشارة بأكفهم إلى القلعة ضاحكين بألم قبل أن يغنوا بصوت حزين باللغة التركمانية:

عميقاً في أسفل القلعة
ثلاث شجيرات تين
يا ليتني صرت حجراً فيها
ورفيقاً
لكل من يمر بها.

كان يمكن لسر أولئك العشاق أن يظل كامناً في آبار قلوبهم حتى النهاية لولا ذلك القصاب الشاب المجنون ياسين الذي اشترى ذات يوم ربابة من الغجر الذين يقبلون إلى المدينة كل ربيع وراح يعزف بها ليلاً تحت النافذة العالية لبيت أبيض من طابقين في القلعة، مغنياً قصائد حب ما كان أحد قد سمعها من قبل، وهو أمر حيّر الجيران الذين كانوا يعرفون أن لا أحد يسكن في ذلك البيت الذي كان صاحبه يعقوب، وهو مصلح أجهزة كهربائية قد أخذ زوجته جوزفين معه فجأة وهاجر إلى مدينة يُقال لها ديترويت في أمريكا. وعندما اشتكى الجيران الذين صار من الصعب عليهم النوم وجاءت الشرطة لتطرد ياسين العاشق، مانعة إياه من الغناء تحت نافذة حبيبته الغائبة، قال لهم بكل بساطة:

ـ لن أغادر هذا المكان حتى تطل عليّ الجنية.

فرد عليه المفوض الذي كان قد جاء مع شرطيين رافقاه إلى هناك:

ـ ولكن ألا ترى يا ياسين أن لا أحد هنا في البيت؟



ثم راح يطرق الباب بيده ليثبت له خلو الدار من أهلها، لكن ياسين ابتسم وقال له بمكر:

ـ إنها هناك، ولكنها لن تفتح الباب للشرطة بالطبع.

ثم راح يغني بالتركمانية:

ما من عاشق متيم إلا وسيمر يوماً
بهذه الحانة
ليقول مسروراً، كما المنصور:
أنا الحق

عند ذاك لم يجد المفوض بدا من أن يقول لهذا العاشق المخبول:

ـ أنظر، سوف نفتح الباب لترى بنفسك أن جنيتك قد رحلت إلى أمريكا.

ثم أمر الشرطيين اللذين كانا يرافقانه بكسر قفل الباب الذي انفتح على بهو غارق في الظلام، دخلوه حاملين في أيديهم فوانيس زيتية جلبها الجيران من بيوتهم. وإذ فتشوا جميع الغرف والزوايا ولم يعثروا على أحد أمسك المفوض بيد ياسين وقال له:

ـ حسناً، هل اقتنعت أن لا أحد هنا أم تريد أن نأخذك معنا إلى المخفر؟

حينذاك فقط أحنى ياسين رأسه، قائلاً:

ـ أريد أن أذهب إلى البيت لأموت هناك.

في اليوم التالي شيعت محلة «القصابين» جنازة ياسين حتى المقبرة القريبة، وهي جنازة حضرها كل عشاق المدينة المجانين الذين راحوا يبكون كلما وقعت أعينهم على القلعة الشامخة من بعيد حتى سمع السائرون وراء الجنازة أحدهم يصيح قائلاً:

ـ لقد باح ياسين بالسر فمات.



ثم راح يغني وهو يهز رأسه يميناً ويساراً:

من ليس بستانياً
سوف يعطي وروده للغير
فيما البلبل يبكي
وردته التي قطفوها.

انزعج المشيعون من أن يجرؤ أحد ما، حتى إذا كان عاشقاً مجنوناً، على الغناء في جنازة، فراحوا ينادون على المجانين كلهم:

- اللعنة عليكم وعلى الحب الذي قتل ياسين وعلى كل هذه المصائب التي حلّت بنا. لم يكن ينقصنا إلا الغرام. هيا انصرفوا من هنا.

ولما لم يكن للمدينة حينذاك ما تشغل به نفسها سوى رواية القصص تربع الرجال على التخوت المفروشة بالحصران في المقاهي الشعبية، راوين لجلسائهم وهم يحتسون الشاي أغرب الحكايات عن ذلك البيت المهجور في القلعة مثلما تناقلت النساء أخباراً عن حورية قلن عنها إنها تسلب الرجال عقولهم بجمالها الآسر، زاعمات أنها حورية نصرانية نازحة من الجنة إلى كركوك. بل إنهن ادعين أنها توقع الرجال في حبائلها أولاً قبل أن تطردهم من بيتها، حين تجدهم غير جديرين بحبها السماوي. ولأن الكثيرين من السذج صدقوا تلك القصص الغريبة تجنبوا حتى المرور بالبيت سواء في النهار أم في الليل، خشية أن يصيبهم هم أيضاً جنون الحب، ما عدا عادل سليم الأمير الذي كان لا يزال حينذاك في الخامسة عشرة أو السادسة عشرة من عمره، والذي بلغت به الحماقة حد أن يجرب هو الآخر حظه مع تلك الجنية، فقد كان يريد أن يكون شاعراً، وهو أمر اعتقد أنه سيكون صعباً عليه بدون حب كبير يقلب حياته رأساً على عقب. ولما لم يكن قد عثر بعد على فتاة يحبها في مدينته الصغيرة رأى أن يقصد



حورية القلعة لتعلمه فنون الحب التي ما كان يعرفها. وهكذا راح يمر الليلة بعد الأخرى بذلك البيت المغلق المظلم ويقف تحت النافذة منتظراً إياها لتطل عليه برأسها وتقول له:

ـ هيا أصعد يا عادل، لماذا تقف كالأبله منتظراً هكذا في الشارع، مجتذباً أنظار الناس إلينا؟

وأخيراً حدث ما ملأ قلبه رهبة. كان قد قصد السينما كما يفعل غالباً، حيث شاهد فيلماً خيالياً بعنوان «آلة الزمن» مقتبسة من قصة طريفة لإيج جي ويلز الذي يجعل بطله يخترق الزمن فيصل إلى نهايته، فخرج مسكوناً بأغرب الأفكار التي جعلته يمر بالقلعة في طريق عودته في الليل إلى البيت ليلقي نظرة على بيت الجنية العاشقة. ويا للدهشة، لقد رأى النافذة مضاءة هذه المرة، فظل واقفاً تحتها ينتظر أن تنادي عليه الجنية، ثم إذ لم يحدث ذلك ذهب إلى الباب ودفعه بيده فانفتح أمامه. تردد لحظات، ثم فكّر بأنها ربما تعمدت أن تتركه مفتوحاً ليصعد إليها من دون ضجة كبيرة. تحسس في الظلام طريقه إلى السلم الذي كان يضيئه ضوء شاحب في الطابق الأعلى وقلبه ينبض مثل ساعة مصابة بالجنون. ثم سمع صوتاً في إحدى الغرف التي كان بابها موارباً فتسلل على أطراف أصابعه ووقف وراءه يتنصت، محدقاً من شرخ الباب، كاتماً أنفاسه.

ولكن أين هي الجنية؟ لم تكن ثمة جنية، كما تصور، وإنما ثلاث نساء شمطاوات بلحى يجلسن بأسمالهن البالية على بسط كردية مفروشة على الأرض ويلعبن النرد، تحيط بهن قططهن وعلاجيمهن متنادرات فيما بينهن بصوت مخنوق:

ـ أين كنت حتى الآن يا أُخية؟

ـ كنت أقلي بيضة لأوديب، الملك الأعمى في طيبة.

ـ هكذا أنت تضيعين وقتك الثمين في كل ماض لا جدوى منه.



ـ أفنسيت ما قلناه في المرة السابقة؟

ـ وماذا قلنا؟ إنني لا أنسى شيئاً، أنت تعرفين ذلك.

ـ بل أنك تنسين، قلنا أن علينا أن نقرأ في دفاترنا العتيقة أقدار الأزمنة القادمة.

ـ أجل قلنا ذلك.

ـ أما أنا فقد صادفت زوجة لص من تلعفر، سخرت مني، قائلة «انقلعي من وجهي يا عجوز النحس». ولذلك سأركب مكنستي حين ينفض مجلسنا هذا وأجعلها تندم على ما قالته لي.

ـ سأعطيك ما تشائين من الرياح.

ـ يا للمسرة!

ـ لقد سئمت من هذه اللعبة التي لا تنتهي.

ـ لعبتنا لا تنتهي أبداً.

ـ كل شيء إلى زوال.

ـ سوانا، نحن أخوات القدر.

ـ آه، هيا لننجز ما اجتمعنا هنا من أجله. هيا يا قطتي السوداء اجلبي لنا ضحيتنا المنتظرة.

ـ هيا اذهبي يا علجومتي وبلغي شابنا المجنون أن يخرج من مكمنه وإلا سلطت عليه العقارب والنمال.

ـ ليس عندنا وقت نضيعه بعد الآن.

ـ ماذا تقولين؟ ما زال عندنا سبع ليال مضروبة بتسع تسع مرّات. هذا يكفي للوصول إلى أبعد من القطب الجنوبي.

ثم سمع إحداهن تهتف به، مؤشرة بيدها إليه:

ـ لماذا تختبئ يا عادل وراء الباب؟ هيا تعال لنوكل إليك ما ستفعله في حياتك القادمة قبل أن يجرفك طوفان الحب؟



استجمع عادل قواه ودخل الغرفة، قائلاً كمن يمثل دوراً في فيلم:

ـ من أنتن؟ وماذا تبحثن هنا؟ أأحياء أنتن أم أشباح؟ لماذا لا تحلقن لحاكن ليتأكد المرء من أنكن نساء؟ أنطقن! ماذا تردن مني؟

ـ ليس الكثير، ليس الكثير، سلاماً أيها الأمير!

ـ ها نحن جئنا أخيراً لنسلمك كتاب حياتك! كان ينبغي عليك أن تشكرنا بدل الصراخ والزعيق في وجوهنا.

ـ كتاب حياتي؟ ما هذا الذي تقولينه؟ ماذا فيه؟

ـ بعيد عن الوطن وقريب!

نادى عادل عليهن:

ـ ما هذا الهراء أيتها النساء المشعثات الشعر؟ إنكن تشبهن ساحرات ماكبث الممسوخات.

ثم إذ مد يده ليستلم كتابه ويقرأ ما فيه دخلت من النافذة المفتوحة فتاة ملاك ترفرف بجناحيها الأبيضين القصيرين ونادت عليه:

ـ حذار يا عادل أن تمس كتابهن الذي سيفسد عليك متعة حياتك.

ثم توجهت إليهن بالقول:

ـ هيا انصرفن يا عجائز النحس من بيتي! أفلا تعرفن أن القدر انتهى والناموس القديم زال؟

ثم التفتت إليه قائلة:

ـ إنس كل كتاب لم تكتبه بنفسك، لأن كل الكتب صارت عتيقة ومملة.

ردت الساحرات، غير آبهات بقول الفتاة:

ـ لا شيء ينتهي هنا، لا شيء يفلت من قانونه، لكل طريقه التي يسلكها، تذكر ذلك جيداً يا عادل!



بيد أن الفتاة الملاك طمأنته:

ـ لا تقلق يا صغيري، فقد جئت لأدلك بنفسي على الطريق!

ظل عادل حائراً أمام هذا المشهد الغريب الذي بدا له أشبه ما يكون بمسرحية شكسبيرية، مسرحية أسرار صار هو نفسه بطلاً فيها، حتى رأى الساحرة التي كانت تحمل كتابه في يدها تعيده إلى عبها:

ـ حسناً، عليك إذن أن تؤلف كتابك بنفسك بعد الآن، يا للهول!

ثم أخفضت الساحرات رؤوسهن يائسات وامتطين مكانسهن، محلقات من النافذة، غائبات في عتمة الليل.

حينذاك فقط اتجهت الفتاة الملاك إليه وقالت له مبتسمة:

ـ ما الذي جئت تبحث عنه في مثل هذا البيت المهجور يا عادل؟ أفلا تخشى أن تجن كالآخرين على يد ساحرات القدر؟

اضطرب عادل سليم قليلاً، بيد أنه تماسك نفسه وقال لها بجرأة ما امتلكها قط من قبل في حضور امرأة:

ـ لقد جنني حبك الذي تتحدث عنه المدينة كلها. ماذا يهمني الثمن؟

فقالت له ضاحكة:

ـ ولكنك ما زلت صغيراً على الحب يا عادل، لماذا العجلة؟ سيكون أمامك الكثير من الوقت لتجن بي في المستقبل.

تلعثم عادل:

ـ لن أقدر على الحياة بدونك بعد الآن.

ـ إذهب وانتظرني حتى تكبر قليلاً، لا يليق بك أن تمثل هكذا معي دور روميو الولهان. إذهب، لا بأس عليك، أمك تنتظرك في البيت.

ثم انحنت عليه وقبلته من فمه قبل أن تقف على إفريز النافذة، وتحلق مثل فراشة عائدة إلى السماء التي جاءت منها.



حينما هبط عادل ثانية إلى الشارع كان قد نسي ما رآه، مثل حلم ينمسح فجأة من الذاكرة، فلا يترك وراءه سوى بقايا صور لعاطفة يحس بها المرء، لكن بدون أن يعرف مصدرها. وفيما هو يسير، غارقاً في أحلامه، استبد به الطرب فراح يغني بصوت مرتفع في طريق القلعة كما يفعل السكارى العائدون إلى بيوتهم في الليل:

ما من عاشق متيم إلا وسيمر يوماً بهذه الحانة

لكنه حينما انتهى من هذا البيت الشعري الذي ظل يكرره المرة بعد الأخرى، آملاً في أن يسمع صوته كل سكان المدينة ضحك مع نفسه:

ـ لست سكراناً ولم أمر بعد بالحانة.

ثم قال كمن يطمئن نفسه:

ـ ولكن لا بأس، سيكون أمامي ما يكفي من الوقت لأجرع كأسي ذات يوم حتى الثمالة. أعرف ذلك.

ثم اختفى في الظلام.



٣
قطار الليل

في الظلام الشفيف الذي تبدده مصابيح محطة القطار البعيدة الواقعة على حافة شارع العلمين العريض، ذلك الشارع الذي تنتصب على جانبيه أشجار يوكالبتوس سامقة بأغصان متدلية، ممتداً حتى قرية تسعين التركمانية، وتسلكه السيارات الذاهبة إلى بغداد أو القادمة منها، صفر القطار المرة تلو الأخرى، نافثاً دخانه الأسود الكثيف عالياً قبل أن تبدده الريح الواهنة القادمة من جهة الجبال العالية البعيدة، مؤذناً بانطلاقه الوشيك.

كان الرصيف يمتلئ بالصناديق والسلال والحقائب، معوقة حركة المسافرين الذين راحوا يشقون طريقهم بجهد عبر حشد من الحمالين الأكراد وباعة ساندويتشات البيض والفواكه التركمان المتنقلين الذين كانوا يحملونها في زنابيل من القنب، مغرين الناس بأصوات عالية لشرائها لرحلتهم الطويلة:

ـ صمونة بيض بعنبة بعشرة فلوس.

ـ رمان من شهربان وبرتقال من بعقوبة.

وهنا وهناك كان ثمة جنود ورجال شرطة بأسلحتهم ينتشرون، متطلعين في الوجوه، بغطرسة وريبة، كما لو أنهم يبحثون عن مجرمين متخفين. وفي نهاية الرصيف وقف عامل يرتدي بدلة زرقاء، حاملاً



بيده فانوساً باهت الضوء يلوح به في الهواء فيما راح سائق القطار يحدق في ساعته وهو يسرع الخطى في طريقه إلى عربة القيادة، حاثاً آخر المسافرين المتجمهرين فوق الرصيف على الصعود.

ـ ليصعد الجميع رجاء، هذه آخر صافرة!

في تلك اللحظات الأخيرة قبل انطلاق القطار الذي راح ينفث البخار من الجانبين على دفعات مثل وحش خرافي طويل وصل شاب ذو وجه مائل إلى الإستطالة قليلاً بعينين ملتمعتين وذقن لم تحلق منذ أيام، يرتدي سترة رمادية مقلمة بالأبيض وبنطلوناً كحلياً، حاملاً في يده حقيبة جلدية سوداء. ووراءه كان يسير في صف منتظم أربعة شيوخ طاعنين في السن شدوا على أجسامهم ما يشبه الأسمال والخرق فيما راحت لحاهم الطويلة المصبوغة بالحناء والمنحدرة فوق صدورهم تهتز مع كل حركة لرؤوسهم، متكئين على عصي من أغصان الغابات وصعدوا جميعاً على عجل في إحدى عربات الدرجة الثانية بعد أن اجتازوا حشداً من المسافرين الصاخبين الذين كانوا يطلون برؤوسهم من الباب غير المغلقة بعد أو يقفون في الممر الضيق، منادين على بعضهم البعض وسط اللغط والضجيج. جلس الشاب على مقعد إلى اليمين في مواجهة رجل وفتاة كانا قد وصلا لتوهما أيضاً بدون أن يثيرا انتباهه، فيما ألقى الشيوخ بأنفسهم لاهثين على مقعدين متقابلين في الجهة الأخرى في الصف نفسه، وراحوا يلقون من النافذة نظرات متطلعة مشوبة بالحذر والحيطة إلى حركة الناس المتباطئة تدريجياً في الخارج، كما لو أنهم يخشون أن يفتضح أمرهم في آخر لحظة. ورغم أنه لم يكن ثمة ما هو مريب في أمرهم، إذ كان يمكن للمرء أن يلتقي أمثالهم من الدراويش في كل مكان من المدينة فإن منظر الشيوخ الأربعة هكذا دفعة واحدة بدا فكاهياً نوعاً ما، كما لو أنهم كانوا قد خرجوا لتوهم من قالب واحد كإخوة متشابهين في كل شيء. ولكي لا



يجتذبوا المزيد من الأنظار إليهم واصلوا التزام الصمت إلى أن أخذ القطار يجرجر نفسه رويداً رويداً على السكة قبل أن ينطلق في رحلته الطويلة التي سوف تستغرق الليل كله.

ما كادت آخر البيوت الواقعة في ضواحي المدينة تختفي عن الأنظار حتى أخرج الشاب الذي بدا قلقاً هو الآخر، من حقيبته التي كان قد وضعها بين رجليه كتاباً حاول أن يقرأ فيه، لكنه كان من تشتت التفكير، بحيث صعب عليه أن يفهم ما يقرؤه. كانت عيناه تسيران على السطور فيما ثمة أمور أخرى تدور في رأسه. وإذا وجد أن لا جدوى من تعذيب نفسه بالقراءة أغلق الكتاب، داساً بطاقة السفر في الموضع الذي انتهى إليه، ووضعه على المقعد الفارغ جنبه. ثم انتبه إلى الحقيبة تحت رجليه فرفعها وركنها على الرف فوق رأسه، متأملاً في المساء المبكر السهوب التي يقطعها القطار، حيث تتبدى لناظريه بين الحين والآخر بساتين تظللها عتمة المساء، بعيدة مثل علامات منثورة في قفار تمتد على مدى البصر.

لم يكن ذلك الشاب أحداً سوى عادل سليم الأمير الذي شعر وهو يترك مدينته وراءه كمن ينسلخ من حياة بأكملها، لن تستعاد ثانية. لم تكن تلك هي المرة الأولى التي يأخذه فيها القطار إلى العاصمة بغداد، فقد قصدها قبل ذلك مرّات عدة في زيارات لم تكن لتستمر أكثر من أيام قليلة معدودات يرجع بعدها إلى مدينته التي كان يعرف كل شارع وزقاق فيها. أما هذه المرة فكانت تعني له الشيء الكثير الذي يعول عليه. كان عليه أن يبقى في مدينة لا يكاد يعرف أحداً فيها، مدينة بدت له مثل حلم جديد ينبثق من أعماق حياته كلها. وشعر بالخوف بعض الشيء من حلمه هذا، كمغامرة لا يعرف عقباها، بيد أنه كان يعني له في الوقت نفسه فضاء آخر ينفتح أمامه أوسع بكثير من عالم مدينته الضيق. كان ثمة فضول يهزه حتى



الأعماق ليسبق مسرى الأحداث التي لم تقع بعد: أن يتعرف على الأصدقاء الذين كان يعرف أنه سوف يلتقيهم في المستقبل والنساء اللواتي سوف يحبهن أو يحببنه كقدر كان يعرف أنه سيكون جديراً به. وفكر أن ثمة فتاة الآن في مكان ما من العالم لا يعرفها ولا هي تعرفه سوف تكون أقرب الناس إليه ذات يوم. وبدا له الأمر غير عادل بالمرة. سنوات سوف تضيع هباء لأن ما سيقع لم يقع بعد.

كان عادل في طريقه الآن إلى العاصمة ليلتحق بالدراسة في الكلية، بعيداً عن أهله لأول مرة في حياته، حيث سيتوجب عليه أن يقضي هناك أربعة أعوام قبل أن يحصل على الشهادة الجامعية التي لم يكن أحد من أبناء محلته، وهم في معظمهم من التركمان قد حصل عليها قبل ذلك. كان أقصى ما يطمح إليه الناس حينذاك هو أن يحصل أولادهم على شهادة تؤهلهم ليكونوا معلمين في المدارس الابتدائية، حيث يقضون أولاً عاماً أو عامين في الريف ينتقلون بعدها إلى المدينة، ولكن ليس بدون وساطة من المتصرف أو مدير الشرطة أو مدير المعارف نفسه أو أحد الناس المقربين منهم.

لم يكن ذلك في الحقيقة صعباً كثيراً، فقد كان الناس في المدينة يعرفون بعضهم الآخر، ولم يكن المرء ليعدم من يقول له في المقهى أو على دكة الحمام الذي كان يقصده معظم الرجال ليلة الجمعة، وهو يفتل شاربه:

ـ لا تقلق! سوف أكلم مدير المعارف غداً عندما نسكر سوية في حديقة نادي الموظفين، خذها من هذا الشارب!

وكان والد عادل، وهو مهرب أسلحة من إيران وتركيا يعتقد أن القبول في الجامعة في بغداد يتطلب وساطة أشخاص أكثر أهمية حتى من المتصرف نفسه، ولذلك راح يحدث كل من يلتقيه أنه سيقصد رئيس عشيرته ليوسطه للتدخل في قبول ابنه في الكلية في بغداد،



معتقداً أن مثل هذا الشرف الكبير لا يمكن أن يحصل عليه كل من هب ودب، وإنما هو حكر على أبناء علية القوم. ولم يكن رئيس عشيرته التي ينسب نفسه إليها سوى أمير مملكة الحفيظ نفسه. وقد عزم بالفعل أن يقصد شيخه البعيد المزعوم والذي ما كان قد رآه في حياته كلها، لولا احتجاجات ابنه المستمرة والذي قال له بصرامة:

ـ إذا ما فعلت ذلك واتصلت بأي أحد من أمثال شيخك الذي لم يسأل عنا في أي وقت مضى، فإنني لن أترك الكلية فحسب وإنما سأعمل حمالاً لتكف عن التباهي بي.

فكف والده مرغماً عما كان قد انتواه، وراح لا يتحدث عن إرسال ابنه إلى بغداد إلا همساً وبغيابه، مقرراً أن يفعل ذلك عندما سيرفضون بالتأكيد طلبه الدراسة في الكلية، لأنه بدون وساطة. ولكن كم كانت خيبته كبيرة عندما عرف من زوجته قدرية أن ابنهما قد قبل في الكلية، ساخرة هي الأخرى من رئيس عشيرته المزعوم، قائلة له:

ـ لو كان الأمير يفكر في أمثالنا من الفقراء لما اضطررت إلى المتاجرة بالأسلحة المهربة، معرضاً نفسك لخطر القبض عليك من قبل شرطة الحدود. أنت من شجرة مقطوعة، هذه هي الحقيقة.

وكان يرد عليها في كل مرة غاضباً:

ـ الذنب كله يقع على جدي الأكبر حنظل الأبتر، ذلك الأحمق الذي سبب لنا كل هذا البلاء، إذ لولاه لكنا الآن نتمرغ بالنفط!

تذهب الرواية التي كان سليم الأمير قد سمعها من والده أن جده كان قد قتل في مبارزة بالسيف ابن عمه سالم وجعله يتمرغ بدمائه فيما فقد هو ذراعه اليسرى، هارباً إلى الحويجة التي تقع على مقربة من مدينة كركوك لينجو بجلده من الشيخ الذي كان قد أقسم بالطلاق أن يقتله إذا ما عثر عليه، مطلقاً عليه لقب حنظل الأبتر. وقد ظل الشيخ سلطان يبحث عن حنظل الأبتر طويلاً في أطراف مدن البصرة



والناصرية والنجف، بل وحتى في بغداد، بدون أن تخطر في باله فكرة البحث عنه في أطراف مدينة مثل كركوك، مليئة بالأتراك والأكراد القساة الذين ما كانوا يعرفون حتى التحدث باللغة العربية. وإذا ما صدق المرء رواية سليم الأمير عن نسبه المقطوع، بسبب جريمة قتل حدثت في القرن التاسع عشر، فإن حنظل الأبتر لجأ وهو يتوغل عميقاً باتجاه شرق الدولة العثمانية إلى تشكيل عصابة من اللصوص والأفاقين، كانت تقطع طرق القوافل القادمة من الأستانة في طريقها إلى بغداد وتنهبها، بتشجيع من والي سنجق الموصل نفسه، الذي كان يستلم حصته دائماً من الغنائم. وتذهب الرواية إلى حد وصف مقتل حنظل الأبتر في معركة وقعت قرب الخالص مع قافلة من التجار الأفغان في طريقها إلى مدينة مزار شريف الواقعة على حدود تركمانستان، تاركاً لابنه عثمان ثروة طائلة بددها على شراء الجواري الشركسيات واحتساء الخمر مع أصدقاء السوء، وهي الثروة التي كان حنظل الأبتر قد ادخرها ليدفع بها دية القتيل ويعود مع أولاده إلى عشيرته، بعد موت الأمير.

في كل مرة يتحدث فيها والد عادل عن نيته في الذهاب إلى الحفيظ لتوسيط أميرها لقبول ابنه في الكلية، كانت زوجته قدرية تنهره:

ـ أعرف أنك ستورطنا في مشاكل نحن في غنى عنها. ماذا تفعل إذا ما طالبك الشيخ بدفع الدية عن جدك الأبتر أو انبرى أحد من أحفاد القتيل وأطلق النار عليك؟ أنت تعرف أن البدو لا ينسون الأخذ بثأرهم، ولو بعد ألف سنة. ثم من يقول إن أمير الحفيظ قادر على أن يتوسط في العراق؟ إن بيننا وبينهم بحاراً من الدم. هل نسيت كيف أن الملك غازي كان يشتمه كل ليلة من إذاعة قصر الزهور ويهدده بالويل والثبور؟ هل نسيت كيف عينه عبد الكريم قاسم قائمقاماً تابعاً للبصرة



وزحف بجنوده ليحتل إمارته لولا خوفه من الإنكليز الذين هبوا لنجدة الأمير؟ دعنا يا رجل من هذه الأمور التي قد تجلب الوبال علينا!».

لكن سليم الأمير كان يطلق ضحكة مجلجلة:

ـ أنت لا تفهمين شيئاً في السياسة يا امرأة، تتحدثين كببغاء. لقد نسي أمير الحفيظ بالتأكيد كل هذه القصص التي أصبحت قديمة ورئيسنا الآن أقرب صديق إليه. تذكري فقط أن خاله الذي كان يعمل حارساً عند عبد الإله قد قتل الملك غازي نفسه، بعد أن أمره الإنكليز بذلك. هل تعتقدين أن رئيسنا سيرفض طلباً بسيطاً من أمير الحفيظ مثل التوسط لقبول ابننا في الكلية؟ أنت بلهاء حقاً».

انتبه عادل إلى خطى أشخاص يسيرون فوق سطح القطار فابتسم مع نفسه، مفكراً في الجنود الذين كانوا قد ارتقوا سطح القطار واتخذوا أماكن لهم في الهواء الطلق، ليتجنبوا دفع ثمن تذكرة القطار، وهو أمر كان ناظرو المحطات يغضون النظر عنه، لخشيتهم من إثارة غضب أولئك الجنود ضدهم. فقد كانت ثمة تعاليم عسكرية صارمة كجزء من تقاليد الجندرمة القديمة هي أن يدافع الجنود كلهم عن أي جندي قد يختصم مع مدني، بغض النظر إن كان على حق أم لا. ولذلك كان المدنيون يتجنبون عادة الصدام مع الجنود في الشوارع والأماكن العامة، مدركين أن حماقة مثل تلك قد تكلفهم حياتهم، مما جعل الجنود يسرحون ويمرحون على هواهم، معيثين في الأرض فساداً، لا يخشون أحداً سوى أفراد الانضباط العسكري، وهم جنود عمالقة، ريفيون في الأغلب، بإشارات بيضاء على أذرعهم، يحملون العصي في أيديهم ويتنكبون المسدسات الطويلة في أوساطهم وتلتمع عيونهم شزراً بحثاً عن الجنود الفارين أو المخالفين أو المتأخرين في العودة إلى ثكناتهم. فإذا ما قاد الحظ السيء أحداً ما للوقوع بين أيديهم فإنه ما كان ليصل إلى المعتقلات الموجودة في كل الثكنات ألا



وهو بين الحياة والموت. وكان في إمكان هؤلاء أن يوقفوا أي شاب يسير في الشارع ويطلبوا منه إبراز بطاقته الشخصية أو دفتر نفوسه للقبض على الفارين من الجندية. ولذلك روض الناس أنفسهم على تجنبهم، بسبب وساخة ألسنتهم والإهانات التي يلحقونها بالجميع بدون رادع أو خوف من أحد.

عاد الصخب ثانية بعد وجل الانطلاقة إذ شعر المسافرون بالطمأنينة لحصولهم على أماكن لهم. لم يكن القطار مزدحماً كثيراً هذه المرة، إذ ظلّت مقاعد عدة شاغرة في انتظار المسافرين الذين سوف يحتلونها في المحطات الكثيرة التي يتوقف فيها القطار في طريقه إلى بغداد. فقد أخرج أحدهم موقده النفطي وأشعله عند مدخل العربة، واضعاً فوقه القوري وراح يعلن بصوت عال عن شايه السنكين الذي سيكون جاهزا بعد لحظات فيما راح آخر يطوف بساندويتشات البيض بالعنبة والكبة على المسافرين. كان عادل سليم الأمير ساهياً عن كل ما يحيط به، غارقاً في أفكاره التي تتقاذفه يمنة ويسرى، قلقاً بعض الشيء بشأن شيوخه الأربعة الذين وجد نفسه فجأة مسؤولاً عنهم بطريقة ما. لم يكن العطف هو ما يشده إليهم وإنما الشعور بالوحدة. وفكر أن القدر وحده هو الذي قاده إليهم، مطمئناً نفسه: ولكنهم سوف يتدبرون أمورهم، لن يموت المرء جوعاً في مدينة مثل بغداد حتى إذا بدوا غرباء عن زمنهم. يمكنهم أن يلجأوا إلى الحضرة الكيلانية ويعيشوا مع المتصوفة هناك، ليمضوا أيامهم الأخيرة في الزهد والتقرُّب إلى الله أو حتى أن يقصدوا مسجد الحلاج الشهير في الكرخ، مشاركين في حلقات الذكر التي يطعن بها الدراويش أجسادهم الأثيرية بالسيوف والحراب.

لم يكن عادل يعرف الكثير عنهم، فقد رفضوا حتى النهاية أن يبوحوا له بأسرار حياتهم الماضية، زاعمين أنهم قصدوا مغاور الجبال



ليبحثوا عن حقيقة أنفسهم. ثم اعترفوا له بعد لأي بما بدا له غير قابل للتصديق وهو أنهم لم يعودوا يعرفون أنفسهم ولا كيف وصلوا إلى ذلك الجبل:

ـ نذكر أننا كنا في مكان بعيد جداً، مكان تشتعل فيه النيران، حتى جاء من طار بنا إلى هنا، ثم تركنا وحدنا وذهب. أجل كنا في مكان بعيد، لا أحد فيه يسأل عن أحد.

ضحك عادل وقال:

ـ مكان تشتعل فيه النيران؟ ما هذا الذي تقولونه؟ هل طار بكم في طائرة هليكوبتر أم في طبق طائر؟ لا أعتقد أنكم كنتم في الجحيم. ربما كنتم في مكان قريب من حقول نفط بابا كركر المشهورة بنارها الأزلية، لا بدَّ أن يكون الأمر كذلك؟

ـ أنت لا تصدقنا؟ لقد كنا في مكان بعيد. هذا كل ما نذكره.

سأل عادل سليم الأمير، كمن انطلت عليه قصتهم:

ـ ولكن ما اسم ذلك المكان؟ لا بد أنه كان يحمل اسماً.

ـ ربما، ولكننا لم نعد نتذكر ذلك.

ثم كانوا يفقدون فجأة السيطرة على أعصابهم:

ـ لماذا كل هذه الأسئلة؟ هل تحقق معنا؟ لقد نسينا كل شيء. الشيوخ ينسون حتى أسماءهم أحياناً، أليس كذلك؟ اعتبرنا دراويش أو قديسين، ماذا يهمك من أصلنا وفصلنا؟

كانوا يشبهون حقاً الدراويش والقديسين بلحاهم الطويلة المتهدلة وأسمالهم البالية الملتصقة بأجسادهم لولا أنهم كانوا لؤماء قليلاً، يستثارون لأتفه الأسباب أو يصمتون بمكر حين يتعلق الأمر بحياتهم الماضية، وهو أمر جعل عادل سليم الأمير ينسبه إلى الخرف الذي يصيب عادة الشيوخ الذين يفقدون ذاكرتهم:



ـ ما أقسى أن يكون المرء بلا ذاكرة!

كان عادل سليم الأمير قد التقاهم هكذا صدفة في إحدى نزهاته اليومية التي كانت تقوده إلى البراري المليئة بحقول الزهور البرية الملونة في كركوك، قارئاً في الكتب التي يحملها معه أو غارقاً في الخيال، فيما يسير على ضفة نهر خاصة صو الذي كان يهدر في الشتاء بسيوله العارمة ويفيض فيغرق المحلات القريبة منه ويجف في الصيف فلا تظل منه سوى ساقية رفيعة ضحلة يعبرها حتى الأطفال، مخلفاً وراءه جثث كثير من الحيوانات التي يكون قد جرفها معه، والتي تتناثر عظامها على حصى القاع الملتمعة في الشمس الساطعة، جثث غزلان وبنات آوى وذئاب وضباع وأفاع وعظايا فاجأتها السيول المنحدرة من الثلوج الذائبة على المنحدرات الصخرية السود، فغدت وليمة للنسور والعقبان والغربان القادمة من جبال القفقاس العالية.

كان غالباً ما يسير ناسياً نفسه، وهو ما فعله تلك المرة أيضاً حينما بلغ ذلك الجبل البعيد المشرف على قرية شوان الكردية فصعده وجلس على صخرة محدقاً في الغابة الممتدة أسفل الوادي. هناك عثر على أولئك الشيوخ الأربعة الذين كانوا يعيشون في شعب الجبل، داخل مغارات اتخذوها سكناً لهم. نفروا منه في البداية، كما تفعل الحيوانات البرية، واختفوا بين الأشجار، كمن يحاول تجنب اللقاء بالبشر، لكنهم إذ رأوه يأتي اليوم بعد الآخر ويجلس على الصخرة قبالة الوادي، قارئاً في الكتب التي يحملها معه، متجنباً إقلاقهم أو انتهاك العزلة التي فرضوها على أنفسهم اقتربوا منه واحداً بعد الآخر، فرحين بالحديث معه باللغة العربية التي ما كانوا يعرفون غيرها، طارحين عليه أسئلة مثيرة للعجب عن أزمنة ماضية لم تعد موجودة إلا في كتب التاريخ المدرسية. وحينما ألفوه اصطحبوه معهم إلى مغاراتهم التي راح ينام فيها هو الآخر أحياناً، منصتاً في الليالي إلى



عواء بنات آوى والذئاب الخارجة للصيد. بعد حين صار الشيوخ يعتمدون عليه في الحصول على ما يحتاجونه. كان يأتي أحياناً، حاملاً بيده كيساً من السكر أو علبة شاي أو أرغفة من الخبز أو فواكه يقطفها من البساتين الواقعة على طريقه. وفي أحيان أخرى كان يقنعهم بالجلوس سوية على منحدر الجبل ويقرأ عليهم قصائده، طالباً رأيهم فيها، فيهزون رؤوسهم: «هذا شيء جديد علينا. كان الشعر في زمننا شيئاً آخر تماماً».

ثم حانت اللحظة التي كان عليه أن يودعهم فيها. فعندما عرفوا أنه ذاهب إلى بغداد للدراسة وأنهم لن يروه بعد ذلك حزنوا كثيراً وحاولوا أن يثنوه عن نيته:

ـ آه، الدراسة! ما جدوى ذلك كله؟ ستكون في النهاية مجرد موظف يشتغل كحمار من أجل أن يظل على قيد الحياة فحسب! لماذا لا تنضم إلينا وتستمتع بحريتك هنا فوق هذا الجبل، بعيداً عن لؤم البشر وشرورهم؟ ثم إذ وجدوه مصراً على الذهاب إلى بغداد غيروا رأيهم هم أيضاً قائلين:

ـ ربما كان علينا نحن أيضاً أن نعود إلى بغداد بعد كل سنوات العزلة هذه في المغاور، لقد أثرت فينا الحنين إليها، خذنا معك، لا نريد أن نموت هنا وحيدين. هناك سنجد على الأقل من يدفننا حين نموت.

كان ذلك أمراً مفاجئاً لعادل سليم الأمير الذي سألهم:

ـ ولكن ماذا ستفعلون في مدينة مثل بغداد بدون نقود؟ ستموتون من الجوع بالتأكيد.

حينذاك أخرجوا له حفنات من دنانير دفنوها تحت الأرض، جعلته يغرق في الضحك:

ـ هذه نقود قديمة لا قيمة لها الآن، ألغيت منذ زمن بعيد، ولكن



إذا كنتم مصرين حقاً على العودة إلى بغداد فسأدبر لكم أمر بطاقات السفر بالقطار.

ثم أضاف ضاحكاً:

ـ يمكنكم أن تعيدوا لي ثمنها فيما بعد. إننا أصدقاء بعد كل شيء. أليس كذلك؟

انتبه عادل سليم الأمير إلى استكان من الشاي لم يكن قد طلبه يقدمه البائع له، مشيراً إلى أنه من السيد الذي كان يجلس إزاءه مع فتاة شابة تحدق من النافذة في الظلام. عندما رفع عادل رأسه والتقت عيناه عيني الرجل الذي كان في حوالي الثلاثين من عمره ابتسم له الرجل قائلاً:

ـ أرجو ألا أكون قد أزعجتك، فقد فكرت أنك ربما كنت تشعر بالملل مثلي من هذه الرحلة الطويلة. لا بدَّ أنك مسافر مثلنا إلى بغداد وليس إلى مدينة ما في الطريق. إن من الأفضل أن يسلي المرء نفسه بشيء ما حتى ينسى طول الطريق.

ثم سأله، مشيراً إلى الشيوخ الأربعة:

ـ لا أدري إن كان دراويشك يشربون الشاي أيضاً.

رد عادل وهو يلقي نظرة عليهم:

ـ إنهم نائمون وقد يزعجهم ذلك.

ثم أضاف ليقطع الطريق على المزيد من الأسئلة:

ـ إنهم دراويش يعيشون في الجامع الملاصق لبيتنا. تصور أنهم ما كادوا يعرفون بذهابي إلى بغداد للدراسة حتى طلبوا أن آخذهم معي ليزوروا الحضرة الكيلانية. إنهم شيوخ طيبون.

تهللت أسارير الرجل وهو يسمع بأنه ذاهب للدراسة فسارع إلى السؤال:



ـ آه، لا بدَّ أنك ذاهب إلى الكلية؟ ماذا ستدرس؟

ـ الأدب في كلية الآداب.

قال الرجل:

ـ حسناً تفعل، الجميع يتجهون هذه الأيام لدراسة العلوم، ليضمنوا وظائفهم فيما بعد في حين أن لا متعة إلا في الأدب والفن.

ثم التفت إلى الفتاة الجالسة لصقه وقال لها:

ـ انظري، أي مصادفة، إنه واحد من نفس فصيلتنا، نحن الأدباء والفنانين.

ألقت الفتاة نظرة سريعة إليه وقالت بدون إكتراث كبير:

ـ حقاً، لا أكاد أصدق ذلك.

راح الرجل يوضح له أن كل هم البشرية ينحصر هذه الأيام في اللهاث وراء المادة في عالم فقد روحه، وهو أمر سيؤدي إلى هلاكها في النهاية. فإذا كان ثمة إنقاذ ممكن للبشرية فإنه سيأتي عن طريق الأدب والفن قبل أي شيء آخر. ثم أضاف إنه قد اختار لهذا السبب بالذات أن يحول مخزن «الحسناء» الذي كانت تملكه عائلته في شارع الرشيد إلى غاليري لعرض اللوحات الحديثة. صمت قليلاً ليرى تأثير كلامه في الشاب الجالس إزاءه قبل أن يخبره بأن الفتاة التي ترافقه كانت قد أقامت مؤخراً معرضاً للرسم في قاعة المعارف في كركوك نظمه هو بنفسه. فقال له عادل مبتهجاً:

ـ يا إلهي، لا بد أنها دليلة الملاك! لقد شاهدت لوحاتها التي تمزج فيها الشعر بالرسم. إنها رائعة حقاً. لقد نقلتني إلى عوالم لم أشهدها قط من قبل. كنت أود أن أقول لها رأيي حينذاك، لكنها لم تكن موجودة في المعرض.

ـ إنها لا تحضر معارضها حتى تتجنب الأسئلة التي يوجهها إليها الزوار السذج عن معنى لوحاتها وقصائدها، فكما تعرف أن اللوحة لا



تفسر وإنما ترى، وما من معنى للقصيدة سوى نفسها، وهذا ما لا يفهمه الكثيرون، كما يبدو.

توقف الرجل لحظة قبل أن يسأل عادل سليم الأمير:

ـ هل شاهدت المسرحية التي قدمناها في كركوك أيضاً؟

قال عادل:

ـ آه، «هبط الملاك في كركوك»، لقد شاهدتها مرّات عدة وأعجبت جداً بدور دليلة فيها، إنها مسرحية لا تنسى. كانت دليلة ملاكاً حقيقياً وهي تؤدي دورها فيها. يا إلهي، لكم كانت رائعة. لقد أذهلتني فكرة المسرحية: لا خلاص ما دامت اللعنة قائمة، وهي لعنة يعجز الشيطان والملاك معاً من مسحها، لعنة سحرية تظل تفتك بالقلوب حتى النهاية، حيث الزمن يكرر نفسه دائماً داخل متاهة الآلهة: لعنة التاريخ نفسه. إنها مسرحية عن الحب الذي لا يوجد منه سوى القليل في العالم.

ابتسم الرجل:

ـ لقد أصبحت فيلسوفاً كما يبدو. حسناً، لم تقل لي كيف رأيت الشيطان وهو يمثل دوره؟

ـ انبهرت به حقاً حتى إنني صرت أقلده في أحلامي. هل تعرف أنني حصلت على نسخة من خطبته التي يطلقها في وجه الناس، قبل إعلانه مغادرة الأرض إلى كوكب آخر في نهاية المسرحية وحفظتها عن ظهر قلب.

ـ ليس معقولاً، إنها خطبة طويلة جداً.

ابتسم عادل:

هل تريد أن ألقيها عليك الآن؟

ضحك الرجل:

ـ كلا، كلا، إنني أصدقك.



ثم قدم نفسه مبتسماً:

ـ حسناً أنا الشيطان الذي حفظت خطبته عن ظهر قلب. لا تسألني عن اسمي الحقيقي، إذ لم يعد أحد يناديني بغير اسم الشيطان الذي لصق بي حتى باتت دليلة نفسها تعتقد أنني الشيطان حقاً، وهو أمر لا يزعجني على أي حال. المهم أنني حاولت أن أمثل الدور على أفضل ما يرام. لكن يمكن لك أن تناديني بالأستاذ، إذا أردت، فهو أقل اجتذاباً للانتباه، مثلما يفعل معظم الذين يعرفونني.

قال عادل:

ـ معذرة إذا لم أكن قد تعرفت عليك يا أستاذ، فقد ظللت طوال العرض مرتدياً ذلك القناع الغريب.

قال الرجل ضاحكاً:

ـ حقاً، حقاً، كان ذلك ضرورياً لأبدو كالشيطان تماماً.

وجد عادل أن من اللائق أن يقدم هو الآخر نفسه:

ـ إسمي عادل سليم الأمير وأعتبر لقائي بك وبدليلة شرفاً كبيراً لي.

ألقى عليه الأستاذ نظرة طويلة مليئة بالمحبة قبل أن يقول له:

ـ حسناً يا عادل، يسرني التعرُّف عليك حقاً، فإذا ما مررت بشارع الرشيد، وسوف تفعل ذلك كثيراً بالتأكيد، فأرجو أن تسأل عني في «غاليري يوتوبيا للفن الحديث». قل لهم عندي موعد مع الأستاذ وسوف يقودونك إليّ. من الأفضل للمرء أن يكون له معارف من الفنانين والأدباء في مدينة كبيرة مثل بغداد. أعتقد أننا سنكون أصدقاء.

سأل عادل متلهفاً:

ـ وماذا عن فرقتكم التي قدمت المسرحية؟ لا بدَّ أنكم ستقدمون عروضكم في بغداد أيضاً.



ـ إننا نتمرن الآن على عمل جديد سوف نفاجئ به الجميع، ولكن لا تقل ذلك لأحد، إذ أن أجمل ما في الأعمال الفنية والأدبية هو المفاجأة.

لم يكن عادل قد رأى في الحقيقة حتى ذلك الحين سوى بعض المسرحيات التي كان الطلاب يمثلون فيها على مسارحهم المدرسية ويتولى إخراجها في الغالب معلمو درس الشؤون الفنية. وكان هو نفسه قد مثل أيضاً ذات مرة دور قيس بن الملوح في مسرحية كوميدية مقتبسة من مسرحية «مجنون ليلى» لأحمد شوقي أبقى فيها معدها على دور قيس الذي لا ينطق إلا شعراً، لكنه حول كل ما عداه إلى اللهجة العامية العراقية بروح فكاهية ساخرة من العاشق الذي يذوب حباً في ليلى. فعندما يقف قيس مثلاً باكياً أمام خيمة حبيبته ويلقي قصيدته يخرج والدها من طرف منصة المسرح ويسأل:

ـ أين قيس؟

فيرد عليه فتى اصطنع له المخرج لحية وشارباً:

ـ قيس وره، برجله ماكو قندره.

وهكذا ظل الجمهور يضحك طوال أكثر من ساعة على غراميات قيس الذي لم يتمالك نفسه فراح يضحك هو الآخر، متوسداً رمل الصحراء، حتى انتبه أحد المتفرجين إليه وراح يصيح:

ـ أنظروا، قيس يضحك، إنه عاشق مزور.

لذلك حينما أنتشر في كركوك خبر وصول فرقة متجولة تريد أن تقدم مسرحية جديدة في قاعة مسرح المعارف هرع واشترى له بطاقة بمئة فلس وظل طيلة أيام ينتظر بلهفة عرض تلك المسرحية التي أثرت فيه كثيراً حتى أنه راح يقلد شخوصها، مانحاً نفسه هو الآخر دوراً فيها.

كانت مسرحية غريبة، قسم فيها المخرج منصة العرض إلى



طابقين، الطابق الأول موقع بعيد في السماء تشتعل فيه النيران، مع لوحة تحمل اسم «الجحيم»، والطابق الثاني غابة في مكان ما مع لوحة تحمل اسم «الغابة الأرضية». ما تكاد الستارة ترتفع حتى يرى المتفرجون أشباح موتى تمر في خلفية الطابق الأول، فيما يسمع صراخ وعويل وأصوات ضرب بالسياط.

صوت ١: الرحمة، الرحمة.

صوت ٢: نريد فرصة أخرى، أعطونا فرصة أخرى في الحياة لنكفر عن ذنوبنا الماضية.

ثم تنفتح فجأة فجوة في الطابق الأعلى، مع دوي شديد يصحبه انبعاث دخان ملون، تتدلى منه أربعة أشباح بشرية، يصعب تمييز أشكالها، هابطة إلى الغابة.

فكر عادل وهو يلتصق بمقعده في الصالة المعتمة: لا بدَّ أن اللَّه لبى رجاءهم، فمنحهم فرصة العودة ثانية إلى الحياة. سيكون الأمر مثيراً حقاً، لنرى ماذا سيفعل هؤلاء المذنبون هذه المرة، هنا فوق الأرض.

بعد أن رأى عادل المسرحية فكر بأن الاعتراف بالخطأ فضيلة، وهو أمر كان ينبغي على الشيطان أيضاً أن يدركه منذ البداية «هذا ما كان ينبغي عليه أن يفعله حقاً بدل القبول بدور المهرج الذي أسنده اللَّه إليه، إذ من يقدر أن يكسب دعواه ضد قدره المكتوب. إنها لحماقة واضحة حقاً!» هكذا ما كاد الشيطان يعلن عن قراره ذاك حتى توجهت دليلة إلى الجمهور، قائلة:

ـ حسناً، لقد ظللتم حتى اليوم تعلقون آثامكم على مشجب هذا الشيطان البائس. ولكن ها هو الشيطان نفسه قد انتهى، فأي عذر سيبقى لكم بعد الآن في ارتكاب جرائمكم؟

علا صوت ما من مؤخرة العربة بأبوذية مشهورة كان حضيري أبو



عزيز يغنيها في الإذاعة، فصفق العديدون مستحسنين أداء مغنيها الجميل لها. ما لبث أن رد عليها شاب تركماني بواحدة من الخوريات الرباعية التركمانية التي تشتهر بها مدينة كركوك فيما راح بائع الشاي يمر على المسافرين مرة أخرى، يسألهم إن كانوا يريدون المزيد، فطلب عادل سليم بدوره ثلاثة «استكانات» أخرى له ولرفيقي رحلته.

بدت دليلة الملاك وكأنها تغالب النعاس. وإذ التقطت عينا عادل لبرهة قصيرة ومضة عينيها عندما سألها الأستاذ إن كانت تشرب «استكانا» آخر من الشاي حتى شعر برجفة تخض قلبه، جاهد أن يخفيها. كانت تجلس متكئة على مقعدها، يعبث النسيم عبر النافذة نصف المفتوحة بخصلات شعرها الذهبي الذي كان يكشف عن جبين عريض في الضوء الشاحب لأضوية القطار. وإذ استرق نظرة أخرى إليها شعر أنها، وهي داخل ثوبها الأزرق الأنيق بثنياته الكثيرة، تكاد تشبه صورة من صور عصر النهضة الأوروبية لأميرة غارقة في الأحلام.

توقف القطار مرات عدة في محطات المدن الصغيرة التي كان يمر بها، وفي كل مرة كان يتدفق المزيد من المسافرين المتجهين إلى بغداد في الأغلب. وبدت فترات الانتظار الطويلة التي كانت تزيد أحياناً عن الربع ساعة مملة، رغم أن الأستاذ كان من البراعة في الحديث، بحيث أنه أرغم عادل على الإصغاء إليه وجعله يشاركه الكثير من همومه الغريبة عليه. ولأن عادل كان يدخن فقد حدثه عن مضار التبغ، مشيراً إلى أن التدخين يؤثر على الطاقة الجنسية للرجل، مما جعل عادل الذي لم يكن معتاداً على الخوض في مثل هذه المواضيع مع الغرباء يحمر خجلاً، ولكن الرجل غمز له بعينه، وهو يخفض صوته كما لو أنه يتعمد ألا يتناهى صوته إلى الفتاة، قائلاً:

ـ هذا ما يقوله الشيوخ عادة. لا مشكلة عندما يكون المرء شاباً في مثل سنك.



ثم سأله:

ـ كم عمرك؟

ـ تسعة عشر عاماً.

ـ يا إلهي، إنك لم تبلغ حتى العشرين من عمرك. كنت أعتقد أنك أكبر من ذلك.

ثم راح يتحدث بصوت مهموس عن نساء بغداد وغرامياته مع اللواتي يصطادهن في المعارض والمسارح. تظاهر عادل أنه يفهمه، بل وأبدى هو الآخر رأيه في النساء، مؤكداً أن كل ما يحتاجه المرء معهن هو الجرأة، رغم أنه في واقع الحال لم يكن قد كلّم فتاة واحدة في حياته، باستثناء فتيات محلته، من بينهن واحدة بادلته بعض القبلات والإشارات من بعيد، ثم تزوجت من كاتب تسجيل في إحدى المدارس، كان يتأنق في ملابسه، باعتباره موظفاً في الدولة، وتلك العاهرة التي قاده أحد أصدقائه ذات مرة إليها في طرف المدينة وهو لا يزال في السادسة عشرة من عمره فقالت له هازلة عندما خرج من عندها:

ـ إن والدك يتقن الأمر أفضل منك بكثير. كان عليك أن تسأله ليعلمك كيف تضاجع واحدة مثلي.

فارتعب ولم يعد ثانية إليها.

ابتسم الأستاذ:

ـ سوف تلتقي فتيات كثيرات في الكلية ربما لعبن بعواطفك، ولكن كن حذراً معهن ولا تتهالك، فأمامك الكثير من الوقت للاختيار.

هز عادل رأسه متعمداً الجد:

ـ سوف نرى ما يحدث. أنت تعرف أن الحياة مليئة بالمفاجآت.



واكتسبت لهجة الأستاذ نبرة أبوية:

ـ وعلى أي حال فإن الحب أفضل ألف مرة من أن يورط المرء نفسه في السياسة في مثل هذا البلد.

ثم راح يشرح له أنه هو نفسه لا يكن ذرة من المحبة للحكام، فهم مجرد أدوات بيد الأجانب، ولكن الكثير من الشبان يدمرون حياتهم عندما ينتمون إلى الأحزاب الثورية السرية، لأن النتيجة تظل هي نفسها دائماً، يظل الحكم قائماً في حين يدخل الشبان السجون والمعتقلات ويضيع منهم مستقبلهم. ليس الأمر سهلاً في بلد مثل العراق، خاتماً رأيه بالقول: «ما دام ثمة نفط في هذا البلد فإن الأجانب هم الذين سيقررون كل شيء، كن واثقاً من ذلك».

لم تكن مثل هذه النظرة اليائسة جديدة بالنسبة لعادل، فقد سمعها مرّات كثيرة من والده أيضاً، بل إنها كانت موقفاً يكاد يكون شاملاً بين جميع الآباء الذين كانوا قد ابتلوا بأبناء مهووسين بالعمل في الأحزاب السرية المبشرة ليل نهار بفجر انقلابها القادم. لم يكن عادل مولعاً كثيراً بالسياسة التي لم يكن يملك أي تجربة فيها وخشي أن يدلي بأي رأي فيها، ولذلك تعمد توجيه الحديث وجهة أخرى فباح للرجل الذي كان يلعب معه بطريقة ما دور الأب أن الأدب هو ضالته الوحيدة في الحياة، ملمحاً من طرف خفي إلى أنه لا يريد أن يبدد وقته في ما يبعده عن حلم حياته في أن يكون كاتباً معترفاً به. فضحك الرجل:

ـ ستكون إذن طه حسين العراق!

ـ شعر عادل بالحرج:

ـ طه حسين كاتب كبير وأنا ما زلت في بداية حياتي الأدبية.

ثم أضاف ضاحكاً:

ـ يكفيني أن أكون طه حسين كركوك.

قال الأستاذ:



ـ لا تقلل من شأن كركوك، فهنا بالذات بنى آدم وحواء قريتهما الأولى بعد طردهما من الجنة. إنها بداية العالم كله.

قال عادل:

ـ ما كنت أعرف ذلك.

حينذاك روى الأستاذ لعادل قصة مدينته كركوك:

ـ في يوم قائظ من شهر آب قبل ألوف لا تعد من السنين وصل إلى قرية وادي النار التي لم تكن قد بنيت بعد درويش كث اللحية، ينحدر شعر رأسه حتى الكتفين، مرتدياً أسمالاً تلتصق بجلده، تفوح منها رائحة عطنة مدوخة وتغطيها طبقة كثيفة من الغبار المختلط بالعرق. ووراءه كانت تسير امرأة شابة تلف جسدها هي الأخرى بالخرق وقد بدا على وجهها التعب والإنهاك، حاملة على كتفها صرة كبيرة رمت بها على الأرض حالما توقف الدرويش، جافلاً ومحدقاً بدهشة في جدول النار الذي التهب فجأة فوق سطح التراب تحت رجليه وهو يجر عصاه خلفه.

لم تكن الفتاة أقل دهشة من الدرويش سوى أنها لم تجد ما تقوله ولذلك ظلّت واقفة في مكانها تنتظر ما سيقوله الدرويش الذي بدا مأخوذاً بالمعجزة التي شهدتها عيناه. جرح الدرويش الأرض بعصاه ثانية في خط عميق فالتهبت أيضاً أمامه، باعثة رائحة حادة لم يكن قد شمها من قبل. التفت الدرويش إلى المرأة وقال لها بصوت عال: «سنقيم هنا، هذه إشارة من اللّه لنا بالسكن في هذا الوادي». سألت الفتاة وهي لا تزال تحدق فيه مأخوذة، كما لو أنها تنتظر منه تفسيراً أفضل: «ما هذه النار؟ كيف فعلت ذلك؟» رد الدرويش: «لم أفعل شيئاً. يكفي أن يخدش المرء التراب بعصاه حتى تلتهب الأرض وتكركر».

ثم أضاف الأستاذ وهو يحدق في عيني عادل:



ـ ما دمت من كركوك فاقتبس نارها الأزلية وأحملها معك أنى ذهبت أو أقمت. خذها لتشعل بها العالم كله.

قال عادل سليم ساخراً:

لا نية لي في أن أشعل العالم.

رد عليه الأستاذ، ضاحكا:

ـ سيشعلك العالم إذن.

ابتسم عادل:

ـ إن قصتك عن الدرويش القادم إلى كركوك تبدو مثيرة، لكن ما يرويه الناس عنه في المدينة يختلف قليلاً.

سأله الأستاذ:

ـ حسناً أرو قصة درويشك هذا لي!

لم يجد عادل بدا من أن يردد على أسماعه ما كان قد سمعه دائماً في محلته من العجائز، وهي قصة لم يكن متأكداً إن كانت تملك حتى ذرة واحدة من الحقيقة.

ذات يوم وكان ذلك في الخريف قبل ألف عام أو أكثر وصل إلى القرية التي لم تكن تحمل اسماً بعد شاعر غريب، اسمه كركوك، قادماً من بلاد بعيدة، ربما من طاجكستان أو ربما من الصين. ولأنه كان متعباً من السفر جلس على دكة الجامع الوحيد حينذاك ثم أخرج من كيس معه مصنوع من جلد الغزال ناياً وراح يعزف به ألحاناً شجية لم يسمعها أحد من قبل، اجتذبت الناس كلهم إليه، مثلما غنى لهم أشعاراً عن أبطالهم الغابرين.

ورغم أنه لم يكن يتقن شيئاً آخر سوى الشعر والغناء أحبه الجميع، ملبين له كل ما يحتاجه من طعام وملبس. لم يبق معهم سوى شهور قليلة، اختفى بعدها بنفس الطريقة التي كان قد جاء بها. حدث ذلك في عيد الشمس حينما كانت القرية كلها مجتمعة في الميدان،



حيث عزف لهم في البداية لحناً جعلهم يغرقون في الضحك، ثم عزف لحناً آخر جعلهم يبكون، وفي النهاية عزف لهم لحناً جعلهم ينامون. لكنهم حينما استيقظوا بعد ذلك لم يعثروا له على أثر.

أحزن غياب الشاعر كركوك القرية كلها، وظل الجميع يأملون في أن يرق قلبه ويعود إليهم ذات يوم ليغني لهم أغانيه التي ما زال الناس يحفظونها عن ظهر قلب حتى الآن. ولكي لا ينسوا ذكراه أطلقوا اسمه على قريتهم منذ تلك الأزمنة الضاربة في القدم.

ابتسم الأستاذ:

ـ يا لهم من قرويين جهلاء، كان عليهم أن يبحثوا عن نايه بدل انتظار عودته عبثاً!

ـ لكنه ربما كان قد أخذ نايه معه.

قال الأستاذ:

ـ كلا يا عادل، لقد ترك نايه في مكان ما من كركوك. لكنك لم تبحث عنه لتعثر عليه. لقد تركه لك أنت بالذات.

ضحك عادل:

ـ لي أنا بالذات! ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ كنت أعتقد أنها قصة خيالية تماماً، فإذا بك تثير الشك في قلبي. من أين لك أن تعرف إن كان كل ذلك قد حدث فعلاً قبل أكثر من ألف سنة؟

قهقه الأستاذ قبل أن يهمس في أذنه:

ـ لأنني كنت حاضراً حينذاك في عيد الشمس وشهدت كل شيء بنفسي، هل نسيت أنني الشيطان؟

ابتسم عادل لمزحة الأستاذ:

ـ أجل شيطان في مسرحية، ولكنني سأؤمن بك رغم ذلك.

بعد قليل انسحب الأستاذ معتذراً بالرغبة في النوم بعض الشيء،



مدعياً أن ثمة عملاً كثيراً ينتظره في اليوم التالي، فتسلق رف الحقائب فوق مقعده وحشر نفسه بين الأعمدة المعدنية، متخذاً من سترته وسادة وضعها تحت رأسه. لم تكد تمر دقائق قليلة على ذلك حتى غرق في النوم وارتفع شخيره الذي أثار انتباه الفتاة التي كانت غافية هي الأخرى، فاعتدلت في جلستها، ملقية نظرة على عادل الذي ابتسم لها فابتسمت له هي الأخرى، كما لو أنها تريد أن تقول له: «هكذا هم الرجال، أو بعضهم على الأقل، يشخرون كما يحلو لهم». ثم أغمضت عينيها ثانية، متظاهرة بالنوم.

اجتاز القطار قرى ومدناً صغيرة كثيرة غارقة في الظلام، متوقفاً بين الحين والآخر، بدون أن يصعد فيه أحد، ثم مصفراً قبل الانطلاق ثانية في رحلته التي بدت لعادل مثل رحلة لا نهاية لها، ففكر ألا يستقل هذا القطار مرة أخرى، وهو وعد ما وفى به، رغم أنه كان يشعر بالمرض دائماً في نهاية الرحلة. إنه في الحقيقة لم يصعد في هذا القطار رغبة في متعة رحلته الطويلة وإنما لأنه لم تكن ثمة وسائط نقل غير سيارات الأجرة الصغيرة التي كانت تتقاضى مبلغاً أكبر وتظل تنتظر مسافرين قد لا يأتون أبداً. أما القطار فكان يضمن وصول مسافريه في الصباح التالي إلى بغداد، ولكن بعد أن تكون عظامهم قد تضعضعت من رجرجته اللانهائية وزعيق صفارته المدوخ ودخانه الكثيف الذي ترده الريح إلى الوراء فيتسرب من النوافذ إلى داخل العربات. وبعد كل محطة كان قاطع التذاكر، مصحوباً بشرطيين يتنكبان مسدسيهما، يمر على العربات كلها ويدقق النظر في التذاكر، آملاً الإمساك بالمخالفين الذين ينتهون إلى الإعتقال ما لم يدفعوا ثمن التذكرة والغرامة معاً في اللحظة ذاتها.

كان معظم مسافري العربة قد خلدوا إلى الراحة ولم يعد يسمع سوى الصوت المتكرر الرتيب لعجلات القطار فوق السكة وشخير



النائمين على الرفوف أو فوق مقاعدهم الخشبية الصلدة، لا تقطعهما سوى وقفات القطار في محطات الطريق، حيث يصعد باعة طعام أو فواكه جدد يعرضون بصوت واهن بضائعهم على المسافرين الساهين عنهم بسبب التعب أو النعاس فيهبطون من العربة، منتقلين بسرعة إلى عربة أخرى، ربما وجدوا فيها حظاً أوفر.

إتكأ عادل على زاوية مقعده، مطيلاً النظر في الفتاة التي كانت تتكئ هي الأخرى على مقعدها، مغمضة عينيها. كانت قد ألقت شالاً أحمر فوق صدرها، وخلفها الليل الداكن الذي يملأ سماء النافذة، لا يبين منها سوى وجهها الملائكي الطافح بالنور. وقدر عادل أنها ربما كانت في العشرين من عمرها، شاعراً بنشوة غامرة في أن تكون مثل هذه الفتاة رسامة وشاعرة وممثلة كبيرة. إنها أفضل حتى من نازك الملائكة. وانتقل به الخيال إلى فكرة أن يوطد صلته بها. ولكن كل ذلك بدا له أمراً يشبه الخيال، فقد تنساه حالما تهبط القطار، لكنه قال لنفسه مشجعاً: إن على المرء أن يرمي بشباكه في النهر وينتظر صيده. لكنه خجل من نفسه بعض الشيء: لا ينبغي لي أن أكون متآمراً في سلوكي مع الآخرين. لا بد أنها تعرف شباناً كثيرين وربما كان لها صديق أيضاً. من يدري؟ كلا، لا ينبغي لي أن أسيء الظن بمثل هذه الفتاة التي تشبه ملاكاً هابطاً من السماء. ولجأ إلى طريقة كان قد تعلمها في طفولته، وهي أن يوحي إلى شخص ما من بعيد، ليفكر في ما يأمره به، بتركيز النظر فيه، وهي طريقة كانت تبوء بالفشل دائماً. ومع ذلك ظل يمارسها كلعبة عندما يستبد به الضجر. ركّز نظراته هذه المرة في وجهها وراح يردد في رأسه: «هيا انهضي يا دليلة الملاك! هيا، فكري بي، إنك لن تستطيعي المقاومة. هيا افتحي عينيك وانهضي. إنني أنتظرك!».

رأى عادل دليلة تتململ في مكانها ثم تفتح عينيها اللتين التقت



نظراتهما بنظرات عينيه، فابتسمت له، مخرجة من حقيبتها اليدوية كيساً ورقياً وقالت له:

ـ لا بدَّ أنك قد جعت مثلي.

ثم مدت يدها وقدمت له ساندويتشة بيض فيما احتفظت بساندويتشتها داخل الكيس.

قال عادل مضطرباً، وهو يشير بيده إلى الرجل النائم على الرف:

ـ ألا توقظين الأستاذ ليأكل هو الآخر؟

ردت دليلة بتلقائية:

ـ ليأخذه الشيطان، أرجو ألا يكون قد سمم أفكارك بقصصه، كما يفعل مع الجميع. كلا، دعه ينم، إذ لا شيء أحب إلى نفسه من الكسل. سوف يأكل حصته عندما يستيقظ.

استغرب عادل من الطريقة التي تكلمت بها دليلة عن الأستاذ:

ـ اعتقدت أنه أحد أقاربك.

ضحكت دليلة:

ـ آه، كلا، كلا، إنه الشيطان وأنا الملاك. هذه هي كل العلاقة التي تربط بيننا. إننا نعمل في فرقة فنية واحدة كما تعرف.

قالت ذلك وهي تحدق فيه مبتسمة، فيما كان هو يمضغ ساندويتشته، كما لو أنها تراقب طفلاً، مما جعله يشعر بالاضطراب، ولم يعد يعرف ما يقوله وجاهد ليخفي دقات قلبه المتسارعة. كان قد نسي حتى فكرته في الإيحاء المركز الذي استخدمه وعما إذا كانت قد سمعت نداءه لها أم أنها فعلت ذلك من تلقاء نفسها. وإذ لاحظت الفتاة اضطرابه سألته إن كان يهتم بالأدب حقاً. فاعترف لها بشيء من الخجل أنه يريد أن يكون كاتباً وأن الأدب يشغل حياته كلها.

قالت الفتاة:



ـ لكي يكون المرء كاتباً يحتاج إلى ما هو أكثر من الدراسة في الكليات.

ـ كان عليّ أن أدرس في فرع ما، وهذا هو كل ما في الأمر.

ـ ليس هذا سيئاً. لقد أردت أن أقول لك إن الفن الحقيقي هو ما لا يمكن لأحد أن يعلمنا إياه.

ثم أغمضت الفتاة عينيها، قائلة:

ـ أشعر أني متعبة قليلاً، لذلك سأتركك الآن مع أحلامك. سيكون أمامنا الكثير من الوقت لنتحدث في الأدب والفن فيما بعد. لن تضيع مني بالتأكيد.

بدا عادل مأخوذاً بالأمر كله، فلم يجد ما يقوله لها سوى كلمة واحدة خرجت من فمه عفو الخاطر:

ـ شكراً.

ظل عادل مسحوراً في مكانه يخشى أن يلتفت فتلتقي عيناه عينيها ثانية، ولذلك راح يطيل النظر من النافذة إلى الظلام في الخارج، غائباً عما يدور حوله، غارقاً في أفكاره المشتتة التي كانت تتقاذفه كنهر هائج الأمواج. بدا له أنه يعرف هذه الفتاة من زمن بعيد وأنها المرأة التي ظل يحلم بها طوال حياته. ثم تدارك نفسه قائلاً: «ولكنها فتاة من عالم آخر. ماذا يمكن أن تفعل مع كائن مثلي، لم يبدأ حياته بعد؟» وشعر بتأنيب ضمير: «إنني أخون بمشاعري هذه ثقة الآخرين بي». ثم رد على نفسه: «كل هذا هراء، إن من حقها أن تفعل ما يحلو لها بحياتها». وصمم أن يسعى للوصول إليها، رغم شعوره بأن ذلك قد يكون ضرباً من الخيال. ثم قال لنفسه: «يكفيني أن أجلس معها وأن أنصت إليها وهي تتحدث إليّ».

عندما فتح عينيه كان ضوء الفجر يغمر القطار الذي كان لا يزال يهدر، مندفعاً إلى الأمام، عابراً سهوباً حمراء اللون محروقة



بالشمس، فاعتدل في مكانه وعرف أنه كان قد غفا بعض الشيء. نظر إلى ساعته فوجد أنها السادسة. ففكر أنه لم يبقَ من السفرة سوى ساعة واحدة وأن الوقت قد مرّ هذه المرة سريعاً. كان الأستاذ قد هبط من مهجعه العالي وراح يتمطى في مكانه، فيما راحت دليلة تمشط شعرها القصير وتضع الحمرة على شفتيها. سار القطار على سدة عالية تناثرت على جانبيها الأكواخ والصرائف وبيوت الطين فشم عادل روائح روث الأبقار والجواميس التي بدت له أكثر عدداً من الناس أنفسهم، وكلهم ريفيون مهاجرون من الأهوار أو من مدن الجنوب الأخرى، ظلوا يعيشون في المدينة بنفس الطريقة التي كانوا يعيشون بها في الريف. وانتبه إلى شعارات ثورية سياسية لأحزاب سرية، مكتوبة بصبغ أحمر باهت بفعل الزمن على الجدران فاستغرب أن يرى الناس يمرون بها حتى بدون أن تستلفت انتباههم أو أن تجعل أحداً من رجال الشرطة يهرع لإزالتها. وفكر أن بغداد تختلف عن مدينته الصغيرة كركوك، إذ يبدو أن الأمور هنا هي غير الأمور هناك.

وأخيراً إذ بلغ القطار المحطة الأخيرة التي كانت تقع عند مدخل الوزيرية وراء منطقة باب المعظم، نهض عادل وودع الأستاذ ودليلة بحرارة، قبل أن يهبط، غائباً في الزحام، يتبعه شيوخه الأربعة.



٤

بغداد مدينة المفاجآت

عندما وصل عادل إلى فندق «الشمال الكبير» الواقع في نهاية شارع الأمين والذي كان والده يعرف صاحبه عثمان آغا، وهو كردي من السليمانية كان يملك فيما مضى مصبغة في السوق الكبير في كركوك، ودعه الشيوخ الأربعة، زاعمين أنهم سيقيمون عند أقارب لهم في محلة الفضل وأنهم وقد عرفوا عنوانه الآن سوف يزورونه بعد تدبير أمور حياتهم. لكنه عندما رفض أن يتركهم وحدهم في مدينة مثل بغداد، ملحاً على مرافقتهم على الأقل في البحث عن أقاربهم، داعبوه قائلين:

ـ ماذا تقول أيها الشاب؟ إننا نعرف بغداد أفضل منك بألف مرة أم أنك تعتقد أننا شيوخ خرفون ولا نصلح لشيء. لا تخش يا ولد، لن نضيع هنا، سوف تسمع عنا الكثير بالتأكيد!

حينذاك فقط ودعهم وفي قلبه تضطرم مشاعر القلق على مصيرهم.

بعد ذلك وطوال أيام ظل عادل يتنقل سائراً على قدميه في أغلب الأحيان ليكمل ما طلبته الكلية منه: معاملات القبول والفحوص الطبية التي أرهقته تماماً وهو يراجع دوائر ما كان يعرف حتى أين تقع. ثم جاءت الصدمة عندما أبلغه المسجل حين راجعه بأن عليه أن يقدم



كفالة بمبلغ خمسمئة دينار، وهو أمر ما كان يحق أن يفعله سوى موظف كبير في الدولة أو تاجر مسجل في غرفة التجارة، حتى يتم قبوله في القسم الداخلي الذي كان يوفر السكن والطعام مجاناً للمقبولين فيه. لم يكن أحد قد نبهه قبل ذلك إلى هذا الأمر الذي كان يعرف أنه سيثير الرعب في قلب أي شخص قد يطلب منه فعل ذلك. وكان متأكداً أنه لو عرضه على والده لاتخذه ذريعة لكي يقصد رئيس عشيرته المزعوم للمطالبة بحصته من النفط الذي اكتشفه الإنكليز في أرض آبائه وأجداده.

ـ هناك مئات من آبار النفط التي تقع في أرضنا. ومن حقي أن أحصل على عشر آبار على الأقل.

كان والده سليم يردد عندما تضيق بوجهه الدنيا، فترد عليه زوجته قدرية مشاكسة:

ـ لا تكن طماعاً كثيراً، بئر واحدة تكفي لندفع إيجار البيت ونشتري ملابس جديدة للأولاد.

حينذاك كان يزداد غضباً:

ـ أنت لا تعرفين سوى الفقر، لقد عشت طوال حياتك في الفقر. لن أقبل واللّه بأقل من عشر آبار نفط. لن يستطيع الأمير أن ينكر حقي، وإذا كنا فقراء فالذنب يقع عليّ لأني لم أقصده حتى اليوم. الدم لن يتنكر للدم، أنت تعرفين ذلك.

وحتى يتجنب عادل دفع والده إلى سلوك مثل هذا الطريق الذي كان يبدو له مشيناً قرر أن يتدبر أموره حتى يعثر بنفسه على من يمكن أن يكفله.

ـ لن تطير الكلية مني. يمكنها أن تنتظر قليلاً.

لم يكن ما يدفعه عادل سليم الأمير للفندق عن كل ليلة يقضيها فيه ليزيد عن الربع دينار، وهو مبلغ ما كان يمكن به الحصول على



فندق أفضل، فقد كان نظيفاً وحديث البناء، فضلاً عن أن كل نزلائه تقريباً كانوا من الأكراد والتركمان والآشوريين القادمين من مدن الشمال، وهم أناس يختلفون في طباعهم كثيراً عن أولئك الذين يأتون من المدن العربية في الوسط والجنوب، مما خفف من شعوره بالابتعاد عن مدينته، رغم أنه نادراً ما كان يختلط بهم. ومع ذلك وجد صعوبة في مواصلة العيش في فندق، حيث كان عليه أن يقتسم دائماً الغرفة التي وضع فيها مع اثنين أو ثلاثة من النزلاء العابرين الذين كانوا يتغيرون باستمرار. وأسوأ ما في الأمر هو أن الفضول كان يدفع ببعضهم إلى أن يطرح عليه أسئلة تكسر حدود العزلة التي يريدها لنفسه. ما أزعجه في الحقيقة حتى أكثر من ذلك كله هو أنه لم يكن قادراً على الإنفاق على نفسه بتلك الطريقة فترة طويلة من الزمن، رغم أنه جهد في أن يقتصد في نفقاته كثيراً. ومع ذلك راح يسلي نفسه بكتابة رسائل خيالية إلى والده، واصفاً فيها النعيم الذي يرفل فيه في القسم الداخلي والأكلات الطيبة الدسمة التي يقدمها مطعمه، متشكياً من أمر واحد فقط، هو منع زيارة الأهل لأولادهم، خشية أن يفكر ذات يوم بزيارته على حين غرة ويكتشف حقيقة الأمر.

لكن والده بدل أن يزوره أو أن يقصد أمير مملكة الحفيظ للحصول منه على حقه الضائع أرسل له مسدسين مع سائق سيارة أرمني اسمه اسطيفان كان يسكن قريباً من بيتهم داخل كيس كبير من الكليجة التي أعدتها له أمه قدرية، مع رسالة توصية كتبها له موظّف في دائرة الطابو كان يسكر معه أحياناً، بأن يبيعهما للطلاب أو لأساتذته في الكلية ويحتفظ بالمال لنفسه، واعداً بتزويده بالمزيد من المسدسات والبنادق إذا ما وجد السوق رائجة في مدينة كبيرة مثل بغداد. ارتعب عادل عندما مد يده داخل الكيس في غرفته في الفندق، واكتشف المسدسين اللذين كانا موضوعين في غلافيهما، مع كومة من



الذخيرة، فراح يشتم والده المجنون الذي لا يفكر في أن العثور على مثل هذا السلاح المهرب معه سوف يؤدي به إلى السجن أو الى طرده على الأقل من الكلية. ولأنه كان يخشى أن يترك المسدسين في غرفته المفتوحة دائماً في الفندق فإنه لفهما بأحد قمصانه ودسهما داخل حقيبته اليدوية بعد أن غطاهما بالكتب وخرج قاصداً صديقه القديم أحمد الذي كان يعيش مع والده شاكر الطيار في البتاويين، وهو رجل يبيع البلابل في سوق الطيور المعروف باسم سوق الغزل. لم يكن دكان شاكر الطيار الذي زاره عادل في اليوم الثاني من وصوله إلى بغداد في واقع الحال سوى حفرة رطبة، معتمة غائرة في جدار تتدلى منه أقفاص مشدودة بالأسلاك والخيوط، تجثم داخلها طيور سجينة صاخبة تسمع زقزقتها المدوخة التي لا تكاد تنقطع من بعيد، مختلطة بضجة الباعة والزبائن، كمقطع من زمن خرافي مضى: صقور واجمة مشدودة الأرجل، تقف فوق غصون أشجار، غرست في أوعية من الإسمنت، ببغاوات ملوية الأعناق تحدق بعيونها الجانبية الملتمعة في سابلة من رجال يرتدون الجراويات ونساء ملفوفات بعباءاتهن السوداء. كان الزبائن يقفون هنا أو هناك، مشيرين بأصابعهم إلى طائر ما، سائلين البائع عن سعره. لم تكن جميع الطيور أصيلة أو كما تبدو للمرء للوهلة الأولى، إذ أن معظمها كان طيورا مزورة، يجلبها الفلاحون عادة من شمال العراق أو من منطقة الأهوار في الجنوب، فتلطخ أجنحتها بالأصباغ وتُباع بأسعار مرتفعة للزبائن المغفلين كطيور نادرة وأحياناً كببغاوات مستوردة من غابات البرازيل البدائية أو كبلابل مغنية مجلوبة من جبل لبنان، لا ينقصها سوى حبات من التين، لتعزف ألحانها الملائكية.

كان أحمد واحداً من أصدقاء طفولته القليلين الذين لم تنقطع صلته بهم بعد أن اختلفت بهما طُرق الحياة. ترك المدرسة في فترة



مبكرة، مفضلاً عليها التدريب عند مصلح سيارات تركماني في القورية، حيث غالباً ما كان يرى في المحلة، وهو يرتدي سروالاً ملطخاً ببقع الزيت ويقود واحدة من السيارات التي كان قد صلحها قبل ذلك بنفسه في الورشة التي يعمل فيها. كان يأتي أحياناً، وخاصة في الأعياد، ليأخذ عادل معه في نزهة بالسيارة إلى منطقة بيوت شركة النفط في عرفة ليغازلا الفتيات الآشوريات اللواتي كن يرتدين الشورت ويعرضن مفاتنهن بكرم، وأحياناً حتى قرية قره عنجير المشهورة بتينها الأسود. كانت أم أحمد قد ماتت وهو لا يزال صغيراً، ولذلك عندما تزوج والده ثانية امرأة من بغداد، اضطر هو الآخر إلى أن يتبعهما، بدون صعوبة كبيرة في العثور على ورشة تصليح سيارات يعمل فيها، فقد كان ماهراً في عمله الذي يجد فيه متعاة كبيرة. كان يلتقي عادل في كل مرة يذهب فيها إلى مدينته الأولى، ولذلك ما كاد يعرف بوصول صديقه إلى بغداد حتى اصطحبه أكثر من مرة إلى الشرب معه في حانات شارع أبي نواس، بل إنه أقام له ذات مرة دعوة استثنائية في إحدى غرف الورشة، منفقاً خمسة دنانير على عاهرة اسمها عواطف قضت الليل معهما.

لم يكن أحمد في البيت، لكن والده شاكر الطيار استقبله ودعاه إلى العشاء، سائلاً إياه عن أحوال والده الذي كثيراً ما كان يلعب معه الطاولي أو الدومينو في مقهى القيصرية في كركوك وعن أمه وأخبار أبناء المحلة واحداً واحداً، راوياً النكت عن شاب تركماني أعور اسمه قادر، كان يعرفه عادل أيضاً، أحب ذات مرة جرة ماء، على ستارة حائط، فظل يعتقد فترة طويلة أنها فتاة مغرمة به، إذ كلما مر بالبيت وجدها تنتظره.

لم يجد عادل بأساً في أن يبلغه بالورطة التي أوقعه والده فيها إذ أرسل له مسدسين لا يعرف ماذا يفعل بهما، فهو لم يأتِ إلى بغداد



للمتاجرة بالأسلحة في السوق السوداء وإنما ليدرس، متشكياً له من أن والده قد يدمر حياته بحماقاته التي لا تنقطع.

أطلق شاكر الطيار ضحكة طويلة وقال له:

ـ هكذا أنتم شبان هذه الأيام تريدون حكم البلد وترتعبون من رؤية مسدس.

ثم أشار له، ماداً يده له:

ـ أين هما؟ دعني ألق نظرة عليهما.

أخرج عادل المسدسين من حقيبته ووضعهما بحذر على الأرض، وهو يحتسي جرعة من الشاي الذي كانت قد أعدته لهما زوجة شاكر الطيار البغدادية وجلست تتنصت إليهما وهما يتحدثان باللغة التركمانية التي ما كانت تعرفها.

قال شاكر الطيار وهو يقلب المسدسين في يده:

ـ يا لهما من مسدسين رائعين. صناعة بلجيكية. إن والدك يعرف حقاً كيف يختار أسلحته.

ـ لا أريدهما، يمكنك أن تأخذهما لنفسك إذا أردت. كنت أفكر في طريقة أتخلص بها منهما، فإذا كانا قد أعجباك فخذهما. إنهما لك.

حدق شاكر الطيار ملياً فيه قبل أن يقول:

ـ عليك أن تتعلم الحياة يا بني. لا شيء بلا مخاطرة. بدون ذلك سوف تهلك في النهاية، حسناً دع المسدسين عندي وسوف أرى ما يمكن أن أفعله بهما.

ثم راح يترجم لزوجته حديثهما إلى اللغة العربية، فاعتذر عادل لها عن عادة أهل كركوك السيئة، إذ كلما التقى اثنان منهما تحدثا بالتركمانية أو الكردية أو الآشورية حتى إذا كانا بين عشرة من العرب.



ضحكت شكرية، مؤكدة، أنها صارت تفهم ما تسمعه باللغة التركمانية ولا يزعجها الأمر قط.

لكن عادل أصر هذه المرة على أن يتحدث بالعربية وحدها، رغم المجهود الذي كان يبذله شارك الطيار في الحديث بها.

كان على وشك الاستئذان بالخروج والعودة إلى فندقه بعد أن تخلص من المسدسين عندما وصل أحمد إلى البيت بملابس عمله المتسخة بالزيت فأصر على بقائه حتى يغتسل ويرتدي ملابس أخرى ليخرجا سوية. وهكذا قاده إلى حانة نصف مظلمة في شارع الرشيد، معظم زبائنها من الحمالين والحوذيين وعمال البناء فاحتسى كل منهما ربع قنينة عرق زحلاوي مع اللبلبي والفستق قبل أن يتجها إلى ملهى الصفاء الذي أصر أحمد على أن يقضيا ليلتهما فيه، إذ لا شيء ينتظرهما في اليوم التالي الذي كان يوم جمعة.

في تلك الليلة اكتشف عادل سليم الأمير أن أحمد قد تعلم الكثير في الأعوام التي قضاها في بغداد، إذ راح يحدثه في السياسة، وهو أمر ما كان يخطر في باله في كركوك، شاتماً الحكومة بأقذع الكلمات وواصفاً السياسيين الحاكمين بأنهم ليسوا سوى حفنة من العملاء اللصوص. فقد قال له، وهو يحتسي رشفة من كأسه في الحانة:

ـ بلهاء، لا يعرفون أن الثورة قادمة وأنهم سوف يدفعون الثمن غالياً.

ضحك عادل وقال له:

ـ يا إلهي، لقد حولتك بغداد إلى ثوري خطير.

فاعترف له أحمد بأن العديد من العاملين معه في الورشة، فضلاً عن سائقي السيارات الذين يأتون إليهم، يحملون مثل هذه الأفكار وأن الكثيرين هنا منتمون إلى حركات سرية تعمل ضد الدولة، منوهاً له بأنه على صداقة مع العديدين منهم.



أما عادل فقد باح له بما كان يختلج في صدره من عواطف تجعله يتقلب في فراشه كل ليلة، عاجزاً عن النوم:

ـ أنت لا تعرف يا أحمد من هي دليلة. إنها تكاد تكون ملاكاً في جسد امرأة.

وسأله أحمد:

ـ حسناً، هل أخبرتها بحبك لها؟

ارتعب من الفكرة:

ـ هل أنا مجنون لأفعل ذلك؟ إنني لا أكاد أعرفها.

ضحك أحمد، قائلاً:

ـ دعنا من الحب يا عادل، المهم أن تبطحها على ظهرها وسوف تعلق بك إلى الأبد. يمكنك أن تجلبها إلى غرفتنا الخلفية في الورشة متى ما أردت.

انزعج عادل من حديث صديقه عنها بهذه الطريقة الفجة فقال له:

ـ إنها ليست من نمط النساء الذي تتحدث عنه. إنها رسامة وشاعرة وممثلة كبيرة.

خفف أحمد قليلاً من لهجته حتى لا يجرح مشاعر صديقه، قائلاً:

ـ ولماذا كل هذا العذاب إذا كنت تعتقد أنك لن تحصل عليها؟ ألم تجد إلا هذه الفتاة الغريبة لتحبها؟ يمكنك أن تحب وأن تشتهي حتى ملكة بريطانيا، ولكن هذا كما يُقال في الأمثال حصرم رأيته في حلب. وعلى أي حال فإنني لم أحب أي فتاة حتى الآن. كل ما في الأمر هو أنني أرغب في النساء واشتهيهن. ولكنني لا أفعل ذلك إلا مع اللواتي أعرف أن الوصول إليهن ليس صعباً. إنني واقعي كما ترى.

قال عادل معترضاً:



ـ كيف يمكن للمرء أن يكون واقعياً في الحب؟ إننا نجد أنفسنا فجأة غارقين فيه حتى آذاننا فنستسلم له بدون تفكير أو معارضة.

ضحك أحمد، قائلاً:

ـ أحمد اللّه على أنني لا أفكر مثلك. نحن العمال نسمي الأشياء بأسمائها ونستمتع بها.

وألقى نظرة على الأرتيستات اللواتي كن يجلسن الى المناضد الخلفية منفردات أو مع زبائن، كان بعضهم يلف نفسه بعباءة من الحرير أو من وبر الإبل ويضع العقال على رأسه:

ـ لننظر إن كنا نستطيع اصطياد واحدة منهن.

نهره عادل:

ـ هل تريد منافسة شيوخ العشائر؟ دعنا من ذلك يا أحمد! إن جلوس أي واحدة منهن معنا سوف يكلفنا ثروة. إنهن لا يحتسين سوى الويسكي.

ـ أي ويسكي؟ يقدمون لهن عصيراً يشبه الويسكي حتى لا يسكرن، المهم هو سلب هؤلاء الشيوخ الأغبياء أكبر كمية من النقود.

انتهت مطربة يفترض أنها تغني في الإذاعة من أداء وصلتها بصوت يكاد يكون مواء قطة فانسحبت لتعقبها راقصة بدينة، ذات وجه ثعلبي بعينين مكحولتين وحاجبين معقوفين إلى الأعلى اسمها قوت القلوب وصفها مذيع البرنامج بكونها راقصة الشرق الأولى، قدمت عرضاً في هز البطن والكتفين وتدوير العنق بحركات جنسية لولبية أثارت حماسة الزبائن الذين راحوا يصفقون ويطلقون صيحات الإعجاب والآهات، مما زادها حماسة في المبالغة بإظهار مفاتنها.

وصعد بضعة رجال على المنصة، داسين أوراقاً نقدية بين نهديها أو في وسطها، كما هي العادة مع الراقصات اللواتي يحصلن على رضا الجمهور، فيما استبد الطرب بعجوز يلتمع ما تبقى من شعره المدهون



بكريم يبردلي الرخيص والذي فرقه من الوسط، مغطياً به صلعته التي التمعت فجأة تحت حزمة الضوء الساطعة الموجهة من السقف، كان يجلس إلى طاولة مع ثلاثة آخرين في مقدمة الصالة، فاندفع إلى الحلبة شاداً على وسطه ربطة عنقه الحمراء المقلمة بخطوط بيضاء وراح يجاري الراقصة في حركاتها، هازاً وسطه بطريقة مثيرة للضحك.

وسط الهياج الذي عم الصالة أعلن مقدم البرنامج، وهو نفس ضارب الطبلة الذي رافق الراقصة قبل ذلك، عن مسابقة، جائزتها ربع قنينة ويسكي مجاناً على حساب إدارة الملهى لكل من يؤدي أغنية تحوز على رضا وإعجاب الجمهور، تقديراً للمواهب الشابة، تقدم إعرابي وغنى بصوت مخنوق أبوذية حزينة، أثارت استياء الحاضرين الذين راح بعضهم يصيح بصوت عال: «ما هذا البكاء واللطمية؟ لم نأتِ إلى هنا حتى نذرف الدموع، أنزلوه بحق الشيطان!» فنزل وهو يداري خجله بالتظاهر بالسكر. وتقدم آخرون فغنوا ما كانوا يحفظون من أغان شعبية سائدة أستقبلها الجمهور في الأغلب بالسخرية. وفجأة نهض أحمد من مكانه واندفع، صاعداً على منصة المسرح، ففوجئ عادل بحركة صديقه وجرأته التي أدهشته. وقف أحمد وقال: «سيداتي، سادتي، سوف أغني لكم أغنية لم تسمعوها من قبل، بدل هذه الأغاني الميتة المكررة». وارتفع صوت من الوسط: «نريد أغنية غرامية»، فرد عليه أحمد: «كل ما في العالم غرام. اسمعوا أيها البورجوازيون السكارى، اسمعوا جيداً هذا النشيد!»

ثم دوى صوته بلهجة حماسية منغمة أمام المايكروفون:

أيها العمال يا جيش الحفاة
نابضاً بالحب خلاق الوجود
نحن شيدنا القصور الشامخات
هل سوى الموت جنينا والقيود



ضجت القاعة بالضحك ونادى رجل يرتدي السدارة، نهض راقصاً في مكانه وهو يترنح من السكر:

ـ أين هم العمال يا صاحبي؟ لقد انتهى عصر العمال. هذا هو عصر الاستعمار، صديق الشعوب الأمين!

لكن أحمد واصل غناءه بعد وقفة قصيرة:

سلب المستعمرون الظالمون
خبزنا وانتهكوا أوطاننا
وأقاموا حفنة من خائنين
نهبوا الأرض ومصوا دمنا

دوت القاعة بالتصفيق هذه المرة، معتبرين الأمر مزاحاً بين سكارى تفتقت قرائحهم فجأة. صفق حتى الشرطي الواقف في المدخل، معتقداً أن ما سمعه نشيد مدرسي، فقد كان يشبه الأناشيد التي يغنيها تلامذة المدارس في طريق عودتهم إلى البيت. وإذ انتقل الأمر إلى الأناشيد صعد ثلاثة عجائز فغنوا بصوت كورالي موحد أغنية شعبية اشتهرت في تلك الأيام بين النساء وصبية الشوارع:

جوزي اتجوّز عليّ
وأنا لسه الحنة بيديّ

تبعهم اثنان من الأغوات الأكراد، قدما دبكة كردية، وفي يد كل منهما منديل يهزه في الهواء، مرددين أغنية أحمد خليل المشهورة:

هر بزي هر بزي
كرد وعرب
رمز النضال

لكن عادل جر أحمد من يده وأرغمه على مغادرة الملهى:

ـ هيا لنغادر هذا المكان!

ـ لا تخف يا صديقي، لقد صفق لي حتى الشرطي الواقف عند



الباب. علينا أن نكسب الجميع إلى جانبنا من أجل القيام بالثورة. أم ماذا تعتقد؟

ـ إنهم سكارى في ملهى يا أحمد.

ـ وماذا في ذلك؟ حين يصحون غداً سوف يتذكرون الطبقة العاملة وثورتها القادمة بالتأكيد.

نادى أحمد على النادل ودفع له الحساب ثم خرجا إلى الشارع. في المدخل أوقفهما الشرطي الحارس وصافح أحمد، مهنئاً إياه على أغنيته التي قال إنها سوف تفوز بالجائزة الأولى بالتأكيد. فقال له أحمد:

ـ إذا ما فزت بالجائزة الأولى فإنني أهبها لك.

وهتف بأعلى صوته:

ـ ليعش أبو إسماعيل، صديق الشعب وعدو اللصوص.

ثم خرجا إلى الشارع الذي كان يلفه الظلام، تمسد وجهيهما نسائم الخريف الأولى، جارفة أمامها الأوراق المتساقطة من الأشجار.



٥

مغارة الساحر

حينما ترك عادل الفندق أخيراً وقد أوشكت نقوده التي كان قد جلبها معه على النفاد وجد نفسه فجأة على قارعة الطريق، لا يعرف مكاناً يقصده. كان يمكن له بالطبع أن يختلق ذريعة ما ليبيت ليلة أو ليلتين أو حتى أياماً في بيت صديقه أحمد أو في غرفة الورشة التي يعمل فيها في كراج النهضة الواقع في باب الشيخ، بيد أن مثل هذا الأمر كان سيتناهى خبره بالتأكيد إلى أهله في كركوك، فضلاً عن أنه كان يخجل من أن يكشف عن بؤسه أمامه صديقه، واثقاً من أنه سيعثر على حل لورطته في النهاية، مؤجلاً الأمر مؤقتاً إلى المساء.

لم يكن ثمة ما يفعله عادل في تلك الظهيرة كالعادة، لذلك ترك حقيبته في المقهى، قاصداً السوق، لتزجية الوقت، لا يلوي على شيء، تتناهبه الوساوس التي جعلته يفكر في مختلف الاحتمالات، قائلاً لنفسه «أستطيع أن ألجأ إلى جامع ما وأنام فيه، لأنه بيت اللّه، واللّه لا يطرد أحداً من بيته». كان أمراً عادياً في كركوك أن يلجأ الغرباء والمسافرون الذين لا مأوى لهم إلى المبيت في الجوامع التي ما كانت لتغلق أبوابها قط، سواء في الليل أو النهار، لكنه لم يكن واثقاً عما إذا كان الأمر كذلك في بغداد أيضاً. ثم طمأن نفسه: «لن أموت بسبب ذلك».



لم يكن يريد بالطبع أن يشتري أي شيء وما كان يهمه ذلك. كل ما كان يريده هو أن يشم، كما يفعل أحياناً، تلك الرائحة العطنة لدكاكين محفورة في الجدران منذ قرون، مخلوطة برائحة أكوام التوابل والبهارات الهندية المتللة داخل أوان من النحاس الأحمر، وأن يسمع نداءات الباعة المدوية وهم يعلنون عن بضائعهم بطريقة مسرحية، مثيرة للضحك.

مرّ أولاً بسوق القصابين الذين كانوا يعلقون أشلاء خرفانهم أمام دكاكينهم بخطاطيف مغروزة في السقف، حاملين في أيديهم الملطخة بالدم سكاكينهم الطويلة، طاردين الذباب عن وجوههم بين الحين والآخر بحركة عصبية آلية، رامين للكلاب المنتظرة في الشارع قطعة عظم أو فضلة لحم لا تصلح للبيع، فتنشب للحظات معركة، تكشر فيها الأنياب ويرتفع النباح، لتعود الكلاب بعدها إلى الانتظار. من هناك تسلل إلى سوق الخضار بين رجال يرتدون ثياباً سوداء ونساء ملفوفات بعباءاتهن يحملن في أيديهن الزنابيل ومتسولين عميان يتلون بلهجة فارسية آيات من القرآن ومعممين يسيرون على غير هدى ويحيّون كل من يلتقونه وحمالين ينتظرون بفارغ الصبر زبائنهم.

من زقاق ضيق دخل إلى سوق الصفارين الذين كانوا يقرفصون على الأرض طارقين أوانيهم النحاسية، مثيرين جلبة مدوخة، حيث قاده زقاق آخر إلى سوق الذهب الذي كانت تتحلق حول دكاكينه فتيات شابات مع أمهاتهن، رفعن براقعهن ورحن يتلمسن الأساور وخلاخل الكعوب بأصابعهن، كما لو أنهن يردن أن يعرفن قيمة ما سوف يكون لهن. كان من الواضح أنهن فتيات مخطوبات يساومن على ما سوف يشتريه لهن أزواجهن كمهر. بعدما اجتاز عادل سوق البزازين ببهرجة لفائف أقمشته الملونة المكدسة فوق بعضها وجد نفسه في سوق السراي فراح يتفرج على الكتب القديمة المكدسة في



الدكاكين حتى انتهى إلى بائع كبة كان يمتلك سمعة أسطورية لجودة كبته التي كانت تجعل الناس يتزاحمون عليه فوقف هو الآخر وتناول صحناً من تلك الكبة التي أعادت إليه توازنه. ثم وجد نفسه في ساحة الميدان، حيث ساحر يقدم خوارقه التي اجتذبت الناس إليه فجعلتهم يحتشدون حوله، مكبرين اللّه مع كل حركة يقوم بها أو غارقين في الضحك.

وقف عادل يتفرج هو الأخر على ذلك الساحر الذي كان واحداً من سحرة كثيرين يأتون في الأغلب من الهند، ملقياً نظرة على أفاعيه الملتفة حول عنقه وقرده الذي كان يتشبث بأذياله، مثل طفل يخشى فقدان أمه في الزحمة. الحق أن الساحر وقرده كانا ماهرين في عملهما بطريقة مثيرة للعجب. فقد طلب القرد سيجارة من الساحر، أشعلها بنفسه وراح يدخن منتشياً قبل أن يجلس على دكة وأمامه صندوق خشبي اتخذه منضدة للكتابة، ممسكاً بيده ريشة كتابة أخرجها من محبرة أمامه وجنبه كومة من الأوراق، فيما وقف الساحر منادياً بصوت بائع يعلن عن بضاعته أن قرده لا يتقن الكتابة فحسب وإنما يتفوق بجودة خطه حتى على هاشم الخطاط، وهو لا يتقن اللغة العربية وحدها وإنما الفارسية والتركية والعبرية والهندية أيضاً، بل إنه قادر على أن يجيب عن أي سؤال قد يخطر في بال أحد من الحاضرين.

قال عادل لنفسه: «إذا كان القرد قادراً على أن يفعل ذلك حقاً، فسنكون قد بلغنا نهاية الزمان». تقدم أحد المتحلقين حول الساحر وقرده وسأل بطريقة لا تخلو من الهزل: «هل تحفظ أيها القرد المحترم شيئاً من الشعر؟» وإذ هز القرد رأسه بالإيجاب وسط دهشة الجمهور الذي غص بالضحك قال الرجل:

ـ أسمعنا إذن شيئاً من الشعر.



سال الساحر الرجل:

ـ هل تريد لقردي أن يسمعك قصيدة غزلية أم قصيدة حكمية؟

رد الرجل ساخراً وسط ضحك الجمهور:

ـ لا شك أنه سيقول الشعر من مؤخرته.

نادى رجل آخر ضاحكاً:

ـ حسناً، ليسمعنا ما يختاره هو بنفسه.

لم يكن القرد بالطبع قادراً على إنشاد الشعر، إلا أنه راح يخط بريشته على الورق الذي أمامه شيئاً ما، كما يفعل كتاب الخط في سوق الوراقين، بعناية من يتقن صنعته. وإذ انتهى القرد من الكتابة نهض وناول الورقة لسيده الساحر الذي أخذها منه ثم ضحك وربت على كتفه، ممتدحاً. ظلّت أنظار الحاضرين مشدودة إلى الساحر الذي وقف جنب قرده، محدقاً في الورقة. تعالت صيحات من هنا وهناك:

ـ هيا اقرأ ودعنا نسمع ما كتبه قردك الشاعر!

قال الساحر، كما لو أنه يتعمد إثارة المزيد من فضول جمهوره.

ـ لماذا العجلة؟ سوف تسمعون كل شيء.

بعد وقفة قصيرة أضاف:

ـ لا أعرف في الحقيقة إن كان ما كتبه قردي قصيدة غزلية أم حكمية، إذ يبدو أن للغزل والحكمة عند القردة معنى يختلف بعض الشيء عن معناهما عندنا نحن البشر.

ثم راح يردد القصيدة التي كتبها القرد بصوت منغم يكاد يكون غناء، وهي قصيدة يحاكي فيها القرد شعر حافظ الشيرازي الذي يبدو أنه كان معجباً به:

جالساً في مضيف حافظ الشيرازي
رفع كأسه وقال لي: اشرب أيها المسافر



قلت: كلا، الطبيب نهاني عن ذلك.
فرد عليّ مطمئناً: اشرب
فحينما تسكر يصير حمارك نفسه طبيباً.

صعد المؤذن فوق المنارة العالية
داعياً المؤمنين إلى الصلاة.
كلهم خرجوا ليقرضوا اللّٰه على حساب الآخرة
أما أنا الثمل النائم في الحانة
فسأذهب إلى محبوبتي التي تنتظرني في سريرها
لتسدد لي نقداً
كل ديون حياتي عليها.

سألني حافظ: ماذا يوجد هناك في السماء؟
قلت: الجنة
قال: نحن أيضاً نستطيع أن نحول الأرض إلى جنة.
فلنا هنا رياض وارفة كثيرة وأنهار جارية
وحوريات من أجمل ما خلق اللّٰه
والحية أيضاً سوف نجلبها لتتسلق الشجرة
ماذا سينقصنا بعد ذلك؟

عندما انتهى الساحر من إلقاء القصيدة انفجر الحاضرون بصيحة تهليل مدوية موحّدة، مأخوذين بسحر أبياتها التي امتلكت قلوبهم وعقولهم، كما يبدو، فقد بادر رجل كبير السن يرتدي السدارة، مما يدل على أنه من أهل العلم والثقافة، إلى القول بأنه لم يسمع قط في حياته كلها قصيدة بمثل عذوبتها وبلاغتها، طالباً نسخة منها مهما غلا



ثمنها وسائلاً عن اسم قائلها. خط القرد بضع كلمات، تناولها منه الساحر وقرأ ما فيها:

ـ «إنها آخر قصيدة نظمها عادل سليم الأمير»!

رد الرجل مستغرباً:

ـ يا للعجب، إنني لم أسمع باسم هذا الشاعر من قبل! إعتقدت أنها قصيدة للشاعر الوجودي حسين مردان.

وجاء الجواب سريعاً من القرد المنكب على الكتابة:

ـ إن أفضل الشعراء دائماً هم الذين لا نسمع بأسمائهم قط..

بدا الجواب ملغزاً بعض الشيء، ولكنه وضع نهاية لذلك الحوار المثير بين القرد ورجل السدارة الذي بدا ذاهلاً عما يدور حوله كمن مسه السحر، إذ حمل معه نسخة القصيدة بعد أن دفع ثمنها وابتعد، غائباً في الزحام حتى من دون أن يلتفت وراءه.

أما عادل سليم الأمير فقد بدا كمن ضربه الزلزال حالماً سمع الساحر يردد قصيدته التي كان قد نظمها في اليوم ذاته حين كان يجلس في المقهى ودوّنها في دفتره الصغير. لا يمكن لأحد أن يكون قد عرف بها أم تراه قد كتب قصيدة مكتوبة من قبل. ولكن لا، فها هو القرد يعلن أنها قصيدة لعادل سليم الأمير. في الحمى التي أصابت جسده والزلزال الذي صار يضربه فتهتز روحه تساءل مع نفسه، ترى من يكون هذا الساحر وقرده؟ أتراهما يكونان الشيطان وتابعه أم هما ملاكان هابطان من السماء؟ ولكن أي رسالة يمكن أن يحملها الشيطان إليّ؟ فأنا لم أؤمن به في أي وقت. وحتى إذا كان موجوداً فسوف أنفيه بإنكاري إياه. لا، ليس هذا عرضاً يقدمه ساحر. ظل عادل جامداً في مكانه، لا يعرف إن كان ينبغي عليه أن يكشف عن سره للساحر وقرده أم أن يصمت وينتظر. كلا، لا يمكن لي أن أفضح نفسي أمام كل هؤلاء الناس، وماذا أقول لهم؟ إذا كان القدر يريد أن يلعب معي لعبته



التي أجهلها فلأدعه يفعل ذلك حتى النهاية، قبل أن يكشف عن آخر أوراقه التي يخفيها في عبه. إنتظر حتى أعاد الساحر أفاعيه إلى سلة من القش، أحكم غطاءها، وركن الصندوق الخشبي جانباً قرب الدكة ثم أمسك بيد قرده، منصرفاً ومعلناً أمام المتفرجين المندهشين أنه ذاهب هو وقرده وأفاعيه لأداء صلاة الظهر التي كانت قد اقتربت.

من بعيد تبعهما عادل وهما يجتازان السوق ويعبران من زقاق إلى آخر. كانت ثمة قوة ترغمه على السير وراء الساحر وقرده، قوة لا يمكن ردها، كما لو أنه مشدود بحبل وثمة أحد يجره إليهما، قوة تنبع من قلبه هو بالذات. كان يريد أن يعرف كل شيء، مفكراً أن الساحر وقرده كانا يعرفان بوجوده في حشد المتفرجين وأنهما يعرفان الآن أيضاً أنه يسير وراءهما. عاودته الحمى وضربه الزلزال ثانية، فقال لنفسه متماسكاً: إذا كان الشيطان نفسه قد نصب لي شركاً فسوف لن أتردد في الوقوع فيه.

خطر له وهو يسير وراء الساحر وقرده أن المرء قد يفني عمره كله في انتظار لحظة واحدة، بدون أن يكون واثقاً عما إذا كانت تلك اللحظة هي لحظة حياته أم لحظة موته.

انتهى الساحر أخيراً بعد سير طويل إلى مغارة في غابة بساتين على نهر دجلة يخترقها جدول. هناك أخرج أفاعيه من قفصها، فانسلت زاحفة بين الأشجار واختفت عن الأنظار فيما تسلق القرد غصناً متدلياً راح يتأرجح عليه قبل أن يقفز إلى غصن آخر، ثم يختفي هو الآخر في أعماق الغابة. رأى عادل من مكمنه بين الأشجار المتشابكة الساحر يجلس متكئا بظهره على صخرة كبيرة كمن ينشد الراحة، حتى ظن أنه ربما كان قد نام. ثم إذ طال الانتظار به تقدم منه وحياه:

ـ السلام عليكم أيها الساحر.



رد الساحر عليه:

ـ جلست انتظرك هنا حتى أصابني الملل.

تمالك عادل نفسه وسأله:

ـ قل لي من أنت بحق الشيطان! من أرسلك إليّ؟ من أطلع قردك على قصيدتي؟ لقد نظمتها اليوم في المقهى ولا أحد يعرف بها غيري. لقد جننتني أيها الرجل، ما هي قصتك؟

قال الساحر الذي رفع رأسه إليه:

ـ ليست هناك أي قصة، تذكر أنني ساحر والسحرة يعرفون كل شيء.

هز عادل رأسه:

ـ دعك من السحر وهذه الترهات التي لا يؤمن بها سوى الحمقى من الناس.

ضحك الساحر:

ـ ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ لقد رأيت معجزتي بعينيك، أليس كذلك؟

ثم أضاف وهو يقوده إلى المغارة:

ـ حسناً، حسناً، لنترك ذلك الآن! كل ما في الأمر هو أنني أردت أن أمازحك قليلاً طلباً للتسلية. لا تكن جاداً دائماً، الحياة لا تستحق ذلك. قدمت كل ذلك العرض لأقودك إلى هنا بعد أن عثرت لك على مكان تقيم فيه مؤقتاً مجاناً بدل التسكع في الشوارع. تعال معي والقِ نظرة على هذه المغارة التي سكنها كثيرون قبلك. لقد سكنت فيها أنا الآخر فترة من الزمن. فإذا ما أعجبتك فإنني أهديها لك. أرجو ألا تكون متكبراً فترفض عرضي الكريم هذا.

كان ثمة فانوس زيتي معلق على الجدار داخل المغارة وسجادة متهرئة قليلاً مفروشة على الأرض وبضع وسائد في محاذاة الجدران،



فضلاً عن رزمة كبيرة من الأوراق فيما كان المدخل مغطى بلوح من الخشب يزاح جانباً. ورغم أن المغارة بدت لعادل صغيرة إلا أنها كانت ذات سقف عال قليلاً وشكل دائري غير منتظم، بجدران منبعجة قليلاً نحو الداخل تكفي لإيواء خمسة أشخاص على الأقل. حينما أراد عادل الذي راح يتفحص جدران المغارة بيديه أن يسأل الرجل عن اسمه وجده قد اختفى فجأة، فقال في نفسه: يا له من شخص غريب الأطوار هذا الساحر! أرجو أن ألتقيه ثانية ليعلمني صناعة السحر على الأقل.

في تلك الليلة التي نام فيها عادل سليم الأمير في مغارة النهر شعر بأمان من يملك العالم كله. وحينما استيقظ في الصباح على الشمس المتسللة من فتحة اللوح إلى المغارة واغتسل بماء نهر دجلة المتدفق، رائياً طيور النورس البيضاء كالثلج تحلق أسراباً على الضفاف، مرتفعة تارة ومنخفضة تارة أخرى حتى لتكاد تمس بأجنحتها صفحة المياه، فيما الصيادون يلقون بشباكهم في النهر، منتظرين حظهم، أحس بعاطفة لم تخالجه من قبل: أن توجد في العالم من أجل نفسك فقط.

كان قد قرأ بالطبع بعض الكتب التي تروي تجارب المنورين من البشر، أولئك الذين كانوا يلجأون إلى الجبال، منقطعين عن البشر، ويعيشون في الكهوف والمغاور مع الأفاعي والنسور سنين طويلة، حتى تنبلج أمام أعينهم الحقيقة، مثلما تذكر شيوخه الأربعة الذين عثر عليهم في مغارات جبل شوان وجلبهم معه إلى بغداد فاختفوا بدون أن يتركوا أثراً يقوده إليهم. هل كانوا يبحثون هم أيضاً عن الحقيقة؟ ضحك، مخاطباً نفسه: أما أنا فأريد أن أهرب من الحقيقة. أي حقيقة في هذا الزمن الذي التهم فيه البشر كل الحقائق الماضية؟ ليكن، قال لنفسه، سأعتصم هنا في مغارتي أنا الآخر، ليس بحثاً عن حقيقة قد



لا توجد أبداً، وإنما كمأوى يقيني من التشرد في الشوارع، ولو إلى حين. ولكن سره في الحقيقة أن يمثل دور الدرويش الذي أسنده الساحر إليه.

وبعد أربعين يوماً من العزلة التي فرضها على نفسه على عادة القديسين، معتاشاً على الأسماك التي كان يصطادها بنفسه من النهر وبقايا الكليجة التي كانت أمه قد أرسلتها إليه مع جارهم السائق الأرمني، فضلاً عن كمية كافية من سيجاير تركي التي كان قد اشتراها عندما نقل حقيبته إلى المغارة، خرج إلى العالم ثانية، قاصداً المقهى الذي اعتاد الجلوس فيه قبل ذلك:

ـ لقد خضت التجربة أنا الآخر، كما فعل الأنبياء.

لم يشعر في الحقيقة أنه تغيّر كثيراً. كل ما في الأمر هو أنه أحس بالبهجة تسري في جسده وروحه حين ظل يجلس كل يوم على الصخرة أمام مغارته، مراقباً النهر الذي راح يخاطبه كما يخاطب صديقاً، كمن يمثل دوراً في فيلم: أنت أيها النهر العظيم الخالد سوف تمضي بعيداً عابراً البراري والفلوات لتغذي البحر الذي تصب فيه. ولكن ما الذي كنت ستفعله لو لم يكن ثمة من يتلقى عطاياك الكثيرة هذه؟ فأنت لست النهر الذي رأيته بالأمس، لأن مياهك القديمة وصلت البحر الآن، وها أنذا أشم رائحة مياهك الجديدة متدفقة أمامي، ما أشبهني بك أو ما أشبهك بي أيها النهر الهادر!

ثم ضحك على نفسه:

ـ لقد صرت درويشاً في النهاية.

حينما جلس على التخت في المقهى، محتسياً استكاناً من الشاي، وروى لأصدقائه، ومعظمهم من الأدباء والشعراء الذين افتقدوه، قصة المغارة التي دله الساحر عليها لم يصدقوه في البداية، معتقدين أنه يسخر منهم، إذ لا يمكن أن تبلغ الحماقة بإنسان ما في



مدينة مثل بغداد حد السكن في مغارة في الشتاء. وهل توجد في بغداد مغارات؟ هذا ما لم يكونوا يعرفونه. لكنه ما كاد يقودهم في الليل إلى مغارته، وكل منهم يحمل معه حصته المألوفة من العرق حتى أصبحت مأوى مألوفاً لهم، يقصدونه في الأغلب بعد منتصف الليل وقد استبد بهم السكر فيضطجعون على الأرض فوق بطانية ما وينامون.

حينذاك، حيث عاش عادل في تلك المغارة، فكر كثيراً في شيوخه الأربعة الذين راح يلقي بمسؤولية ضياعهم على نفسه، «ما كان ينبغي لي أن أرمي بهم هكذا في الشارع. ترى كيف سيدبرون أمورهم في مثل هذه المدينة الكبيرة الفاقدة للروح؟ كان يمكن لهم أن يقيموا معي في مغارتي هنا لو عثرت عليهم»، وحين يستبد به القلق كان يخرج متسكعاً في الشوارع، محدقاً في الوجوه، آملاً في أن يعثر عليهم في زاوية من مسجد أو مقهى منزو في حي للفقراء، ولكن كل ذلك بدا له عبثاً حتى أنه فكر أنهم ربما كانوا قد عادوا ثانية إلى جبل قرية شوان أو ربما ماتوا تحت وطأة الشيخوخة والمرض. وفي النهاية، إذ وجد أن من العبث البحث عنهم في مدينة كبيرة مثل بغداد قرر نسيانهم، تاركاً إياهم لمصيرهم المحتوم:

ـ ليرحمهم الله!



٦
مادلين الآشورية وأم أرسين الأرمنية

في ذلك اليوم التاريخي المشهود الذي أمطرت السماء فيه ضفادع فامتلأت شوارع وبيوت وسطوح بغداد بها وأثارت دهشة علماء الأنواء الجوية وتناقلت أنباءها الوكالات العالمية ونشرت مقالات كثيرة عنها في الصحف المحلية حمل عادل على كتفه متاعه الضئيل الذي شده من الطرفين بحبل من القنب فيما أمسك بيده اليمنى بحقيبة ثقيلة بعض الشيء، مليئة بالكتب، مجرجراً قدميه حتى موقف الباص القريب، قاصداً غرفة في الطابق الثاني تواجه غرفة أخرى، تقيم فيها عجوز أرمنية مع زوجها الذي كان يعمل خياطاً في محل في شارع النهر. كان بيتاً كبيراً بتسع غرف، واقعاً في زقاق متفرع من شارع الرشيد في منطقة رأس القرية، يفوح برائحة الخراب والإهمال والقدم، وتعبث في أرجائه الصراصر والعقارب في الليل، رغم أنه كان ذات يوم قصراً لتاجر يهودي في الشورجة نزح إلى إسرائيل قبل أعوام، فحجزته دائرة الأموال المجمدة. ثم انتهى به الأمر إلى أن صار مأوى للفقراء المسيحيين الهاربين من قرى الشمال، بسبب الجوع والحروب.

كان عادل يجلس في المقهى قبل أيام يلعب الطاولي عندما جاءه شاب تركماني من طوزخورماتو يعمل معلماً في بغداد، وقاده إلى تلك الغرفة التي كان هو نفسه قد سكن فيها فترة من الزمن، ناصحاً له بترك



السكن في المغارة لأنه سيموت من البرد القارس إذا ما بقي فيها، دافعاً مقدماً إيجار شهر من جيبه، مدعياً أن عادل صحافي وأديب مشهور.

كان تحسين عبد اللّه شاباً طيباً إلى درجة يصعب تصورها، مما شجع عادل على أن يستغل طيبته تلك حتى النهاية. لم يكن يدخن، لكنه كان يحمل في جيبه دائماً علب سيجاير يقدمها لعادل كلما التقاه. وفي أحيان أخرى كان يدعي الجوع فيقوده إلى مطعم ما في شارع الرشيد ويدفع عنه الحساب. لم يكن تحسين في الحقيقة طيباً فحسب وإنما كنز لا يقدر بثمن، اكتشفه عادل صدفة في بيت للدعارة في أحد أزقة الصابونجية. كان يجلس هناك في الصالة مع ثلاثة أو أربعة رجال آخرين، ينتظر دوره مع واحدة من العاهرتين الغائبتين في غرفتيهما حينما انفتح الباب الخارجي للبيت ودخلت ليلى التركمانية قادمة من سهرة ليلية قضتها مع ضابطين في القوة الجوية في الحبانية، حيث راحت تروي ضاحكة للحاجة السمينة التي كانت تتصدر المجلس وتستلم النقود من الزبائن بدون أن تفارق يدها مسبحتها الكهرب، وكيف أنهما ضاجعاها داخل طائرة ميغ محلقة في الجو. فقالت لها الحاجة:

ـ لا أكاد أصدق ذلك. كيف يمكن ذلك؟

ثم أضافت متسائلة:

ـ لا بدَّ أنك مت من الخوف؟

ـ أي خوف يا حاجة! الخوف هنا فوق الأرض، وليس هناك في السماء فوق الغيوم.

فقالت لها الحاجة التي ما كانت راغبة في تضييع وقتها الثمين:

ـ حسناً، حسناً، سوف تحدثيننا عن ذلك فيما بعد. أما الآن، فقد حان أوان الشغل. الجماعة ينتظرون.



حينذاك فقط انتبهت ليلى إلى تحسين الجالس على التخت فقالت له بالتركمانية:

آه، إنني لم أرك منذ شهر، أين كنت طوال كل هذه الفترة يا ولد؟

فرد عليها بصوت خافت على عادته:

ـ لقد أمضيت شهراً عند أهلي في طوزخورماتو، ولكن كما ترين فإنني اشتقت إليك ثانية.

فقالت له هازلة:

ـ لقد اشتقت أنا أيضاً إليك.

رد عليها هازلاً هو الآخر:

ـ ولذلك تركت الطيارين يضاجعونك في الجو.

لم يكونا يعتقدان أن أحداً من الحاضرين يفهم ما يقولانه باللغة التركمانية، ولذلك استغربا لبرهة عندما ابتسم عادل لهما قبل أن يطلق ضحكة قصيرة للمكايدة، فسألته ليلى بالعربية:

ـ هل تفهم ما نقوله؟

رد عليها بالتركمانية:

ـ من أي محلة أنت في كركوك؟

بدت محرجة:

ـ من قال لك إنني من كركوك؟

ـ لا أحد.

تدخل تحسين في الحديث:

ـ أقترح أن تكملا حديثكما في الغرفة. أما أنا فأستطيع أن أنتظر قليلاً.

حينما خرج من الغرفة ودخل تحسين قال له:

ـ انتظرني حتى نخرج سوية. لن يطول الأمر معي طويلاً.

كانت صاحبة البيت التي قاده تحسين إليها تلكيفية في حوالي



الأربعين من عمرها ذات وجه لا يخلو من اللؤم والشك. فبعد أن ألقت عليه نظرات متفحصة ثاقبة، كما لو أنها تريد قراءة أفكاره، قالت له بطريقة ماكرة إن وجود شاب مسلم أعزب مثله في بيت ممتلئ بالنساء المسيحيات قد يثير المشاكل ولذلك فإنها تنتظر منه ألا يحاول التحرش بأي واحدة منهن. فأكد لها تحسين إن ذلك آخر ما يمكن أن يخطر ببال صديقه، وهو أمر لم يكن صحيحاً بالطبع، فقد كان تحسين نفسه قد قال له قبل ذلك إن المتعة الوحيدة للسكن في مثل هذه البيوت هي سهولة الحصول على النساء فيها وإنهن دائماً في متناول اليد. ولذلك فكر عادل أنها ربما كانت تريد أن تحتكره لنفسها، وهو ثمن كان مستعداً لدفعه عن طيب خاطر لولا أنه كان مشغول البال حينذاك بتدبير أمور حياته أولاً.

هناك في غرفته غالباً ما كان يتمدد على بطانية مفروشة على الأرض العارية وأخرى يلتحف بها ومخدة تفوح منها رائحة العرق، هي كل فراشه، إذ لم يكن يملك حتى سريراً ينام عليه، منصتاً إلى صراخ الأطفال الذين كانوا يملأون البيت وشجار أمهاتهم مع رجالهن أو فيما بينهن، مدخناً السيجارة بعد الأخرى، حالماً بمشاريع خيالية، طالما فكّر بها فيها في ليالي وحدته الطويلة. وفي أحيان أخرى، غالباً إذ يكون جائعاً، كان يرغم نفسه على الجلوس فوق بطانية أمام حقيبته الوحيدة المليئة بالكتب، والتي اتخذ منها منضدة للكتابة، ويعمل بهمة في تسجيل كل ما كان يخطر بباله. لا يدري أي شيطان أدخل في روعه أن المرء يكتب أفضل وأعمق عندما يكون جائعاً، إذ تنشط خلايا الدماغ ويفرز الجسم مادة محفزة على التفكير. ولأنه كان جائعاً دائماً تقريباً راح يعزي نفسه بفضيلة الجوع، كسر لا ينبغي لأحد الإطلاع عليه، عازياً سوء الكتابة عند الكثير من الكتاب إلى الشراهة وتناول ثلاثة وجبات أو أكثر في اليوم الواحد. ولكنه كان يفقد كل



طاقة على الكتابة إذا ما نفدت سيجايره ولم تكن معه نقود ليشتري بها علبة جديدة. ولذلك كان يتحوط للأمر دائماً فيحتفظ بأعقابها معه في الغرفة ويلجأ إليها المرة تلو الأخرى حتى لا يعود فيها أي أثر للتبغ. حينذاك فقط كانت تصبح مؤهلة ليرمي بها من نافذة غرفته إلى الشارع.

في اليوم الأول الذي قضاه في تلك الغرفة، وكان قد انتقل إليها ظهراً، أغلق الباب وراءه وجلس على الأرض يقرأ في كتاب ما ثم استلقى على الأرض، مفكراً في قضاء فترة الظهيرة في النوم. كان قد غفا لتوه عندما سمع أحداً ما يقرع باب غرفته. رأى العجوز الأرمنية تقف في الباب معتذرة:

- أرجو ألا أكون قد أزعجتك. تفضل واشرب استكاناً من الشاي معنا.

وإذ رأت تردده أضافت:

- إنني أسكن في الغرفة المقابلة لغرفتك مع زوجي. هيا تعال ولا تخجل، فأنت مثل ابني!

لم يكن في الغرفة سوى سريرين من الألمنيوم، متقابلين وخزانة للملابس وطاولة عتيقة في الزاوية، صفت فوقها بعض القدور والصحون وموقد نفطي ماركة علاء الدين في وسط الغرفة، وضع فوقه إبريق شاي. كانت الغرفة مفروشة ببساط باهت اللون يمتد إلى ما تحت السريرين. وعلى الجدران صورة مؤطرة لمريم العذراء حاملة طفلها في يديها وثانية يبدو عليها أثر القدم لشاب وفتاة في ثياب العرس وثالثة لشاب يقف أمام سيارة فورد أنيقة في شارع كان من الواضح أنه ليس في بغداد، حيث العمارات الزجاجية العالية ولوحات الإعلانات الكبيرة. وفي صدر الغرفة تماماً كانت ثمة سجادة صغيرة معلقة على الحائط بنقوش لغابة فيها أسد وغزلان، يخترقها نهر جار تحلق فوق صفحته الطيور.



لم تكن العجوز وحدها. كانت ثمة امرأة أخرى في حوالي الثلاثين من عمرها، قالت إن اسمها مادلين وهي أم لطفلين. جلس عادل على حافة أحد السريرين فيما جلست الامرأتان على الأرض، ولكنهما عندما قدمتا له الشاي مع الكعك فضل أن يجلس هو الآخر على الأرض ليشرب ويأكل براحة، بدل الانحناء في كل مرة لالتقاط استكان الشاي الموضوع على الأرض أمامه.

قالت العجوز: سمعنا أنك صحافي، أنت صحافي، أليس كذلك؟ أين تعمل؟

قال لها، راغباً في عدم الكذب عليها:

ـ الحقيقة إنني طالب في الجامعة، ولكنني أكتب في الصحف أيضاً.

ردت العجوز، كما لو أنها تحاول تبرير وضعه:

ـ كل شاب يحتاج إلى الزمن ليدبر وضعه.

لا بدَّ أنها كانت تفكر مع نفسها «إذا كنت صحافياً حقاً فلماذا لا تملك حتى سريراً تنام عليه؟» كان من الصعب عليه أن يقول لها إنه ليس صحافياً ولا يكاد يملك فلساً في جيبه. لذلك قال لها:

ـ إنني أنتظر قبولي في القسم الداخلي، ولكن يبدو أن الأمر سيطول.

قالت مادلين التي ظلّت صامتة طوال الوقت:

ـ لأم أرسين أيضاً ابن يدرس في أميركا.

غمرت البشاشة وجه أم أرسين فجأة وأشارت بيدها إلى صورة الشاب المعلقة على الجدار:

ـ هذا هو أرسين. إنه يعيش في لوس أنجلس.

ثم نهضت وانتزعت الصورة من مكانها وقدمتها له:

ـ إنه في مثل عمرك الآن تقريباً.



وأضافت سائلة:

ـ كم عمرك؟

ـ عشرون عاماً.

ـ إنه أكبر منك قليلاً، في الثالثة والعشرين من عمره. كتب لنا في البداية يقول إنه غني ويعيش مثل ملك، ولكنه لم يعد يرسل لنا نقوداً منذ أكثر من سنة. أنت تعرف أن الحياة صعبة بالنسبة لشاب يشق طريقه في الغربة. لقد وعدنا في آخر رسالة له أنه سوف يدبر أمر هجرتنا نحن أيضاً إلى أميركا. كان ذلك قبل أكثر من عام. ثم لم نعد نسمع منه شيئاً.

سألها:

ـ متى هاجر إلى أميركا؟

ـ قبل أربعة أعوام.

ـ ماذا يدرس هناك؟

ـ كان يريد دائماً أن يكون ممثلاً، إنه يعمل في النهار ويدرس في الليل، منذ صغره كان يحلم بالذهاب إلى أميركا ليمثل في السينما.

تدخلت مادلين مقاطعة ومؤيدة:

ـ هناك يحصل الممثلون على الكثير من الفلوس. نحن أيضاً نريد الذهاب إلى أميركا، ولكن من يمكن أن يوصلنا إليها؟

قالت العجوز:

ـ ربما استطعت أن تكتب باسمي رسالة إليه، فلعله يرد عليها بعد هذا الانقطاع. أنت طالب في الكلية مثله. تعرف أفضل منا كيف تؤثر عليه بكلماتك اللطيفة. ليس الآن، ولكن عندما يكون عندك الوقت الكافي لتفعل ذلك. قل له إن أهلك قلقون عليك ولا يطلبون منك شيئاً سوى أن تكتب لهم. لا يهم أن نذهب إلى أميركا أو أن نبقى هنا. المهم أن يكون هو نفسه بخير.



ثم أجهشت بالبكاء، فاحتضنتها مادلين مهدئة من روعها، فيما أخذت هي تمسح دموعها بطرف ثوبها. قالت مادلين:

ـ لماذا تبكين؟ لا بدَّ أنه مشغول هناك بالعمل والدراسة ولا يملك الوقت الكافي للكتابة. هذا هو كل ما في الأمر.

ردت العجوز، وقد تمالكت نفسها:

ـ صحيح، صحيح، ولكنك تعرفين كيف يكون قلب الأم على ابنها.

ضحكت مادلين وهي تضع يدها فوق رأسها مواسية:

ـ سوف نذهب ذات يوم لرؤيته وهو يمثل في السينما. كل الأفلام الأمريكية تصل إلى بغداد. وسوف ترين كيف سيتحدث عنه الجميع بحسد وهم يقولون: انظروا هذا هو فتى الشاشة الأول أرسين آكوبيان.

صلبت العجوز على نفسها وقد استعادت بعض هدوئها قائلة:

ـ عند ذاك يمكن لي أن أموت بسلام.

كانت مادلين آشورية، هرب والداها قبل أربعين عاماً على البغال من منطقة بحيرة أورومية وشهدا الأهوال في الطريق، ناجيين بالصدفة من القتلة الذين كانوا يطاردون الآشوريين بالخناجر والسيوف، قبل أن يجتازا الحدود إلى العراق عبر معبر خانقين ثم يصلا في النهاية إلى الحبانية ويستقرا فيها، حيث عمل والدها سنين طويلة بواباً في القاعدة الجوية البريطانية. لم تكن مادلين جميلة إلا أنها كانت تملك جسداً مكتنزاً يكاد ينفجر من الطاقة التي يدخرها. كان زوجها جورج يعمل نادلاً في حانة تقع في شارع أبي نواس لقاء راتب ضئيل جداً، معتمداً أساساً على ما كان يحصل عليه من الزبائن لقاء خدمته لهم. لم يكن ذلك كثيراً ولكنه كان كافياً لدفع إيجار الغرفة وإطعام زوجته وطفليه، ولو بتقتير شديد. وكانت لها شقيقة أكبر منها تدعى هيلدا تسكن في



بغداد الجديدة مع زوجها الذي يعمل سائق شاحنة لحساب تاجر مسلم. خلال تلك الجلسة نهضت مادلين أكثر من مرة، ملقية من الطارمة نظرة على غرفتها لتطمئن على طفليها، وهما ولد في الخامسة من عمره وبنت في الثالثة. وفي كل مرة كانت تعود بعد لحظات لتقول مبتسمة بصوت خفيض، كما لو أنها لا تريد إيقاظهما: «إنهما لا يزالان نائمين». فترد عليها العجوز أم أرسين بتلقائية «الأطفال يحتاجون إلى النوم أكثر من الكبار. لا تقلقي! إذا ما استيقظا فسوف يعثران عليك. إنهما يعرفان تماماً أين يبحثان عنك في هذا البيت».

لم يكن صعباً على عادل أن يدرك أن مادلين حملت انطباعاً طيباً عنه وربما سرها الحديث معه، فقد التقط أكثر من مرة نظراتها المليئة بالفضول والرغبة، ولكنه تعمّد افتعال الأدب، مخفياً نواياه الحقيقية عنها تحت ستار من الوقار، لإعطائها الشعور بكونها هي الصياد وهو الطريدة، ولكن بدون المبالغة كثيراً في الأمر. فعندما روت خلال تلك الجلسة نكتة جنسية فاضحة عن قس بني ديرا من الأموال التي يحصل عليها من النساء الغنيات اللواتي كان يضاجعهن وجعلت عادل والعجوز يغرقان في الضحك مد عادل كفه ومسد بها على ظهرها، ضاغطاً بأصابعه على جسدها اللدن، كما لو أنه يفعل ذلك بعفوية، في حين أنه كان يريد أن يكسر الحدود التي تبعدها عنه، وهو أمر لم يفتها هي الأخرى. وعندما شكرهما على دعوتهما إياه لشرب الشاي معهما، طالباً الانصراف، بدعوى أنه مرتبط بموعد مع صديق ينتظره في المقهى وعاد إلى غرفته لحقت به مادلين ووقفت في الباب المفتوح لحظات قبل أن تدخل وتلتقط كتاباً من كتبه المرمية على الأرض، سائلة بطريقة مفاجئة إن كان يملك كتاباً في الحب. فابتسم لها قائلاً:

ـ كتاب في الحب! أنت تقرأين كتب الحب. سوف أدبر لك أي كتاب تطلبينه. لم أكن أعتقد أنك تعرفين القراءة.



قالت:

- لقد تعلمت في المدرسة حتى السادس الابتدائي. إنني أقرأ بدون صعوبة. ولكن لا تعجبني سوى كتب الحب الحزينة مثل قصة روميو وجولييت. إنني أحب أن أبكي عندما أرى فيلماً أو أقرأ قصة.

- تبكين؟ ولكن لماذا؟

قالت ضاحكة وبغنج:

- لا أعرف.

ثم أضافت، وهي تبسط يديها، كما لو أنها تمثل دوراً:

- يعجبني أن أتخيل نفسي البطلة وأن هناك من أتعذب من أجل حبي له. يعجبني أن أرى حبيبي ميتاً وأنا في ثياب الحداد أبكي من أجله.

إنتابته رغبة عارمة في أن يحتضنها ويضمها إلى صدره ويقبلها لولا أن باب الغرفة كان مفتوحاً، حيث تراهما أم أرسين العجوز التي كانت تقف أمام غرفتها محدقة بهما. لكنه اكتفى بالنظر إليها ضاحكاً:

- يا إلهي! ما هذا الذي تقولينه؟

فهزت رأسها، مغمضة عينيها، وقالت:

- هكذا أنا.

ثم غادرت الغرفة مسرعة وهاربة، هابطة السلالم إلى الطابق الأسفل.

بعد قليل نزل عادل أيضاً فوجدها واقفة في الفناء، قريباً من المغاسل، تتحدث إلى امرأتين أخريين من نزيلات البيت، لكنه إذ ألقى عليهن تحية المساء وهو يمر بهن، تجاهلته مادلين تماماً، متعمدة الالتفات إلى الجهة الأخرى، كما لو أنها تخشى أن تفضحها نظراتها أمام الأخريات، فابتسم مع نفسه، خارجاً إلى الشارع.



٧

في شوارع بغداد

هبط المساء ثقيلاً فوق المدينة. مساء مكفهر آخر مثل كل مساءات بغداد الشتائية. ومع ذلك شعر عادل بالكثير من الراحة في الهواء الطلق البارد يلفح وجهه، مطلقاً العنان لأفكاره التي كانت تنهمر عليه مثل شلال هادر عندما يسير في الشارع بين الناس. عادة غريبة لم يجد قط لها تفسيراً. كان ذلك في الحقيقة واحداً من أكثر الأمور المحيرة في حياته. في اللحظة التي يهبط فيها إلى الشارع يرى حاجزا ما ينشأ بينه وبين الآخرين، لا تخترقه سوى بعض انتباهاته العابرة بين الحين والآخر، حتى كان يصعب عليه في الغالب رؤية ما يحدث أمامه، مثل مسرنم يسير على السطوح. بيد أن هذا الغياب عن العالم الخارجي ما كان ليعيقه عن السير بانتظام أو عن الوصول إلى الأماكن التي يقصدها أو ليزعجه كثيراً، لولا ذلك الحرج الذي كان يسببه له عدم الانتباه دائماً تقريباً إلى من كانوا يلتقونه في الطريق من الذين يعرفهم، فيظنون أنه يتعمد عدم رؤيتهم أو يتجنب الحديث معهم. ولكن غالباً ما كان الآخر يبادر لحسن حظه إلى مناداته أو إلقاء التحية عليه فيخرج من وحدته ليرى أحداً ما يقف أمامه، وعند ذاك يبتسم ويفتعل الاهتمام به معتذراً، ملقياً باللوم على عاتق الحياة التي تعمي المرء حتى عن رؤية أصدقائه. بيد أنه كان يعرف أن الأمر أكثر



تعقيداً من ذلك. فقد كان يصعب عليه أن يميّز ملامح كائن لم يفكّر به قبل ذلك. كان يرى ولا يرى. يرى بعينيه كل شيء، إلا أنه يهمله، لاجئاً إلى ما كان يسميه ساخراً نزهة أفكاره اليومية. كان ذلك يتيح له في الحقيقة أن يسلك طريقين ويسير في شارعين، يفصل أحدهما عن الآخر جدار من زجاج شفاف، في اللحظة ذاتها، كما لو أنه شخصان لا يشبهان بعضهما، مختلفان ومتناقضان، أحدهما للتعامل مع العالم والآخر مع نفسه.

هب نسيم بارد لفح وجهه فانتبه إلى أنه كان قد بلغ بداية الزقاق المفتوح على شارع الرشيد. شم روائح المطعم الهندي العابقة بالكركم والدارسيني والبصل المقلي حتى الحمرة، محتلاً الركن الأيسر، بطابقيه الممتلئين بالزبائن دائماً. «اللعنة!» قال لنفسه، لو كنت أملك ثلاثة دراهم فقط لصعدت الآن سلالم المطعم الملتوية والمصبوغة بطلاء أبيض متآكل وجلست في الزاوية العلوية تحت سقف بشكل قوس روماني وتناولت وجبة ملكية. برياني دجاج يحرق الفم ببهاراته التي لا عد لها مع مرقة فاصولياء وصحن صغير من المخلل مع الكثير من أصابع الفلفل المتبل الحاد. وفكر، كما لو أنه يلوم نفسه، كان عليّ أن أقترض ربع دينار على الأقل من منصور عبد اللّٰه. وتذكر أنه لم يكن معه سوى درهمين، اشترى بأحدهما علبة سيجاير وبدد الآخر في صعود الباصات. «لا بدَّ أن منصور نسي أن يسألني عما إذا كنت أملك نقوداً، كما يفعل عادة». كان منصور، وهو ملاحظ في دائرة البريد تعرف عليه في المقهى وذهب معه مرة أو مرتين إلى السينما، في واقع الحال شخصاً غريب الطباع، يملك دفتراً يسجل فيه ديونه على عادل، قائلاً: «سوف تدفع لي كل ذلك عندما تحصل على عمل». ولكنه كان يلجأ بعد حين عندما تكثر الديون إلى حذفها، باعتبارها ديوناً قديمة ميتة، ويفتح صفحة أخرى لديون



جديدة، يتعهد عادل بتسديدها في يوم ما. «ظلّت زوجته سهيلة جالسة طوال الوقت معنا في البيت مثل بومة ناعقة في خرابة فلم أجد في نفسي الجرأة لأطلب نقوداً في حضورها من منصور الذي يهابها مثل فأر مذعور، ليلعنها اللّه»!

في شارع الرشيد انحرف عادل يساراً باتجاه الباب الشرقي، ماراً بمتاجر تبيع الملابس النسائية وعيادات أطباء للعيون والأسنان والباطنية ومكاتب محامين ومحلات تصوير بكل الأحجام. ما بين مخزن الشرق ومخزن الهناء رأى رجلاً يخبط الأرض برجله كحصان يصهل، ممسكاً بخناق شخص آخر، سرعان ما أفلت منه وأسرع مبتعداً عنه، وهو يطلق أقذع الشتائم. شرذمة من نساء سافرات وأخريات بعباءات سوداء يتسكعن، متفرجات على آخر المدويلات المستوردة من بيروت. جلب انتباهه أحد ما يصيح عبر الشارع في الرصيف الآخر. كان ذلك هو بائع السجق الأرمني، واقفاً أمام دكانه، يؤشر بيده لأحد ما. فهبط إلى الشارع، شاقاً طريقه بين السيارات إلى الرصيف الآخر الذي كان يبدو له أكثر جاذبية وحياة. عاد القهقرى ليلقي نظرة على مقهى البرازيلية. لم يكن ثمة أحد من الذين يعرفهم ما عدا النادل البدين الذي ابتسم له وحياه من وراء الزجاج بحركة من عينيه. نادل يصلح أن يكون مديراً عاماً، يقطب ما بين حاجبيه، وهو يخزرك بنظراته، متكبراً ومزهواً بنفسه، ثم يبتسم لك، كمن يريد أن يقول لك «ها أنذا أتنازل أيها الصعلوك وأبتسم لك. ماذا تريد أكثر من ذلك؟» مثل عادل دور من يبحث عن أحد، حتى يبرر عدم جلوسه، مفكراً مع نفسه، لا فائدة من هذا المقهى، مقهى أدباء عجائز يجلسون بأدب جم ويرتشفون قهوتهم، محدقين في المارة أو يتحدثون مأخوذين عن شيلي وكيتس وشكسبير، بنفس الطريقة التي يتحدثون فيها عن عشيقاتهم. يا لهم من رومانسيين طيبين!



ضحك فجأة وشعر أنه سعيد حقاً. إلتفت إليه بعض المارة الذين ظنوه سكران. لم يهتم بذلك وواصل سيره، ممتلئاً بمشاعر جديدة، تشبه مشاعره بعد الانتهاء من كتابة نص أدبي ما. كان ذلك يشعره أنه قد أصبح أكثر غنى. فهمس لنفسه هازلاً «أنت غني حقاً يا عادل حتى إذا لم تكن تملك شيئاً». كان يفكر في مادلين وجسدها النابض بالحياة. فقد بدا له أن الحظ أخذ يواتيه. فكر لو يرى نفسه في المرآة ليبحث عما يكون قد افتتنت به مادلين عنده. ليس منظره بملابسه الرثة التي كانت تمنحه هيأة صعلوك أو فقير هندي، ولا شكل أسنانه المصفرة من أثر التبغ. ثم إذ لم يجد عنده ما يستحق أن يكون مغرياً ومثيراً في نظر مادلين طمأن نفسه بالقول، العجيب أن ثمة نساء يميزن بين الناس بالغريزة. وفيما هو يسير في الشارع تصورها وهي تتسلل إلى غرفته ليلاً، كاتمة أنفاسها حتى لا يسمعها أحد من الجيران، ثم تدخل بدون أن تطرق عليه باب حجرته وتضطجع لصقه، في الظلام.

وجد نفسه يقف أمام واجهة «غاليري يوتوبيا للفن الحديث»، فرف قلبه متذكراً دليلة التي كان قد التقاها في القطار عندما جاء إلى بغداد. كانت ثمة عواطف غريبة تغمر قلبه كلما تذكرها. فكر أنه ربما كان الحب، كما قال ذلك لأحمد ذات مرة. ولكنه استبعد الفكرة، إذ لا يمكن لذلك اللقاء اليتيم السريع معها في القطار أن يفجر كل هذه العواطف في قلبه. كان كلما حاول إبعادها عن رأسه ونسيانها عادت إليه ثانية، كما لو أن ثمة قوة خفية تجتذبه إليها. كان يشتهي النساء الأخريات ويحولهن إلى موضوع لرغباته الجنسية المتفجرة، ما عدا هذه الفتاة التي كان يفكِّر فيها كحلم لا علاقة له بالواقع، شاعراً بالعذاب والمهانة عندما يعترف أمام نفسه، ولكنها امرأة مثل كل النساء الأخريات. ثم يعود ليقول لنفسه، ولكنها ليست مثل الأخريات. تردد قليلاً أمام الغاليري الذي كان مغلقاً وفكر أنه أخطأ



عندما أهمل دعوة صاحبه الأستاذ الذي عرض عليه صداقته أثناء رحلة القطار.

بعد قليل بلغ الزقاق المؤدي إلى سينما الخيام، فعبر حانوت بائع الفلافل الفلسطيني الذي كان يقدم عصير الفلفل الأحمر الشطة الذي لم يعرفه أهل بغداد قبل ذلك. فلفل مدهش حقاً تشعر بناره في أمعائك. ثم سار حتى مدخل فندق سمير أميس الذي كانت تقيم فيه المطربة عفيفة إسكندر. كان يعرف مديره عبدالوهاب بلال، وهو عازف جلو في الأصل، متأنق يضع نظارات سوداء فوق عينيه، اعتاد أن ينشر مقالات غامضة عن الموسيقى في الجرائد. فكر لحظة أن يصعد إليه. ولكن ما الذي يمكن أن يقوله له؟ سيقدم له بالتأكيد مقالة جديدة، طالباً رأيه فيها. كان ثمة إحساس خاص ينتابه كلما بلغ سينما الخيام، عزاه إلى ذكرياته عن الأفلام التي شاهدها في مدينته كركوك. إنه لا يزال يتذكر الكثير منها، مفكراً كم كان سعيداً حينذاك وكيف أنه هو نفسه قد تغيّر كثيراً. ألقى نظرة على لوحة الإعلانات الكبيرة فوق المدخل، محاطة بأضوية النيون. كان فيلماً امتدحته الصحافة كثيراً بعنوان «جامع الفراشات»، ففكر في أن يشاهده قبل نهاية الأسبوع. سار خطوات حتى بلغ مقهى «سمر» الذي كان يظل مغلقاً طوال الشتاء، فاجتازه إلى الجهة الأخرى من ساحة الباب الشرقي، حيث وقف أمام عربة بائع لبلبي وضع عليها فانوس لوكس يضيء المكان وبديك منكمش على نفسه، مربوط من رجله اليسرى بخيط إلى عمود العربة، وواقف أمام القدر الكبيرة التي كان يتصاعد منها البخار ويتراكم فوق جناحيه، فيبدو كما لو كان مغسولاً لتوه بالماء، وطلب ماعوناً أضاف إلى مائه قليلاً من عصير حامض في قنينة، جرعه على دفعات. كان الديك هادئاً بصورة غريبة، غير عابئ بأصوات الزبائن أو بصاحبه الذي كان يعلن عن أكلته بمقاطع مسجوعة تشجي القلوب:



لـبـلـبـي مـطـبـوخ بـمـرق الـديـوك
لا يـأكـلـه إلا أولاد الـمـلـوك.

ضحك عادل سليم الأمير، وهو يركز النظر في عرف الديك الهادئ بصورة مثيرة للريبة، قائلاً لبائع اللبلبي المتقد حماسة، مشاكساً:

ـ ولكنني أرى ديكك يأتي معك كل ليلة ويعمل معك، فعن أي ديك تتحدث؟

أجابه البائع مستنكراً:

ـ هذا الديك مثل ابني، لا أفرط به أبداً. هل تعتقد أنه لا يوجد ديك آخر في العالم حتى تريدني أن أذبحه لك؟

فقال عادل ساخراً:

ـ بالعكس إنني أتمنى كل الخير لديكك. ليحفظه اللّٰه لك، فهو كما يبدو لي ديك أعمال من الدرجة الأولى.

توجه بطريقة لا إرادية إلى المقهى القريب الذي كان يقع عند موقف الباصات تماماً، وهو مقهى بممر طويل وقاعة واسعة، كل زبائنه تقريباً من الجباة، يظل مفتوحاً ليلاً ونهاراً. ولأنه كان بدون اسم فقد أطلق عليه هو وأصدقاؤه الذين كانوا يقصدونه أحياناً في الساعات المتأخرة من الليل اسم «مقهى الجباة». لكنه إذ تذكر أنه لم يعثر فيه الآن على أحد من الذين يعرفهم قفل راجعاً، مفكراً في الذهاب إلى شارع أبي نواس والمرور على حاناتها الكثيرة، للبحث عن أحد يسكر معه أو يستدين منه على الأقل، سار خطوات قليلة حتى بلغ مكتبة مكنزي التي تبيع الكتب الإنكليزية فانسل داخلاً إليها، ملقياً نظرات آسفة على الكتب الجديدة التي يبدو أنها قد وصلت حديثاً. فكر أن يسرق بعضاً منها، لكنه جبن أمام نظرات صاحب



المكتبة الذي كان يراقبه، حيث لم يكن ثمة سوى زبونين آخرين غيره يتصفحان الكتب. ثم قال لنفسه معزياً، بدل الإقدام على مغامرة غير مأمونة العواقب سوف أوصي غداً أحداً من أصحابي الذين يملكون خفة اليد وثبات القلب ليسرق لي الكتب التي أريدها. لم يكن مخطئاً في اعتقاده على أي حال. فقد كان يحصل دائماً على نصيبه من الكتب التي يسرقها هؤلاء الأصدقاء المهرة، حتى انه تعرض ذات مرة إلى التوبيخ عندما قال لأحدهم أنه اشترى كتاباً بربع دينار:

ـ لماذا هذا التبذير الذي لا معنى له؟ كان في إمكاننا أن نسكر بالربع دينار وتحصل على كتابك في الوقت ذاته.

كان ثمة من لا يسرق نسخة واحدة من الكتب الجيدة وإنما كلها، ليس في يوم واحد بالطبع وإنما على امتداد أسبوع أو أسبوعين، تجنباً لإثارة شكوك أصحاب المكتبة حول النفاد السريع للكتاب.

شعر عادل وهو في الشارع مرة أخرى برغبة شديدة في أن يشرب استكانا من الشاي. ولم تكن قد بقيت في جيبه قطع نقدية صغيرة، ولذلك قرر أن يعود ثانية إلى مقهى الجباة الصاخب دائماً، حيث يمكن أن يتسلل متى ما شاء إلى الخارج، بدون إحراج وأن يدفع ثمن استكان الشاي بعد ذلك. فقد كان الكثيرون يغادرون المقهى لفترة قصيرة أو طويلة ويعودون إليه ثانية ليشربوا استكاناً آخر من الشاي قبل أن يدفعوا حسابهم ما دام صاحب المقهى يعرفهم أو يعرف وجوههم على الأقل.

كان في الحقيقة مستسلماً بكامله للرجل الآخر الساكن داخل رأسه، متنقلاً من فكرة إلى أخرى، سرعان ما كان ينساها ومن مشروع مجنون إلى آخر أكثر جنوناً سرعان ما تعصف به ريح النسيان أيضاً، فيجهد أحياناً ليتذكر ما كان قد فكّر به لتوه، بدون جدوى، آه، ماذا كان ذلك؟ يبدو أنني فكرت بأمر مهم. اللعنة! لا يمكن لي أن أنساه



بهذه السهولة، لو كان مهماً حقاً». ثم حين يتذكره في النهاية ويطيل التفكير به يطرحه جانباً. «كل هذا لا يفيد. كل هذا لا ينفع».

انتبه إلى أنه كان يشرب الشاي في المقهى، غافلاً عن صخب الجباة الذين يضج بهم الممر الطويل، داخلين أو خارجين منه. كان غائباً عن العالم بشكل ما، لكنه حين انتبه إلى أنه كان يبتسم في وجه ثلاثة جباة آخرين يشاطرونه الطاولة قال بقناعة الواثق من نفسه، سوف تدبر الحياة نفسها أموري في النهاية. في تلك اللحظة نهض اثنان من الجباة الجالسين إلى المائدة وغادرا المقهى فيما التفت إليه الثالث الذي ظل في مكانه، سائلاً إياه، كمن يحادث صديقاً:

ـ ما رأيك في أن نلعب دستاً من الطاولي؟

كان ذلك كافياً ليجعله ينهض ويعتذر له من أنه ذاهب إلى زيارة صديق سوف ينتظره في الشارع. في طريق الخروج أومأ لصاحب المقهى الجالس عند المدخل، وهو حاج يرتدي دائماً عمامة مذهبة، بيده مشيراً إلى أنه سوف يعود ثانية، بدون أن ينتظر جواباً.



٨
الشيطان يكشف عن نفسه

كان مرة أخرى في الشارع. ظل في مكانه لحظات لا يعرف في أي اتجاه يسير. فقد الرغبة فجأة في البحث بدون هدى في الحانات عن أحد يعثر عليه صدفة، شاعراً بالضجر من كل شيء. وعندما فكّر أنه جائع وأن عليه أن يأكل شيئاً ما أحس بأنه لا يختلف كثيراً عن أي حشرة أو دابة، وأنه عبد معدته التي تفرض عليه حتى عاداته وقيمه الأخلاقية. أي بؤس هذا أن يدفعك الجوع إلى الانتقال من حانة إلى أخرى، بحثاً عن منقذ قد لا تعثر عليه في نهاية الرحلة! ثم قال لنفسه بصوت مسموع، اللعنة لا بدَّ لي من أن أتوصل إلى طريقة أتحرر فيها من الجوع. لا يمكن أن أظل عبداً لمعدتي حتى النهاية.

عَبَر الشارع إلى الرصيف الآخر وانحدر إلى الحديقة التي كانت نصف مضاءة، متجولاً في أنحائها، غير آبه بنظرات بعض القوادين الشبان الجالسين على المصاطب والغلمان الريفيين الواقفين تحت الأشجار في انتظار الزبائن. ثم إذ عثر على مصطبة وسط فسحة خضراء في نهاية الحديقة جلس على الحافة وراح يحدق بشهية في أوراق الأشجار المرتفعة أمامه. كان يعرف أن الفلاسفة والمتصوفين القدامى غالباً ما اقتاتوا على أوراق الأشجار خلال إقاماتهم الطويلة في مغاور الجبال، بعيداً عن الناس وشرورهم وقد رأى شيوخه



الأربعة الذين ضاعوا منه يأكلون العشب وأوراق الأشجار، مؤكدين له أن العشب وحده أنقذ حياتهم من الموت. إذ تذكر كل ذلك مد يده واقتطع بضع وريقات ملأ بها فمه، لكنه سرعان ما بصقها. لم يكن طعمها مراً كما توقع وإنما حامض بعض الشيء. أحس ببعض الخوف في البداية من أن تكون الأوراق سامة، إلا أنه طرد الفكرة من رأسه، قائلاً لنفسه، إذا كانت الدواب تلتهم أوراق الأشجار طوال حياتها وتسمن فلا بدَّ أنها تعرف ما تفعله. تذوق أوراقاً من شجرة أخرى، معتبراً الأمر اختباراً لمعدته. فإذا ما سار كل شيء على ما يرام فإنه ربما يكون قد توصل إلى حل سحري لمشكلته وشعر بالسعادة تغمر قلبه.

لكن الوساوس سرعان ما عاوته فراح يفكر مرعوباً أنه ربما كان قد أخطأ عندما تذوق أوراق أشجار لا يعرف حتى اسماءها وأنه سيموت بسبب حماقته تلك، إذ لو كان مثل هذا الأمر ممكناً حقاً لاعتاشت البشرية كلها على أوراق الأشجار وربما على الحشيش أيضاً. لكنه طرد من رأسه فكرة أكل الحشيش، مرتعباً من فكرة الانحدار إلى مستوى الخرفان. ثم قال لنفسه، مواسياً: «أن تكون خروفاً أفضل من أن تكون عبداً لمعدتك»، متذكراً حكمة عربية قديمة تقول: «لقي صاحب ملك فيلسوفاً يرعى العشب ويأكله، فقال له: لو خدمت الملوك لما احتجت إلى أكل الحشيش. فرد عليه الفيلسوف: وأنت لو أكلت الحشيش لما احتجت إلى خدمة الملوك». هذه النادرة جعلته يطمئن بعض الشيء، لا بدَّ أن العرب كانوا يأكلون الحشيش وإلا لما ألفوا هذه الحكاية التي تشجع الناس على اعتلافه. وطمأن نفسه، ومع ذلك فإنني لم آكل وإنما تذوقت فقط أوراق شجرة، وهذا أمر مختلف تماماً. البشرية كلها تأكل ثمار الأشجار، تاركة الأوراق بطراً. لا يبدو ورق الأشجار شهياً ولذيذاً، لكنه يمكن أن يملأ المعدة



على أي حال. ولكي يبعد المخاوف عن قلبه تذكر أنه كان يأكل التراب عندما كان طفلاً، بدون أن يصاب بأذى، مستنتجاً أن الأوراق لا يمكن أن تكون أكثر ضرراً من التراب.

مشجعاً نفسه مد يده وراح يقتطع المزيد من الأوراق والحشائش ويحشو بها جيوبه، ليأكلها في الليل في غرفته إذا ما شعر بالجوع. «على المرء أن يجرب كل شيء. لن أموت بسبب ذلك بالتأكيد». ثم ارتعب من الفكرة، شاعراً بالألم في جوفه فجأة، «يبدو أنني سأموت حتى قبل أن أقدر على وصول المستشفى. ليرحمك اللّه يا عادل!»

كان غارقاً تماماً في هواجسه عندما انتبه إلى شخص يبزغ فجأة من الظلام الشاحب الذي كان تبدده أضوية المصابيح الكهربائية البعيدة ويقترب منه. أحس بالإرتباك كمن ضبط متلبساً بارتكاب جريمة، لكنه تدارك نفسه ورفع رأسه، ممعناً النظر في الرجل الذي وقف أمامه وراح يبتسم له. كان رجلاً في حوالي الثلاثين من عمره، يرتدي سروالاً أزرق وسترة جلدية سوداء. حياه وجلس على الطرف الآخر من المصطبة، مطلقاً آهة جعلت عادل يسأله إن كان مريضاً. لكن الرجل أجابه، وهو يغتصب الابتسام:

ـ كلا، كلا، كل ما في الأمر هو أنني لا أحب الأيام الغائمة. إنها تذكرني دائماً بأن العالم ليس على ما يرام.

ـ كنت أعتقد أن طقس بغداد في الشتاء هو أفضل مما عليه في المدن الأخرى. ولكن يخيل إليّ أنك غريب عن هذه المدينة.

رد الرجل الغريب ضاحكاً:

ـ وكيف عرفت ذلك؟ ليس من لهجتي بالتأكيد، إذ لم تعد لبغداد لهجة خاصة بها هذه الأيام، أنت تعرف أن معظم سكان بغداد هم من النازحين إليها.



لم يكن عادل قد فكّر في مثل هذا الأمر من قبل، إلا أنه انتبه إلى أنه هو الآخر يتحدث بلهجة غريبة، ولذلك قال:

ـ هذا صحيح، أنا نفسي أتحدث بلهجة أخرى.

فأومأ له الرجل برأسه قائلاً:

ـ أعرف ذلك.

لم يرد عادل أن يسأله كيف عرف بذلك حتى لا يتورط معه في المزيد من الحديث عن نفسه، فساد صمت قصير قطعه الرجل بسؤال بدا لعادل مفاجئاً ومزعجاً:

ـ هل تأكل أوراق الأشجار دائماً؟

كان عادل قد خمن قبل ذلك أن الرجل كان قد رآه، وهو يمضغ الأوراق. ولذلك قال له:

ـ لا أعتقد أن الأمر يعنيك. إنني آكل ما أشاء.

رد الرجل بأدب بالغ:

ـ أرجو المعذرة إذا كنت أزعجتك. لم أكن أقصد سوءاً بسؤالي، فأنا نفسي آكل أوراق الأشجار والعشب أيضاً.

ضحك عادل وقال له معترفاً:

ـ الحقيقة، هذه هي المرة الأولى التي أفعل فيها مثل هذا الأمر.

قال الرجل الغريب:

ـ لقد خمنت ذلك. إن المرء لا يأكل أي ورق أشجار أو عشب يصادفه.

ـ ربما تختلف أوراق الأشجار عن بعضها ولكن العشب هو العشب دائماً.

ـ ليس تماماً، ثمة أعشاب وأوراق سامة وأخرى مرة أو يصعب هضمها. تأكد أولاً مما تأكله. إنني أفضل في الحقيقة عشب البراري



على عشب حدائق المدن. ثم مد يده وأخرج من جيبه قنينة صغيرة قدمها له:

ـ هذه قنينة برمنغنات لغسل الأوراق والأعشاب قبل إلتهامها. أرجو أن تقبلها هدية مني.

تناول عادل القنينة الممتلئة حتى منتصفها بحبوب حمراء صغيرة ودسها في جيبه، وقد استحوذت عليه الشكوك حول حقيقة الرجل الذي كان يجلس قريباً منه، مطيلاً النظر فيه، بدون أن تفارقه ابتسامته، ثم قال بصعوبة:

ـ شكراً. لا أعتقد أنني سأعود إلى ذلك.

رد الرجل معترضاً:

ـ وماذا في الأمر؟ العشب وجبة الشيطان المفضلة.

اندهش عادل، فقال له:

ـ الشيطان؟ أين يمكن العثور على مثل هذا الكائن البائس؟ إنني لم أعرف حتى الآن سوى البشر، وهم ليسوا أقل سوءاً من الشيطان.

ضحك الرجل الغريب:

ـ ولكن ربما كان من المفيد أن تتعرف على الشيطان أيضاً.

ثم مد يده إليه قائلاً:

ـ يشرفني أن أكون الشيطان الأول الذي تتعرف عليه.

صافحه عادل وقال له ساخراً:

ـ حسناً، كيف هي أحوالك أيها الشيطان؟

ـ سيئة، سيئة جداً، إذ لم يعد أحد يؤمن بي، ولكنني أحاول مع ذلك أن أظل على قيد الحياة في هذا الزمن الصعب على الجميع. فإن لم يؤمن بي أحد فسوف أنقرض في النهاية.

قال عادل:



ـ إن هذا يبدو طريفاً حقاً، كنت أعتقد أن الشيطان يملك قروناً وحوافر دابة، وهو ما لا يمكن أن أقوله عنك.

ابتسم الرجل:

ـ إنها إشاعات تخلو من أي قيمة. لا بدَّ أنك مولع بقراءة الحكايات الخيالية التي كان القدامى يروونها عنا. أنت تعرف كم كان الناس يحبون القصص الغريبة في تلك الأزمنة الغابرة.

بدا الرجل طريفاً لعادل، فسأله متهكماً:

ـ والآن قل لي حقاً من أنت أيها الشيطان؟

أخرج الرجل علبة سيجاير روثمان من جيبه وقدم سيجارة لعادل أشعلها له، كما أشعل لنفسه سيجارة سحب عدة أنفاس منها، كما لو أنه يبحث عن وقت للتفكير في ما سيقوله له:

ـ أنا صديقك الشيطان يا عادل سليم الأمير، هل نسيتني؟

ارتعب عادل عندما سمعه يلفظ باسمه بل وحتى بلقبه الذي لم يكن يعرف به سوى القليلين، وفكر أنه ربما يكون الشيطان نفسه حقاً.

واصل الرجل حديثه:

ـ لقد قدمت لك خدمة أولى حتى الآن، لكنك لم تشكرني عليها.

ارتبك عادل:

ـ وماذا فعلت من أجلي. لا أعتقد أنني رأيتك من قبل.

ضحك الرجل الذي سمى نفسه الشيطان:

ـ بلى، ولكنك سريع النسيان كما يبدو. لقد تمنيت أنت نفسك لقائي اليوم وخرجت تبحث عني. ألا تذكر كل ذلك؟ حسناً، أنا الذي عرفك بدليلة ووضع مغارته الخاصة تحت تصرفك. لا تهتم، سوف أدبر لك أمورك الأخرى أيضاً إذا ما شئت، ومن بينها أمور قلبك. هل



تريد أن تخفي حبك لدليلة عني؟ سوف أطلب منها أن تزورك، ألا يكفي هذا لتتأكد من حقيقتي؟

ارتعب عادل بطريقة جعلته يعجز عن الكلام للحظة قبل أن يتمالك نفسه ويقول له:

ـ آه، أنت الأستاذ صاحب «غاليري يوتوبيا» الذي مثل دور الشيطان. كيف أنت؟

ثم أضاف بنبرة ممازحة:

ـ أنت الشيطان فعلاً، لكن لا يمكن لدليلة أن تكون أيضاً شيطاناً مثلك. ما هذا الذي تقوله عنها وعني يا أستاذ؟

ـ بالعكس أنها ملاك، ملاك حقيقي هبط من السماء ليمثل معي في مسرحيتنا المشتركة.

ـ قل لي كيف غيّرت شكلك هكذا؟ لم تكن لك مثل هذه التسريحة.

ربت الأستاذ على كتفه بمودة:

ـ أرجو ألا تكون قد صدمت بما قلته لك. لقد جئت أعرض عليك خدماتي بعد أن رأيت أحوالك تسوء اليوم بعد الآخر، وهذا هو كل ما في الأمر. لا ينبغي لك أن تخشى سوءاً مني. بالعكس سأحقق لك كل ما تحلم فيه في حياتك.

ابتسم عادل وقال له:

ـ من يصدق الشيطان؟ كنت أعتقد أنك قد مت منذ زمن بعيد؟

رد الأستاذ ضاحكاً:

ـ هذه فكرة مضحكة يا عادل. الشيطان لا يموت أبداً.

ـ إذا كنت الشيطان حقا، وليس ممثلاً في مسرحية، فلا بدَّ أنك ستطلب مني الحصول على روحي لقاء خدماتك لي، ولكني لن أفعل ذلك حتى لو أعطيتني كل كنوز قارون.



أطلق الأستاذ ضحكة مدوية في الظلام:

ـ ماذا أفعل بروحك يا عزيزي عادل؟ كل ما في الأمر هو أنني وجدتك ضالاً فأشفقت عليك وجئت أعرض عليك خدماتي المجانية بعد أن عرفت بحبك لدليلة التي أجلها كثيراً. هل طلبت منك أي شيء حتى الآن؟ يكفيني أن تؤمن بوجودي لأشعر أني حي حقا. يكفيني أن تعتبرني ممثلاً في مسرحية.

ثم نهض وقال:

ـ والآن يجب أن أذهب. سوف ألتقيك فيما بعد، لقد أثرت أعصابي حقاً.

ثم كمن تذكر أمراً نسيه:

ـ أرجو أن تحتفظ بسر هذا اللقاء لنفسك. لا تقله لأي كائن فوق الأرض وإلا أفسدت عليّ جميع خططي.

ثم كمن تذكر أمراً ما:

ـ أعرف أنك مفلس تماماً الآن، ولكن لا تأبه لذلك.

انتهز عادل الفرصة فقال له:

ـ ناولني إذن بعض النقود يا أستاذي الشيطان ما دمت تعرف ذلك.

رد الأستاذ مطمئناً:

ـ بعد قليل سوف يمتلئ جيبك بالنقود.. كل ما تحتاجه هو أن تغادر هذا المكان وتخرج إلى الشارع.

استوقفه عادل:

ـ حسناً، كيف أعثر عليك إذا ما احتجت إليك؟ لا يبدو لي أن من السهل العثور عليك في الغاليري.

ضحك الأستاذ وقال له:

ـ لا تقلق، ستراني حتى تمل من رؤيتي.



ثم انسل في الظلام واختفى بين الأشجار.

لا يعقل أن أصدق مثل هذا الهراء. شيطان في مثل هذا الزمان! يا له من ممثل بارع. كدت أصدقه للحظة. ما كاد يصل إلى هذه النتيجة التي حاول أن يقنع نفسه بها حتى ابتسم في الظلام مقرراً نسيان الأمر كله.

تذكر فجأة وهو في الشارع صديقه أحمد الذي لم يلتق به منذ ليلة الملهى وفكر أنه قد يقلق عليه إن لم يزره، كل ما أحتاجه هو أن أعبر الزقاق لأصل إلى بيتهم، كيف نسيت ذلك؟

أثار وصول عادل ضجة فرح في البيت كله، إذ قال له أحمد حالما فتح له الباب:

ـ قل لي بحق اللّه، أين اختفيت كل هذه المدة؟

لم يجد عادل ما يبرر به غيابه المشبوه سوى اللجوء إلى الكذب، رامياً اللوم على انشغاله بالدراسة في الكلية. ثم سرعان ما بدا كل شيء على ما يرام بعد تناول عشاء من الدولمة واحتساء عدة استكانات من الشاي. خلال تلك الجلسة قال له شاكر الطيار أنه ظل يسأل عنه أحمد كل يوم ليوصل إليه ما عنده من نقود له. سأل عادل مستغرباً:

ـ أي نقود تعني؟

نهض شاكر الطيار وأخرج من صندوق فوق الرف كومة من الدنانير:

ـ لم أستطع أن أحصل لك على أكثر من هذا.

وأمسك عادل برزمة النقود في يده. قال شاكر الطيار:

ـ إنها خمسة وعشرون ديناراً. ثمن المسدسين اللذين أرسلهما والدك إليك. رد عادل:

ـ لم أجلبهما إليك لتبيعهما. لقد أعطيتهما لك.

ضحك شاكر الطيار:



ـ وماذا أفعل بهما؟ هل تعتقد أنني ذاهب إلى الحرب. ضع الدنانير في جيبك يا بني واستمتع بها، إنها نقودك الحلال.

استعاد عادل سليم الأمير ألقه ثانية. في طريق العودة إلى غرفته قصد مقهى الجباة ودفع للحاج ثمن استكان الشاي الذي كان قد شربه، ثم اشترى بضع علب من سيجاير ماركة غازي المحلية، ماراً ثانية بسينما الخيام التي كان زوار العرض الثاني يغادرونها، متدفقين إلى الشارع في مظاهرة مضطربة التنظيم. عندما بلغ شارع الرشيد رأى نفسه داخل حشد هائل من الناس، يصرخون ويطلقون أبذأ العبارات. متابعين ثلاث فتيات خارجات من السينما، ربما كن راقصات مستوردات للملاهي أو سائحات فليبينيات أو تايلنديات، يرتدين سراويل جلدية ضيقة تلتصق بأجسادهن وتكشف عن مفاتهن. كان الواحد بعد الآخر يفاجئهن من الخلف ويضع إصبعه الوسطى في مؤخراتهن فيجفلن، وهن يكدن يمتن من الرعب، فيما الجمهور يضحك مستمتعاً.

ظل عادل يراقب المشهد مستغرباً حتى وقفت سيارة أجرة صعدت فيها الفتيات المرعوبات، ناجيات بمؤخراتهن من الحشد الذي ظل يلاحقهن حتى اختفين داخل السيارة التي انطلق بها السائق بسرعة كبيرة، مبتعداً عن الحشد.

قال عادل مخاطباً نفسه، يا له من شعب فكاهي تعجبه المؤخرات المكورات الشهيات! إنهم لم يكونوا يقصدون سوءاً بالتأكيد. كان ينبغي عليّ أن أقترب منهن وأقول لهن ذلك. ربما كن سيفرحن هن أيضاً ويتركنهم يمسدون مؤخراتهن بكرم حاتمي.

عندما بلغ البيت وفتح الباب وجد الفناء غارقاً في الظلام، لكنه تلمس طريقه بحذر إلى السلم المتهدم، صاعداً إلى غرفته في الطابق الثاني. توقف في الطارمة، ضاغطاً على الزر الكهربائي قبل أن يخرج



مفتاح باب غرفته. في الضوء الذي غمر المكان لمح بين رجليه عقرباً سوداء تعدو رافعة ذنبها إلى الأعلى فتراجع إلى الخلف، خائفاً حتى من أن يسحقها بحذائه وراح يصرخ، محدِثاً جلبة جعلت سكان البيت يطلون من نوافذ حجراتهم، ليتبينوا جلية الأمر. سمع رجلاً يطل برأسه من النافذة في الطرف الآخر من الطابق الثاني ويسأل بصوت عال:

ـ ماذا هناك؟

أجاب عادل:

ـ عقرب سوداء كادت تلدغني.

فرد عليه الرجل موبخاً:

ـ وهل يستحق الأمر أن تحدث كل هذه الضوضاء؟ ماذا كنت ستفعل لو رأيت أسداً؟

ثم أغلق نافذة غرفته منزعجاً.

كانت الضجة قد جعلت باب الغرفة المواجهة لغرفته تنفتح أيضاً، حيث رأى الأرمنية العجوز أم أرسين تقف مع زوجها الذي كان يرتدي البيجاما أمام الباب. قالت أم أرسين:

ـ هناك عقارب كثيرة، لكنها لا تدخل الغرف أبداً. إنها تخرج في الليل فقط.

بحثت هي وزوجها عن العقرب بدون طائل. قال زوجها العجوز:

ـ لا بدَّ أنها اختفت في أحد الثقوب.

حينذاك قالت أم أرسين:

ـ هذا هو يا آكوب جارنا الشاب الذي حدثتك عنه.

قال آكوب:

ـ أعرف، أعرف.



ثم وجه الكلام إلى عادل:

ـ كنت أشرب العرق وحدي. هيا تفضل واشرب كأساً معي حتى تنسى هذه العقارب اللعينة.

لكن عادل سليم الأمير الذي كان مشتت الذهن، اعتذر بالتعب، واعداً إياه بأن يفعل ذلك في يوم آخر، ثم دلف إلى غرفته، مغلقاً الباب وراءه، ليتأمل في أحداث يومه، وهو يضطجع على فراشه في الظلام.



٩

حفلة صغيرة في البيت الكبير

في الصباح وكان عادل لا يزال مضطجعاً في فراشه بين النوم واليقظة سمع طرقاً خفيفاً على الباب فنهض مسرعاً وفتحه، حيث بوغت بمادلين واقفة أمامه حاملة إليه الفطور في طبق معدني مع إناء للشاي. حيته ودخلت، قائلة:

ـ لا بد أنك جائع، لقد أعددت لك الفطور.

كان قد بوغت بالأمر في البداية فظل لا يعرف ما يقوله لها، بيد أنه سرعان ما تدارك نفسه فمد يده إلى شعرها وجرها إليه، محتضناً إياها ومقبلاً إياها في عنقها. قالت:

ـ أخشى أن تعود أم أرسين من السوق وترانا. لنؤجل ذلك إلى وقت آخر.

لكنه سحبها من يدها إلى الفراش الذي جلست على حافته:

ـ أريدك الآن.

ـ سوف أتسلل إليك في الليل عندما يكون جورج في العمل. إنه نائم الآن تحت ولا أريده أن يشعر بغيابي. انتظرني الليلة بعد الساعة العاشرة.

قبلها من فمها فيما ظلّت يده تسرح فوق صدرها وبطنها تحت ثوبها المنزلي:



ـ حسناً لا تجعليني أنتظرك طويلاً.

منذ تلك الليلة وطيلة شهور علمته مادلين كيف ينتفض الجسد ويرقص في الظلام، جاهدة أن تكتم تأوهاتها التي كانت تفلت منها بين الحين والآخر، شاقة صمت الليل. وفي النهاية قالت له مادلين التي كانت قد اصطحبته أكثر من مرة معها إلى بيت أختها هيلدا في بغداد الجديدة فضاجعها في غرفة النوم على السرير، إن من الأفضل لهما أن يعثر له على سكن آخر تستطيع أن تزوره فيه بعيداً عن الأعين المتلصصة، بعد أن شعرت نساء البيت اللواتي ما كان يمكن لأمر مثل هذا أن يفوتهن بزياراتها الليلية له، فرحن يغتبنها حسداً، طامعات في سرقته منها مما جعلها تشعر بالخطر الذي يتهدد علاقتهما. الوحيدة التي تسترت على الأمر هي أم أرسين التي ظلّت تكن مودة خاصة لعادل الذي كتب لها ثلاث رسائل إلى ابنها أرسين في أميركا بطريقة عاطفية مؤثرة حتى أجاب في النهاية، فانتشر الخبر في البيت وكل البيوت المجاورة، حيث راحت العجوز الأرمنية تستقبل زائراتها في غرفتها وتقدم لهن الشاي والكعك وهي لا تكاد تتمالك نفسها من الفرح، مادحة عادل أمامهن على أسلوبه وبراعته في كتابة الرسائل:

ـ إنه صحافي ومتعلم مثل أرسين.

لم يكن ثمة ما هو مهم في تلك الرسالة القصيرة التي أوصلها ساعي البريد بعد ظهر أحد الأيام إلى البيت سوى اعتذار أرسين عن تأخره في الكتابة لانشغاله في الدراسة والعمل، وما عدا ذلك فإن كل شيء على ما يرام. ولكن ما أفرح أم أرسين أكثر من أي شيء آخر هو إشارته إلى أنه يسعى الآن لتدبير سفرهما إلى أميركا، وهو أمر ليس سهلاً ويتطلب بعض الوقت بسبب الإجراءات الطويلة التي سوف يتابعها المحامي، فعليهما إذن التحلي بالصبر والتخلي عن القلق حتى تصدر الموافقة النهائية. ومما زاد في فرح أم أرسين وزوجها العجوز



هو ورقة المئة دولار التي كان أرسين قد دسها بين طيات الرسالة، فأفلتت من بين أيدي رقباء البريد الذين كانوا يسطون في العادة ليس على النقود فحسب وإنما على المجلات الجنسية والكتب القادمة من الخارج أيضاً، بدعوى أنها ممنوعة ثم يبيعونها بأسعار غالية في السوق السوداء.

في المساء سهر عادل في الغرفة المواجهة لغرفته مع العجوز آكوبيان الذي أراد أن يحتفل بالحدث السعيد، فدعاه ليشرب معه بضع كؤوس من العرق المغشوش الذي اشتراه من سنحاريب القس الذي كان يبيعه بدون رخصة رسمية في دكانه الواقع في أحد الأركان الخلفية من المحلة والذي لبى الدعوة هو الآخر عندما عرف أن عادل سيكون ضيف الشرف فيها.

لم يكن سنحاريب القس في الحقيقة صاحب دكان صغير فحسب، وإنما شاعر من طراز خاص، في حوالي الخامسة والثلاثين من عمره، لا يكاد كتاب الوجود والعدم لسارتر يفارق يديه، لكن من دون أن يفلح أبداً في اجتياز الصفحة الثانية منه. كان يعاني من قواعد اللغة العربية ويلفظ الحاء خاء على الطريقة الآشورية مثل كلمة حبيبتي التي كانت تنقلب في فمه إلى خبيبتي، بيد أن حبه الغريب للأدب والأدباء جعله يعلق بعادل سليم الأمير منذ الأيام الأولى لانتقاله إلى البيت الكبير، عارضاً عليه قصائده الغرامية ليبدي رأيه فيها، عندما عرف أنه شاعر تنشر الصحف والمجلات كتاباته، طالباً منه تقديمه للوسط الأدبي، حتى انه راح يتساهل معه ويبيعه العرق بالدين لقاء الإستماع إلى قصائده التي كان يصر على إلقائها بصوته المنغم عليه، بعد إرغامه على الجلوس قربه داخل الدكان فوق صفيحة زيت مغطاة بورق جريدة ما، محدقاً في وجهه بين بيت وآخر ليرى تأثير ما يقرؤه عليه، وحينما تراكمت الديون عليه وبلغت أكثر من دينارين، ساومه الشاعر الآشوري



في النهاية على إلغائها كلها مقابل نشر قصيدة له في الصحف. وهكذا اختار عادل سليم الأمير واحدة من قصائده، أعاد كتابتها ثم نشرها مع صورته في ركن بريد القُراء في صحيفة يومية كان يعرف محررها، فاقتطع سنحاريب القس القصيدة التي تحمل اسمه ووضعها داخل إطار أنيق بالزجاج وعلقها على جدار دكانه، منبهاً كل من يمر به إليها.

في تلك الجلسة التي استمرت حتى ساعة متأخرة من الليل وحضرتها مادلين أيضاً، مساعدة أم أرسين في إعداد المازة والطعام انتشى العجوز آكوب آكوبيان فتحدث أولاً عن ابنه أرسين الذي كان يحفظ أسماء كل ممثلي السينما ويقلّدهم في طريقة كلامهم وحركاتهم، مؤكداً على أنه واثق من أنه سيصير ممثلاً كبيراً في أميركا مثل جيمس دين وربما غنياً أيضاً مثل روكفلر. ثم انتقل إلى الحديث عن الخياطين الذين يعمل معهم، منتقداً عدم إتقانهم خياطة القمصان التي يضع صاحب المحل ماركة فرنسية عليها وتبيعها المتاجر كبضاعة مستوردة من بيروت. عند ذاك ردت عليه أم أرسين ضاحكة:

ـ إنك لست أفضل منهم. فبعد أربعين سنة من عملك خياطا لم تتعلم خياطة البدلات الرجالية. كان عليك أن تكون أوسطه من زمن طويل.

جرع آكوب آكوبيان رشفة من كأسه وقال:

ـ لقد تعلمت الخياطة في راوندوز، وليس في بغداد، الناس هناك يرتدون الشراويل والقمصان وليس البدلات الأوروبية. لا ذنب لي في الأمر إذا كان الجميع قد صاروا فجأة أفندية.

وهنا تدخل سنحاريب القس وأخرج كومة من القصائد من جيبه، معلناً:

ـ لنغير الموضوع، سوف أقرأ عليكم بعض قصائدي لتقولوا رأيكم فيها.



ثم راح يتلو واحدة من قصائده التي قال إنه كتبها في صباح اليوم نفسه. كانت القصيدة بعنوان «خبيبتي جولييت»:

أنا رأيتكِ يا جولييت دائماً أمامي
تسيرين مثل قضيب البان
لكنك لم تسلمي علي. لماذا؟ هل أنت خجلانة؟
ألا تعرفين كم أنا أخبك من قلبي
وأسهر الليل من أجل عيونك وأبكي.
تعالي يا جولييت وامنحيني قبلة واحدة
وقولي لي:
روميو
أنا أخبك دائماً.

حينما انتهى سنحاريب القس من تلاوة قصيدته ضحكت مادلين وقالت له بالآشورية: «قطمه بريشه». ثم أكملت بالعربية، ساخرة:

ـ هل عذبتك جولييت إلى هذا الحد؟ كلمها يا أخي حتى تتأكد من حبها لك على الأقل؟

رد سنحاريب القس منزعجاً:

ـ ما أدراك أنت بالشعر، هذا ليس شغلك. لقد قرأت القصيدة ليقول الأستاذ عادل رأيه فيها.

ضحكت مادلين بغنج:

ـ قد أكون جاهلة في الشعر ولكنني أفهم في الحب.

وجد عادل نفسه محرجاً، لا يعرف ما يقول فيما توجهت الأنظار إليه لسماع رأيه، فتهرب قائلاً:

ـ قصائدنا تختلف عن الشعر العربي القديم. لقد تغيّرت الأذواق مع الزمن. كل شاعر يكتب الآن بالطريقة التي تعجبه.

حينذاك تدخّل آكوب آكوبيان وقال:



ـ هناك شاعر كبير فصلنا له قبل سنين كما أتذكر بدلة في المحل. يقولون إن الملك نفسه كان يخاف من شعره. ما اسمه، بحق المسيح؟ الجواهرجي، كما أعتقد، نعم، الجواهرجي.

قال عادل مصححاً:

ـ لا بد أنك تقصد الجواهري. كان ذلك في العهد الاستعماري.

هتف آكوب آكوبيان:

ـ نعم، نعم، الجواهري. هذا هو اسمه بالضبط. كان يعمل صائغاً للجواهر.

حينذاك قالت أم أرسين وقد صدقت الأمر:

ـ لا بدَّ أن الناس كانت تقدره على محل الجواهر الذي يملكه.

فرد عليها سنحاريب القس:

ـ الشعراء فقراء دائماً وكان الجواهري واحداً منهم. إنه لم يملك حتى دكاناً مثل دكاني.

فردت عليه أم أرسين بعدم اقتناع:

ـ ولماذا لقب نفسه بالجواهري ما دام فقيراً؟ من العيب أن يتباهى الإنسان بما لا يملكه.

قال عادل:

ـ لأنه كان يعتبر قصائده جواهر يبيعها للناس.

ضحكت مادلين، قائلة:

ـ فليشبع جوعاً إذن.

يبدو أن حب سنحاريب القس لجوليت ظل يؤرق أم أرسين ولذلك قالت له:

ـ حسناً قل لي يا سنحاريب من هي هذه الفتاة جوليت التي تعذبك حتى أخطبها لك من أمها. لماذا تعذب نفسك هكذا يا بني من أجل امرأة؟



ضحك سنحاريب القس قائلاً:

ـ ليست هناك أي جولييت. الموضوع كله خيال في خيال.

ثم التفت إلى عادل، مضيفاً:

ـ لم تقل لي رأيك حتى الآن في القصيدة يا أستاذ عادل، أليست هي أفضل من قصائدي السابقة؟

رد عادل سليم الأمير:

ـ بالتأكيد، هذا واضح تماماً سوى أنها تحتاج إلى بعض التنقيح مثل كل قصائدك الأخرى.

كان آكوب آكوبيان قد ثمل تماماً فراح يغني بالأرمنية، ناقراً بأصابعه على أحد صحون المازة الفارغة ثم أعقبته مادلين التي غنت بطريقة جميلة أغنية لأسمهان وهي لا تكف عن النظر في عيني عادل الذي استبد به الحنان والشوق إليها وكاد يحتضنها ويقبلها أمام الجميع، لولا أنه تعمّد غض نظره عنها حتى لا تفضحه عواطفه الجياشة التي أيقظها الخدر الذي سرى في جسده. حينما استأذن سنحاريب القس بالانصراف كان أيضاً آكوب آكوبيان الذي احتسى أكثر من نصف قنينة عرق قد تمدد ونام فوق الفراش نفسه الذي كان يجلس عليه. وأخيراً نهض عادل أيضاً، مشيراً برأسه لمادلين أن تتبعه بعد قليل، حيث ظل ينتظرها في الطارمة الغارقة في الظلام، ناسياً حتى العقارب التي تخرج متنزهة في الليل. بعد قليل عندما ودعت العجوز أم أرسين مادلين وأغلقت الباب وراءها أمسك بها في الظلام واحتضنها. همست بأذنه:

ـ لندخل الغرفة، قد يشعل أحد ضوء الفناء فيفضحنا.

ـ بل هنا، وليذهب العالم إلى الجحيم.

غارقين في الظلام تلمست مادلين حاجز الطارمة المشبك الذي



استندت عليه بكلتا يديها صامتة، مانحة نفسها للشاب الملتصق بها وشعرت بلذة غريبة قلما أحست بها من قبل. كان ثمة إحساس غامض بخطر السعادة غمر قلبها وجسدها وهي تحدق في النجوم المتلألئة في السماء.

مع هذه المسرات التي غمرته مادلين بها تخلى عادل ولو مؤقتاً عن فكرة الدراسة بعد أن انقطع طويلاً عن الذهاب إلى الكلية، مطمئناً نفسه بأنه يستطيع أن يعود إليها في العام التالي عندما يكون قد دبر أموره بطريقة أفضل، حيث راح يستمتع بوقته الكثير الذي صار يقضيه غالباً في ارتياد المقاهي والحانات وكتابة الشعر حتى عثر لنفسه على عمل في مجلة أسبوعية تقع مكاتبها في الصرافية، مما جعله يطلع مع الزمن على الكثير من خبايا المدينة وأسرار الناس، مثلما نشر قصصاً أثارت اهتمام القراء، من بينها قصة عن عجوز ريفي يسكن في حي صرائف خلف السدة ابتكر مرهماً للبواسير وجاء يعرضه على المجلة لتكتب عنه، لكن رئيس التحرير طرده بجفاء، طالباً منه أن يعرضه أولاً على وزارة الصحة على الأقل، وهو واثق من أن خبراءها سوف يطردونه شر طردة:

ـ لم يبقَ سوى أن تطلب تعيينك أستاذاً في الكلية الطبية أيضاً!

خرج الريفي منزعجاً ثم عاد بعد أسبوعين وهو يحمل بيده ورقة من رئيس الدولة يوصي فيها بضرورة تشجيع الكفاءات العلمية العراقية الشابة، بدل الاعتماد على الأجانب مع تقرير من وزير الصحة عن نجاعة المرهم:

ـ لقد جربه الوزير على نفسه.

قال الريفي مؤكداً بلهجة المنتصر، رافضاً التململ من مكانه قبل الحصول على وعد بنشر مقال عن مرهمه السحري.



عندما نشر عادل موضوعه الذي صاغه بدهاء مع مقابلة هي بين الجد والهزل مع ذلك الرجل الأمي، مدعمة بتقرير وزير الصحة، انفجر الناس ضحكاً ووجد فيه أعداء النظام فرصتهم للتشهير كالعادة بالرئيس نفسه ووزرائه والسخرية من جهلهم وأميتهم. ومع ذل لم يأبه الرئيس بكل تلك التقولات الحاقدة وأرسل، بتوصية من وزير الصحة نفسه، هدية قدرها مئة دينار لكل من صانع المرهم وكاتب التحقيق.

ما كاد عادل يمسك بمثل ذلك المبلغ الكبير في يده حتى فكّر في الانتقال إلى شقة لائقة، يمكن لمادلين أن تزوره فيها بعيداً عن الأعين المتلصصة لأهل البيت الكبير وغارات عقاربه الليلية، فقاده صديقه تحسين هذه المرة أيضاً إلى العمارة التي كان يقيم فيها هو نفسه أيضاً واستأجر له شقة تقع في الطابق الثاني، تطل على نهر دجلة.

وهكذا صارت مادلين تزوره مرتين أو ثلاث مرّات في الأسبوع، غالباً في التاسعة أو العاشرة صباحاً، حاملة في يدها زنبيل التسوق، تاركة زوجها يرعى طفليها. كان زوجها قد انتبه بالطبع الى غياباتها الطويلة، ولذلك قالت له عندما سألها عن ذلك، قاطعة عليه طريق الأسئلة في المستقبل:

ـ إنني أتعب نفسي من أجلكم ثم ألام على ذلك. تصور أن أسعار الخضراوات في بغداد الجديدة لا تزيد عن نصف ما هي عليه عندنا هنا. حرام أن نجعل هؤلاء البقالين اللصوص يسرقوننا.

ـ ولكن بغداد الجديدة بعيدة جداً، وأنت تتعبين نفسك من أجل بضعة قروش.

ـ بضعة قروش، ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ لا تعرف كم صرت أستمتع بالتسوق هناك. إنني أكاد أختنق في هذا البيت. أمر أحياناً أيضاً على أختي هناك وأشرب الشاي عندها. تصور أنهم يبيعون كيلو الطماطة بخمسين فلساً، إنني أوفر بذلك مئة فلس عن كل كيلو من



الطماطة. كل نساء البيت صرن يتسوقن الآن من بغداد الجديدة. ماذا أعمل إذا كان اللّه قد خلقك فقيراً؟

فرد عليها زوجها، كمن شعر بالذنب:

ـ سوف يتغيّر كل ذلك. لا يمكن أن أظل إلى الأبد نادلاً في حانة.

لكنها ضحكت ساخرة:

ـ سوف يموت الخروف قبل مجيء الربيع.

كانت مادلين قد اعتادت أن تفتح باب الشقة بالمفتاح الذي تحمله معها وتدخل فترى عادل سليم الأمير لا يزال نائما في أغلب الأحيان، فتتسلل إلى المطبخ وتعد له الفطور والشاي ثم تفتح ستائر الغرفة وتضطجع جنبه في الفراش، مادة يدها المتلصصة تحت بيجامته، مداعبة جسده المزدهر، فيحتضنها وهو لا يزال بين النوم واليقظة، شاعراً بدفء صدرها ثم يقول:

ـ هذه أنت.

وإذ تجد أنه استيقظ تلقي بنفسها فوقه وتقول ضاحكة:

ـ هل كنت تتوقع واحدة أخرى أيها الخائن؟

ثم إذا ما تملكته الرغبة فيها تقول له:

ـ كلا، الفطور أولاً، سوف يبرد الشاي.

لكن الشاي كثيراً ما كان يبرد فتقوم بتسخينه له وتتناول معه استكاناً منه وهي تحدق فيه، شاعرة بغبطة الصباح.



١٠

في خضم الموجة العاتية

إجتذبت بغداد في تلك الأيام أصنافاً غريبة من البشر الباحثين عن حظهم في العاصمة، فمن الجنوب تدفق الفلاحون الهاربون من الإقطاعيين الذين كانوا يستغلونهم حتى العظم ويسومونهم سوء العذاب ومن الشمال جاء الآشوريون الهاربون من البطالة، ليعملوا فترة من الزمن ندلاً في الحانات قبل أن يفلح بعضهم في امتلاك حانوته الخاص به لبيع العرق أو حتى في افتتاح بار جديد في شارع أبي نواس وهما أمران كانا محرمين على المسلمين الذين اكتفوا بحظهم في احتسائه فقط. ومع هذه القوافل المتدفقة من الجنوب والشمال جاء الشعراء والكُتّاب والرسامون أيضاً، متبوعين بأصناف كثيرة من الثوريين الذين اتخذوا لهم من البيوت الشعبية والصرائف في حي الجوادر أوكاراً يوجهون منها أتباعهم المنتشرين في الشوارع والمقاهي. ولم يكن عدد الجواسيس الذين يراقبونهم ليقل عدداً منهم، مع فارق أنهم كانوا في الأغلب ريفيين سذجاً يسهل خداعهم والضحك عليهم.

ففي المقاهي كان يمكن للمرء أن يلتقي رسامين انطباعيين وتكعيبيين وتجريديين وسورياليين وشعراء مأخوذين بالشعر الحر أو الشعر المنثور الذي كانت الصحف تنشر نماذج منه في صفحاتها



الأدبية، مثيرة انزعاج شعراء العمود الذين كثيراً ما اتهموا المجددين على عادتهم بتقليد الشعراء الغربيين والركض وراء الموضة المفسدة للذوق. ورغم أن عادل سليم الأمير وجد نفسه يجذف وسط كل تلك الموجات العاتية فإنه احتفظ لنفسه دائماً بمسافة تفصله عن الآخرين، ليس رغبة في الابتعاد عنهم وإنما لأنه لم يكن واثقاً من أي شيء. كان إذ يجلس في المقهى يحدق من وراء نظارته الشمسية السوداء في المارة، متفحصاً كل حركة يقومون بها ويحولهم إلى صور يحتفظ بها في ذاكرته أو ينصت إلى أحاديث روّاد المقهى ويدرس طريقتهم في الكلام، متنبهاً إلى المفردات والجمل التي يتفوهون بها، ليكون من خلال ذلك انطباعاً شخصياً عن كل واحد منهم، يدوّنه فيما بعد عندما يعود إلى البيت في دفتر صغير الحجم، يحمله معه في جيبه دائماً.

وهكذا امتلأ دفتر عادل سليم الأمير مع الزمن بالكثير من القصص الغريبة عن الأدباء والشعراء الذين كان يلتقيهم في المقاهي والحانات، حيث يجلس في العادة في ركن ما ويجرع قنينة أو قنينتين من البيرة أو ربع قنينة من العرق. فقد جاءه ذات مرة وهو يجلس في حانة الجندول الواقعة على النهر شاعر من الصليخ قدم نفسه باسم فكاهي، مدعياً أنه ابن غير شرعي لجان بول سارتر الذي يفترض أن أمه تعرفت عليه في شارع سان جيرمان ذات يوم أحد في باريس، قبل خمسة وعشرين عاماً، ساحرة إياه بعباءتها السوداء التي كانت تلتف بها على عادة النساء العراقيات فدعاها إلى مقهى كان يقع مقابل حديقة اللوكسمبورغ وجعلها تسكر قبل أن يأخذها معه إلى شقته، منتهزاً سفر سيمون دي بوفوار إلى إيطاليا لحضور معرض لجياكوميتي. لم يصدق عادل سليم الأمير القصة بالطبع ولذلك قال له ساخراً:

ـ كان يفترض في أمك أن تأخذه إلى القاضي أولاً ليعقد قرانه عليها بدل النوم معه بدون عقد شرعي.



لكن ابن جان بول سارتر رد عليه موضحاً:

ـ أنت تعرف أن الوجوديين لا يؤمنون بالعلاقات الشرعية. ماذا كان يمكن لأمي المسكينة أن تفعل مع عبقري خبيث مثل سارتر بعد أن جعلها تحتسي بضع كؤوس من الويسكي؟

وفي مرة أخرى شهد عادل معركة دامية بالأيدي والأرجل في المقهى بين شاعر صعلوك من أولئك الذين اشتهرت بهم بغداد في تلك الأيام وأديبين معلمين استفزاه لرائحة السمك النتنة التي كانت تفوح منه، إذ اعتاد النوم في قوارب صيادي السمك التي كان يجدها في طريقه في الليل، عائداً من الحانة، فقد قال له أحدهما:

ـ هيا ابتعد عنا! ما هذه الرائحة الكريهة التي تعط منك؟

لكن شاعرنا الصعلوك الذي كان لا يزال يترنح من السكر أخرج من عبه سمكة شبوط كبيرة وهوى بها على رأسه:

ـ أنت تشتمني أيها الحقير!

تشابك الثلاثة، لاكمين بعضهم وهووا على الرصيف فيما تدخل روّاد المقهى لفك هذا النزاع الذي كثيراً ما كان ينشب مثله بين الأدباء. ثم نهض الشاعر الصعلوك، مهدداً الأديبين الآخرين:

ـ لقد ضرباني، أنتم شهود على ذلك. سوف أتصل برئيس الجمهورية ليؤدب هؤلاء الحقراء.

وهكذا راح يبحث في جيبه عن ورقة ما سجل عليها كما يبدو رقم التليفون السري لرئيس الجمهورية:

ـ هذا هو تليفون الرئيس الذي سوف يعرف كيف يركلكم على مؤخراتكم المأفونة. لقد أعطاني بنفسه الرقم لأتصل به متى ما شئت.

وخرج يبحث في الشارع بدون جدوى عن جهاز هاتف يتصل منه بالرئيس حتى وصلت سيارة شرطة نجدة نزل منها مفوض مع شرطيين جروه مع خصميه إلى داخل السيارة لاقتيادهم إلى المخفر الذي لم



يكن بعيداً، فلحق عادل سليم الأمير بالمفوض، موضحاً له أن الأمر يتعلق بخلاف أدبي وأنهم جميعاً شعراء معروفون. ما كاد الشاعر الصعلوك يسمع هذا الإطراء حتى راح يلقي مقاطع من قصيدة له يمتدح فيها الشرطة، كان قد ألفها تحوطاً ليستدر بها عطفهم فيما إذا قاده القدر للوقوع بين أيديهم. انطلت الحيلة عليهم، فأنزلوه من السيارة ثانية معتذرين منه وجعلوا الاثنين الآخرين يقبلانه من رأسه إرضاء له، واعدين إياه بأن يسكراه الليلة على حسابهما.

كانت بغداد في الحقيقة قد تغيّرت فجأة إذ انتشرت في تلك الأيام عادات غريبة كثيرة بين المثقفين لم تكن مألوفة من قبل، من بينها عادة مقاطعة المقاهي والنوادي الأرستقراطية مثل مقهى البرازيلية و٧٧٧ ونادي العلوية والمنصور والجلوس بدلاً من ذلك في المقاهي الشعبية على الحصران بعد أن سمعوا بمقاهي الرصيف الباريسية، وهي حمى وافدة من وراء البحار جعلتهم يتحرقون حنيناً لمخالطة الشعب الذي شعروا فجأة بالحب له، حيث صاروا يتربعون على التخوت مثلما يفعل آباؤهم ويقرأون كل الجرائد والمجلات العراقية واللبنانية والمصرية لقاء عشرة فلوس يدفعونها لباعتها الذين كانوا يبسطونها على الأرصفة. وهي عادات انتقلت إلى النساء أيضاً، حيث رحن يجلسن في مقهى الإكسبريس أو مقهى فلسطين ويتناولون الآيس كريم أو يشربن القهوة قبل إن يشقن طريقهن إلى صالات السينما القريبة بأعداد غفيرة، وهو أمر ما كان ليحدث بسهولة لولا الأفلام الهندية التي اجتذبت قلوب الأمهات المعذبات والعاشقات المتيمات الكاتمات لحبهن في أعماق صدورهن، خشية أن ينفضح أمرهن أمام آبائهن أو إخوانهن. وهكذا كان يمكن للمرء أن يسمعهن يتحدثن فيما بينهن:

ـ سوف أذهب اليوم عصراً إلى سينما أطلس لأبكي.

ـ ماذا هناك؟ فيلم مصري جديد؟



- كلا، كلا، فيلم هندي يجعلك تبكين ثلاث ساعات بلا انقطاع.

وبالفعل كان يمكن للمرء أن يرى أفواجاً من النساء يقصدن كل يوم في موعد العرض المسائي الأول صالات السينما التي راحت تتبارى فيما بينها في عرض الأفلام الهندية، ومن بينها فيلم «أم الهند» الذي ظل يعرض جيلاً بعد جيل وأدى إلى انهمار سيول من الدموع الساخنة.

وفيما كان الشعراء والنُقّاد ومؤلفو الروايات والمطربون من روّاد الموجة الحديثة في الغناء يجلسون في المقاهي والنساء يمسحن دموعهن بمناشف كبيرة يلفنها حول أعناقهن وهن يتفرجن على أم الهند التي فقدت ابنها الصغير في مدينة غريبة، ربما كانت مدينة بومباي المليئة باللصوص والشحاذين، صار يصل إلى بغداد بين الحين والآخر سياح أجانب من فرنسا وإنكلترة وبلجيكا وألمانيا وهولندة، فيختفون فترة من الوقت، قد تدوم قليلاً أو كثيراً، قبل أن يظهروا ثانية ويعودوا إلى بلدانهم التي قدموا منها. كان هؤلاء الغرباء يقضون عادة الأيام الثلاثة الأولى في زيارة المتحف العراقي وسوق الصفارين والتفرج من بعيد على القباب الذهبية الملتمعة في الشمس الساطعة في الكاظمية أو التجوال في الأسواق الشعبية وزيارة أطلال مدينتي بابل والحضر، معلقين كاميراتهم اليابانية الثمينة على الأكتاف، قبل أن يصعدوا عصراً، وفي أيديهم شباك لصيد الفراشات، في قارب يشق بهم نهر دجلة اسمه قرة العين، قاصدين جزيرة أم الخنازير البعيدة الواقعة وسط النهر والتي تغطيها غابة بدائية كثيفة من النخيل والأحراش، ما كان المرء ليشق طريقه في ممراتها إلا بجهد شديد. كانوا يذهبون فلا يظهرون إلا بعد أسبوع أو أسبوعين، وهو أمر لم ينتبه إليه جواسيس الحكومة الذين كان دوامهم ينتهي قبل المساء فيحل بدلاً عنهم



أشخاص آخرون اعتادوا أن يقصدوا الحانات القريبة الواقعة على شاطئ النهر ليحتسوا ربع قنينة من العرق قبل مواصلة عملهم الليلي. وبالطبع لم يخطر في بال أحد من أولئك الجواسيس الكثيرين الهائمين على وجوههم في طرقات المدينة أن هؤلاء السياح الأبرياء والسائحات الكاشفات عن سيقانهن البرونزية ليسوا سوى أنصار «منظمة الثورة العالمية» التي كانت قد اتخذت من بغداد قاعدة سرية لها، تنطلق منها إلى الشرق، وهو أمر لم يكونوا حتى قد سمعوا به. كان الأمر قد بدأ في الحقيقة قبل ذلك بشهور عندما دخل إلى الورشة التي يعمل فيها أحمد شاب فرنسي يتحدث اللغة العربية بلكنة مصرية اسمه جان رينان وطلب فحص سيارته الرينو التي كان محركها يصدر أصواتاً مقرقرة حين يبطئ السير بها، فتولى أحمد تصليحها له، داعياً إياه إذ وجده غريباً في المدينة، إلى احتساء العرق معه، فقاده مشياً على الأقدام حتى حانة فيكتوريا التي أمضوا ليلتهم فيها، تلك الحانة التي انطلقت منها شرارة ثورة ملأت الكثير من القلوب المرهفة بالأمل.

كان أحمد قد مل في الحقيقة من عمله مع الشيوعيين الذين كانوا يجلسون ساعات طويلة في خلاياهم السرية ويتحدثون عن الثورة، كخبراء وحيدين في صناعتها. اجتذبه الأمر بالطبع في البداية كثيراً، فظل ينتظر الثورة على أحر من الجمر حتى أصابه الملل. وعندها سأل رئيسه في الخلية التي كانوا قد ضموه إليها:

ـ حسناً، قل لي أيها الرفيق متى سنبدأ ثورتنا؟ لا أعتقد أن الطبقة العاملة قادرة على الانتظار أكثر من ذلك. إننا لم نقدم للشعب حتى الآن سوى الوعود المعسولة المخدرة.

فرد الرجل عليه غاضباً:

ـ هكذا إذن، أنت تتهمنا بتخدير الشعب، ألا تعرف أن النفس



القصير طبع بورجوازي صغير لا علاقة للطبقة العاملة به؟ ولكن لماذا تريد أن تعرف موعد الثورة؟

هز أحمد الذي بوغت بالسؤال رأسه:

ـ لماذا؟ ما هذا السؤال؟ حتى أدبر أموري على الأقل.

رد الرجل ساخراً:

ـ ليست الثورة سيارة عاطبة ندخلها إلى الورشة ونصلحها لتركبها الطبقة العاملة.

قال أحمد:

ـ حقاً، يبدو أن كل ما يمكن للطبقة العاملة أن تفعله هو تصليح السيارات العاطبة للآخرين الذين سوف يستقلونها، فيما تظل هي دائماً تقطع الطريق سيراً على الأقدام.



١١
القمر من وراء القضبان

وهكذا إذا كان الحنين إلى الثورة قد اجتذب أحمد إلى هؤلاء الأجانب فإن الحنين إلى النساء هو الذي قاد عادل ومعه شبان المقاهي إليهم. فقد أخذ أحمد الذي لم يكن يتقن أي لغة أوروبية يصطحب ضيوفه، ومن بينهم الكثير من الفتيات الفرنسيات والإنكليزيات والألمانيات والهولنديات إلى شقة صديقه عادل الذي كان يعرف الإنكليزية فيتركهم عنده بعد سهرة قد تمتد إلى منتصف الليل. وفي النهاية كانت ثمة دائماً تقريباً فتاة ما تفضل البقاء في الشقة لتواصل الحديث معه، في حين ينصرف رفاقها مشياً على الأقدام إلى فنادقهم القريبة الواقعة على ضفة النهر أو في شارع السعدون. ولكن الأمر لم يمر بسهولة دائماً، فقد أقدمت إحداهن، وهي ألمانية في العشرين من عمرها، من بفاريا اسمها كاترين على حماقة كادت توقعه في ورطة كبيرة. فعندما نهضت مبكراً على عادتها في الصباح، فيما كان هو لا يزال نائماً بعد سهره الليلي الطويل معها، ذهبت إلى الثلاجة، باحثة عن الحليب، ولما لم تجده خرجت بثوب نومها القصير الشفاف الكاشف عن كل ما وراءه لتشتري قنينة حليب من أحد الدكاكين القريبة، فأثارت ضجة في الشارع، حيث ترك الجميع أعمالهم وراحوا يلاحقونها حتى اهتدت ثانية إلى العمارة التي أسرع



حارسها مظلوم فأغلق بابها بعد أن جرها من يدها إلى الداخل وأعادها إلى الشقة، حيث كافأه عادل بدينار على صنيعه البطولي. ومع ذلك لم ينته الأمر، فقد راح بعض الرجال الذين ظلوا في الشارع يلقون بالحجارة على شقق العمارة، طالبين خروج الفتاة إليهم. فنزل مظلوم ثانية إلى الشارع وهددهم باستدعاء الشرطة، حاملاً في يده عصا كان يركنها دائماً على حافة باب العمارة.

منذ تلك الحادثة تعلم عادل درساً لم ينسه قط بعد ذلك. كان يقفل الباب دائماً حين تبقى إحدى الفتيات معه في الشقة، محتفظاً بمفتاحها في جيبه، مثلما راح يشتري الحليب والزبدة والمربى، بل إنه عثر أيضاً في دكان الأرمني آرام الواقع في شارع الرشيد على سجق الخنزير الذي كان ضيوفه يفضلونه مع البيض عند تناول الفطور.

ولم يقتصر الأمر على عادل وحده، فعندما اكتشف أصحابه في المقهى كنز الفتيات الأوروبيات اللواتي يزرنه في الشقة صاروا يقصدونه ليلاً ونهاراً ويتملقونه، زاعمين أنه شاعر أهم من السيّاب نفسه وأن إشراقاته لا تقل قيمة عن إشراقات رامبو أيضاً. وقد أفلح العديدون منهم بالفعل في أن يحصلوا هم أيضاً على حصتهم من البنات، في حين ظل بعضهم الآخر لا يجرؤ حتى على النظر في العيون الوقحة لفتيات الشقة، مثلما هام بعضهم حباً فراح يتوسل بفتاته أن تأخذه معه إلى أوروبا، ليكمل دراسته هناك.

ولم يكدر صفو تلك الأيام التي كثيراً ما كان عادل يسهر فيها حتى الفجر سوى توقيف سنحاريب القس لمدة ثلاثة أو أربعة أيام في مخفر شرطة البتاويين القريب، بتهمة الإخلال بالآداب العامة. فقد ألقى رجال شرطة الآداب القبض عليه وهو يتبادل القبل مع فتاة فرنسية من مندوبات الثورة العالمية، اسمها جانين، تحت نخلة منزوية في أحد المقاهي على النهر بعد أن شربا بضع قنان من البيرة، حيث باغته



ثلاثة منهم بالجلوس فجأة إلى طاولتهما، طالبين منه بكل أدب أن يسمح لهم بدورهم هم أيضاً معها.

- ماذا تعنون؟ إنها فتاة فرنسية شريفة.

رد عليه أحدهم:

- أي شريفة يا أخي، لقد رأيناك تقبلها! يمكنك أن تأتي أنت أيضاً معنا لتترجم لنا. تبياتة مشتركة، ها ماذا تقول؟

ولكن سنحاريب القس صرخ في وجوههم:

- هيا اذهبوا وإلا قلبت الدنيا على رؤوسكم!

وراح يصرخ بأعلى صوته، فاجتمع زبائن المقهى حولهم ليروا ما حدث:

- إنهم يريدون اختطاف الفتاة لاغتصابها.

فأمسك أحدهم به:

- ما هذا الذي تقوله؟ هل تريد تشويه سمعة شرطة الآداب؟ لقد رأيناك تقبلها علناً، وهو أمر لا تسمح به أخلاقنا وشيمنا العربية. هيا تعال معنا.

كانت الفتاة قد انسلت هاربة وسط الضجة التي أثارها سنحاريب القس ولذلك اقتادوه وحده إلى المخفر بعد أن تلقى عدة صفعات منهم في الطريق حتى أنقذه المفوض من أيديهم، سائلاً إياه عن الفتاة الأجنبية التي كانت معه فأجابه حتى يبعدها عن قبضة الشرطة بأنه كان قد تعرف عليها لتوه في المقهى. حينذاك حدق فيه المفوض قائلاً:

- إذا كان ما تقوله صحيحاً، فلماذا كل هذه الغيرة التي أظهرتها عليها؟

لم يعرف عادل سليم الأمير بالأمر إلا في اليوم التالي عندما جاءته جانين، راوية له ما حدث وهي قلقة على مصير سنحاريب



القس، فطمأنها بالبحث عنه، وهو أمر لم يفعله إلا بعد أن عرف بمكان اعتقاله بعد يومين أو ثلاثة من ذلك عندما جاءه في المقهى أحد رجال الأمن التابعين لمركز شرطة البتاويين، وهو من زبائن المقهى أيضاً وأبلغه بوجود سنحاريب القس عندهم، فنهض معه وذهب ليرى ما يمكن أن يفعله من أجله. هناك استقبله المعاون الذي ما كاد يعرف أنه يعمل في الصحافة حتى راح يتملقه، مبدياً شكواه من رجال شرطة الآداب الذين انتهكوا كل الآداب.

في الحقيقة أن سنحاريب القس أثار فضول الشرطة منذ اليوم الأول الذي جاؤوا به، حيث صادق العديدين منهم. ولكن الأمر الذي جعلهم يغرقون في الضحك هو أنه قال للمعاون الذي جاء يلقي نظرة كعادته كل ليلة على الزنزانة التي وضع فيها:

ـ عندي رجاء بسيط يا سيادة المعاون.

اعتقد المعاون أنه سيطلب منه العمل على الإفراج عنه، ولذلك ألقى عليه نظرة متأملة قبل أن يقول له:

ـ حسناً، ماذا تريد؟

حينذاك أشار سنحاريب القس بيده إلى القمر من وراء القضبان:

ـ هل تسمح لي يا أستاذ بأن أخرج قليلاً إلى الساحة لأتفرج على القمر؟

ـ ولماذا تريد أن تتفرج على القمر يا أستاذ؟

هز سنحاريب القس رأسه:

ـ لأنظم عنه قصيدة. حرام أن يتوسد القمر كبد السماء هكذا فيما الشاعر يقبع في الزنزانة.

سأل عادل المعاون الذي روى له القصة وهو يغص بضحكته:

ـ أرجو أن تكون قد سمحت له بالخروج إلى الساحة ليتفرج على القمر.



ضحك المعاون:

- بل تركته يصعد إلى السطح حتى مل من رؤيته وطلب بنفسه العودة إلى مكانه لينام.

حينما أطلق في اليوم ذاته سراح سنحاريب القس بعد أن كفله عادل سليم الأمير بخمسين ديناراً قصدا سوية المقهى، حيث أخرج سنحاريب القس كومة من القصائد التي كتبها على قصاصات ورق السيجاير، قائلاً له:

- أنظر، لقد كتبت ديواناً كاملاً عن تجربتي في السجن بعنوان «القمر من وراء القضبان»، الآن عرفت لماذا صار ناظم حكمت شاعراً عظيماً. يا لحياة السجن من مهنة شاقة!



١٢

كتاب عابر الوادي لمؤلفه ضارب الأمثال

مثلما جن الكثيرون بالوجودية والماركسية والسوريالية والبنيوية والتروتسكية والماوية المبشرة بنظرية الثورة العالمية الزاحفة من الريف إلى المدينة، تلك المذاهب التي استولت على أفئدتهم وعقولهم، إنبهر آخرون بالصوفية والروحانية اللتين كانتا قد وصلتا أيضاً، قادمتين من مكان ما من الغرب كالعادة، وهو أمر أثار استغراب الدراويش الذين ما كان أحد من شبان المقاهي قد التفت إليهم أو انتبه حتى إلى وجودهم من قبل. أخذ بعضهم يطيل لحيته ويسدل شعر رأسه، قاصداً تكية الحلاج في الكرخ مساء كل يوم جمعة ليتفرج على الدراويش وهم يطعنون أجسادهم الأثيرية بالسيوف والحراب في حلقات الذكر المصحوبة بالضرب على الدفوف رغم أن أحداً منهم لم يجرؤ على أن يسلم عنقه لشيخ الطريقة، وهو رجل قصير القامة حير الناس بمعجزته الوحيدة التي عرضها التلفزيون أكثر من مرة أمام لجان من العلماء الأجانب العاملين في منظمات الأمم المتحدة، فقد كان في إمكانه أن يرى من الأمام ومن الخلف في آن، فضلاً عن طعن مريديه بالأسياخ وذبحهم بالسيوف بدون أن تنسكب حتى قطرة دم واحدة منهم، على الطريقة القادرية الشائعة في كثير من بلدان الشرق. لكن الرجل ضجر في النهاية من جبن هؤلاء الأدباء الذين كانوا يتحدثون



عما لا يفعلون ومن قلة إيمانهم فطردهم شر طردة، قائلاً لهم:

ـ لا يمكن للمرء أن يكون متصوفاً في الشعر وعربيداً في الحياة.

إن كنتم صادقين في حبكم للحلاج والنفري وابن عربي والسهروردي فسلموني أعناقكم لأتأكد بسيفي البتار من حقيقة إيمانكم.

وفيما كان هؤلاء يبحثون عن تكية أخرى تستقبلهم كمتفرجين وصل إلى مقهى مجيد الواقع في الباب الشرقي أعرابي عجوز، يجثم فوق كتفه اليمنى بلبل يغرد بألحان يقلد بها ألحان أهل الجنة، ممتطياً حماراً هزيلاً، كان ينادي عليه بين الحين والآخر:

إمضِ بي إمض
خرجك طافح بالذهب والفضة
وأنت تبحث عن عشبة تعلفها
ما أبخلك يا حماري!

ثم ربطه بأحد التخوت المرمية فوق الرصيف وراح يروي للجالسين قصة رجل كان من الواضح أنها قصته هو نفسه بالذات:

في الطريق إلى المدينة رأى الأعرابي
وعاظاً يقفون على الأرصفة حاملين السيوف والحراب بأيديهم
ووعاظاً تخضل لحاهم بدموع التماسيح
ووعاظاً ما يكاد المرء يسمعهم حتى يفكر بالانتحار
ووعاظاً يبيعون خرائط طريق مزورة إلى الجنة
حين رأى كل ذلك قال لحماره:
ثمة طُرق كثيرة
تقودك إلى المرعى يا حماري
فاسلك وحدك أيها شئت
إن كنت طامعاً بالعشب.



ثم روى للجالسين قصة كتابه الذي قال إنه ألّفه خلال أسفاره الكثيرة داخل أصقاع روحه البعيدة، وهو أمر جعل الكثيرين يسخرون منه في البداية، متسائلين:

ـ وهل للروح أصقاع حقاً حتى تسافر إليها؟

لكنهم ما كادوا ينصتون إليه جيداً حتى رأوا أرواحهم تحلق هي الأخرى عالياً مع كلماته، مرفوفة في طريقها إلى ممالك حلمية، لا يبلغها المرء إلا نادراً في حياته.

بدأ الأعرابي كلامه بالقول:

بلغني أنكم تهوون تدبيج القصص وضرب الأمثال مثلي فأحببت أن أقصدكم بنفسي لأقص عليكم وقائع رحلاتي الطويلة وهي رحلات دوّنت فيها كل ما رأته عيناي وما سمعته أذناي من البداية إلى النهاية ومن النهاية إلى البداية. أجل، لقد التقيت الكثيرين في طريقي، رأيت القادة في حروبهم والملوك على عروشهم والقديسين فوق صلبانهم. صادفت أبطال روايات وحكايات شعبية وتجولت في مدن تزدحم باللصوص والأفاقين والقتلة. أما وقد انتهيت من تدوين أقوالي فقد وجدت من العدل أن أقصدكم لأترك لكم كتابي هذا الذي أضرب فيه الأمثال لكم، لعلكم تعتبرون. ليكن كتابي هذا كتابكم بعدي. أجل، لم يعد ثمة ما يشدني إلى هذه المدن والقُرى المليئة بالأغبياء. فاسمحوا لي أن أرحل ثانية لأبدأ كل شيء من جديد.

وهكذا ترك كتيبه الصغير المغلف بجلد الغزال على أحد التخوت ثم امتطى حماره الهزيل، سائراً باتجاه النهر.

ضحكوا في البداية من هذا الأعرابي الغريب الذي جاء يعلمهم الحكمة، لكنهم ما كادوا يفتحون كتابه الذي كان قد سجل عنوانه بخط يده على الغلاف، وهو «كتاب عابر الوادي لمؤلفه ضارب الأمثال» ليقرأوه حتى أخذ الكتاب نفسه يتكلم، مثل مسجل سري أو



اسطوانة غرامفون. لقد حدث ذلك مرة واحدة ولم يتكرر فيما بعد، مما جعل الذين لم يشهدوا تلك المعجزة الغريبة يسخرون منهم، متهمينهم بخفة العقل والكذب، في حين ادعى الشهود أن الصوت الملائكي الذي سمعوه لا بدَّ أنه كان صوت جبريل، رئيس الملائكة الذي أقفل عائداً إلى السماء بعد أن انتهى من مهمته التي أوكلها اللَّه إليه.

ما كاد روّاد المقهى يستمعون إلى هذا الكتاب الذي قرأ نفسه بنفسه حتى أصيبوا بما يشبه الرعشة أو الصدمة الروحية، فقد كان حقاً كتابهم الذي حلموا به طوال حياتهم والذي عجزوا عن الإتيان بمثله، ولذلك راحوا يرددون أقواله وأمثاله في جلساتهم ومناقشاتهم الصاخبة ويضمنونها قصائدهم وقصصهم القصيرة، بعد أن قام بطبع مئة نسخة منه شاعر مهووس بالحداثة، كان شقيقه يملك مطبعة في النجف، قام بتوزيعها مجاناً على أصدقائه الأدباء، مثيراً غضب الثوريين الذين اعتبروا تعاليم صاحب الحمار رداً سحرياً مقصوداً على تعاليم «الكتاب الأحمر» الذي ألفه ماوتسي تونغ أثناء مسيرته الكبرى عبر جبال الصين الوعرة، ملمحين إلى أن صاحب الحمار ربما كان جاسوساً متخفياً، أوفدته وكالة المخابرات المركزية إلى العراق، ليبلبل أفكار شبانه المغرمين بالثورات بنشر مثل هذه الأفكار الخيالية.

وهكذا تحول صاحب الحمار الذي ظل غائباً، كما لو أن الأرض ابتلعته، بعد ظهوره الدراماتيكي العابر، إلى ما يشبه الأسطورة في مقاهي وحانات بغداد. لم يكن أحد يعرف حتى اسمه، ولذلك انتشرت كالعادة قصص كثيرة عنه بين الشبان، بعضها حقيقي وبعضها مختلق. ثم توصلوا في النهاية إلى أنه ربما كان أحد المتصوفة أو الأولياء المنسيين في بطن التاريخ، حتى إذا كان قد ظل ثمة من يسخر من الأمر كله، مدعياً أنه لم يكن سوى أعرابي أمي عجوز أصابه



الخرف فاختلطت في رأسه الأماكن والأزمان، بفعل النسيان أو دفق الذكريات، شاكين حتى في حقيقة كتابه الذي زعموا أنه ربما كان منقولاً عن كتب الأولين. ولكن هؤلاء صمتوا في النهاية بعد أن أطال العديد من الشبان لحاهم مثله واعتبروا أنفسهم حواريين له، مطلقين على أنفسهم اسم «أتباع ضارب الأمثال»، مقلدين أسلوبه وطريقته في الكتابة والكلام، فيما اعتاد خصومهم على تسميتهم بـ «جماعة صاحب الحمار».



١٣

الزائر القادم من نهاية الكون

فيما كان الناس مشغولين بالحديث عن كتاب الأعرابي الغريب الذي اهتم به نُقاد الصفحات الأدبية وراحوا يكيلون له المديح بدون حساب، معتبرينه أحد أهم الأعمال الأدبية التي ظهرت خلال عقد من الزمان، بزغت فجأة من العدم مجموعة أخرى لم يسمع بها أحد من قبل، أطلقت على نفسها اسم «جماعة الزائر الكوني»، وزعت هي الأخرى كتاباً صغيراً نسبته إلى رائد فضاء غريب، اسمه إرمياء، قادم من سديم مجرة تقع في نهاية الكون، ناسجة حوله واحدة من تلك القصص الخيالية الغريبة الكثيرة التي انتشرت في بغداد في تلك الأيام.

تقول القصة، نقلاً عن بعض الفلاحين السذج أنه ظهر في قرية الكفل التي لا تبعد كثيراً عن بابل المشهورة بجنائنها التاريخية المعلقة والتي تضم رفات الإسكندر المقدوني، ذي القرنين، رجل أقبل طائراً من الشرق مع طلوع الشمس على حصان مجنح بلوري، ربما كان طبقاً طائراً، فكه قطعة، قطعة، حال وصوله إلى المقهى الوحيد الواقع في السوق على الطريق الترابي للسيارات وركبه ثانية فتحول إلى كرسي هزاز جلس عليه وراح يقرأ في كتاب أخرجه من عبه، ساهياً حتى عن



قدح الشاي الذي وضعه صاحب المقهى أمامه على صفيحة زيت فارغة عتيقة.

وإذا ما صدقنا هذه القصة التي تتضمن الكثير من المبالغة على عادة القرويين المعزولين عن العالم فإن القرية كلها، نساء ورجالاً وأطفالاً، خرجت لتلقي نظرة على الرجل الغريب الهابط من السماء مثل بطل في حكاية شعبية.

ظل الجميع صامتين، يحدقون فيه مندهشين، لا يجرؤون على الاقتراب منه أو التحدث إليه حتى رفع الرجل الغريب بعد ساعة أو بعض الساعة رأسه وابتسم لهم قائلاً بكل بساطة: «أنا إرمياء الزائر الكوني، جئت أعلمكم ما لا تعلمون». ورغم أن القرويين لم يفهموا أساساً ما قاله لهم فقد رحبوا به كأي ضيف غريب ودعوه إلى مضيفهم الكبير المصنوع من السعف والقصب. ثم إذ رأوه يشبه أولياءهم الأموات زوجوه بأربع نساء دفعة واحدة، دخل عليهن كلهن في الليلة ذاتها ثم طلقهن في الصباح، معلناً أنه ليس سوى عابر سبيل فوق الأرض.

ومع ذلك مكث إرمياء في القرية أعواماً طويلة، دب الشيب في لحيته خلالها، قبل أن يمتطي حصانه البلوري المجنح ثانية ويحلق، عائداً إلى الأفق الذي جاء منه، مثيراً حيرة القرويين الذين كانوا قد تعلقوا به. فقد اعتاد الرجل أن يقرأ عليهم بين الحين والآخر في مقهى القرية وأحياناً في المضيف صفحتين أو ثلاث صفحات من آخر ما دونه في كتابه الذي كان يحمله معه دائماً فيغرقون بالبكاء وتخضل لحاهم بالدموع. لقد أحزن رحيله القرية كثيراً، فرفعت رايات سوداء فوق أكواخها، غارقة في الحزن على فراقه.

كان يمكن للقصة كلها أن تنسى مع الزمن لولا أن تلميذاً من القرية كان قد جلب معه كتابه المتروك هناك منذ غابر الزمان ليقرأه



عمه الذي كان يعمل مفتشاً في دائرة انحصار التبغ في بغداد، لكن الرجل الذي لم يقدر قيمته أهداه لصحافي مولع بآثار الأزمنة القديمة، فنشره هذا على نفقته الخاصة، مدعياً أنه أحد كتب العهد القديم المفقودة، كتاب النبي إرمياء الناهض من موته، وهو أمر أثار الكثير من الجدل بين علماء اللغات القديمة والتاريخ، حتى ثبت في النهاية بما لا يترك مجالاً للشك أنه آخر رسالة مشفرة يوجهها الغيب إلى البشر الفانين الضالين في الأزمنة الحديثة:

هي ذي العاصفة الرملية تزأر في الشارع
والشمعة تشتعل على المائدة
في غرفة الضيوف.
لا أمل للموتى على الإطلاق في كتابة وصاياهم.
أمام بابي يترك الجلاد بلطته الدموية. في الصباح سأعيد من مات واحداً بعد الآخر إلى الحياة.
لا أحد يفكر بالميتافيزيقا في هذه الأيام!
لنتحدث بصوت واهن حتى لا تسمعنا الأشباح.
في منتصف الطريق ينزلق الأفق من السماء،
فنخرج لأن الباب تنفتح دائماً إلى الخارج.
الجندي الفار من المعركة سيموت في معركة أخرى،
راغباً في الجحود.

«ما هذا؟» تساءل بعض الناس مستغرباً: «وماذا يحدث هنا؟ يبدو أن الأرواح التائهة قد غزتنا حتى لكأنها لم تجد مكاناً أفضل من بغداد تحط رحالها فيه». وفكّر آخرون ربما كانت مديرية الأمن العامة نفسها تقف وراء هؤلاء الأنبياء والحكماء والزائرين القادمين من كواكب



أخرى لتسميم أفكار الشعب بقصصهم الخرافية تلك وتضليل الجهال من الناس. ولكنهم لم يفعلوا شيئاً ضد ذلك سوى مواصلة ثرثرتهم المألوفة. أنصار لجنة الثورة العالمية وحدهم لجأوا إلى طريقة اعتقدوا أنها أكثر جدوى في تسفيه تعاليم صاحب الحمار وإرمياء، الزائر الكوني المزعوم، لإعادة الثقة الثورية إلى الشعب الذي بدا حائراً بين هؤلاء وأولئك، حيث راحوا يقطعون الطريق ويوقفون السابلة في الشوارع، قارئين عليهم بعجالة صفحة أو صفحتين من «الكتاب الأحمر» لماوتسي تونغ أو «البيان الشيوعي» لكارل ماركس، ثم يلوذون بالفرار حالما تهرع الشرطة إلى المكان لتتبين جلية الأمر، فكان الناس يقفون ويصفقون لهم، معتقدين أنهم يعلنون عن بضاعة ما، مستوردة من الصين الشعبية أو روسيا السوفياتية.

ولكن حسن الحظ لم يلازمهم دائماً، فقد أقدم أحد رجالهم، وهو معلم من السماوة، على حماقة كادت تكلفه حياته. جمع الفلاحين حوله في المضيف وراح يشرح لهم نظرية داروين عن القرد المتحول إلى إنسان، ليبعدهم عن الإيمان بالخرافات الشائعة، فاعتقدوا في البداية ضاحكين أنه يمزح معهم، لكنهم إذ وجدوه جاداً في الأمر أشبعوه ضرباً قبل أن يربطوه بالمقلوب على حمار مقطوع الذيل ويقتادوه إلى مركز شرطة الناحية، مبلغين المفوض:

ـ هذا المعلم يا محفوظ السلام يدعي أنه قرد ابن قرد، لذلك جئنا به إليك لتضعه في القفص.

عندها لم تجد اللجنة الثورية التي كان يهمها أن تتزلف الشعب، طمعاً في نيل رضاه وتأييده لها، بداً من إصدار بيان وزعه أنصارها في ريف الجنوب وأهوار الجبايش والحمّار والصحين والعمارة، زعمت فيه أن معلمها المسكين الذي احتجزته الشرطة في مخفرها الحجري بدون وجه حق، لم يفعل ما يبرر اعتقاله، إذ أن كل ما في الأمر هو



أنه أساء فهم النظرية فقط، فالحقيقة التي لا مراء فيها هي أن القرد ينحدر من الإنسان، وليس العكس، كما توهم نصيرها المعلم، وهو أمر يرتبط بالتأكيد بعمق الصراعات الطبقية العميقة الكثيرة التي شهدتها عهود ما قبل التاريخ البشري، حينما كان العالم لا يزال بعد بريئاً مثل ذئب ابن يعقوب.



١٤
جنون القوة الخارقة

إمتلكت بغداد في تلك الأيام روحاً جعلت الكثيرين يشعرون بالزهو والخيلاء حقاً. فإذا كان المثقفون قد انبهروا بكتابي صاحب الحمار والزائر الكوني وراحوا يتناقشون حولهما في مجالسهم، فإن الشعب وجد ضالته في أمر آخر جعله يلتهب حماسة ووطنية. فقد استوردت الحكومة الشاعرة بعزلتها عن الشعب من أميركا، إثر تقرير وصلها من سفارتها في واشنطن، مصارعاً أميركياً مفتول العضلات من أصل عراقي، قدم عروضاً في المصارعة الحرة حيّرت الناس وأدهشتهم، كان تلفزيون بغداد ينقلها مباشرة على الهواء، وهي عروض كان يتغلب فيها دائماً على أخطر وأقوى المصارعين الأميركيين والعالميين المشهورين.

فقد بلغ من جنون الشعب بقوته الخارقة أن شوارع المدينة كانت تفرغ تماماً من البشر والسيارات عند كل حفلة مصارعة، وهي حفلات تجري دائماً في المساء، حيث يجلس الشعب كله، رجالاً ونساء وأطفالاً أمام شاشات التلفزيون في بيوتهم، ملتهمين الفستق وشاربين الشاي، متفرجين جميعاً، وأيديهم على قلوبهم، على بطلهم الوطني الذي كانوا واثقين من أنه سوف يبطح في النهاية كل متحديه من المصارعين، مهما بلغت قوتهم.



انتشرت هذه الحمى الرياضية في الحقيقة بسرعة شديدة وبلغت أنأى مناطق البلاد، في الجبال والبوادي، حيث كان يمكن للمرء أن يرى أكثر الناس رصانة يتصارعون، قافزين في الهواء بخفة القردة، أو متمرغين في الوحل والتراب، ليثبتوا هم أيضاً قوتهم السوبرمانية الخارقة، مثلما راح بعضهم يرغم زوجته أو خليلته على مصارعته فوق السرير، مما أدى غالباً إلى رضوض وكسور في العظام أيضاً. وحينما جرؤ بعض النقاد الرياضيين على التلميح بأن الأمر كله لا يتعدى كونه مسرحية مدبرة يقدمها هؤلاء المصارعون الممثلون لتسلية الأطفال أصدرت الحكومة بياناً هددت فيه بلوي أعناق المشاكسين المشاغبين الذين تنقصهم الروح الوطنية، ثم أعتقلتهم واحداً بعد الآخر، فتولى تأديبهم كالعادة رجال الأمن الذين جربوا عليهم كل فنون المصارعة الحرة التي كانوا يتدربون عليها بحمية في النادي الأولمبي في الأعظمية.

ولكن إذا كان الرجال قد أصيبوا بجنون القوة فإن النساء أصبن بجنون الحب، حيث رحن يحلمن بليال حمراء يقضينها مع معبودهن المصارع، حتى بدون شعور بالخجل من أزواجهن الذين غضوا النظر عن نزواتهن المفاجئة هذه، بيد أن الأسوأ حدث مع الفتيات المراهقات اللواتي رحن يطاردنه من مكان إلى آخر، راميات بأنفسهن تحت قدميه، ليفعل بهن، هو بطلهن القومي، ما يشاء. كان من الصعب عليه بالطبع أن يلبي رغباتهن جميعاً دفعة واحدة، ولذلك أوكل هذه المهمة العسيرة إلى سكرتيره المتأنق الذي كان ينتقي له كل يوم اثنتين أو ثلاثاً منهن ليقضي ليلته معهن، فيعدن في الصباح إلى بيوتهن مرفوعات الرؤوس، مبلغات شقيقاتهن وصديقاتهن بمعجزاته الأخرى على السرير.

ومثلما تقاطرت عليه الشابات المغرمات بالأبطال قصدته النساء



العجائز أيضاً، حاملات في أيديهن العرائض إليه، ليعمل على إطلاق سراح أبنائهن المعتقلين والمسجونين أو ليتوسط لهم في تعيينهم في أي وظيفة يقررها هو نفسه بالذات. ولما لم يكن من السهل عليه أن يحل بنفسه مشاكل البلد كلها افتتح دائرة خاصة به واتخذ لنفسه مستشاراً وناطقاً صحافياً رسمياً باسمه. وفي الوقت ذاته تقريباً انتشرت إشاعة تقول إنه سيعين رئيساً للوزراء أو ربما نائباً لرئيس الجمهورية. لكن الحكومة التي تهيبت من نفوذه المتعاظم الذي قد يشجع الأميركيين على التدخل المباشر في شؤونها اكتفت بتعيينه مديراً عاماً في وزارة الخارجية، كإشارة رمزية منها موجهة قبل كل شيء إلى الدول الأخرى عن القوة الخارقة التي يدخرها العراق.

وفيما كان هذا المصارع العجيب يصرع متحديه الأجانب ويبطحهم واحداً بعد الآخر على الحلبة، مضعضعاً عظامهم، اخترع عراقي آخر من سامراء طائرة خشبية، حلق بها أولاً فوق الملوية قبل أن يتجه إلى بغداد ويطوف بها مرّات عدة في سماء الرصافة والكرخ حتى سقطت أخيراً في نهر دجلة، بسبب نفاد الوقود فيها، لكن حسن الحظ لازم مخترعها عبد الرحمن السامرائي فلم يصب إلا ببعض الرضوض الخفيفة. وهكذا استغلت الحكومة الأمر وأسرعت إلى الإعلان عن الإنجاز الكبير الذي حققه علماؤها وخبراؤها وفنيوها في ورشاتهم السرية، مدعية أنه إنجاز سوف يعني كسر احتكار الدول الكبرى للسلاح وبيعه بأسعار باهظة للدول الفقيرة.

ومع انهماك الناس بمصارعهم الوطني الأمريكي ومخترع الطائرة السامرائي واحتدام الجدل بين جماعتي صاحب الحمار والزائر الكوني وانشغال لجنة الثورة العالمية بتصنيع قنابل مولوتوف وتوزيع البيانات ليلاً من تحت الأبواب على البيوت واستئجار الشيوعيين للمزيد من السراديب الواقعة تحت الأرض، قارئين كتاب المادية الديالكتيكية



والمادية التاريخية بقلم جوزيف ستالين وترجمة خالد بكداش على ضوء الفوانيس والقناديل الزيتية، راحت العاهرات الساكنات في الميدان والصابونجية يتسللن، الواحدة بعد الأخرى، مصحوبات بقواديهن الذين كانوا يقفون عادة تحت الأعمدة الكهربائية ويراقبون حركة الزبائن عن كثب، إلى مكان آخر بدا لهن أكثر مواءمة لعملهن، لبعده عن الأحياء السكنية التي تمتلئ بالعائلات الشريفة الساهرة على عفاف بناتها قبل كل شيء، ولكن أيضاً للتخلص من ابتزاز رجال الشرطة والأمن الذين كانوا يزورونهن حتى أثناء الدوام الرسمي، تاركين أعمالهم في مركز شرطة السراي القريب، فلا يكتفون بمضاجعتهن على عجل مجاناً فحسب وإنما يستحوذون أيضاً على الكثير مما كسبنه بعرق أفخاذهن.



١٥

مدينة ألف ليلة وليلة

بدأ رحيل العاهرات عندما راح بعض أصحاب عادل سليم الأمير الذين كانوا يسكرون معه في مغارته الواقعة على النهر يصطحبونهن إليها، كمكان مهجور، لا يكاد يثير انتباه أحد. ثم خطر في بال إحداهن، وكانت من عاهرات الشارع اللواتي يقفن في ساحة الجندي المجهول عادة ويتسللن مع زبائنهن تحت جنح الظلام إلى بيوتهن القريبة الواقعة في كرادة مريم، أن تقتاد زبائنها إلى تلك المغارة الآمنة، بعيدا عن العيون المتلصصة للجيران الذين كانوا يراقبون كل ما يدور في البيوت الأخرى من وراء ستائرهم نصف المسدلة. فقد كان من مألوف العادة أن يجلس الضيف الزائر حين يكون صديقه قد تأخر ربما بسبب زحمة السير في المدينة على كرسي أمام البيت في انتظار وصوله وفي يده استكان الشاي الذي تقدمه له الزوجة، مزيحة الستائر كلها جانباً، كدليل على إستقامتها ووفائها لزوجها الغائب.

وإذ كثر عدد العاهرات اللواتي يقصدن تلك المغارة المنعزلة وضاق المكان بهن لجأ بعضهن إلى البحث عن مغارات جديدة قريبة منها مثلما أقدم بعضهن الآخر على حفر مغارات أخرى داخل السدة



على امتداد النهر، حتى تحولت ضفة النهر مع الزمن إلى مدينة للهوى. طغت شهرتها حتى على الميدان والحيدرخانة. ومع ازدهار العمل في هذا الحي الجديد النائي الذي حمل اسم حي ألف ليلة وليلة هرع أصحاب الدكاكين والمطاعم الباحثين عن الربح وافتتحوا هم أيضاً أنفاقاً ومغارات تبيع كل شيء من الفلافل والكبة والشاورمة والكباب وحتى السيجاير والعرق، مثلما ظهرت حانات عدة وملاه للرقص الشرقي كانت تظل ساهرة حتى الصباح.

وحينما انتبهت الحكومة ولو متأخراً إلى الأمر غضت الطرف عنه، بل إنها اعتبرته حلاً مثالياً للتخلص من مشكلة ظلّت تؤرقها طويلاً. فقد كانت أحياء الهوى القديمة تقع في قلب المركز الحكومي، قريباً من وزارة الدفاع والسراي والوزارات ودور الضيافة الحكومية، مجتذبة ليس فقط الجنود والضباط الذين كانوا غالباً ما يقضون خفاراتهم وحراساتهم الليلية في بيوت الدعارة القريبة، معرضين أمن الوطن نفسه إلى الخطر، وإنما أيضاً الضيوف الكبار للدولة. فقد قاد سوء الحظ ذات مرة سيناتوراً أميركياً ضيفاً إلى الوقوع بيد الشرطة في أزقة الميدان والدماء تنزف من جبينه بعد شجار استخدمت فيه المطاوي مع اثنين من القوادين الذين هرعوا لنجدة العاهرة التي ادعت أنه أراد تكبيلها بالسرير بسلاسل عثروا عليها معه قبل مضاجعتها. وفي مرة أخرى تسلل خلسة وزير إفريقي من الكونغو إلى إحدى هذه الدور فرفضت العاهرة التي وقع اختياره عليها أن تدخل معه، وكانت عنصرية ذات ميول نازية، من أب ألماني وصل إلى العراق مع بناء خط سكة حديد برلين ـ البصرة المشهور، فخرج ووقف أمام الباب وراح يشتم بالإنكليزية الإفريقية العراقيين كلهم.

كل ذلك جعل إمام مسجد الحيدرخانة القريب يلقي خطبة نارية



ضد الحكومة والعاهرات على حد سواء، مدعياً أن الشيطان أغوى العديد من المتقين الورعين الذين كانوا في طريقهم لأداء الصلاة في مسجده عند اجتيازهم تلك الأزقة المظلمة، وهو أمر تتحمل مسؤوليته الحكومة التي تشجع على الفساد والرذيلة بدل قطع دابر الشر من جذوره حتى لا يقع المؤمنون في حبائله. وحينما اعتقلته الحكومة لتجرؤه على الطعن بسياسة الدولة العليا خرجت بعد صلاة الجمعة من مسجد الحيدرخانة نفسه مظاهرة قادها الدراويش هاجمت أزقة العاهرات المجاورة بالحجارة، فوقعت معارك دامية استمرت حتى المساء، حيث أقامت فتيات الهوى اللواتي انضم إليهن الكثير من زبائنهن المتاريس عند مداخل الأزقة، رافعات لافتات استفزت حماة الدين والعقيدة مثل «الحرية للجميع والسعادة للشعب» و«نحن ندعو إلى الحب الحر»، و«ساندوا المهنة الأقدم في التاريخ».

انبهر عادل سليم الأمير هو الآخر مثل الكثيرين غيره بما كان يحدث أمامه، لكن ما اجتذبه أكثر من أي أمر آخر هو تعاليم صاحب الحمار الخارج من أعماق الأرض مثلما أدهشه كتاب الزائر الكوني القادم كما يبدو من آخر الكون، فراح يقرؤهما في خلواته، حتى انه نسي ولو لبعض الوقت لذعات حبه الدفين في أعماق قلبه والذي كان يؤرقه مثل جمرة تأبى الإنطفاء. كان في الحقيقة قد فقد كل أمل في العثور على دليلة التي ظلّت بعيدة عن الأنظار ومتوارية، رغم أنه كان قد قصد غاليري «يوتوبيا» أكثر من مرة وسأل عنها، فقيل له مرة إنها كانت قد سافرت قبل أسابيع إلى أوروبا للمشاركة في معرض عالمي في مدريد، وفي مرة أخرى عرف أنها قصدت بيروت لحضور مهرجان شعري فيها. وبدا له أن صاحبه الشيطان نفسه كان قد كذب عليه عندما وعده بتدبير أمور قلبه:

ـ ليأخذه الشيطان، محتال آخر في بغداد.



ولكن حدث فجأة ما ملأ قلبه ثانية بالأمل عندما وصلت تلك القافلة الغريبة التي خيمت على ضفة نهر دجلة في طرف من أطراف بغداد فقلبت حياته رأساً على عقب.

لقد ظهرت دليلة مرة أخرى على مسرح الحياة.




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الثاني

قافلة الأحلام




مكتبة
الفكر الجديد

١٦

غرباء من زمن آخر

في مكان ليس بعيداً جداً عن العاصمة بغداد حلت قافلة من الرجال والنساء، لا يعرف أحد من أين جاءت، ممتطية البغال والحمير، جارة وراءها الكثير من العربات المغلقة التي تشبه تلك التي كان رعاة البقر الأميركيون يستخدمونها في رحلاتهم عبر أراضي الهنود الحمر، شاقة طريقها عبر الوهاد والجبال الوعرة الواقعة في الشرق، ضربت خيامها على ضفة نهر دجلة. مكثت هذه القافلة هناك شهراً أو ربما أكثر من شهر، بدون أن يبدر منها ما يدل على أنها تنوي مواصلة رحلتها إلى مكان آخر باتجاه الجبال المغطاة بالغابات أو الانحدار إلى الصحراء.

لم يكن وصول القوافل حتى تخوم العاصمة بغداد في الحقيقة أمراً ملفتاً للنظر وما كان ظهور تلك القافلة ليستحق أي قدر من الاهتمام به أو حتى الحديث عنه لو أنها بدت مثل كل القوافل العابرة الأخرى. إذ كانت العاصمة تستقبل كل عام قبائل كثيرة تخيم في أطرافها ردحاً من الزمن طلباً للكلأ أو التجارة، بل وحتى لتهريب الأسلحة والأغنام قبل الرحيل ثانية إلى مكان آخر، بدون أن تترك أثراً وراءها. وفي كل ربيع أيضاً كانت طيور السنونو وأسراب القطا المحلقة مثل غيمات رمادية مبعثرة في الريح، تعبر سماء المدينة،



فيتبعها الغجر، قادمين من أماكن قصية في العالم، مثل الهند وإيران وأفغانستان، حيث يقيمون في السهول الممتدة على مدى البصر والمغطاة بزهور شقائق النعمان والحندقوق في الليالي المقمرة حفلات رقص وطرب، تجتذب حتى الشيوخ الطاعنين في السن، والذين كانوا يقصدونهم ليشتروا منهم عقاقير، هي مزيج من أعشاب وورود برية جافة مطحونة، كانوا يجلبونها معهم ويبيعونها لهم في أكياس صغيرة من النايلون، زاعمين أنها تمنح المرء طاقة الفيل على الجماع وأنها لا تنبت إلا في سيلان المليئة بالفيلة.

ومع الغجر كانت المصائب تترى متوالية على المدينة، إذ لم يكن يندر أن يشتبك بعض الناس في شجار مع الغجر الذين ما كانت لتنقصهم الحيلة حتى في الضحك على الشيطان نفسه وخداعه. فقد شهدت بغداد في الأعوام الماضية شجارات كثيرة مع هؤلاء المحتالين، استخدمت فيها الخناجر والمطاوي أحياناً، بعد أن باعوا لبعض الشبان الذين لا هم لهم سوى ملاحقة فتيات المدارس المراهقات في الشوارع وانتظارهن عند رؤوس الأزقة قناني عطر صغيرة قالوا إن رائحتها تدوخ أكثر النساء صلابة وعفافاً فينجذبن إليهم ويقعن في غرامهم، مسلمات أنفسهن لهم بدون مقاومة. فقد انبرى آباؤهن الذين شعروا بأنهم طعنوا في شرفهم للشبان والغجر معاً، مشبعينهم ركلاً وصفعاً، حينما اكتشفوا أن بناتهم رحن يتبرجن ويضربن المواعيد الغرامية في المتنزهات العامة و البساتين مع عشاقهن، وقد أفقدتهن رائحة عطر الغجر القدرة على مقاومة إغراء الشيطان مثلما سلبتهن آخر ما تبقى من حياء لديهن. ولم ينته الأمر بالطبع عند هذا الحد، فقد فزع آباء الشبان المضروبين للدفاع عن أبنائهم، وراحوا يتهددون بالإنتقام ممن جرؤ على الاعتداء عليهم، ملقين باللوم على الفتيات اللواتي أغرين أبناءهم الأبرياء، مطلقين



شتائم كان يمكن للمرء أن يسمعها في المحلات والأسواق «اللعنة على هاته الفتيات الخفيفات اللواتي لم يعدن يبالين بشرفهن. إنهن السبب في كل المصائب التي حلّت بالعراق». ومع ذلك كان الناس يفتقدون الغجر إذا ما تأخر وصولهم قليلاً، حيث تظل العيون تترقب ظهور قوافلهم الأولى لتطرد الملل عن حياتهم الرتيبة.

هذه القافلة من الرجال والنساء بدت مختلفة ومثيرة للحيرة. صحيح أنها خيمت كما يفعل الغجر أو البدو عند أطراف العاصمة، إلا أن أحداً من أفرادها لم يقترب منها، في حين أن تلك المسافة ما كانت لتمنع الغجر من الهبوط منفردين أو في جماعات صغيرة إليها، عارضين بضائعهم للبيع، وهي في الأغلب سلال من الخوص الملون بالأحمر والأزرق والأصفر بأحجام مختلفة وسكاكين بمقابض تتضمن نقوش تنانين وصحون برسوم ملونة لشان كاي شيك وهيلاسيلاسي والملك غازي الأول وقلائد من ذهب زائف كانوا يجلبونها معهم من مدن بعيدة في الشرق. وإذا كان البدو قد امتهنوا بيع الملح الذي كانوا يحملونه في أكياس على ظهور جمالهم ويطوفون به في شوارع المدينة وأزقتها، متبوعين بشعرائهم الذين كان الناس يطلقون عليهم «شعراء القصيد» أو «الشعارين»، وهم مغنون شعبيون يحتضنون رباباتهم ويقرفصون على دكات البيوت التي تظهر عليها آثار النعمة والغنى، مؤلفين أشعاراً عفو الخاطر يمدحون بها كل من هب ودب بالاسم لقاء قليل من النقود، فإن ثمة غجراً كانوا يقتادون بين الحين والآخر دببة تسحب بأغلال من أنوفها وقردة بملابس مزركشة تشبه ما ترتديه العرائس الريفيات، زاعمين أنهم اصطادوها بأنفسهم في أحراش أفريقيا أو الهند أو سيبيريا، أو أنهم اشتروها في رحلاتهم الطويلة التي كانوا يقطعونها مشياً على الأقدام أو في القوارب وأحياناً على ظهر ناقلات النفط العملاقة القادمة من القارة الأميركية، لقاء العمل فيها



واصلين حتى جزر جاوة وسومطرة والفليبين، ويقدمون عروضهم التهريجية غالباً في الأسواق المزدحمة بالناس.

ومع ذلك فإن المتعة الحقيقية كانت تكمن في تلك الحفلات التي كانوا يقيمونها في الليالي المقمرة والتي ترقص فيها النساء المتهتكات بملابسهن المزركشة، هازات أكتافهن وأعناقهن بطريقة لولبية يصعب تقليدها، على إيقاع دفوف رجالهن وطبولهم المحناة المصنوعة من جلد الماعز وسط دائرة من الزبائن القادمين من العاصمة، حيث لكل شيء سعره الخاص به. فالزبون الذي يُجلس إحدى الفتيات في حضنه ويداعب نهديها بكفة يدفع ربع دينار. وكان عليه أن يدفع مئة فلس إذا ما أزاح المنديل الذي تغطي به شعرها، أما القبلة على الخد فكانت تكلفه أكثر من ذلك بقليل.

* * *

مع وصول هذه القافلة القادمة من الشرق انتشرت في المدينة إشاعة تقول إن هؤلاء الوافدين لم يكونوا بدواً أو غجراً وإنما عشيرة من الإنكليز أو الألمان الرحل المتنكرين فيما ادعى آخرون أنهم طائفة جديدة من الشيوعيين الذين يرتدي شيوخهم العمامات للتمويه ويربون الأسود، استعداداً للهجوم على العاصمة واحتلالها وتنصيب ستالين ملكاً عليها. والأكثر من ذلك أنهم كانوا يتبعون امرأة فاتنة الجمال، لا يعرف أحد أصلها وفصلها، تدعى دليلة تنشد شعراً يسلب العقول ويخلب الألباب. ومع أن هؤلاء الغرباء تجنبوا النزول إلى المدينة، معتصمين في مخيمهم، فإن أخبارهم التي لا يعرف أحد كيف وصلت إليها صارت الشغل الشاغل للجميع، وخاصة الرجال الذين كانوا يقضون معظم وقتهم المهدور بسخاء في الجلوس في المقاهي واحتساء الشاي ولعب الطاولي والدومينو وهم يستمعون إلى أغاني



فريد الأطرش ولميعة توفيق وأم كلثوم وحضيري ابو عزيز ومحمد القبانجي من الراديو أو يتبادلون الإشاعات والأخبار التي كانت تنتشر في اليوم ذاته في المدينة كلها. وحتى في الأزقة الضيقة كان يمكن للمرء أن يسمع النساء الجالسات أمام بيوتهن فوق بطانيات يفرشنها على الأرض ويأكلن الباقلاء المطبوخة وهن يتحدثن عن امرأة شاعرة غريبة الأطوار تقود حشداً من الرجال:

ـ هؤلاء الغجر لا يخجلون أبداً، إنهم يتركون الرجال يقبلون نساءهم.

ـ ليسوا غجراً. إنهم مسلمون مثلنا.

ـ إذا لم يكونوا غجراً فلماذا يقيمون في الخيام؟

ـ يُقال إنهم حجاج عجم من مدينة قُم أو طهران في طريقهم إلى كربلاء.

ـ كلا، كلا، لقد رأوهم يعبدون النار.

ـ أعوذ بالله من الشيطان الرجيم.

ومع ذلك فإن هؤلاء الغرباء أزالوا في الحقيقة الصدأ عن زمن المدينة التي لم يكن ليحدث فيها إلا نادراً ما يستحق الحديث عنه. فمنذ الأيام الأولى لوصول قافلتهم سلك العديد من الشبان طريق النهر الذي قادهم إلى مخيم الغرباء البعيد، على أمل إلقاء نظرة على المرأة الغريبة أو ربما إغرائها بالمال لتقع في غرام واحد منهم، ولكنهم عادوا جميعاً بخفي حنين، فقد استقبلهم رجال القافلة عند المدخل وقدموا لهم الشاي، ثم صرفوهم بشيء من الفظاظة، بدون الإفراط في الحديث معهم. زاعمين أن ثمة كثيراً من العمل ينتظرهم. وادعى آخرون أنهم أطلقوا سيقانهم للريح حالما اقتربوا من المخيم إذ خرجت إليهم من المعسكر أسود ونمور وذئاب طاردتهم وكادت تفتك



بهم، لولا أنهم أفلحوا في الاختباء وراء أشجار البساتين، مما جعل الناس تسخر منهم:

ـ لا بدَّ أنها كانت كلاباً كبيرة.

لكن الشبان راحوا يقسمون بأرواح الموتى من أقاربهم، مؤكدين:

ـ هل تريدون أن تعلمونا كيف تكون الأسود والنمور؟ لقد رأينا الكثير منها في أفلام طرزان على الأقل.

وبدا الأمر ملغزاً بعض الشيء في نظر أولئك الشبان المتطفلين: ترى ما الذي يفعله هؤلاء الغرباء الكتومون مع أسودهم ونمورهم وذئابهم في مثل هذا المكان القاحل من العالم وما الذي أجتذبهم إلى مدينة تحرقها الشمس مثل بغداد؟ لا يبدو أنها رائحة المال وحدها.

* * *

ومع الشبان خرج الجواسيس العاملون في الشعبة الخاصة للأمن على دراجاتهم الهوائية إلى البرية وراحوا يطوفون من بعيد حول الخيام، ثم عادوا خائبين من دون أن يفلحوا في كشف سر هؤلاء الغرباء الذين زعموا أنهم ينامون في النهار ويسهرون في الليل أمام نار يوقدونها وسط معسكرهم، متحلقين حول شاعرتهم دليلة التي كانت الريح تحمل بين الفينة والأخرى كلمات قصائدها بعيداً، حيث يختبئ الجواسيس بين فروع أشجار النخيل، موجهين أقماعاً من الكارتون ألصقوها بآذانهم صوب القافلة، لعلهم يلتقطون جملة مفيدة تنير ضباب جهلهم.

وحينما راح رجال أمن الحكومة، وهم في معظمهم ريفيون لا يعرفون القراءة والكتابة، يضربون أخماساً بأسداس ويختلقون القصص حول القافلة، وهي قصص بدت حتى لمدير الشرطة نفسه خيالية وغير



قابلة للتصديق، استدعى مفوض أمن السراي وقال له بلهجة ساخرة:

ـ هيا اجلس وقل لي ما هي قصة هذه القافلة التي صارت أطول من قصة عنتر!

جلس المفوض صادق الدليمي على الأريكة التي كانت تقع إلى اليسار في مواجهة النافذة المفتوحة على الحديقة الصغيرة في الباحة الخارجية، ملقياً نظرة خاطفة على شجرة التين التي طالما اجتذبت العنادل إلى ثمارها الشهية التي كانت تثقبها بمناقيرها، مازجة عصيرها برضابها ثم تتركها يومين أو ثلاثة قبل أن تعود إليها ثانية. حينذاك إذ تكون التينة قد اختمرت تماماً في الشمس تسكر العنادل وتأخذ بالغناء. لكن المفوض صادق الدليمي لم يرَ عندليباً هذه المرة، كان ثمة عصفور دوري يقفز من غصن إلى آخر، مزقزقاً بإلحاح ربما لاجتذاب العصافير الأخرى إليه.

ظل مدير الشرطة يحدق في المفوض الذي كان قد نسي نفسه وراح يفكّر في العنادل قبل أن ينتبه ويقول:

ـ هناك قصص كثيرة وصلتنا عن هذه القافلة، ولكن يصعب عليّ أن أصدق أي واحدة منها.

سأل مدير الشرطة بشيء من المرح:

ـ ولماذا يصعب عليك تصديقها؟ إنك تملك ما يكفي من العيون لتصل إلى الحقيقة قبل غيرك. هذه مهمتك على أي حال.

ـ ليس دائماً يا سيدي. إننا نملك عيوناً كثيرة حقاً، ولكنها عمياء، لا تكاد ترى شيئاً.

ثم أضاف بعد وقفة قصيرة:

ـ لقد اختص رجالنا دائماً بتعقب المنظمات السرية وكشفها، كما تعلم، وقد حققوا في عملهم هذا الكثير من النجاح، حيث تقوم اللعبة بين الطرفين على قواعد معروفة. حينما يطبع أعداؤنا منشوراً ضد



الدولة ويرمون به من فجوات الأبواب ليلاً في البيوت ننصب لهم كمائن يقع فيها في النهاية واحد أو اثنان منهم. وبعد ذلك لن يصعب علينا أن نجعلهم يفتحون أفواههم المغلقة ويدلوننا حتى إلى السرداب الذي يخبئون فيه مطبعتهم. أنت تعرف أننا نقوم بعملنا هذا كل يوم. ولكن ما الذي يمكن أن نفعله مع قافلة من القوافل الرحل الكثيرة التي تخيم عند أطراف العاصمة؟ إنهم لم يوزعوا منشوراً لنعتقلهم، بل ولم نرَ حتى أحداً منهم ينزل إلى المدينة لنستجوبه ونعرف منه الحقيقة.

قال مدير الشرطة معترضاً:

ـ ولكن المدينة كلها تتحدث عن هؤلاء الغرباء. لا يعقل أن يكون كل هذا الدخان بدون نار. إنني لم أطلب منك اعتقالهم، فهم لم يفعلوا حتى الآن ما يبرر ذلك. كل ما يهمنا هو أن نعرف ما يحدث أمام عيوننا حتى نتدارك الخطر قبل وقوعه، إذا كان ثمة خطر أساساً. وإذا ما أردت رأيي فإنهم ربما كانوا طائفة دينية من تلك الطوائف الغريبة الكثيرة المنتشرة في إيران وتركيا وأفغانستان والهند. ، فالبلاء يأتي دائماً من الشرق، كما تعرف. ربما كانوا بهائيين أو بابيين أوزرادشتيين أو مانويين، من يعرف ذلك؟ إنهم لن يعترفوا لك بالحقيقة على أي حال.

وجد المفوض الشاب الفرصة سانحة لينقل له ما كان قد سمعه من رجاله الذين أرسلهم للتجسس على القافلة:

ـ يُقال يا سيدي إما أنهم من الملائكة أو من الشياطين.

ضحك مدير الشرطة قائلاً:

ـ لقد سمعت مثل هذا الهراء أنا الآخر في نادي الموظفين، كما رددته عليّ زوجتي التي كانت قد سمعته أيضاً من خادمتنا.

وافقه المفوض صادق الدليمي على رأيه:

ـ هذا ما أردت أن أقوله منذ البداية. ومع ذلك فإن الأمر ما زال



محيراً في نظري، إذ ثمة معلومات مؤكدة عن هذه القافلة قدمها لي رجالي تبعث على الشك في حقيقتهم.

قال مدير الشرطة:

ـ لقد استدعيتك لتخبرني بكل ما تعرفه عنهم، حتى نعرف كيف نتصرف معهم.

حينذاك قدم له المفوض إضبارة كان قد جلبها معه:

ـ تجد هنا كل التقارير التي وصلتني عن القافلة. من الأفضل أن تقرأها بنفسك.

انتبه مدير الشرطة وهو يضع نظارته الطبية التي ما كان في إمكانه أن يقرأ بدونها على عينيه إلى أنه لم يكن قد طلب الشاي لمفوض الأمن الذي صار يعتمد عليه أكثر من المعاونين والمفوضين الآخرين ويكن له المودة، بعد أن تلقى توصية خاصة به من وكيل وزير الداخلية الذي كان متزوجاً من أخته، فنادى على الشرطي الواقف أمام الباب أن يجلب لهما الشاي:

ـ لقد أخذنا الحديث ونسيت أن أطلب لك الشاي.

رد المفوض الشاب بخجل:

ـ لا حاجة لذلك يا سيدي. إنني أشرب الشاي طوال اليوم.

ـ اشربه إذن معي أيضاً.

* * *

كانت الإضبارة تتضمن تقارير عدة، يتحدث فيها كاتبوها وكلهم من رجال الأمن العلنيين أو السريين عن أمور غريبة يصعب تصديقها. فقد ذكر أحد هؤلاء أنه رأى أسوداً ونموراً ودببة تتجول بين الخيام إلى جانب بغالهم وخيولهم وخرفانهم بدون أن تهاجمها أو تفترسها وأن الذئاب والضباع وبنات آوى تقبل في الليل من الصحراء وتجثم أمام



خيامهم أو تتحلق هي الأخرى حول دائرة النار التي يجلسون إليها، منصتين إلى شاعرتهم دليلة التي تقرأ عليهم قصائدها بصوت متهدج وإيقاع مغنى، كما لو أنها في حفل. وورد في تقرير ما أمر يصعب تصديقه هو الآخر وهو أن هؤلاء الغرباء يضيئون خيامهم بالمصابيح الكهربائية في منطقة خالية من الكهرباء. وقال آخر إنه شاهد رجال القافلة يتحدثون بسماعات هواتف صغيرة بدون أسلاك، يحملونها في جيوبهم. وزعم جاسوس آخر مدمن على الحشيش أنه رأى بأم عينيه العديدين منهم يطيرون في الوادي القريب من مخيمهم بأجنحة من المشمع الملون كما تفعل الطيور.

كان المفوض لا يزال يحتسي شايه، مراقباً تأثير تقاريره في مدير الشرطة الذي رفع رأسه أخيراً وقال، ضاحكاً:

ـ من يمكن أن يصدق مثل هذه الأقوال؟ أسود وذئاب تصادق الخرفان، مصابيح مضيئة بدون أسلاك كهرباء وهواتف بدون أسلاك ورجال يطيرون مثل العصافير! لو كان ما ذكره رجالك صحيحاً لآمنت أنا الآخر بأنها قافلة من قوافل الملائكة المارة ببغداد أو ربما من الشياطين.

صمت لحظة وهو يحدق في المفوض الشاب قبل أن يقول:

ـ حسناً، أعتقد أن من الأفضل أن نزورهم بأنفسنا لنقطع الشك باليقين. جهز نفسك مع سيارة مسلحة ترافقنا. أريد أن أتحدث إليهم بنفسي. لا ينبغي أن نضيع المزيد من الوقت.



١٧

فرقة يوتوبيا العالمية للمستقبل السعيد

بعد رحلة لم تستمر طويلاً بلغت السيارتان الحكوميتان مخيم القافلة، مثيرتين الغبار وراءهما. لم يشأ مدير الشرطة أن يلفت الانتباه إلى نفسه، لذلك اكتفى بأن أخذ معه سيارة فورد جلس في مقعدها الخلفي فيما احتل حارسه الشخصي المقعد الأمامي إلى جانب السائق، وأخرى لاندروفر برشاشة متحركة مرتكزة على قائم تصدرها المفوض فيما وقف الحراس الثلاثة المرافقون لهما على أرجلهم في الخلف، تحوطاً لأي طارئ ولكن أيضاً لإضفاء لمسة من الأبهة على الزيارة.

توقفت السيارتان على حافة طريق ترابي قريباً من بستان نخيل كان جواسيس الحكومة يختبئون عادة فيه ليراقبوا القافلة خلسة فنزل المفوض الذي اتجه مسرعاً إلى مدير الشرطة وقال له:

ـ من الأفضل أن تنتظر هنا يا سيدي، عليّ أن أستطلع الموقف أولاً. لا نعرف ما يخبئه القدر لنا من مفاجآت عند هذه القافلة الغريبة.

ضحك مدير الشرطة، ساخراً:

ـ لا أعتقد أنهم سيأكلوننا.

وابتسم للفكرة مع نفسه. كان بديناً بعض الشيء، مما سيجعل منه



طعاماً مناسباً للذئاب التي ستلتهمه مع كامل بدلته الرسمية. ومرق ببصره على حقل الخيار الممتد إلى يساره قبل أن يقفز من السيارة، طالباً من حارسه الذي أسرع فاتحاً الباب له أن يعطيه ناظوره المقرب الذي كان يراقب به عادة المدينة من سطح مبنى السراي مرتين في اليوم على الأقل، ليطمئن بنفسه على أن كل شيء على ما يرام، قبل أن ينصرف إلى بيته. بدا له كل شيء هادئاً في مخيم القافلة والسكون يطبق عليه، رغم أن الساعة كانت تشير إلى الحادية عشرة صباحاً. حينذاك فقط تذكر أنه كان قد سمع بأن أفراد القافلة ينامون في النهار ويسهرون في الليل، فقال للمفوض الذي كان يتطلع هو الآخر صوب القافلة:

ـ ربما كانوا لا يزالون نائمين. يبدو أنهم يشبهون الملوك في عاداتهم.

قال المفوض وكأنه ينفذ أمراً:

ـ سأذهب وأوقظهم إذن، لم يخلق النهار للنوم.

ـ في مثل هذا الطقس ليس أطيب من النوم داخل خيمة.

ثم أضاف مدير الشرطة بشيء من المرح:

ـ كن طبيعياً معهم يا صادق، قل لهم أن مدير الشرطة جاء بنفسه للترحيب بهم أو أي شيء من هذا القبيل، لا ينبغي لنا أن نثير شكوكهم ومخاوفهم بدون مبرر. أنت تعرف أن كل ما نريده الآن هو أن نختلس النظر إلى عجائب هذه القبيلة.

ثم كمن تذكر أمراً مهماً قال للمفوض:

ـ ولكن قل لهم قبل كل شيء أن يبعدوا أسودهم ونمورهم وذئابهم اللعينة عن طريقنا، إذا كانت عندهم ثمة أسود ونمور وذئاب بالفعل، وإلا قتلتها بنفسي.

ـ طبعاً، طبعاً.



رد المفوض الشاب وقد ارتسمت على شفتيه ابتسامة رضا، جعلته يمس بيده سدارته التي كانت أمه قد كوتها له في الليلة الماضية ثم يعدل من قيافته قبل أن يخطو باتجاه المخيم، يتبعه اثنان من رجال الشرطة الذين كانوا يرتدون السراويل الخاكية الصيفية القصيرة التي تنحدر إلى ما تحت الركبة، حاملين البنادق على أكتافهم. سار المفوض بخطوات عسكرية مسرعة كمن يستعرض نفسه أمام رئيسه فيما نزع مدير الشرطة سدارته، مهوياً بها وجهه، «اللعنة على هذا الجو، ما يكاد المرء يغادر مكتبه حتى يختنق من الحر»، ثم أخرج سيجارة أشعلها بقداحته الغازية ماركة رودنسون التي كان قد ربحها من مأمور الطابو قبل شهر في لعبة طاولي، وراح يدخن نافثاً دخانها في الهواء الراكد، متكئاً على جذع شجرة جرداء، واضعاً بين الحين والأخر ناظوره على عينيه ليرى كيف ستسير الأمور مع المفوض والشرطيين.

بعد دقائق من ذلك الانتظار الممض الذي بدا لمدير الشرطة طويلاً وقابضاً للنفس وهو يفكر في الأسود والنمور التي قد تكون القافلة جلبتها معها بالفعل، رأى رجاله يعودون برفقة رجل، له وجه مائل إلى الإستطالة بعض الشيء وذقن بارزة إلى الأمام قليلاً وشعر طويل مسدل. كان الرجل الغريب يرتدي دشداشة بيضاء فضفاضة من الحرير، محتزمة بزنار أحمر، وينتعل حذاء صيفياً مفتوحاً من الجلد. تقدم الرجل الذي بدا أنه في حوالي الثلاثين من عمره من مدير الشرطة، لاما ذيل دشداشته بأطراف أصابع يده اليسرى وصافحه، كمن يبتهج بزيارة صديق لم يره منذ زمن طويل:

ـ أرجو المعذرة لمنظري الذي يجعلني شبيها بمطران في الفاتيكان. كنت على وشك حلاقة ذقني عندما عرفت بتشريفكم إيانا بهذه الزيارة. تفضلوا، سيدتنا دليلة الملاك سوف تستقبلكم في مضيفها.



أدار مدير الشرطة عينيه في وجه الرجل الذي يقف أمامه ليحتفظ بملامح وجهه في ذاكرته، وقال بمكر:

ـ اعتقدتك سيد القبيلة. لم يعتد العرب حتى الآن على أن يوكلوا أمور حياتهم إلى النساء. أمر غريب، أليس كذلك؟

ضحك الرجل الذي يشبه المطران:

ـ كان ذلك فيما مضى يا سيدي، لقد تغيّرت الأحوال الآن كما ترى لسوء حظنا نحن الرجال. ومع ذلك لا أريد أن أجأر بالشكوى، فنحن ننتخب شيوخنا بأنفسنا كل عام.

رد مدير الشرطة، متحرشاً:

ـ آه، الانتخابات، ما أسهل أن يزورها المرء.

بدا من غير المناسب للرجل استباق الأمور وخوض مناقشة مع مدير الشرطة على قارعة الطريق، لذلك قاد وفد الحكومة صامتاً حتى المعسكر، حيث وقفت دليلة الملاك مع عدد من الرجال والنساء لاستقبالهم تحت علم خاص ذي لون أصفر تظهر في وسطه الكرة الأرضية الزرقاء مرفرفاً في الريح إلى جانب العلم العراقي فيما انطلق من مكبرات الصوت نشيد كورالي وقف الجميع صامتين احتراماً عند سماعه، واضعين أيديهم على قلوبهم. حينما انتهى النشيد قادت دليلة مدير الشرطة والمفوض إلى المضيف فيما ظل أفراد الشرطة المرافقون لهما واقفين، ينتظرونهما خارج الخيمة.

كان من الواضح أن هؤلاء الغرباء المحيرين ليسوا غجراً أو قرويين، فقد بدا لمدير الشرطة وهو يمد يده لمصافحة دليلة أنه يقف أمام ممثلة في السينما. كانت تنتعل حذاء رياضياً أبيض، ماركة سلامندر وترتدي قميصاً أصفر مفتوح الصدر بنصف ردن وبنطلون جينز، ماركة ليفي شتراوس، بقصة شعر غلامية سرحته إلى الخلف، مخفية عينيها وراء نظارة شمسية سوداء. وفي الخيمة التي قادته إليها



كانت ثمة مقاعد أكثر فخامة من مقاعد مكتبه هو بالذات وطاولة منخفضة قليلاً. وعلى مشمع جدران الخيمة ظهرت رسوم سحرية أضفت المزيد من الغموض على الجو الذي وجد نفسه فيه. وإذ رأى الرجل الذي يشبه المطران مدير الشرطة والمفوض يتطلعان في الرسوم قال:

ـ كل ما ترونه رسمته دليلة بنفسها، لقد أقامت العديد من المعارض في المدن التي زرناها حتى الآن.

أسرع المفوض إلى القول:

ـ إنها رسوم جميلة، ولكن ماذا تعني؟

ردت دليلة متهربة:

ـ إنها مجرد رسوم ولا شيء آخر.

هز مدير الشرطة الذي لم يكن يفهم شيئاً في الرسم رأسه:

ـ الحق أنك تملكين مضيفاً جميلاً.

حينما قدمت فناجين القهوة التي دخلت بها واحدة من فتيات القافلة قال مدير الشرطة، كاشفاً أوراقه:

ـ لقد جئت بنفسي إليكم، لأن المدينة كلها تتحدث عن قافلتكم. إنكم لستم بدواً ولا غجراً. والأكثر غرابة من كل ما شاهدته في حياتي كلها هو أنكم تملكون علماً خاصاً بكم ونشيداً وطنياً أيضاً. وربما كانت لكم حكومتكم أيضاً، وهو أمر لن أستبعده على أي حال. إنني لا أكاد أصدق ما رأته عيناي حتى الآن. من أنتم؟

تبادل الرجل الذي يشبه المطران النظرات مع دليلة التي ابتسمت وهي تركز النظر في مدير الشرطة قبل أن تقول:

ـ كان علينا أن نتصل بالمسؤولين في المدينة حقاً، ولكننا لم نرد أن نشغلكم بمشاكلنا قبل التحضير الكامل لعملنا الذي نريد أن نقدمه



لسكان بغداد والذي يتطلب تعاونكم معنا. إنني أدعى دليلة الملاك وهذا هو مساعدي المعروف باسم الأستاذ.

حينذاك أكمل الأستاذ قائلاً:

ـ إننا يا سيدي المدير نمثل فرع جمعية «يوتوبيا» الفنية العالمية ونحمل اسم «قافلة الأحلام»، وهي كما تعرفون جمعية معروفة في العالم كله. إننا نطوف من بلد إلى آخر لنقدم المتعة والسعادة للناس.

كان ذلك أشبه ما يكون بالصدمة لمدير الشرطة الذي أعتقد أن الأستاذ يسخر منه، فقال بعصبية منزعجاً:

ـ أي جمعية فنية؟ لا أفهم شيئاً من الأمر كله.

تدخلت دليلة الملاك، مهدئة الموقف:

ـ ليس عندنا ما نخفيه عن الحكومة أو الناس، فنحن لسنا حزباً حتى نثير غضب الدولة علينا، كما أننا لسنا طائفة دينية تبشر بعقيدة جديدة. إننا بالفعل يا سيادة مدير الشرطة جمعية فنية مسجلة رسمياً تحت اسم «فرقة يوتوبيا العالمية للمستقبل السعيد»، لا أعتقد أن في الأمر ما يثير الاستغراب. كل ما نريده هو أن يسود الحب العالم.

ثم نهضت وجلبت من درج في الركن إضبارة قدمتها لمدير الشرطة:

ـ يمكنك أن تطلع على وثائقنا الرسمية بنفسك.

سأل مدير الشرطة مستغرباً:

ـ وماذا يعني ذلك؟ ماذا تريدون بالضبط؟

ثم بدون أن ينتظر الجواب راح يتفحص الوثائق، وهو لا يكاد يصدق الأمر ثم ناولها للمفوض، قائلاً:

ـ هذا أمر لم يخطر في بالي قط.

وأخيراً تدارك نفسه كمن يبحث عن عذر ليبرر تطفله على القافلة:

ـ كل الفرق الفنية تملك مقرات خاصة بها. هذه هي المرة



الأولى التي أسمع فيها بفرقة فنية متنقلة. كيف سيمكن لكم العمل إذا ما ظللتم ترحلون من مكان إلى آخر، كما يفعل الغجر؟ وما الذي ستحصلون عليه في مدينة مثل بغداد؟

ردت دليلة بلطف:

ـ إننا، كما ترى من وثائقنا الرسمية نطوف من مكان إلى آخر، لنقدم أعمالنا للناس عن طريق الفن. لسنا سوى فرقة تبيع الأحلام.

ـ فرقة تبيع الأحلام؟ بكم تبيعون أحلامكم هذه؟ هذا أمر جديد عليّ تماماً. إنكم لم تقدموا لنا حتى الآن سوى الإشاعات التي تملأ العاصمة.

قال مدير الشرطة وهو يشعل سيجارته. ثم أضاف:

ـ من الواضح أن الفكرة كلها مستوردة من الخارج.

تدخل الأستاذ بطريقة فجة كما لو أنه يعلم تلاميذ في المدرسة:

ـ ليس تماماً رغم أن الكلمة إغريقية في الأصل وتعني اللامكان، فقد سبق العرب حتى الكاتب الإنكليزي توماس مور الذي نشر كتابه الشهير «يوتوبيا» في العام ١٥١٦ والذي أدى إلى ظهور الكثير من اليوتوبيات في العالم، عندما تحدثوا عن المدينة الفاضلة قبل قرون طويلة. إننا كما ترى يا سيدي نعيش في اللامكان، إذ ما نكاد نحل في أرض ما حتى نرحل عنها إلى سواها.

قال مدير الشرطة ساخراً:

ـ هكذا يفعل البدو أيضاً. كان عليكم أن تقيموا جميعيتكم الغريبة هذه في صحراء الربع الخالي.

سأل المفوض الذي لا يبدو أنه فهم الأمر تماماً:

ـ وماذا حلّ بكل تلك الجمعيات التي تتحدثون عنها؟ إنني لم أرَ أي جمعية مثل جمعيتكم هذه من قبل.

رد الأستاذ وفي صوته بعض المرارة:



ـ إن بعضها لا يزال قائماً حتى الآن في ألمانيا وأميركا وهولنده والهند، ولكن لا ينبغي أن أكتمك أن الكثير من يوتوبيات الماضي انتهى تحت وطأة الواقع القاسي، وربما الأوهام.

أضافت دليلة الملاك موضحة:

ـ لكن هذا ليس حجة ضدها وإنما ضد الواقع نفسه.

أكمل الأستاذ:

ـ لذلك عمدنا منذ البداية إلى وضع أسس واقعية صحيحة لعملنا حتى نتلافى أخطاء التجارب الفاشلة السابقة التي قامت في الأغلب على الخيالات والأوهام؟ وقد أفلحنا بالفعل في أن نؤسس قافلتنا الصغيرة هذه في النهاية، حيث الذئب نفسه يواسي الخروف.

قهقه مدير الشرطة ساخراً:

ـ ما هذا الذي تقوله يا رجل؟ كل هذا يبدو لي ضرباً من الخيال والشعوذة. لقد كانت الحياة دائماً كما هي عليه الآن. هناك لصوص يسرقون وشرطة يلقون القبض عليهم ويضعونهم في السجن. أنتم تعرفون أن اللّٰه ما كاد يخلق الملاك حتى أردفه بالشيطان وأطلقهما معاً على البشر. وما دام الصراع بينهما قائماً فإننا سنظل نعيش كما عشنا دائماً.

قال الأستاذ:

ـ هذا هو بالذات موضوع المسرحية التي نقدمها في كل مدينة نصل إليها، فأنا أمثل دور الشيطان فيما تمثل دليلة دور الملاك، وهي مسرحية سوف تعجبك بالتأكيد إذا ما شاهدتها. سوف ترى وجهاً آخر للشيطان غير ذاك الوجه الذي اعتاد الناس على تصوره من خلال قراءة كتب خيالية مثل المقامة الإبليسية وأكام المرجان للبديع الهمداني ورسالة الشياطين لأبي العلاء المعري وحكايات ألف ليلة وليلة ولقط المرجان للإمام السيوطي. هذه خرافات لا أعتقد أن أحداً في زماننا



يمكن أن يصدقها. ولا تنسَ يا سيدي المدير أن الشيطان نفسه لم يكن سوى موظف مثل غيره من الملائكة عند اللّه الذي لا يمكن إلا أن ينشد الخير للناس. وهكذا كما ترى لا يتعلق الأمر بالشيطان وإنما بالبشر قبل كل شيء. فإذا ما تغيّر البشر انتهى الشيطان نفسه.

ثم أضاف وهو يحدق في وجه دليلة قائلاً بشيء من التهكم:

ـ لقد عمل الشيطان المسكين طوال آلاف السنين بنكران ذات، بل وحتى بدون راتب يستلمه في نهاية الشهر مثل كل الموظفين الآخرين، وربما سره الآن أن يتقاعد أخيراً من الخدمة. من يدري؟

رد مدير الشرطة هازلا:

ـ وماذا سيحل بي كمدير للشرطة في جمعيتكم الخيالية هذه؟ سوف يتوجب عليّ أن أتقاعد أنا الآخر بالتأكيد.

ثم التزم الصمت، مفكراً في ما إذا كان عليه أن يعتقل هؤلاء الأغراب بتهمة الشعوذة أو أن يطلب الانتساب إلى فرقتهم.

انتهزت دليلة الملاك الصمت الذي ران على الخيمة للحظات فقالت:

ـ إن قافلتنا لا تضم الممثلين والرسامين والشعراء والموسيقيين والمغنين والمهرجين وبهلوانات السيرك فحسب وإنما أيضاً العلماء والمخترعين والمؤرخين ولاعبي كرة القدم والراقصين. ربما اعتبرنا الآخرون خياليين، ولكنك سترى أننا أفلحنا بالفعل في أن نجمع بين الملاك والشيطان والذئب والشاة. كل ما يحتاجه المرء هو أن يكيف الغرائز البهيمية للكائنات ويطلقها في اتجاه آخر حتى يقضي على غريزة الجريمة. فكما تعرف أن العالم الروسي بافلوف كان أول من أثبت هذه الحقيقة، حينما اكتشف الانعكاس الشرطي الذي يقوم على التكيف الفردي للأعضاء طبقاً للظروف البيئية مثلما بحث بتفصيل الأشكال المختلفة للجملة العصبية المركزية وآلية عملها. أعتقد أن



هذا أمر يهمك باعتبارك مديراً للشرطة. الأمر يتعلق دائماً بالموقف من الحياة ذاتها.

ضحك مدير الشرطة، في محاولة منه للتهرب من أي جدل علمي قد يكشف عن جهله:

ـ لا أكاد أصدق ما تقولينه. أنت تعرفين أن الذئب سيموت جوعاً إن لم يفترس الشاة. هكذا هي الحياة. وما هي فائدة الشيطان إذا تخلى عن دوره الشرير الذي يلعبه في هذا العالم؟ إنني أملك ما يكفي من التجارب لأؤكد لك أن الذئب سيبقى ذئباً مثلما سيبقى الشيطان شيطاناً. نحن الشرطة نفهم مثل هذه الأمور أكثر من أي أحد آخر في العالم.

ـ كان الأمر كذلك حقاً دائماً حتى أفلحنا أخيراً في أن نجعل الوحوش الكاسرة نفسها تغيّر من عاداتها. إنها تقتات الآن في مخيمنا على العشب والفواكه وتقرف من رائحة الدم. ذلك ممكن، صدقني. إنني واثقة من أن العالم قابل للتغيير.

ـ قد يمكن للمرء أن يحقق بعض النجاحات في السيرك، لكن الأمر يختلف في الحياة الواقعية.

ثم إذ تذكر مدير الشرطة الأمر الأهم الذي جعله يقوم بتلك الزيارة قال:

ـ عليّ أن أكون صريحاً معكم، لقد أثرتم الكثير من الشكوك حولكم حتى الآن، فقد أبلغت أنكم تملكون الكهرباء في منطقة لا كهرباء فيها وتتصلون بأجهزة هاتف من دون أسلاك وتطيرون كالعصافير فوق الوادي. هذه أمور يمكن أن يقبلها المرء حينما تحدث في الأساطير ولكن ليس في الواقع. إنني لم أصدق بالطبع هذه القصص.

ضحكت دليلة:



ـ ولماذا لم تصدقها؟ ليس في الأمر ما يدعو إلى الاستغراب. إنه العلم يا سيدي مدير الشرطة، العلم الذي سيغير العالم. هذا ما كنت أقوله لك. كل ما سمعته عنا صحيح. وهي اختراعات حققها علماؤنا بإمكاناتهم البسيطة في يوتوبيانا الصغيرة هذه. يمكنك أن ترى ذلك بنفسك إذا ما أردت.

كان ما قالته دليلة صدمة لم يتوقعها مدير الشرطة، بيد أنه تمالك نفسه قبل أن يقول متلهفاً:

ـ بالطبع أريد أن أرى ذلك. من يمكن أن يفوت مثل هذه الفرصة النادرة؟

حينذاك نهضت دليلة، مشيرة إليه:

ـ حسناً، تفضل لترى كل شيء بنفسك وتتأكد من أننا نسير بالفعل على طريق جديدة لم يسلكها أحد سوانا من قبل.

* * *

كان ما شاهده مدير الشرطة عند هذه الجماعة مثيراً للدهشة حقاً، لا يكاد يصدقه العقل. فقد رأى بأم عينيه الأسود والذئاب والنمور والخرفان والغزلان تقيم في سلام داخل حظيرة واحدة، معتلفة العشب، وقد تخلى أكثرها ضراوة عن حيوانيته، وحينما كان يتجول بين الخيام، منهمكاً في الحديث مع دليلة شعر برضاب دافئ على كفه فجر يده مذعوراً، ماداً إياها بتلقائية إلى المسدس في وسطه. كان ثمة أسد يلحسها بلسانه. لكن دليلة طمأنته، بعد أن نهرت الأسد عن ذلك:

ـ إنه يعرض عليك مصالحة الأسود.

فرد عليها مدير الشرطة الذي أرعبه الأمر:

ـ لا شيء عندي ضد الأسود سوى أنني أكره أن أجد كفي في فمها.



لم يكن ما أدهشه في واقع الحال هو رؤية الأسود المتحولة إلى خرفان وإنما تلك المخترعات السحرية التي رآها عند هذه القافلة والتي راح يفكر في طريقة ما للاستحواذ عليها. فقد اتصل بنفسه عن طريق جهاز الهاتف المتنقل الصغير الذي يمكن للمرء أن يحمله في جيبه، بزوجته وقال لها إنه سيتأخر اليوم قليلاً عن تناول الغداء في البيت، وهو لا يكاد يصدق أذنيه، بدون أن يبلغها بالطبع بسر جهاز الهاتف الغريب الذي كان يمسك به في يده. فكر أن يتصل بوزير الداخلية أيضاً، إلا أنه تخلى عن الفكرة ليتمعن ملياً بالأمر قبل الإقدام على أي خطوة قد تكون متسرعة ولا تعود عليه بالفائدة. وحينما رأى المصابيح المتناثرة داخل المخيم والتي قالت له دليلة أنها تعمل على الطاقة الشمسية التي تدخرها في النهار لتضيء بها في الليل قال لها:

ـ سأعود في الليل إلى المخيم لأرى هذه المعجزة الجديدة.

ثم إذ سألها بخبرة شرطي يعرف كيف يجر الآخر إلى كشف أسراره إن كانت ثمة مخترعات أخرى يمكن أن يطلع عليها أجابته بدهاء:

ـ أعتقد أن هذا يكفي الآن، لا تنسَ أن زوجتك تنتظرك على الغداء.

ـ ليأخذها الشيطان، إنها لا تعرف شيئاً أهم من الأكل في العالم.

ثم التفت إلى دليلة وهو يضع يده على كتفها متودداً:

ـ حسناً، ما الذي يمكن أن تقدمه العاصمة بغداد لكم؟ إنني أضع نفسي مع رجالي في خدمتكم.

ابتسمت دليلة:

ـ لا نريد شيئاً من بغداد، فقد جئنا لنعطي لا لنأخذ. جهزوا لنا



فقط موضعاً نقيم فيه مهرجاننا الذي سوف يستمر أسبوعاً، هذا هو كل ما في الأمر.

ـ إنني أضع منذ هذه اللحظة كل رجالي تحت تصرفكم. أعتقد أن مهرجانكم سيكون حدثاً، لن تنساه بغداد أبداً.

فضحكت دليلة قائلة:

ـ أجل، مع مهرجاننا سوف يبدأ تاريخ بغداد الحقيقي.

لم ينتبه مدير الشرطة إلى الجملة، فقد كان الحر يثقل عليه والعرق يتصبب منه، شاعراً بالحاجة إلى قيلولته المألوفة مثلما يفعل كل يوم، ولذلك مد يده مودعاً دليلة، واعداً إياها بزيارة المخيم ثانية في المساء.



١٨
مهرجان التاريخ

ازدهت شوارع بغداد بحلة عيد لم تشهد مثله قط من قبل، فقد علقت الشرطة على امتداد البصر لافتات بمختلف الألوان خطها الفنان المعروف هاشم محمد البغدادي بريشته السحرية وزينها بالرسوم فنانون قديرون من أمثال جواد سليم وفائق حسن ورسام الكاريكاتير المعروف غازي، فيما تولى مدير الشرطة أحمد الوائلي بنفسه تأليف إعلانات المهرجان اليوتوبي والتي راجعتها وضبطت لغتها لجنة تشكلت على عجل من مؤلف كتاب «قل ولا تقل»، العالم اللغوي الشهير مصطفى جواد ومدير المعارف العام بهجت الأثري والمونولوجست عزيز علي: «مدير الشرطة المرموق السيد أحمد الوائلي يفتتح أضخم مهرجان شهدته بغداد حتى الآن، تقيمه فرقة يوتوبيا العالمية بإدارة الفنانة القديرة الحاذقة دليلة الملاك» و«حدث فني كبير: سيرك، مسرح، معرض رسم، ندوات شعرية وخطابية، ابتداء من يوم الاثنين القادم ولمدة أسبوع» و«معجزة علمية عراقية: شاهدوا أحفاد عباس بن فرناس يطيرون في سماء العاصمة بغداد بأجنحة الطيور!» و«جهزوا كاميراتكم لتلتقطوا صوراً تذكارية لأنفسكم وأنتم تمتطون ظهور الأسود والنمور!» و«الذئاب ترعى الخراف في المراعي المفتوحة والحدائق العامة».

خلال كل الأيام التي سبقت المهرجان ظلّت مكبرات الصوت



التي استأجرتها الشرطة من محل لبيع الأسطوانات في شارع السعدون وشدتها إلى كل سيارات شرطة النجدة، وهي سيارات من طراز فيات الإيطالية تعلن عن المهرجان اليوتوبي الكبير في الشوارع والأزقة، بحيث لم يعد ثمة حديث آخر في المدينة سوى حديث هذا المهرجان الذي فجر مخيلة الناس فراحوا يمزجون الحقيقة بالخيال في قصص يؤلفونها بأنفسهم عن فرقة «يوتوبيا» العالمية.

خصص المعلمون دروساً كاملة للتلاميذ حول السيرك والمسرح والمخترعات الحديثة، في حين استهزأ رجال الدين في خطبهم التي ألقوها على المصلين يوم الجمعة بصداقة الذئاب للخراف، قائلين: «إذا ما استغنى الذئب عن افتراس الخروف، فأي قيمة تبقى للخروف بعد ذلك؟» وفي المقاهي تحدث الشيوخ، متربعين على التخوت كعادتهم، بإجلال عن الرجال الذي سيطيرون في سماء العاصمة بغداد بما يشبه أجنحة الصقور، زاعمين أنهم ينتمون إلى فصيل عسكري سري جهزته الحكومة للهجوم على اليهود وتحرير القدس منهم.

وفيما كانت الأقاويل والإشاعات تنتشر بدون حسيب أو رقيب داخل المدينة كان مدير الشرطة يجلس اليوم بعد الآخر مع رجاله ويناقش معهم كل فقرة في المهرجان. فقد رأى أن من اللائق أن تدلي العاصمة أيضاً بدلوها في هذا المهرجان الذي ستقيمه فرقة يوتوبيا العالمية. ولكن ما الذي يستطيع أن يفعله البغداديون حتى لا يظلوا مجرد متفرجين؟ «إنهم يستطيعون أن يفعلوا الكثير»، هكذا رد مدير الشرطة على السؤال الذي كان قد طرحه هو نفسه، ثم التفت إلى المعاون الذي يجلس إزاءه وقال له: «حسناً، يمكنك أن تسجل في ورقتك ما يلي:

١ . حفلات غنائية يومية في الساحات العامة على العشب يشترك فيها جميع مطربي ومطربات الإذاعة والتلفزيون؛



٢. رقص شرقي ودبكات في الساحات العامة تشترك فيها الفرقة القومية للرقص الشعبي، فضلاً عن راقصات الملاهي؛

٣. حفلات غنائية باللغة الإنكليزية تقيمها الفرقة الآشورية؛

٤. حفلات مصارعة وملاكمة تنظمها النوادي الرياضية لاختيار أبطال العراق في الأوزان الثلاثة؛

٥. استنفار مصارعنا الوطني الأول لجلب عدد من المصارعين الأميركيين الذين يبطحهم لرفع الروح الوطنية لدى الجمهور؛

٦. مهرجان للشعر العمودي بإشراف الشاعر الكبير محمد مهدي الجواهري؛

ـ سمعت يا سيدي أن الجواهري مات في المنفى!

ـ آه، كلام فارغ، دعاية مغرضة، الجواهري لا يموت أبداً.

٧. مهرجان للشعر الحديث بإشراف شاعر الحب نزار قباني؛

قاطعه المعاون ثانية:

ـ ولكن نزار قباني ليس عراقياً يا سيدي.

ـ وماذا في ذلك؟ سوف نمنحه الجنسية العراقية. ماذا يريد أكثر من ذلك؟

٨. مهرجان للشعر الشعبي بإشراف عبود الكرخي؛

٩. مهرجان شعري كردي بإشراف الشاعر كوران؛

ما كاد يصل إلى هذه النقطة حتى رأى الحاضرين يبتسمون مع أنفسهم، فانتبه قائلاً:

ـ ماذا هناك؟ هل أخطأت في أمر ما؟

رد معاون الأمن الذي كان يسجل المحضر باستحياء:

ـ كلا يا سيدي لم تخطئ، ما عدا أن كوران يقبع الآن في سجن بعقوبة.

ـ إننا نملك سجناً في بغداد أيضاً، أليس كذلك؟ سوف نستعيره



لبضعة أيام. إن مدير سجن بعقوبة صديقي، فقد كنا في الدورة نفسها في كلية الشرطة، كما تعلمون:

تدخل أحد المعاونين قائلاً:

ـ لكنه قد يرفض التعاون معنا، أنت تعرف كيف يفكر الشيوعيون الحمر.

ضحك مدير الشرطة:

ـ آه، إنني أعرفهم جيداً، ما تكاد تحترمهم قليلاً حتى يفقدوا صوابهم. ما الذي نطلبه منه حتى يرفض التعاون معنا؟ سوف يرقص الشيوعيون طرباً إذا ما أسندنا الإشراف الشعري إلى كوران، معتبرين الأمر خطوة نصر في طريق صراعهم الطبقي، على عادتهم.

ذكره المعاون:

ـ لقد نسيت يا سيدي الأقليات القومية المتآخية الأخرى.

ـ أضف إذن: تنظيم مهرجانات شعرية للآشوريين والأرمن واليزيديين والصابئة.

ثم التفت إلى الحاضرين:

ـ أرجو ألا نكون قد نسينا أحداً.

ـ يمكننا أن نقيم مباراة في كرة القدم أيضاً.

ـ أجل، نسيت ذلك حقاً. لننظم مباراة بين فريقنا الوطني والفريق الإنكليزي التابع لشركة نفط الـ IPC. إنه فريق ضعيف سوف ينتصر عليه فريقنا الوطني بسهولة، مما سيعني للناس المشاغبين انتصارنا على الامبريالية، وهو أمر نحتاجه الآن.

تدخل المفوض قائلاً:

ـ سيفرح جمهور بغداد كثيراً بذلك.





طوال أيام المهرجان السبعة عاشت بغداد عيداً حقيقياً، إذ تدفق الناس من الصباح إلى الشوارع لرؤية أولئك الغرباء المدهشين الذين طافوا في موكب خاص بهم الشوارع الرئيسة في المدينة، حاملين العلمين اليوتوبي والعراقي المرفرفين في الريح تتقدمهم دليلة الملاك التي ارتدت ثياب الملائكة وهي من الريش الأبيض المبقع بالزرقة، سائرة وسط صفين من الأسود، وإلى جنبها مدير الشرطة الذي نزع سدارته وراح يحيي بها الجماهير المصفقة المصطفة على الأرصفة فيما ظلّت مكبرات الصوت المشدودة إلى البنايات تبث نشيد يوتوبيا العالمي بدون انقطاع. وأمام الحشود البشرية اصطف رجال الشرطة المرعوبون، وأصابعهم على زناد بنادقهم، خشية أن تهاجمهم الأسود وتفتك بهم. كان منظر الأسود وهي تسير في انتظام وشموخ، قد أرعب الناس في البداية فتراجعوا إلى الخلف، لكنهم إذ أطمأنوا إلى الوداعة التي بدت عليها راحوا يضحكون عليها، بل أن ثمة من صار يزمجر لاستفزازها، وهو أمر لم يثر على أي حال انتباه هذه الحيوانات الكاسرة التي ظلّت شامخة برأسها، سائرة ببطء وإيقاع منتظم إلى الأمام.

ووراء الأسود سار الأستاذ الذي يمثل دور الشيطان مرتدياً بدلته الحمراء، بقناع أسود فوق وجهه، وهو يحمل في يده حربته المشهورة ذات الرؤوس الثلاثة مثلما يحمل الراعي عصاه، تتبعه خرفانه التي لم تنقطع عن الثغاء بصوت كورالي موحد، محاطة بالذئاب الحارسة التي بذلت ما في وسعها لتمنعها من الزوغان عن الموكب. وصفق الناس طويلاً للفيلة التي اعتلى ظهرها شعراء ألقوا قصائدهم على الناس بأصوات جهورية. لكن ما جعل الناس يغرقون في الضحك هو منظر تلك الببغاء الوقحة السليطة اللسان التي تبادلت الشتائم مع المتفرجين، حيث راح البعض يستفزها:



ـ «إخرسي أيتها الببغاء الحمقاء»!

فترد عليه:

ـ «أبوك هو الأحمق يا حمار».

وأخيراً حانت اللحظة التي انتظرها الجميع عندما بلغت مواكب اليوتوبيين والبغداديين المصفقين والمغنين الضاربين على الدفوف والطبول ساحة ملعب الكشافة، متبوعين بالمدينة كلها: النساء الملفوفات داخل عباءاتهن السود، الأطفال المتراكضون أمام المواكب بدشاديشهم المتربة والرجال في ثيابهم الأنيقة التي لا يرتدونها إلا في الأعياد. واستأجر بعض العجائز من الرجال والنساء عربات تجرها الخيول للوصول إلى الساحة المكتظة بالبشر. هناك بوغت الناس فجأة وهم يرون رجالاً، شدوا على أوساطهم ما يشبه الأجنحة، يهرولون على تلة قريبة في الريح ثم يرتفعون في الفضاء محلقين فوق رؤوس الناس تماماً كما تفعل الطيور، فراح الشبان ينادون على بعضهم:

ـ انظروا، عشرة سوبرمانات دفعة واحدة.

ما كاد هؤلاء السوبرمانات يهبطون على الأرض وسط الساحة بعد دورانات عدة فوق رؤوس الناس حتى هجمت النساء عليهم ليتبركن بلمسهم.

ثم ساد الصمت فجأة عندما ظهر مذيع الحفل وهو إمام جامع شاب في الكاظمية اشتهر بصوته المدوي، طالباً من الجمهور الجلوس على الأرض والتزام الصمت للإنصات إلى دليلة التي ستلقي عليهم مزامير خطبة افتتاح المهرجان. ما كادت دليلة تظهر على المنصة، وهي بملابس الملاك، حتى دوت أرجاء ساحة الكشافة بالتصفيق. لكنها حينما رفعت يدها طالبة الصمت ساد الهدوء المكان وتعلقت الأنظار بها. ثم انبعثت فجأة من السماء موسيقى هادئة غمرت قلوب الناس بعواطف لم يعرفوها من قبل. إنها اليوتوبيا تحل على العالم.



حينما انتهت دليلة من نشيدها الذي بدا للكثيرين أشبه ما يكون بترتيلة دينية، منبعثة من أعماق مجهول يقع بين الواقع والخيال قرعت الأجراس فجأة معلنة العاصمة بغداد مدينة فاضلة طيلة أسبوع المهرجان. «ماذا يعني ذلك؟» راح الناس يسألون بعضهم الآخر. لم يكونوا يملكون جواباً واضحاً عن سؤالهم حتى رأوا الأسود والنمور تهبط إلى الساحة متجهة إلى الناس. وأدهشهم أنهم ما شعروا حتى بالخوف، فراحوا يرددون مع أنفسهم: «يا إلهي، ما الذي حدث لنا؟». ظلوا جامدين في أماكنهم منتظرين وصول الحيوانات الكاسرة إليهم. ثم انفجروا مهللين حينما رأوا الأطفال يفلتون من بين الجموع ويركضون ممتطين ظهورها، ملوحين لأبائهم وأمهاتهم بأكفهم الصغيرة.

في ذلك الأسبوع الذي عاشه البغداديون اكتسبت المدينة بهاء حياة جديدة تكاد تكون خيالاً. فجأة ساد السلام الجميع، حيث الأسود والنمور والذئاب والخرفان والغزلان والفيلة تمرح وتسرح سوية في الحدائق العامة والأشجار تكتظ بطيور غريبة قادمة من قارات أخرى، لم تشهدها بغداد قط من قبل، مغردة أجمل الألحان.

وفي الأزقة والمحلات طرق الكثيرون أبواب بيوت أعدائهم وصالحوهم، مقبلين أكتاف بعضهم، مثلما لم يعد الرجال يضربون نساءهم اللواتي ارتدين أجمل ثيابهن ولطخن وجوههن بالمساحيق المستوردة من بيروت ولندن وطهران ورحن يتوددن إليهم، طاهيات لهم الأطعمة التي يفضلونها وانتهز العشاق الفرصة فخطبوا حبيباتهم من آبائهن الذين لم يجدوا سبباً لصدهم، كما أعلن اللصوص عن وقف غاراتهم الليلية على البيوت فيما امتلأت المقاهي الساهرة حتى الصباح لأول مرة بالفتيات اللواتي ارتدين السراويل الضيقة ورحن يلعبن الطاولي والدومينو والشطرنج والبليارد مع الفتيان، حيث لا



يعدن إلى البيت إلا في ساعة متأخرة من الليل، من دون أن يثير ذلك غضب آبائهن أو إخوانهن الذين تخلوا فجأة عن عاداتهم القديمة التي قالوا إنها أصبحت من تراث الماضي السقيم.

وهكذا ذاقت بغداد لأول مرة منذ قرون طويلة طعم الحب الذي ما كانت قد عرفته من قبل.



١٩
جسد وروح

في الليل وكان عادل سليم الأمير مضطجعاً على فراشه في السرير يقرأ كعادته في كتاب ما قبل النوم، سمع جرس الشقة يقرع فنهض ليفتح الباب، شاتماً أصدقاءه الذين لا يعيرون بألا للوقت فيزورونه حتى في مثل هذه الساعة المتأخرة من الليل وهم يترنحون سكرا، مدعين الرغبة في رؤيته. لكنه ما إن فتح الباب حتى كاد يصعق من الدهشة. كانت دليلة تقف أمامه مبتسمة وفي يدها حقيبة سفر صغيرة بعجلات:

ـ مساء الخير، أرجو ألا تكون قد نسيتني، ها أنذا جئتك أخيراً، كما وعدتك، هاربة من ضيافة فندق الحكومة لي.

ـ يا إلهي، ما هذه المفاجأة، لقد ظللت أحلم بك الوقت كله!

احتضنها عادل سليم الأمير وقبلها من وجنتيها قبل أن يقودها إلى غرفة النوم التي كان فيها قبل ذلك. ركنت حقيبتها جانباً ثم جلست على كرسي قرب السرير فيما راح عادل يحدق فيها وهي تشع بالفرح. بدا مبهوتاً للحظة، لا يعرف كيف يبدأ الحديث معها، فقد كان آخر ما يمكن أن يدور في خلده هو أن تزوره دليلة في شقته في مثل هذا الوقت من الليل وأن تجلس معه في غرفة نومه كما لو أنها في غرفة نومها هي بالذات. ولذلك بدا مضطرباً ومأخوذاً بهذه المفاجأة التي لم يتوقعها حتى انه لم يجد ما يقوله لها.



قالت دليلة:

ـ آسفة لانقطاعي عنك طوال كل الفترة الماضية. لا تعرف كم اشتقت إليك.

اعترف لها عادل سليم الأمير:

ـ صورتك لم تفارق ذهني منذ لقائنا اليتيم في كركوك. لقد فكرت بك دائماً.

ثم كمن تدارك نفسه:

ـ يؤسفني أننا لا نكاد نعرف بعضنا، لكنني أتبع دائماً ما يأمرني به قلبي.

ابتسمت دليلة قائلة:

ـ أحياناً نقضي عمراً كاملاً مع الآخر فلا نعرفه، وأحياناً نعرف الآخر حتى قبل أن نراه.

في تلك الليلة سهرا حتى الصباح، حيث ظلت تحدثه عن حياتها الماضية كما لم تحدث أي أحد آخر من قبل، هادمة كل الحدود التي يمكن أن تفصل بين كائنين وحيدين مرميين في صحراء العالم. ورغم أن عادل تعمد أن يظل بعيداً عنها فلم يمس حتى يدها شَعَر بأنه قد امتزج بها بطريقة لم يفعلها مع أي امرأة أخرى، حتى نشوة الصعود إلى نقطة التماس العليا، تلك التي يتركز فيها الوجود كله والتي هي آخر ما يسعى الشاعر أو الفنان للوصول إليه. ظلا يتحدثان حتى اكتشفا أنها الساعة الواحدة بعد الظهر وأنهما أمضيا ثلاث عشرة ساعة في حديث لم ينقطع لحظة واحدة. كانت ثمة قوة خفية ترغم كلاً منهما على أن يكشف أدق أسرار قلبه للآخر.

ثم إذ شعرا بالتعب قادها عادل إلى الغرفة الأخرى لتنام بضع ساعات قبل العودة ثانية إلى المهرجان، قائلاً لها:

ـ لننم قليلاً، لا ينبغي للناس أن يروك متعبة هكذا. وقبل ذلك



سأتصل بالمجلة لآخذ إجازة لمدة أسبوع. أريد أن أتفرغ لك تماماً.

ـ إنني أكره الطقوس الرسمية، سوف أريهم نفسي فقط قبل أن أنسل عائدة إلى الشقة. لا يزال ثمة الكثير الذي أريد أن أقوله لك.

* * *

حينما انتهى الأسبوع الذي أمضته دليلة مع عادل كان عليها أن ترحل ثانية. في سيارة الأجرة التي أقلتهما إلى المطار وهو يجلس جنبها اختنق بعواطفه فجأة فمد يده وأمسك براحة كفها بين يديه، فراحت تضغط عليها هي الأخرى. حينذاك فقط شعر أن هذه الفتاة هي وحدها دليلته التي انتظرها طوال حياته.

في الليلة الثانية التي أمضتها دليلة معه اضطجعت جنبه على السرير بدون أن يطلب منها ذلك، فمد يده، مداعباً شعرها أولاً قبل أن تنحدر يده إلى صدرها وجسدها وحينما احتضنها وضمها إليه، وجدها تختض من الشهوة، كما لو أن بروقاً ورعوداً تضربها في قلبها قبل أن يغمى عليها. حينما فتحت عينيها ثانية قالت له:

ـ ليس الآن ولا هذه المرة، أمامنا أيام كثيرة لنفعل ذلك.

أحب جسدها كما لم يحب أي جسد آخر من قبل، رغم أنه ظل غريباً عليه. حينما قال لها في إحدى تلك الليالي التي أمضتها معه على السرير:

ـ أريدك الآن، ليس عدلاً أن تفعلي كل هذا بي.

قبلته قائلة:

ـ لا تفسد الأمر بما هو عابر وأرضي. تذكر أنني ملاك هابط من السماء وجسدي كله روح.

فاحتضنها، قائلاً لها بمرح قبل أن تغيب عن الوعي:

ـ هذا هو بالذات ما يجعلك شهية يا ملاكي.



لم يكن قد فكّر قبل وصول دليلة بمادلين، بل ولم يسأل نفسه إن كان يحبها. كل ما في الأمر هو أنه كان يشتهيها وكانت هي موجودة، تمنحه كل ما يريد بدون أي مطلب. كان عليه أن يجد عذراً ما ليبعدها عنه في الأيام التي أمضتها دليلة معه، لكنه لم يعر بالاً للأمر حتى فتحت مادلين باب غرفة النوم عليه ذات صباح فوجدت دليلة معه على السرير. لم تقل شيئاً وإنما انسحبت لتعد الفطور كما تفعل عادة قبل أن تعود وتقرع الباب ثانية، منبهة إياهما إلى أن الفطور قد جهز. حينما جلس الثلاثة على طاولة الطعام بدا عادل سليم الأمير محرجاً قليلاً رغم أن أي واحدة منهما لم تظهر ما يدل على انزعاجها، بل إنهما بدتا مثل صديقتين قديمتين، حيث راحت مادلين تحدث دليلة عن تفاصيل حياتها، ممتدحة عادل سليم الأمير:

ـ لم يحدثني عادل عنك من قبل، إنك لن تجدي رجلاً أفضل منه.

فردت عليها دليلة:

ـ إننا نعرف بعضنا منذ زمن طويل.

بعد قليل حينما دخل عادل غرفة النوم ليستبدل ملابسه لحقت به مادلين وقالت له:

ـ كنت أتوقع أن تجد فتاة تناسبك. سوف أخدمها أيضاً، أرجوك فقط ألا تتخلى عني.

فأمسك بها من شعرها وقبلها:

ـ أنت تعرفين أنني لن أقدر على الإستغناء عنك.

وفكّر مع نفسه في لحظة خاطفة أنه يحبهما كلتيهما وأنه سيكون تعيساً جداً لو تخلت أي واحدة منهما عنه.



٢٠

إنقلاب ملائكي

ما كاد أسبوع مهرجان يوتوبيا ينتهي حتى استيقظ الناس من نومهم فوجدوا أن كل شيء قد عاد إلى ما كان عليه من قبل. إختفت الأسود والنمور والذئاب الوديعة من الشوارع والحدائق العامة مثلما اختفت النساء داخل بيوتهن ولم يعدن يغادرنها إلا للتسوق أو التسكع في شارع النهر، متفرجات على مخازن بيع الذهب. عاد اللصوص إلى السطو على البيوت ليلاً وارتدى الموظفون بدلاتهم الرسمية وأربطتهم قاصدين دوائرهم ثانية. كانت فرقة يوتوبيا قد رحلت هكذا فجأة بعد نهاية المهرجان بدون أن تترك وراءها أثراً يدل عليها. لم تعد ثمة سوى ذكرى تلك الأيام السبعة الجميلة التي جعلت الجميع يشعرون بالأسى لإنقضائها سريعا واضطرارهم للعودة من جديد إلى حياتهم الرتيبة المملة. لكن عندما عاد الرجال من أعمالهم وجلسوا عصراً في المقاهي القريبة من بيوتهم راحوا يروون لبعضهم البعض القصة بعد الأخرى عن ذكريات أيام يوتوبيا السعيدة، متسائلين في النهاية: أما كان من الأفضل لنا لو أن تلك الأعياد استمرت إلى الأبد؟ يكفينا الشقاء الذي عشناه حتى الآن، من حقنا نحن أيضاً أن نحصل على السعادة.

بعد أيام قلائل وزعت في كل مكان من العاصمة بغداد منشورات



باسم حركة يبدو أنها تشكلت على عجل حملت اسم «الجبهة اليوتوبية المتحدة»، داعية للعودة إلى الفكرة اليوتوبية وجعلها تقليداً ثابتاً في حياة الناس. وكما هو مألوف في العراق في مثل هذه الأحوال أقدمت الشرطة السرية على اعتقال العشرات من الناس الذين مات العديد منهم تحت التعذيب، لرفضهم فتح أفواههم المغلقة. ولكن كل ذلك لم يزد الأمر إلا سوءاً، فقد شهدت بغداد لأول مرة منذ سنين طويلة مظاهرات كاسحة اجتاحت كل من وقف أمامها، حاملة العلم اليوتوبي ومغنية نشيدها الذي كان الكثيرون قد حفظوه عن ظهر قلب.

حاولت الشرطة في البداية أن تتصدى لتلك المظاهرات الصاخبة التي أبدى فيها الناس بسالة نادرة، حتى أرغموها في النهاية على الفرار أمامهم. في المساء انقلب العسكريون على بعضهم الآخر، فعزلوا رئيسهم العجوز الذي كان قد بلغ حداً من الخرف بسبب الشيخوخة، يضطر معه مرافقوه إلى الإمساك به من الجانبين كلما وقف في سيارته المكشوفة ليحيي الشعب في الشوارع، وحجزوه في قصره الواقع على طريق المطار الدولي، ليقضي أيامه الأخيرة مع حريمه اللواتي طالما تشكين من إسرافه في الانشغال بأمور الدولة وإهماله لشؤونهن. ولأنهم برروا الأمر أمامه بإصرار الأطباء على ضرورة توفير الراحة التامة له ولما لم يكن ثمة من يجرؤ على إبلاغه بالحقيقة ظل يعتقد حتى النهاية أنه لا يزال رئيساً، إذ ظل يواظب على النهوض مبكراً كل صباح على عادته، آمراً حراسه بأن ينادوا له على وزير داخليته الغائب، ليقدم له تقريره اليومي عن حالة الأمن. ثم حين تكررت إلحاحاته عينوا له موظفاً خاصاً، أنيطت به مهمة واحدة: أن يخبرك له كل يوم تقريراً ما عن الأمن الذي يعم البلاد في ظله.

وهكذا تشكلت على عجل حكومة مؤقتة أصدرت بياناً أعلنت فيه نهاية الدكتاتورية وتشكيل الجمهورية العراقية اليوتوبية الديمقراطية



الشعبية، مما جعل الناس تتدفق بأكثر مما مضى إلى الشوارع للاحتفال بانتصارها التاريخي. ثم أقدمت الحكومة المحرجة بعد أسابيع قليلة من ذلك وسط المظاهرات التي ظلّت مستمرة ليلاً ونهاراً واجتاحت البلاد كلها على إجراء انتخابات سريعة ترضي بها الناس الذين كانوا قد ملوا العيش في ظل الدكتاتورية.

وقد حدث ذلك على الطريقة التي يتبعها الآسيويون والأفارقة في انتخاباتهم عادة، حيث استورد وزير الداخلية الجديد على عجل من الأردن عن طريق شاحنات نيرن العابرة للصحراء بضعة أطنان من صبغة مستوردة من تايلند، يفترض أنها تظل لاصقة بالجلد لمدة يومين أو ثلاثة على الأقل بعد صبغ الإبهام بها. وهكذا تنافس على رئاسة الدولة ستة مرشحين، بينهم مدير الأمن الذي أخرج رجاله كل ما لديهم من مسحوق قاصر ووزعوه على عملائهم الكثيرين فانتخب كل منهم عشرين مرة على الأقل، ثم اتضح أن الجميع كانوا قد استعدوا للأمر واشتروا المساحيق القاصرة الخاصة بهم، فراحت الشاحنات تنقل الناخبين من مركز إلى آخر ومن مدينة إلى أخرى، ليدلوا المرة بعد الأخرى بأصواتهم، وهي عملية استمرت إلى ما بعد منتصف الليل، بسبب الحشود البشرية المتدفقة. وأخيراً حينما جرى عد الأصوات وقع المشرفون على الانتخابات في ورطة حقيقية، فقد كان عدد الناخبين أكثر من عدد السكان أنفسهم بثلاث مرّات على الأقل، لكن اللجنة الدولية قررت حذف أحد الأصفار، متجنبة الإحراج، فأصبح الرقم مقبولاً، إذ إنه كان يشكل نسبة ٧٦ في المئة من الذين يحق لهم الاقتراع. ومع ذلك ظلّت المشكلة قائمة: من ينبغي أن يكون الفائز في الانتخابات؟

كان من الصعب حسم الأمر حتى تلقت اللجنة من الحكومة المؤقتة اقتراحاً ما كان يمكن لها أن ترفضه، وهو أن يحصل جميع



المرشحين على نفس نسبة الأصوات، ثم تجري القرعة بينهم، ليقرر الحظ نفسه اختيار الرئيس الجديد.

وكان من نتيجة ذلك أن فاز لأول مرة في تاريخ العراق شاب مدني أظهر حماسة بالغة للفكرة اليوتوبية التي أعلن قادة الجيش والشرطة أنفسهم تأييدهم المطلق لها، مؤكدين على أن المرء يتعلم من أخطائه دائماً، وهو أمر فهمه الناس أيضاً:

ـ ماذا يهمنا إن ظل الجنرالات يجلسون على كراسيهم القديمة؟ لقد علمتنا دليلة نفسها أن الذئب يمكن أن يرعى الخراف في مملكة اليوتوبيا، إذا ما تخلى عن طبعه الشرير.

وفي الوقت ذاته حصل مدير الشرطة أحمد الوائلي على سمعة أسطورية باعتباره الرجل الذي وقف منذ البداية وراء فكرة المهرجان اليوتوبي، فعينه الرئيس الجديد حسن السعيد وزيراً للداخلية، مثلما أظهر براعة سياسية فائقة وبعد نظر أيضاً عندما قرر تعيين دليلة الملاك وزيرة للثقافة، لولا أنه اكتشف، لسوء الحظ، أنها اختفت تماماً من دون أن تترك وراءها عنواناً، فاكتفى حزيناً بطبع خطبتها اليوتوبية وإطلاق لقب المعلمة اليوتوبية الأولى عليها، مثلما أمر بتعليق صورها الفوتوغرافية في الميادين العامة. وفي الخطاب الذي وجهه إلى الناس بعد اختياره رئيساً قال بدون مواربة إن أسبوعاً من اليوتوبيا أمر ممكن دائماً، ولكن إقامة يوتوبيا تستمر مدى الدهر أمر يعتمد على مدى قدرة المواطنين اليوتوبيين على البناء وتجاوز المحن القديمة، مؤكداً على الصلح مع الماضي نفسه قبل كل شيء. ثم ختم خطابه الذي لقي الكثير من الإستحسان: «لنبنِ إذن سوية مدينتنا الفاضلة الجديدة في ظل حبنا الكبير الذي علمتنا إياه معلمتنا الأولى دليلة».



٢١

العودة من الحفيظ وخطوبة دليلة

كان عادل سليم الأمير مستغرقاً في العمل في مكتب المجلة حينما وجد الفراش يقود والده المفرط في الطول، مصحوباً بشاكر الطيار ذي القامة القصيرة، وهما يرتديان الملابس العربية ويعتمران الكوفية والعقال حتى لكأنهما من شيوخ البدو، رغم أنهما ذكراه بدونكيخوته وتابعه سانشو بانسا.

ـ جئنا نزورك بعد أن عرفنا أنك صرت صحافياً مشهوراً.

قال والده ضاحكاً وهو يدخن سيجارة من علبة روثمان، أخرجها من جيبه، قبل أن يضيف:

ـ ولكن ماذا عن الكلية؟ أرجو ألا تكون قد اخترت العمل لحاجتك إلى الفلوس. إن والدك لم يمت بعد.

استغرب عادل سليم الأمير من لهجة والده، لكنه ولكي يتحاشى الموضوع قال له:

ـ إنني لا أزال مسجلاً في الكلية.

دخل الفراش حاملاً ثلاثة استكانات من الشاي وقال ضاحكاً:

ـ لم أكن أعرف يا أستاذ أن والدك من كبار الشيوخ. ما شاء اللّٰه.

فرد عليه عادل ساخراً:



ـ حسناً، لقد عرفت ذلك الآن.

حينما سمع والده هذا الإطراء مد يده إلى جيبه وأخرج ديناراً دسه في يد الفراش، قائلاً:

ـ اعتبره هدية من عادل.

تدخل شاكر الطيار الذي ظل صامتاً حتى الآن، منتظراً خروج الفراش من المكتب:

ـ ربما كنت مستغرباً من الأمر، أليس كذلك؟

ـ طبعاً، إنكما تبدوان مثل شيخين من شمر، ما الذي حدث؟

رد والده ببساطة:

ـ حدث ما منعتني عنه أمك الملعونة دائماً. لقد زرنا أعمامك في الحفيظ وسجلوا باسمي خمس آبار نفط. قالوا هذا حقك والحق لا يضيع.

هتف عادل سليم الأمير مندهشاً:

ـ ليس معقولاً ما تقوله. شيوخ الحفيظ معروفون ببخلهم الذي يضرب به المثل.

رد شاكر الطيار:

ـ كل هذه إشاعات يروج لها حاسدو النعم. لقد أكرمنا أعمامك، حفظهم الله، بطريقة لا يمكن لك أن تتصورها.

قال عادل سليم الأمير، موجهاً الكلام إلى والده:

ـ ولكن هل تعرفوا عليك بعد كل هذه السنين؟

ضحك والده:

ـ قد لا تصدق ذلك. ما كدت أذكر لهم اسم جدي حتى أكملوا هم بأنفسهم بقية القصة. لا تعرف يا عادل كم لاموني على ابتعادي عنهم وترددي في الاتصال بهم بدل العيش في الغربة.

شاكسه عادل:



ـ أي غربة؟ إننا في وطننا، الإنكليز هم الذين أوجدوا الحدود بيننا.

همس شاكر الطيار:

ـ لا تقل ذلك، يا عادل لأحد، فأعمامك يزعلون من مثل هذا الكلام.

وتدخل والده:

ـ دعونا من هذا الكلام الذي لا ينفع. إننا إخوة في كل الأحوال.

قال شاكر الطيار:

ـ إنهم مشتاقون كثيراً لرؤيتك وخاصة عندما عرفوا أنك تكتب في الجرائد ولاموا والدك كثيراً لعدم اصطحابك معه لتكتب مقالة تمدح فيها عمك الأمير.

ثم أضاف وهو يتحدث له عن كرم أعمامه في دولة الحفيظ:

ـ تصور يا عادل، أنهم أخذونا حالما عرفوا بنا إلى فندق كله من الرخام يسمونه الهيلتون وجعلوا كل واحد منا ينام في غرفة واسعة على سرير يتسع لخمسة أشخاص على الأقل.

قال والده:

ـ حدثه يا أبا أحمد عن الحوض.

ضحك شاكر الطيار:

ـ تصور أننا وجدنا في غرفة ملحقة بالغرفة التي ننام فيها حوضاً اسمه البانيو، كما أتذكر، يتمدد فيه الإنسان ويمد رجليه، سابحاً كما لو أنه في نهر. سبحان اللّه!

وراح والده يدخن راويا لإبنه كيف أن أعمامه أهدوه عشرة آلاف دينار وسيارة مارسيدس وساعة ذهبية عليها صورة الأمير مثلما أهدوا مرافقه شكري الطيار ساعة جميلة وخمسمئة دينار، مضيفاً:



ـ تصور أنهم أخذونا إلى حلاق فليبيني صبغ لنا شعرنا ونحن لا نعرف ثم نقلونا بالسيارة إلى خياط باكستاني فصل لنا هذه الملابس الفاخرة التي تراها، قائلين لنا: حتى يراكم العراقيون الميتون جوعاً ويعرفوا مستوى التطور الذي بلغته الحفيظ.

ثم كمن تذكر أمراً نسيه مد يده إلى جيبه وراح يبحث عن شيء ما:

ـ الرسالة. أرجو ألا أكون قد أضعتها، يا للمصيبة!

قال له شاكر الطيار، مطمئناً:

ـ لا تخف، لقد وضعتها بيدي في كيس الفواكه في السيارة.

سأل عادل:

ـ أي رسالة؟

خفض والده صوته قائلاً:

ـ لقد حملني الأمير عمك حفظه اللّه رسالة، طلب مني أن أوصلها بيدي إلى رئيسنا حسن السعيد سراً، إنها، كما قال لي، تتضمن صكاً بمبلغ كبير هدية إليه، ليسدد الديون المتراكمة عليه جراء اشتغاله بالسياسة. تصور حتى رئيسنا فقير يحتاج إلى المساعدة. أنني لم أفتح الرسالة لأرى المبلغ، فهي أمانة كما تعرف.

* * *

ما كاد والده سليم الأمير يعود إلى كركوك حتى وصلت أمه قدرية هذه المرة ومعها أختها منيرة وجارتها ليالي، زوجة مدير ثانوية المصلى، حيث جاءه شاكر الطيار مع ابنه أحمد في المارسيدس التي جلبها والده من الحفيظ، قائلين له:

ـ هيا معنا إلى البيت، أمك تنتظرك هناك.

استغرب عادل سليم الأمير:



ـ غير معقول، ما الذي جاء بها إلى هنا؟

رد شاكر الطيار:

ـ إنها أمك وتريد أن تراك. أليس ذلك من حقها؟

حين وصل عادل إلى البيت احتضنته أمه بحنان وراحت تقبله، ساردة عليه أخبار جيرانها مثلما حدثته خالته منيرة عن ابنها الذي افتتح محلاً لبيع أدوات السيارات الإحتياطية في شارع الأوقاف، بعد أن زوده والده الشيخ بالمال الذي يحتاج إليه، أما ليالي فقالت إنها تقرأ دائما مع زوجها ما يكتبه في الصحف.

وأخيراً نهضت أمه مخرجة من حقيبتها صرة فتحتها على مهل ووضعت ما فيها أمامه: قلادة بليرات رشادية وأساور للمعصم وحجول للرجل، فضلاً عن حزام ذهبي مزين بالعقيق. استغرب عادل:

ـ لمن كل هذا الذهب؟

ردت أمه ضاحكة:

ـ إنها لك بالطبع بعد أن حل الخير علينا.

ـ ماذا أفعل بها؟ أنت مخبولة حقاً.

حينذاك تدخلت خالته في الحديث:

ـ لا تخجل يا عادل، لقد اشتريناها لخطيبتك.

هز عادل رأسه ساخراً:

ـ ومن هي هذه الخطيبة التي اشتريتم كل هذا الذهب لها؟

أجابت أمه:

ـ ومن غيرها؟ لخطيبتك دليلة الملاك بالطبع.

كان عادل يتوقع أي اسم غير اسم دليلة، لذلك التفت إلى أحمد، كمن يلومه على إفشاء سره الذي كان قد حدثه به، لكن أحمد هز رأسه، قائلاً:



ـ لم يعرفوا بالأمر مني، أقسم على ذلك.

حينذاك ابتسمت ليالي، قائلة له:

ـ لا علاقة لأحمد بالأمر. ولماذا كل هذه السرية؟ كل كركوك تتحدث الآن عن دليلة وعادل. ولكن ماذا في ذلك؟ ما العيب في أن تحب فتاة مثل دليلة الملاك؟ العالم كله يحسدك على حبها لك.

شعر عادل بالامتعاض:

ـ وكيف عرفت كركوك بالأمر وأنا في بغداد؟

ضحكت أمه:

ـ جاء صديقك الأستاذ الممثل الذي تعرف عليه والدك صدفة في المقهى إلى بيتنا وروى لنا الحكاية كلها. أنت تعرف الأستاذ، أليس كذلك؟

ـ أعرفه، ليلعنه اللّٰه على أعماله!

قالت أمه:

ـ لا تشتمه يا عادل، لا تعرف كم هو يعزك. رجل مؤدب وعاقل وولي من أولياء اللّٰه الصالحين حقاً. فكرنا أنا ووالدك أن خير البر عاجله، فنحن نعرف كم أنت خجول وكتوم، لذل جئنا لنقدم النيشان إلى أمها أولاً، كما تقتضي الأصول، أما الخطوبة الرسمية فسوف يتولاها عمك الأمير، حفظه اللّٰه، الذي وعد بأن يخطبها لك بنفسه بعد أن حدثه والدك بالهاتف مثلما تعهد بأن يأخذ رئيسنا حسن السعيد معه ليكونا شاهدي زواجكما عند عقد القِران. ماذا تريد دليلة أكثر من ذلك؟ يا عيني على صورتها الحلوة.

قالت ذلك وهي تخرج من جيبها صورة من تلك التي كانت الحكومة قد علقتها على الجدران في كل مكان من البلاد.

بذل عادل الكثير من الجهد ليسيطر على نفسه قبل أن يقول متهرباً:



ـ حسناً، أنا موافق، لكن المشكلة هي أن دليلة مسافرة الآن مع أهلها إلى الخارج ولن تعود إلا بعد شهور. سوف أبلغكم بالأمر فيما بعد.

اعترضت أمه:

ـ لماذا كل هذا التأجيل؟ قل لها أن تعود الآن لتتزوجها، فأنت رجل وعلى المرأة أن تطيع زوجها. أريد أن أفرح بعرسك قبل أن أموت.

ضحك عادل:

ـ أنا واثق من أنك لن تموتي قبل ذلك.



٢٢

قناع التاريخ يسقط عن الوجوه

كان غياب دليلة قد ترك في الحقيقة فجوة عميقة في حياة عادل، بحيث بدا له كل شيء مملاً ومكرراً مما جعله يبحث عن السلوى في كتابة الشعر الذي كان وحده يشعره بأنه لا يزال حياً بين مواكب اليوتوبيين الذين يلتقيهم كل يوم حتى حدث بعد شهور من ذلك ما اعتبره مفاجأة حياته. كان منهمكاً في الكتابة في مكتب الجريدة عندما توقفت سيارة عسكرية أمام البوابة الخارجية، هبط منها ضابطان إقتاداه إلى قصر قديم كان الرؤساء في الماضي قد اتخذوا منه مقراً لحكمهم، مبلغينه بأنه ذاهب للقاء رئيس الجمهورية حسن السعيد الذي كان قد طلب إحضاره في الحال.

لم يعرف عادل ما يمكن أن يطلبه منه الرئيس، ثم تذكر أن الأمر ربما تعلق بتحقيقه الذي نشره حول مرهم البواسير. فقد يكون ثمة من نبهه إلى الطريقة اللئيمة التي كتب بها الموضوع والتي استغلتها المعارضة حينذاك في التشهير برجال الدولة. ولكنه استبعد الأمر، فقد حدث ذلك قبل إعلان اليوتوبيا. أو ربما تعلق الأمر بالمبلغ الذي كان والده قد أوصله إليه أم تراه يخص علاقته بدليلة. كل هذه الوساوس تبددت حالما دخل إلى غرفة سيئة الإنارة ورأى الرئيس ينهض ليصافحه، مقدماً إياه إلى رجلين آخرين كانا في المكتب، مدير



المخابرات العامة عاصم الهندي ومدير المتحف العراقي جمال الساحر، ثم جره من يده وأجلسه على نفس الأريكة التي كان يجلس عليها:

ـ اعتقدت أنك عجوز داهية فإذا بي أكتشف أنك أكثر شباباً مني. يا إلهي، أي أسلوب جميل تملكه في الكتابة، إنني أحسدك عليه!

شكره عادل سليم الأمير بما يشبه الغمغمة، إذ لم يكن قد سمع من قبل أحداً يمتدح عمله:

ـ شكراً أيها السيد الرئيس، إنني أحاول أن أدون ما يدور في ذهني فقط.

قاطعة الرئيس:

ـ إنني فخور بصحافي مثلك. ولكن ليس هذا هو موضوع بحثنا اليوم. لقد طلبتك في الحقيقة لأمر آخر يهمنا جميعاً.

سأل عادل ببراءة:

ـ أي أمر يا سيادة الرئيس؟

تدخل رئيس المخابرات العامة قائلاً بنوع من الجفاء:

ـ نريد أن نعرف صلتك بالجنرالات. كيف تعرفت عليهم ومتى؟

إستغرب عادل من السؤال:

ـ الجنرالات، ماذا يعني ذلك؟ إنني لا أفهم.

خفف الرئيس من وطأة السؤال، موضحاً:

ـ إنه يقصد أولئك الجنرالات الذين حكموا في الماضي.

إعتقد عادل أن الأمر يتعلق بالتباس ما فقال بشيء من الإستنكار:

ـ إنني لم ألتقِ في حياتي جنرالاً واحداً، ولا أعرف حتى كيف يبدون.

هز مدير المخابرات العسكرية رأسه ضاحكاً:



ـ بل إنك التقيت أربعة منهم، لا تحاول أن تنكر ذلك. لقد رفضوا أن يتفوهوا بكلمة واحدة ما لم تكن أنت نفسك حاضراً، مؤكدين أنك الصديق الوحيد الذي يثقون به. ماذا تقول في ذلك؟

ـ إنني أنكر ذلك تماماً، هذا أمر ليس صحيحاً.

حينذاك أشار الرئيس حسن السعيد على مدير المتحف العراقي أن يستدعيهم من الغرفة الأخرى الملاصقة للمكتب. ما كاد الرجال الأربعة يدخلون حتى نهض عادل وعانقهم واحداً بعد الآخر، قائلاً:

ـ لقد بحثت عنكم في كل مكان في بغداد بدون جدوى. أين أختفيتم؟

رد عليه أحدهم وهو يكاد ينفجر من العاطفة:

ـ بقينا عدة أيام في بغداد ثم قررنا العودة ثانية إلى مغاراتنا في جبل قرية شوان، بعد أن اكتشفنا انقلاب الزمن ضدنا حتى ألقت الشرطة القبض علينا وجلبتنا إلى هنا.

إلتفت عادل إلى الرئيس وقال له:

ـ هؤلاء أصدقائي حقاً، وهم ليسوا الجنرالات الذين تبحثون عنهم. آنهم دراويش تعرفت عليهم في كركوك.

لكنهم حدقوا فيه متبسمين:

ـ بل إننا هم يا عادل: نرجو ألا تغضب علينا إذا كنا قد أخفينا حقيقتنا عنك حتى الآن. فقد كنا نسينا نحن أيضاً أنفسنا حتى ذكرونا ثانية بما كناه ذات يوم.

فرد عادل متأثراً:

ـ ما هذا الذي تقولونه؟ لا يهمني من تكونون، فأنتم أصدقائي وستظلون كذلك حتى النهاية.

حينما غادر الشيوخ الأربعة الغرفة طلب الرئيس من عادل أن يظل



قريبا منهم ليخفف عن مدير المتحف العراقي جمال الساحر عبء المهمة التي ألقيت على عاتقه في رعايتهم وتدبير أمورهم:

- فيما مضى كنا نصفهم إلى الجدار ونطلق النار عليهم، أما في ظل جمهوريتنا اليوتوبية الخالدة فلن يكونوا سوى شيوخ بائسين في دار للعجزة يثيرون العطف في قلوبنا. لقد مل الناس من رؤية الدماء المسفوحة.

ثم أضاف بعد وقفة قصيرة:

- حسناً يا عادل، آمل أن تتفتح قريحتك لتدون قصتهم التي تجهلها الأجيال الجديدة، سيكون هذا أفضل خدمة تؤديها لنا. أكتب عن عودتهم ثانية إلى الحياة في ظل يوتوبيانا الخالدة، ولكن بوجوه جديدة.

هذا الأمر أثاره جمال الساحر معه أيضاً عندما اختلى به بعد ذلك. فقد أبلغه الرجل، وهو عالم آثار كهل أمضى شطراً طويلاً من حياته بين الحفر والخرائب في تل كوجك ونينوى وقلعة الأخيضر، منقباً عن أسرار الأزمنة السالفة، مشيرا الى أنه ينوي هو أيضا وضع كتاب عن حياة الشيوخ الأربعة وماضيهم، رغم أنه لا يملك أسلوباً جميلاً مثله في الكتابة. لم يكن الرجل غريباً في الحقيقة على الكتابة والأدب، فقد تعلم الكثير من أجاثا كريستي التي كانت تستشيره في بناء حبكة قصصها ورسم شخصياتها حين مكثت فترة من الزمن مع زوجها الآثاري في بلاد ما بين الرافدين، ولذلك رأى أنه من المناسب أن يلمح لعادل سليم الأمير بأن الأمر لا يقتصر على الموهبة الأدبية وحدها وإنما يتطلب أيضاً الكثير من التحريات التي لا يمكن أن يقوم بها سوى عالم آثار مثله تعود على رؤية الجثث المنسية في باطن الماضي، فطمأنه عادل، بعد أن جلس في غرفة مطلة على الحديقة



وراح يراقب أبطاله عن كثب، بأنه سيجعل منه هو الآخر بطلاً في روايته، وفاء له، مثلما جعل من نفسه بطلا فيها كشاهد على الحقيقة، وهي رواية كتبها بالفعل ولو بعد زمن طويل، تلك الرواية التي اشتهرت بين القُراء بعنوان «قصر الذكريات» والتي روى فيها قصة أحداث تكاد تكون خيالاً لفرط واقعيتها.




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الثالث

قصر الذكريات

رواية من تأليف عادل سليم الأمير




مكتبة
الفكر الجديد

٢٣
الموتى الأحياء

ـ إنهم هم أنفسهم، من كان يصدق ذلك؟

إتكأ عادل بمرفقه على حافة النافذة نصف المفتوحة في الغرفة المطلة على الحديقة الفسيحة الممتدة بعيداً وراح يرقبهم بشيء من الفضول والدهشة، محاولاً استكناه ما ظل غامضاً عليه من سرهم حتى الآن، مدوناً في دفتره الصغير الذي يحمله معه دائماً ملاحظاته عنهم؛ كيف يسيرون بسيقان معوجة وبأي طريقة متشنجة يتحدثون مع أنفسهم! خيل إليه وهو يطيل النظر فيهم أنه رأى تاريخهم نفسه يمرق بهم بعربته المعطوبة، مخلفاً إياهم وراءه مثل كل الآثار الأخرى التي خلفها وراءه، تلك التي كان يمكن للمرء أن يتلمسها بأصابعه فوق جدران حجارات قصرهم الذي ظل شاهداً على وقائع حياتهم الماضية.

كان يأتي اليوم بعد الآخر إلى هناك ليدون قصتهم للأجيال القادمة، كما قيل له، وهي أجيال لم تعنه قط، إذ لم يكن يحمل أي فكرة واضحة عنها. ما كان يؤرقه في الحقيقة هو جذوة الحياة ذاتها، تلك التي كانت تدهشه دائماً بمفاجآتها الحاضرة. كانوا هناك وكان هو هنا، يكتب قصتهم. لكنه ما كان حتى ليعرف من أين يبدأ ولا إلى أين ينتهي. فكر: ربما كان من الأفضل لي أن أبدأ بالسماء. أجل، كل شيء بدأ هنا تحت هذه السماء العالية. إنها السماء القديمة ذاتها،



زرقاء صافية، تتخللها شمس محرقة تبعث على الملل. ثم إذ سمعهم يسعلون متلفتين حولهم قبل أن يختاروا شجرة ما يتبولون أسفل جذعها ابتسم مع نفسه:

- إنهم هم أنفسهم حقاً، كيف فاتني أن أدرك ذلك؟

شعر أنه هو نفسه قد صار أيضاً بطلاً في حكاية ما يرويها العدم والنسيان. كانوا قد قدموا بالفعل من العدم والنسيان، إذ ما كاد هؤلاء يتسللون إلى قصرهم القديم، مرتدين بزاتهم العسكرية المطرزة بالنجوم حتى تذكروا كل ما خلفوه وراءهم. تأججت في قلوبهم فجأة نيران أحقاد كان الزمن قد أطفأها بفيضان نسياناته الكبرى فانسحبوا ثانية إلى عتمات أمجادهم الماضية، فارضين الوحدة على أنفسهم مثلما كانوا أيام عزهم المنصرم الذي لم تبقَ منه سوى ذكريات ضحاياهم. فإذا ما وقف المرء أمام أشجار سلالاتهم المثقلة بالثمار الطازجة والتي كانوا يعلقونها على جدران المدينة إلى جانب صورهم لرأى أنهم كانوا ينتهون دائماً إلى الأصل ذاته، إلى نوح الذي حملهم معه في سفينته مع حيواناته الكثيرة حينما جاء الطوفان وأغرق الكرة الأرضية، في حين ادعى آخرون اختصوا بقراءة لغة الطيور أن سلالتهم الحقيقية تمتد حتى قابيل الذي قتل أخاه هابيل، وهو ما كانت الغربان المقيمة في المزبلة القريبة من القصر قد باحت به لهم.

- لماذا حملتهم معك يا سيدنا نوح؟ أما كان من الأفضل لك أن ترمي بهم في البحر الهائج؟ يا إلهي، أي لعبة هي هذه التي يلعبها الشيطان معي؟ لماذا ألقى القدر بهم في طريقي من دون الناس كلهم؟

ثم واصل أسئلته:

- ما هذا الماضي الذي كتب عليّ أن أعيشه ثانية حتى بدون أن أكون طرفاً فيه، الماضي الذي لا فكاك منه مثل قنينة ما تكاد تفتحها حتى تتدفق من فوهتها العفاريت؟



فكّر أن كل ذلك كان في الحقيقة فكرة جهنمية مرعبة ومدمرة: أن نعيش التاريخ نفسه أكثر من مرة، أن نشهد ولادة الشخص ذاته مرتين أو ثلاث مرات أو ربما إلى نهاية الزمان. ليذهب قابيل المجنون إلى الجحيم! كان فريدريتش نيتشه في الحقيقة أول من تحدث عن العود الأبدي للتاريخ، وهي فكرة أشار إليها ميلان كونديرا أيضاً في روايته «كائن لا تحتمل خفته»، لكنه نفاها معتبراً أياها خرافة مجنونة. فهو يرى أنه لو قدر للثورة الفرنسية أن تتكرر باستمرار، لكان المؤرخون أقل فخراً بروبسبير، إذ ثمة فرق بين روبسبير الذي لم يظهر سوى مرة واحدة في التاريخ وروبسبير الذي يعود بشكل دائم ليقطع رؤوس الفرنسيين. إنه ينفي مثل هذا الاحتمال بعكس كارل ماركس الذي يرى أن التاريخ قد يكرر نفسه، في المرة الأولى كواقعة وفي الثانية كمهزلة. ومع ذلك فإن الفكرة أبعد من نيتشه وماركس. فقد تصور الإنسان منذ عهود قديمة جداً أن من يموت سيعود ثانية إلى الحياة في وقت آخر. وثمة شعوب في الشرق ما زالت تؤمن حتى اليوم بأن الأرواح القديمة قد تحل في أجساد جديدة وتعود إلى الحياة ثانية.

ما كاد عادل يفكِّر بكل هذه الاحتمالات التي بدت له سحرية تماماً بدون أن يمتلك اليقين حولها حتى قال لنفسه معزياً «الحياة مليئة بالأسرار، وهنا يكمن سحرها».

* * *

كان لكل منهم جناحه الذي ينسحب إليه غاضباً مدمدماً مع نفسه إذا ما التقى صدفة أحدا ما من غرمائه يتنزه في ممر أشجار اليوكالبتوس ذات الفروع المتشابكة في الأعلى مثل قوس سرمدي أخضر مبقع بالضوء، ذلك الممر الشهير الذي كان الموظفون



الحسودون قد أطلقوا عليه قديماً اسم «طريق العشاق»، لكثرة ما شهد من غراميات ليلية وتأوهات قاطعة لنياط القلوب المعذبة:

ـ حبيبتي حمامة وأنا صيادها.

رآهم يجذفون بقوارب مثقوبة في لجج أفكارهم المتلاطمة، قاطعين حديقة قصرهم الشهير الواقع على ضفة النهر جيئة وذهاباً، فيما أيديهم معقودة خلف ظهورهم المحدودبة تحت وطأة الوقائع الثقيلة الماضية لقرن ظل يبرق ويرعد طويلاً، طاحناً عظام ضحاياه تحت حجارة دولابه الدائر حتى نسيه الجميع، متظاهرين بأنه لم يوجد قط. هم وحدهم كانوا شهوده الأخيرين بعدما ألغى الناس ذاكرتهم وتنكروا حتى لذكريات أيامهم الجميلة التي حذفوها من تاريخ رفضوا الاعتراف به، كما لو أنه كان قدراً يخص آخرين سواهم.

كانوا يسيرون فرادى ويبتسمون مع أنفسهم كعجائز قادمين من التاريخ، مندهشين من قدراتهم الخفية الخارقة، ملقين من علياء سماواتهم نظرات متكلفة على كل ما يدب فوق سطح الكرة الأرضية، واضعين الخطة بعد الأخرى في رؤوسهم الصلعاء الملتمعة تحت أشعة الشمس الغاربة، مقلبينها باستمرار كشريحة عجل في المقلاة، شامين رائحتها النفاذة ومفكرين في أدق تفاصيلها، كمتآمرين لا يمكن لأحد الشك في مواهبهم، حتى تكتمل وتكون جاهزة للتنفيذ ذات يوم تحت جنح الظلام. إذّاك فقط كانوا يتنفسون الصعداء، معزين أنفسهم: في المرة القادمة سيكون الأمر مختلفاً. لن يلدغ المؤمن من جحر مرتين. إن المرء يتعلم من أخطائه أيضاً. ثم إذ ينظرون إلى ما يحيط بهم يدمدمون مع أنفسهم: «هذه هي نهاية العالم حقاً!» وفي أحيان أخرى كانوا يجلسون في غرفهم المعتمة المقفلة ويقربون كراسيهم الهزازة المصنوعة من القش من النوافذ المغلقة المطلة على بستان زهور القرنفل، ليتجسسوا، بعيونهم الجاحظة المتخفية وراء نظاراتهم الطبية



ذات العدسات المزدوجة السميكة التي تشبه قعر قنينة مربى، على بعضهم، قادحين زناد مخيلاتهم الناضبة ليقرأوا أفكار غرمائهم المطمورة عميقاً تحت طبقة كثيفة من الظلام، وليكشفوا أوراقهم التي كانوا يخبئونها دائماً في أكمامهم.

لكنهم سرعان ما كانوا يشعرون بالتعب والإنهاك، لاهثين من التفكير، فيخلعون أسنانهم الاصطناعية المسودة بسبب شراهتهم في التدخين ويغمرونها في أقداح طافحة بالماء المغلي الذي يرمون فيه قرص تعقيم، يركنونها على حافة منضدة السرير ثم يضطجعون لاستعادة قواهم الهزيلة فيسقطون في النوم، حالمين دائماً، كعادة اكتسبوها منذ اليوم الأول لتسجيلهم في الكلية العسكرية، بحروب جديدة كانوا يخسرونها دائماً لسوء حظهم. وحتى نزهاتهم المنفردة في الحديقة تحت ظلال أشجار الصنوبر الوارفة ما كانت لتستمر طويلاً بسبب حساسيتهم المرضية المفرطة تجاه أريج وروائح النباتات الربيعية التي كانت تجعلهم يهرشون جلودهم بأظافرهم الجارحة حتى تتقرح، فقد كانوا جميعاً حطام كائنات لا شكل لها مرت عليها السنون ونخرتها حتى العظام، يتكئون على عصي برؤوس مذهبة مدببة، اعتادوا أن يهشوا بها على رعاياهم أيام عزهم الزائل. ورغم أنهم جميعاً ظلوا حتى النهاية يكابرون ضد لطمات الزمن الغاشم بدعوى أن الشباب الأبدي لن يخونهم أبداً، مطلين وجوههم بمساحيق احتفظوا بعلبها في مجراتهم المغلقة، مع بضع قطرات من عطور ينقطونها فوق حواجبهم وخلف لحمة آذانهم المتدلية من قنان أنيقة ذات أشكال مختلفة أستوردوها ذات يوم من باريس، وهي عطور رخيصة اشتراها لهم مستشاروهم القدامى خلال أسفارهم، تستخدمها عادة فتيات الهوى اللواتي ينتظرن زبائنهن على أرصفة الشوارع في أوروبا مثلما كانا يصبغون شواربهم وما بقي من شعر فوق رؤوسهم التي اجتاحها



الصلع قبل زمان ضارب في القدم، مرة كل شهرين، فإن رائحة الموت لم تفارقهم قط، حتى أن الجنود القرويين الذين يحرسونهم كانوا يضطرون في أغلب الأحيان إلى تغطية أنوفهم بأكفهم كلما اقتربوا منهم أو يضعون الكمامات الواقية على وجوههم، لاعنين حظهم السيء الذي قادهم إلى مثل ذلك القصر الذي تقطنه الجثث

* * *

ألقى عادل سليم الأمير نظرة على ما كان قد دوّنه عن يومه الأول الذي أمضاه معهم حين رافق الجنود الذين قصدوا البيت القديم لرؤية ما فيه: «حينما فتحنا الباب وكسرنا سلسلة القفل المشدودة إلى الجدار بركلة رجل عصف بنا تيار من زمن غابر تراكم غباره فوق الأثاث فوضعنا أكفنا فوق أنوفنا لنتقي رائحته المدوخة التي صدمتنا مثل لطمة تفقد المرء صوابه. فقد تحقق ما كنا فكرنا به ولم نخطئ الظن. ما كان يمكن لتلك الرائحة أن تكون رائحة شيء آخر غير الموت، رائحة ماض لم يترك وراءه سوى ذكريات أشباح اختفت مثلما جاءت وكأنها لم توجد قط من قبل. ولذلك أسرعنا وأزحنا الستائر جانباً، فاتحين نوافذ الصالات المغلقة على مصراعيها ليدخل الضوء إلى البيت المعتم، فهب نسيم مضمخ برائحة الأعشاب البرية بعد المطر، طارداً الهواء العفن لبيت الأموات».

ـ لقد بعثوا ثانية.

قال لنفسه.

كل ذلك بدا له أمراً خيالياً، لا يكاد يصدق، فراح يتساءل المرة تلو الأخرى مع نفسه، كيف تسنى لهم أن يظلوا على قيد الحياة حتى الآن إذا كانوا هم أنفسهم حقاً، كما ادعوا أمامه؟ كل ذلك سبب له بالطبع المزيد من الحيرة وصداع الرأس. ثم فكر مؤاخذاً نفسه: لا



ينبغي لي أن أكون متشدداً في ما لا يقبل التشدد. فإذا كانوا هم أنفسهم قد اعترفوا بذلك، فأي ضير في أن يعترف هو الآخر به، رغم أنه كان يعرف أن الشرطة كثيراً ما تعتقل أناساً يعترفون تحت التعذيب بجرائم لم يقترفوها، فقد تعرف في المقهى قبل شهور على شاب ألقي القبض عليه ذات مرة بدعوى العمل في إحدى الحركات السرية الكثيرة الموجودة في البلاد فاعترف وهو معلق إلى المروحة في زنزانة التعذيب بإخفائه طائرة فوق سطح بيتهم في حي تل محمد، غطتها أمه بالبطانيات خشية أن تقع عيون الجيران عليها.

ـ ولكن لماذا أقدمت على مثل ذاك الاعتراف الخطير؟

ـ كان لا بدَّ لي من أن أقول أي شيء لأنقذ نفسي ولو لبرهة من الوقت. لكن الأغرب هو أنهم صدقوا ما قلته لهم، فحاصروا بيتنا وصعدوا إلى السطح، باحثين عن الطائرة.

ـ ما كان لك أن تورط نفسك بكذبة يصعب تبريرها.

ضحك الشاب:

ـ ولماذا يصعب تبريرها؟ عندما عادوا ليضربوني ثانية وسألوني عن الطائرة قلت لهم ببساطة إنها طارت. وكانوا يعرفون لحسن الحظ أن الطائرات تطير أيضاً.

* * *

عندما التقوا ثانية في ذلك القصر الأثري الذي وضعه المجلس البلدي بكرم تحت تصرفهم، وهو على أي حال، القصر نفسه الذي كان ذات يوم مقراً لحكمهم الذي عصفت به الرياح، وشموا رائحة السلطة الممتزجة بروائح الدم القديم في ساحة الإعدام الواقعة خلف قاعة الموسيقى، وقعت أحداث لا تحصى ما كان أحد قد فكّر بها من قبل. فمنذ اليوم الأول الذي جلسوا فيه في صالة الطعام ليتناولوا طعام



الغداء سمع الجنود الجالسون على التخوت في المدخل ضجة كبيرة فاندفعوا شاهرين أسلحتهم، واقتحموا المكان، خشية أن يكون قد وقع ما لا تحمد عقباه. ثم ظلوا واقفين فاغرين أفواههم. رأوا أربعة شيوخ طاعنين في السن، يرتدون بزات ملونة مكوية بعناية ويزينون صدورهم بعدد لا يحصى من الميداليات والنياشين والأوسمة، يضربون مائدة الطعام بعصيهم ويشتمون بعضهم الآخر، مهددين ومتوعدين، بأوسخ الكلمات.

وقف الجنود الشبان مندهشين من تلك المشادة الصاخبة التي جعلتهم يغرقون في الضحك، فقد وجدوهم يستذكرون وقائع قديمة جداً، لم يعد يتحدث عنها أحد ويشتمون بكلمات لا توجد إلا في القواميس. كان صراخ الجنرالات العجائز يسمع من بعيد، وهم يتبادلون الشتائم المقذعة والإهانات الجارحة. لم يتدخل الجنود لتهدئتهم إلا عندما راحوا يتضاربون بالعصي التي كانوا يجدون صعوبة في الإمساك بها. ثم إذ انتبهوا إلى الجنود يحيطون بهم راح كل منهم يصدر أوامره إليهم:

- إعتقلوهم!

بدا الأمر فكاهياً بعض الشيء في نظر الجنود وهم شبان ريفيون أرغموا على مغادرة ثكناتهم البعيدة ليحرسوا هذا القصر الذي قطنه ذات يوم أشخاص لم يكونوا يعرفون عنهم شيئاً سوى أنهم أبطال قصص ظلّت تتناقل من جيل إلى جيل منذ غابر الزمن. كانوا جميعاً يحملون الاسم ذاته الذي كان يشد أحدهم إلى الآخر مثلما يشد الحبل السري الجنين إلى أمه، بحيث بدوا للكثيرين شخصاً واحداً يتكرر في كل مرة بطريقة جديدة: الجنرال.

فرغم أنهم كانوا قد رأوا صورهم بدون شك في الكتب المدرسية عن العصور القديمة، صعب عليهم أن يميزوا بينهم. كانوا يتشابهون



في كل شيء كإخوة توائم ببزاتهم العسكرية الملونة وأصواتهم المبحوحة التي كانوا يصرخون بها حين يتكلمون جراء الصمم الذي أصيبوا به لكثرة ما ألقوا من خطب مجلجلة في ميادين الاحتفالات العامة أمام الجماهير المصفقة الهاتفة بحياتهم، رغم سماعات الأذن المكبرة التي كانت أسلاكها تتدلى من تحت قبعاتهم الحربية. والآن أيضاً توقع كل واحد منهم أن تؤثر كلماته السحرية الرنانة في الجنود الذين يقفون إزاءه فتجعلهم ينحازون إليه بدون تردد، متذكراً ربما مأثرة نابليون بونابرت، حين جلبوه من الأسر مغلولا ليحاكم ويعدم، ولكنه ما إن التقى جنوده الأوفياء وألقى فيهم خطبته الشهيرة حتى انهاروا أمام كلماته السحرية وحملوه على الأكتاف، متوجينه من جديد امبراطوراً على فرنسا والعالم.

ـ ليعش الامبراطور!

ـ عاش، عاش!

بيد أن ذلك لم يحدث هذه المرة لسوء حظهم، فبدل أن يصفق الجنود لهم كما كانوا يفعلون في الماضي راحوا يصرخون بهم شاتمين:

ـ إخرسوا يا عجائز النحس، كفى هرجاً ومرجاً!

هذه الإهانة التي ما كان أي منهم ليتصورها في قديم الزمان حتى في أتعس كوابيسه الليلية جعلتهم يخرجون عن طورهم فجأة، مبدلين وجهة المعركة، ويقلبون الطاولة، هاوين بعصيهم فوق رؤوس وأكتاف الجنود الذين تجرأوا على شتمهم وانتهكوا حرمة ألقابهم المقدسة. صحيح أنهم كانوا ضحايا انقلابات ومؤامرات دبروها ضد بعضهم الآخر ما عدا رابعهم الذي أطاحت به ثورة شعبية في عام المجاعة فهرب، كما تروي القصص الشائعة عنه، إلى البادية على حصانه الأبيض كالثلج، لاجئاً إلى أقاربه البدو في بادية الشام، فالتهموه هو



وحصانه بعد تطييبهما بالملح والبهارات التي عثروا عليها في سرج حصانه، مع سبائك كثيرة من الذهب وأكياس محشوة برزم العملات الورقية، وصحيح أيضاً أنهم كانوا قد انتهوا لتوهم من معركة ضارية وقعت بينهم سالت فيها الدماء على المائدة، إلا أنهم التزموا، كما فعلوا دائماً، بالقواعد العسكرية الصارمة. فقد كانوا جيمعاً يرتدون البزات المزركشة التي تمنحهم الحق في خوض أي معركة وفق قواعد تقرها النظريات العسكرية المعروفة في العالم المتحضر كله. أما أن يأتي هؤلاء الجنود الريفيون الغفل ويشتموهم بأقذع الكلمات، واصفينهم بعجائز النحس، فذاك ما لا يمكن السكوت عليه. كان الشرف العسكري الذي طالما أريقت على جوانبه الدماء قد أهين وافتض وانتهك بفظاظة جرحت مشاعرهم.

ولكن الجنود، ويا لغرابة الأزمنة، بدل أن ينسحبوا أمام هجمات الشيوخ الهائجين مثل كلاب قتال هرمة، ردوا عليهم بطريقة لم يتوقعوها أو تخطر في بالهم، داكين أضلاعهم الهزيلة بأعقاب بنادقهم، بل أن العريف الذي قاد الهجوم المضاد أطلق رصاصة في الهواء جعلت فرائصهم ترتعد من الخوف، رغم أنهم لم يكفوا عن إطلاق الشتائم ضد الجنود، آمرينهم بإطاعة الأوامر العسكرية التي لا تقبل الجدل. لم تدم المعركة طويلاً، فقد استسلم الشيوخ الذين ظلوا يسعلون بلا انقطاع، مخنوقين بعبراتهم، أمام القبضات الشابة للجنود الذين شدوا أيديهم خلف ظهورهم واقتادوهم إلى غرفهم المعتمة التي أقفلوا أبوابها ووضعوا مفاتيحها في جيوبهم، تاركينهم لوحدتهم في عالم أحقادهم الذي عاشوا فيه دائماً.

كانت تلك أول معركة مشتركة يخوضونها متحدين ضد عدو مشترك ويخسرونها متحدين ضد عدو مشترك أيضاً، مما أثار لهم المزيد من القلق والأسى، وهم ينطحون بقرونهم صخرة الزمن الجديد



التي جعلتهم يتهاوون تحتها، الواحد بعد الآخر. ثمة كثير من الأمور قد تغيّرت، هكذا قالوا لأنفسهم، حينما تجلت أمام أعينهم الحقيقة الساطعة، ولكنها بدت لهم حقيقة مرة ما كانوا مستعدين على الاعتراف بها.

ـ يبدو أنهم يعتبروننا تماثيل في متحف.

والأسوأ من ذلك أن مدير القصر جمال الساحر حجزهم في غرفهم بعد ذلك حتى يثوبوا إلى رشدهم ويقبلوا بالمصير الذي آلوا إليه. لكنهم، وهم الذين اعتادوا على أن يشنوا الحروب من الضجر ويرسلوا بالألوف من الناس إلى حتفهم بالسهولة نفسها التي يحتسون فيها قهوة الصباح، رفضوا قبول الذل الذي ألحقه بهم مدني من الأعظمية ما كانوا قد سمعوا حتى باسمه من قبل «جمال الساحر، يا له من اسم بغيض!» هذا ما ظلوا يفكرون فيه طيلة ذلك اليوم المشؤوم الذي أمضوه في الحبس داخل غرفهم.

في المساء عندما جاء الجنود وفتحوا الأبواب المغلقة، داعينهم إلى العشاء في الصالة، واصلوا جلوسهم في الظلام، رافضين حتى الرد عليهم، فاكتفى هؤلاء بهز أكتافهم وكأن الأمر لا يعنيهم، ثم انصرفوا ساخرين وضاحكين إلى غرفة الحراسة الواقعة خلف حديقة القصر، ليواصلوا لعب الورق، متعمدين نسيانهم وقائلين لهم بكل وقاحة وقلّة أدب:

ـ لن يضيركم أن تصوموا إلى الأبد! فالمومياوات لا تحتاج إلى طعام أو شراب.



٢٤
نظريات سحرية

ثمة أمور وأسرار غريبة في حياتهم، كان يهم عادل سليم الأمير أن يمتلك اليقين حولها. فرغم كل ما أشيع وقِيل عنهم لا أحد يعرف تماماً كيف نجا هؤلاء الرجال الذين كانوا يشبهون كائنات خرافية منسية من المذابح التي وقعت في زمنهم، فالكتب التاريخية الكثيرة وكتب المذكرات الشائعة التي تُباع في مكتبات الرصيف بأسعار رخيصة، تلك التي لا يشك أحد في نزاهة كتابها تروي أنهم قتلوا جميعاً، الواحد بعد الآخر، ومحت الحياة نفسها ذكراهم، وبدا أمراً عصياً على التصديق أن يكون هؤلاء الشيوخ الهرمون العاجزون الذين يثيرون الرأفة في أكثر القلوب قسوة وحجرية قد ارتكبوا كل تلك الأفعال الشنيعة والوقائع التي تنسب إليهم، حتى أن الكثيرين شكوا في حقيقة وجودهم أساساً، بل أن الخيال ضرب بإحدى الصحف الصادرة في بغداد، وهي والحق يُقال من الصحف الباحثة عن الإثارة الرخيصة، حد الزعم بكونهم صوراً مستنسخة عن الأصل وليس الأصل نفسه، استحضرها العلماء الأجانب، بطلب من الحكومة التي كان يهمها الحصول منهم على أسرار ذات أهمية قصوى عن مخابئ خزائن الدولة التي اختفت في عهودهم..

ولكن إذا كان من الصعب على المرء أن يصدق مثل هذه النظرية



الخرافية التي قوبلت بالسخرية والهزء من قبل القراء فإن صحافيين آخرين غيرهم من العاملين في جرائد مقربة من قصر الرئيس ويستمدون معلوماتهم من مصادر المخابرات السرية ادعوا أنهم لم يقتلوا وإنما شبه للناس أنهم قد قتلوا. فالذين تلقوا الرصاص في صدورهم أو قطعت أعناقهم لم يكونوا سوى بدائل مزورة عن الأصل، في حين أنهم هم أنفسهم نجوا في الحقيقة من المذابح التي كانت تعقب عادة سقوط كل واحد منهم وتواروا عن الأنظار، مختفين في شعاب الجبال الكردية الكثيرة المنتشرة في شمال البلاد، مقتاتين على العشب وثمار الأشجار البرية غالباً وملتهمين العظايا والأفاعي المتخفية بين شقوق صخور المغاور أحياناً، فاقدين الشعور بالزمن الذي مرّ عليهم، حتى ضج القرويون الأكراد بالشكوى، مدعين رؤيتهم لكائنات غريبة منقرضة تسطو في الليالي على أقنان دجاجهم وأرانبهم، مثيرة فزع الأطفال والنساء.

وإذا ما صدقنا هذه الرواية التي تبدو مقبولة وربما أقرب إلى الحقيقة فإن الشرطة الجبلية التي كانت قادرة على الوصول إلى أعلى قمم الجبال، وهي على صهوات بغالها الأسترالية المدربة على السير في أكثر الدروب والمضائق وعورة، نصبت لهم كمائن وقعوا فيها في النهاية.

هكذا بدأ كل شيء ثانية.

في البداية لم يتعرف أحد عليهم، مثلما رفضوا هم فتح أفواههم حتى اعتقد المحققون أنهم يجهلون الكلام. جلبوا لهم المترجمين وحدثوهم بكل اللغات التي قد تخطر في البال، مثلما جربوا معهم لغة الإشارات الخاصة بالصم والبكم ولكن بلا جدوى، إذ ظلوا مصرين على صمتهم، حتى نزع الأقنعة عن وجوههم علماء الآثار الذين حلقوا



لهم لحاهم البيض المتدلية مثل قديسي الماضي وفلاسفته ومن ثم شواربهم الطويلة وألبسوهم بزاتهم العسكرية المزركشة القديمة التي جلبوها لهم من المتحف الوطني الواقع في الكرخ. عند ذاك لم يعد ثمة بد من الاعتراف بالحقيقة الوحيدة في حياتهم وهي أنهم هم أنفسهم بالذات.



٢٥

خطب الجنرالات الليلية

في تلك الليلة التي بدأ بها الشيوخ الأربعة إضرابهم الشهير عن الطعام والذي أطلقوا عليه على عادتهم القديمة اسم «إضراب الكرامة»، وكان القمر بدراً رأى جنود القصر الساهرون شبحاً يفتح نافذة إحدى الغرف ويجلس على الحافة، مدلياً رجليه في الفراغ ثم يلقي خطبة طويلة على الليل. كان ذلك هو الجنرال القديس الذي دلله الشعب في زمانه باسم جنرال القمر، لأن رغبته في الخطابة ما كانت لتستيقظ في نفسه إلا عندما يكون القمر بدراً، مثلما يستيقظ مصاصو الدماء من قبورهم، مسحورين برائحة الدم السائل في عروق ضحاياهم. وكان قد اكتسب تلك العادة الغريبة التي وصفها أعداؤه بأنها عادة مجوسية أشاعها زرادشت قبل قرون طويلة جداً في بلاد ما بين الرافدين، بعد أن رأى ذات ليلة، كما قال الناس عنه في زمانه، من شرفة غرفة العمليات في جناحه بوزارة الدفاع صورته مطبوعة بالألوان الزاهية على وجه القمر، وهو أمر أكد صحته على أي حال موظفو دائرة الرصد الجوي في الوزيرية، والجواسيس السريون العاملون في شعبة المخابرات الخاصة التي كانت تملك مراصد اليكترونية تراقب بها الكون، فضلاً عن كادحي مدينة الثورة، وهم قرويون نازحون من الجنوب مع حميرهم وجواميسهم، هاربون من



الإقطاعيين الذين توعدوهم بالقتل والإنتقام في أيام الإصلاح الزراعي القديمة وقطعوا الماء عن حقولهم وقُراهم التي عصف بها اليباب.

أنصتت المدينة كلها إلى الصوت الغريب الملعلع في رحم الظلام. إعتقد الناس في البداية أن عاشقاً ما قد استبدت به عواطفه فراح يناجي القمر، ثم سرعان ما غرقوا في الضحك على البلاغة القديمة التي صيغت بها الكلمات والاستعارات الخفية في الجمل. فقد كانت عادة إلقاء الخطب الحماسية قد اختفت من ذاكرة الناس وأصبحت جزءاً من التراث المندثر للعهد القديم. ولكن الجنرال القديس ما كان يعرف ذلك بالطبع، وهو أمر ما كان ليهمه حتى لو عرف به، فقد كان واثقاً من أنه يستطيع اجتراح المعجزات بخطبة واحدة، فقط، يطلقها في فضاء المدينة المفتوح على الليل.

لم يتوقف الرجل عن الكلام إلا عندما رأى القمر يختفي عن الأنظار والظلام يحل على العالم. حينذاك تنفس الناس الذين ظلوا يقاومون النعاس الصعداء وراحوا يرددون أمام نسائهم.

ـ ما أكثر الحمقى، أنهم لا يتركوننا ننام.

لكن ما اعتقد الناس أنه هدوء حلّ على مدينتهم أخيراً لم يدم طويلاً، إذ ارتفع ثانية صوت أشد ضجيجاً من الصوت الأول، شاقاً الصمت بصرخاته التي كان يمكن للمرء أن يحس بوخزاتها في القلب. وبين كل صرخة وصرخة كان ثمة طبل يقرع من بعيد. همس الشيوخ في آذان أحفادهم:

ـ اسمعوا، هذا هو الجنرال الثاني الملقب بالدرويش!

كان هذا الدرويش لا يلقي خطبه التي تسلب أعداءه الأكثر صلابة كل إرادة إلا في القاعات الأكثر عتمة، ضارباً في الوقت ذاته على الطبلة، تلك الصنعة التي دربه عليها متصوف كردي من أتباع الطريقة النقشبندية، استدعاه من السليمانية مجزلاً له العطاء بعد أن سمع



بمعجزاته الإيقاعية من دراويشه وفتاحي فاله الذين كانوا يرافقونه أنى ذهب.

ما كاد هذا الخطيب ينتهي بعد حين حتى تبعه الجنرال الثالث الملقب بالفلكي وأحياناً بصانع المعجزات ولكن أيضاً بالفيزياوي، حيث ألقى خطبة علمية مليئة بالمعادلات الرياضية التي حار الناس في تفسير رموزها ودلالاتها مثل $E = mc^2$ وكوارك جيمس جويس وتوالد الأكوان من العدم والخطة القومية لاكتشاف النار من جديد.

أما آخر الخطباء في تلك الليلة المدلهمة الطويلة فقد كان الجنرال المطرب، وهو ريفي بشوارب تنحدر فوق الفم، لقب نفسه بمرسوم جمهوري بالقائد المحبوب من مئتي مليون عربي، لكن الناس آثروا أن يطلقوا عليه لقب الشاعر لخطاباته الموزونة المقفاة التي كان يصوغها ويغنيها كمقامات وأبوذيات وقصائد غرامية من الشعر الحر المسجوع، تفتح أكثر القلوب انغلاقاً أمام مشاريع خططه الإنفجارية، وهي التسمية التي ظل يطلقها على كل ما كان يقوم به، حتى إذا تعلق الأمر بالنوم مع خليلته العاملة في السيرك الوطني، مروضة الأسود الروسية ناتاشا التي كانت تزوره مرة في الأسبوع مع أسدها السيبيري المدلل الذي كان يفضل النوم دائماً تحت السرير في الغرفة الحمراء.

* * *

اجتذبت الخطب التي ألقاها الشيوخ في ذلك الليل البهيم على المدينة التي لم تكن قد سمعت خطاباً على الطريقة القديمة منذ زمن بعيد الألوف من الشبان ذوي الشعور الطويلة والشابات الباحثات عن الهوى فانسلوا خفية من أسرتهم واتبعوا اتجاه الريح التي قادتهم في النهاية إلى قصر الذكريات. حاولوا في البداية اقتحام بواباته المغلقة، لكن الجنود صدوهم، مانعينهم من الدخول، خشية وقوع ما لا تحمد



عقباه. لم يكن هؤلاء الشبان يحملون في الحقيقة أي نوايا عدوانية تجاه أولئك الشيوخ الذين شكوا للمدينة في ليلها الطويل غدر الزمان بهم. كل ما كانوا يريدونه هو التفرج عليهم ليتأكدوا فقط مما كانوا قد قرأوه عنهم في الكتب القديمة. وإذ لم يجدِ كل ذلك نفعاً مع جنود الحراسة اليقظين الذين كانوا قد أبلغوا وزير الدفاع بالأمر، فأصدر إليهم تعليمات صارمة بمنع أي كائن غريب من دخول المكان، خشية إفلاتهم ثانية والهرب إلى الجبال للاختفاء بين شعابها أو أن تدفع روح الانتقام أحداً من أحفاد ضحاياهم الكثيرين إلى التنكيل بهم، استلقى الشبان والشابات على العشب الندي في المروج المحيطة بالقصر، قاتلين الوقت في ممارسة الحب ورافضين مغادرة المكان قبل أن يسمح لهم بإلقاء نظرة ولو من بعيد على شيوخ التاريخ العائدين من موتهم.

منذ تلك الليلة التي ألقى الجنرالات فيها خطبهم على المدينة النائمة انقلب التاريخ إلى مهرجان دائم يظل قائماً ليل نهار. جاء الناس من كل مكان وأنصتوا بكل جوارحهم إلى الماضي. بدت الخطب في البداية مملة ورتيبة مما حدا بالشبان إلى أن يضفوا عليها لمسة طربية كخلفية من موسيقى الجاز والروك أندرول من مسجلات كانوا يحملونها معهم، راقصين على إيقاعها الذي حوروه بمهارة ليتلاءم مع صدى الخطب والمقامات المتلاشية في الظلام العميق. وإذ صار القصر الكبير بؤرة تستقطب القادمين من أنأى المدن على خارطة العالم ظهرت شركة ماكدونالد الأميركية كالعادة بسياراتها البيضاء وعمالها الملونين، بانية على عجل أكشاكاً لبيع الساندويتش والكوكاكولا، فيما اتصل وزير السياحة بشركة نوفاتيل الدولية وبحث مع المعماريين أمر بناء فندق بخمس نجوم، بعد أن تلقى شكاوى كثيرة من السياح الأجانب الذين كانوا يضطرون أحياناً إلى أن يقضوا ليالي سهرهم



الباردة في العراء مثلما أوصى مصلحة نقل الركاب المحلية بأن تنشئ خطاً بعشر حافلات يربط قصر الذكريات بمركز المدينة.

رفض جمال الساحر بإصرار، كما كان متوقعاً منه، أن يفتح بوابات قصره المغلقة أمام طوابير الزائرين الراغبين في إلقاء نظرة على الرجال الذين تحصنوا في أجنحتهم منذ فشل إضرابهم الذي لم يدم سوى يوم واحد، مؤملين أنفسهم بكسب قلوب أتباعهم ثانية بخطبهم الليلية المحرضة على الثورة بانقلاب خاطف يعيد اليهم ملكهم المفقود الذي سرقه الدهر الخؤون منهم في لحظة غفلة. كان المدير يخشى في الحقيقة ألا يحتمل شيوخه صدمة العالم الجديد، بطائراته الشبحية وهواتفه المتنقلة، بكومبيوتراته الناطقة وسفنه الفضائية المتجهة إلى أبعد الكواكب، وبخاصة بفتياته المتخصصات بامتصاص آخر قطرات الحياة في العروق الجافة للشيوخ فوق أسرة مائية تذكر المرء بالبحر في العاصفة. فقد كان يعرف أكثر من غيره أنهم أسرى عالم لم يعد قائماً إلا في خيالهم الذي حفر ممراته المتعرجة في متاهات خرفهم وشيخوختهم. ولذلك لم يجد هو الذي ظل متشائماً وقلقاً على صحتهم بداً من أن ينقل مخاوفه تلك إلى الرئيس نفسه عندما استدعاه فجأة، ليبحث معه أمر تحويل القصر إلى معلم آثاري يؤمه السياح. رجاه بطريقة تكاد تكون توسلاً أن يترك شيوخه ينعمون بوحدتهم، لكن الرئيس الشاب الذي كان يملك مكر ثعلب عجوز رد عليه ببرود لم يكن يتوقعه:

ـ لقد دفعنا ثمن وحدتهم غالياً في الماضي. أما الآن فعليهم أن يدفعوا لنا بعض ثمن وحدتنا. تأكد من أنهم لن يموتوا بسبب ذلك.



٢٦

ترويض النمرة

ظهرت إعلانات كثيرة على جدران المدينة وفي الصفحات الداخلية الملونة للجرائد المحلية، تبشر بقرب افتتاح قصر الذكريات أبوابه المغلقة أمام الزائرين ستة أيام في الأسبوع على عادة المتاحف الأثرية في العالم. كانت تلك والحق يُقال إعلانات طريفة يظهر في أحدها القديس جنرال القمر سابحاً في الفضاء الكوني. وفي إعلان آخر كان يمكن للمرء أن يرى الجنرال الشاعر وهو يصافح الشاعر الكبير جميل صدقي الزهاوي مع عبارة تقول «الرئيس يشعر أيضاً»، ولكن الأكثر إثارة بينها جميعاً كان ذلك الإعلان الذي ظهر فيه الشيوخ الأربعة بأفواه مفتوحة وعيون نارية في صورة تذكارية لا تنسى، مع تعليق يقول: «انتظرنا ثانية أيها المستقبل، إننا عائدون!» كان من الواضح أن واضعي تلك الإعلانات تعمدوا إضفاء مسحة من الفكاحة على الأمر، ربما للتخفيف من ثقلها على الناس.

ولكن رغم كل هذه المظاهر الاحتفالية وجد جمال الساحر نفسه في ورطة حقيقية، إذ لم يكن يعرف ما يمكن أن يقدمه للزائرين، قائلاً لنفسه: اللعنة، إن هؤلاء ليسوا أسوداً أو نموراً أو حتى أرانب لأحبسهم في أقفاص يتفرج عليها الناس. ولم يكونوا بالتأكيد أيضاً تماثيل من حجر في متحف، يقف المتفرجون أمامها فلا يرف لها جفن. كانوا



بشراً من لحم ودم حتى إذا كانوا هم أنفسهم قد رفضوا الاعتراف بمثل هذه الحقيقة باعتبارهم الاستثناء الوحيد بين البشر كلهم.

ولذلك ظل يفكِّر طوال يوم كامل بالطريقة التي سيكون عليه أن يتبعها حين يفاتح بالأمر هؤلاء الشيوخ الذين كانت أعصابهم تلتهب لأتفه الأسباب. بدا متأكداً من أنهم سوف يرفضون بكل إباء فكرة عرضهم على الجمهور وقد يلجأون إلى الإضراب ثانية أو إلى ما هو أسوأ منه، وهي مخاوف جعلته يلجأ إلى صديقهم عادل سليم الأمير لينقذه من ورطته، لكن هذا رفض ما اعتبره امتهاناً لكرامتهم وخرج محتجاً من الغرفة:

ـ لماذا لا تضعونهم في حديقة للحيوان؟ سيكون ذلك بالتأكيد أقل كلفة لكم، يا إلهي، ما هذه الأفكار العجيبة التي تخطر ببالكم!

بعد أن رفض عادل سليم الأمير الذي كان الوحيد القادر على إقناعهم مد يد المساعدة لإنجاز هذا المشروع السياحي لم يجد جمال الساحر بدا من اللجوء إلى آخرين غيره، حيث عقد اجتماعاً دعا إليه أكاديميين معروفين وأساتذة في التاريخ القديم ومختصين في علم النفس والاجتماع والطب ومدرسين من الكلية الحربية، طالباً منهم المشورة. وبالطبع دارت كما هو متوقع في العادة مناقشات صاخبة متضاربة حول الفكرة. ففي حين تحمس أساتذة التاريخ للمشروع حذر علماء النفس من مغبة تأثيرهم السيئ في الأجيال القادمة، فقد يجدهم الناس وديعين كحملان يتيمة، وربما توهموا أن كل ما كتب عنهم بعيد عن الحقيقة. وكان من رأي العسكريين أن المكان الأنسب لإيوائهم هو الكلية العسكرية التي سوف تجعلهم يشعرون بأنهم في المكان الأكثر قرباً إلى قلوبهم: ساحة الشرف. ولكن إذ شم مدير القصر رائحة المؤامرة في هذا الاقتراح الذي كان من الواضح أن وزير الدفاع الطموح نفسه يقف وراءه شكرهم على حضورهم، مؤجلاً الجلسة إلى



موعد آخر، لم يلتزم به بعد ذلك. فقد كان أسوأ ما يمكن أن يحدث في نظره هو أن يفلت شيوخه من بين يديه:

ـ سوف يلتهم الثعلب العصفور في النهاية.

لذلك ما كاد ينتهي من تلك الجلسة التي شعر أنه أخطأ في عقدها حتى خطر في باله أن يزورهم بنفسه أولاً ليجس نبضهم قبل أن يقنعهم واحداً واحداً بقبول الجلوس معه سوية على طاولة المفاوضات في قاعة الاستقبال الكبرى في القصر، وهي قاعة مزينة بصورهم وجدارياتهم القديمة وضعت في وسطها منضدة طويلة صفت على جانبيها الكراسي كما وضعت آنية من الزهور الاصطناعية الصفراء فوق طاولة صغيرة، قريباً من النافذة التي أزيحت ستائرها الزرقاء، حيث كان يمكن للمرء أن يرى الحديقة بأشجارها الباسقة وهو يجلس في مكانه. وإذا كان قد تعمد أن يعقد هذا اللقاء معهم في الخامسة عصراً، فذلك لكي لا يقطع عليهم قيلولة الظهيرة التي ما كانوا ليفرطوا بها، متوقعاً أنهم سيكونون في مزاج طيب ليساومهم على الطريقة التي يفضلون بها الالتقاء بشعبهم المتحرق شوقا لرؤيتهم. كان قد فكّر في كل شيء تقريباً حتى يكسب قلوبهم، مقدماً للطهاة والخدم قائمة خاصة بالأطاييب التي تفتح شهيتهم.

كان يعرف أن الجنرال القديس يفضل دائماً بعد النهوض من النوم احتساء ثلاثة أقداح من لبن أربيل مع بضعة استكانات من الشاي المعطر، ماركة الفيل الأسود الذي يعيش في غابات كاجارات في الهند، محلياً فمه بتمرة بربن نصف طازجة.

أما الجنرال الدرويش فكان يحبذ شرب قارورة من لبن الناقة وتناول القهوة العربية مع الهيل في فناجين صغيرة يقدمها له خادمه منصور الإفريقي، وهو ملازم في الجيش، كان والداه الحبشيان قد ضلا قبل عقود طويلة من الزمن طريق الحج إلى مكة فبلغا بادية



النجف، حيث أسرهما البدو المتوحشون من قبيلة ربيعة وباعوهما لصاحب الجلالة الملك فيصل الأول الذي عين المرأة مربية لأولاده والرجل مستشاراً خاصاً له للشؤون الإفريقية. وفي قديم الزمان، أيام عزه الزائل كانت ناقته الصفراء «الملكة» والتي كان يدللها باسم «رين» الفرنسي، تتبعه حيثما ذهب، صاعدة معه خلال زياراته إلى البلدان الأخرى في طائرته الخاصة به كضيف شرف.

طباع الجنرال الفلكي كانت الأكثر غرابة. فقد بلغ من فساد ذوقه أنه كان يسلي نفسه بالتهام رؤوس كاملة من الثوم يغمرها قبل إلتهامها في صحن طافح بالعسل البري، جارعاً في النهاية قنينة أو أكثر من الجعة، بدعوى أنه يفعل ذلك بتوصية من طبيبه التركي الذي كان قد أعد كتاباً شهيراً عن فوائد تناول الثوم مع العسل واشتهر في أوروبا كلها. أما الجنرال الشاعر المعروف برومانسيته فكان يميل إلى احتساء الشاي مع حليب الزرافة خمس مرّات في اليوم.

ـ حسناً، وماذا في ذلك؟ لكل منا طبعه الخاص، أليس كذلك؟

في البداية ترددوا في حضور ذلك الاجتماع وتحصنوا في أجنحتهم، شاعرين بأن ثمة أمراً يدبر ضدهم في الخفاء، والأكثر من ذلك أنهم لم يكونوا مستعدين لقبول أي وساطة بينهم لنسيان خلافاتهم الماضية. لكن جمال الساحر الذي قصدهم واحداً بعد الآخر في أجنحتهم وقبلهم من أكتافهم على عادة الأزمنة القديمة، أبلغهم بأن كل ما يريده لهم هو أن يراهم يجلسون ثانية على كرسي السلطة الوثير ليعيدوا إلى البلاد التي عاث بها دعاة الحرية الفاسدون أصلاً فساداً ألق الدكتاتورية المنطفىء، خاتماً حديثه دائماً بذلك الهتاف العاطفي الذي شاع على ألسنة الناس في عهودهم:

النار النار النار   عاش قائد الثوار

وقد أفلح بمكره بالفعل في أن يجرهم إلى اجتماع الصلح ذاك



الذي أعاد المياه الطافحة إلى مجاريها القديمة، مغرياً إياهم بتقاسم السلطة بدل سفك المزيد من الدماء بدون طائل في الحساب الأخير للتاريخ. كان ذلك يعني أن يحكم كل منهم البلاد أسبوعاً في الشهر وبما أن الشهر يتألف دائماً من أربعة أسابيع فلن تكون ثمة مشكلة أمامهم.

ـ هذا هو كل ما في الأمر، إنني لا أطلب المستحيل.

كان اقتراحه بسيطاً في الحقيقة، إذ كان كل ما ينبغي عليهم فعله خلال أسابيع تداول السلطة في العهد الجديد هو أن يجلس كل منهم على كرسيه في جناحه أو على الشرفة ويلوح بكفه للجماهير التي سوف تمر من أمامه، رافعة الأعلام والشعارات وهاتفة بحياته. هذا الاقتراح أعاد الحياة إليهم فجأة. صحيح أنه قلّص الحق التاريخي لكل واحد منهم إلى الربع، ولكنه كان أفضل من أن يفقد المرء كل شيء. والأكثر من ذلك إن في إمكان المرء دائماً أن ينتظر الفرصة السانحة للإطاحة بالآخرين. المهم هو موطئ القدم الأول. لم يكن الأمر في واقع الحال غريباً على الشيوخ الأربعة، فقد كانوا أصدقاء أيضاً ذات يوم عندما بدأوا ثورتهم الأولى، بل إنهم دخلوا القصر الكبير سوية على متن دبابة واحدة وحكموا أيضاً سوية قبل أن يوسوس الشيطان في قلوبهم.

حين تمنى مدير القصر جمال الساحر، ولكن ليس بدون حذر وتردد، عليهم أن يراهم وقد طووا خلافات الماضي وراءهم ونسوها، فاتحين صفحة جديدة في كتاب القدر من أجل رقي البلاد وسؤددها، التزموا الصمت، محدقين في عيون بعضهم، كمن يريد أن يقرأ نوايا الآخر وأفكاره الدفينة. ظلوا هكذا برهة من الزمن حتى واتت الجنرال الشاعر الشجاعة على أن يمد يده المصابة بأكزيما الجلد للآخرين ويصافحهم واحداً واحداً فيما كان جبينه ينزف عرقاً من الخجل.



ومع ذلك كانت تلك التفاتة رائعة حقاً من هذا الجنرال الذي وجد أن من واجبه باعتباره الأصغر سناً بينهم أن يبدأ الخطوة الأولى في طريق المصالحة الوطنية ولو متأخراً، حتى ان الدموع الكبريتية الساخنة القليلة المتبقية في ينابيع محاجرهم الصخرية ترقرقت قطرة قطرة في عيونهم الشبحية المختفية وراء النظارات الداكنة، كاشفة عن التماع مطمور تحت أجفان بلا أهداب، منحدرة فوق حفر وجناتهم المتقرنة، فنهضوا وتعانقوا كإخوة غدر بهم الزمان، باكين على أكتاف بعضهم الآخر، مستعيدين ذكريات صداقاتهم الأولى أيام كانوا يقصدون المبغى سوية، هاربين ليلاً من المعسكر في غفلة من الحراس السكارى. وقد دفعتهم عواطفهم التي جاشت فجأة إلى أن يرددوا من جديد وبصوت كورالي موحد قسم الولاء لبعضهم، ذلك القسم الذي صاغوه ذات مرة لأنفسهم في وكرهم الذي قادوا منه ثورتهم الأولى ضد العهد الاستعماري.

* * *

عرف جمال الساحر أنه قد اجتاز العقبة الأولى واستحوذ بمهارة على قلوب شيوخه بمشروعه الذي أطلق عليه منذ تلك اللحظة اسم «ترويض النمرة» المقتبس أساساً من عنوان مسرحية لوليم شكسبير، إذ لم تعد ثمة سوى التفاصيل التي لن يصعب عليه ترتيبها أيضاً مع بعض الرتوش واللمسات المسرحية.

ـ كل شيء على ما يرام.

ومع ذلك لم يكن الأمر سهلاً كما تصور في البداية. فقد تقدموا بطلبات يستحيل تنفيذها ووضعوا شروطاً خيالية مجحفة تدل على خرفهم. طالب كل منهم باستعادة طاقم وزارته وحريمه وأولاده وبدائله وحراسه الشخصيين، بل إن واحداً أو اثنين منهم رغب أيضاً



في أن يعثروا له على شعرائه القدامى المقربين إلى قلبه والذين كانوا يمدحونه في الأعياد الرسمية مقابل حفنة من الدنانير. كانت ثمة أيضاً مطالب أخرى بدت لجمال الساحر صبيانية تماماً لا تليق بمقامهم، مثل تعيين حلاق لكل منهم، يحمل شهادة أوروبية، والسماح لهم باستقبال الصبايا ليلاً في أجنحتهم وصرف رواتبهم غير المدفوعة منذ عقود من الزمان. لكن جمال الساحر الذي ما كان ليريد أن يفسد متعة النجاح الذي حققه معهم بضربة حظ وافق على كل ما طلبوه منه كأمر لا شك فيه، واثقاً من أنهم سوف ينسون مطالبهم كلها أو بعضها على الأقل حال مغادرتهم صالة الاجتماعات. وحتى إذا ما عادوا إلى الحديث عنها فإنه سيمتلك ما يكفي من الوقت للمماطلة والتسويف.

ـ أجل لقد دخلوا التاريخ كاستثناء، وهذا أمر منصوص عليه في كل كتب التاريخ القديمة.



٢٧

الجنرال القديس ينصب نفسه رئيسا للعالم

ثمة قصص كثيرة بالطبع دونها الرواة عن هؤلاء الشيوخ، وهي قصص تكاد تدخل في باب الأساطير.

ففي الشهر الثالث من العام الأول من الثورة التي قادها الجنرال القديس ضد العهد الاستعماري ارتقى فجأة ذات يوم سقف سيارته المارسيدس المصفحة وألقى كلمة حماسية أعلن فيها بدء الثورة العالمية التي قال إنه سيقودها بنفسه حتى آخر نفس فيه:

ـ سوف أمحو كل تاريخ قبلي لأبدأ التاريخ من جديد.

لم يفهم الناس الأمر تماماً، إذ اعتقدوا في البداية أن الأمر يتعلق هذه المرة أيضاً بالكلمات الرنانة التي طالما اعتاد القادة على إطلاقها بدون تفكير عميق في معانيها، حتى رأوا الخطباء القادمين من أكثر البلدان بعداً يتسلقون، الواحد بعد الآخر، سيارته ويقفون جنبه، ملقين خطباً لم يفهمها أحد بلغات العالم كله. بدا الأمر غريباً على الجمهور الذي لم يكن يعرف سوى اللغة العربية بالطبع، ومع ذلك إذ رآهم الناس يرفعون قبضاتهم ويختضون عاطفة وحماسة فكروا لا بدَّ أنهم يقولون شيئاً خطيراً ومثيراً، ولذلك راحوا يصفقون لهم مثلما تبارى الشعراء كالعادة في إلقاء قصائدهم التي يمتدحون فيها الجنرال



القديس الذي انتخبته الوفود الأجنبية القادمة من كل حدب وصوب رئيساً للعالم.

ـ رئيس للعالم؟ ماذا يعني ذلك كله؟

تساءل الناس مستغربين حتى سمعوا الجنرال القديس نفسه يعلن بلهجة لا تخلو من الحزن:

ـ لقد أحرجتموني أيها السادة عندما انتخبتموني رئيساً للعالم، ولكن ما دمتم قد أردتم ذلك فسوف أبذل جهدي لأكون جديراً بمنصبي الجديد. ستكون مهمتي الأولى هي القضاء على ملل العالم القديم. سوف أقلب لكم كل شيء، رأساً على عقب.

في اليوم التالي نشرت الصحف الرسمية الرسالة التي كان القديس قد وجهها بالفاكس إلى رؤساء وملوك البلدان الأخرى، وهي والحق يُقال رسالة تضمنت الكثير من المجاملة المطلوبة أيضاً في مثل هذه المناسبة والتنازلات التي جعلته يقرر تعيينهم أعضاء عنده في مجلس قيادة ثورته العالمية، طالباً منهم الحضور إلى بغداد في مستهل الأسبوع التالي للبحث في ما ينبغي عمله بالعالم الذي قال إنه يتطلب الكثير من التغيير والتعديل قبل فوات الأوان. ولم يهتم الجنرال بالطبع في أن أحداً من رؤساء العالم وملوكه وشيوخه لم يكلف نفسه حتى عناء الرد عليه، فقد كان يعرف أن ثورته العالمية لن تكون سهلة مثل كل الثورات الأخرى التي شهدها التاريخ وأنه ربما أحتاج إلى الأبدية كلها ليبلغ مشارفها البعيدة. فقد كان واقعياً بما يكفي ليدرك أن الحسد سوف يتأكل قلوب الحكام الآخرين:

ـ إنهم مثل النساء اللواتي يمتن غيظاً حين يرين امرأة أخرى ترتدي فستاناً أجمل من فساتينهن.

همس بذلك لنفسه ضاحكاً. ثم قرر أن يهمل الحكام مؤقتاً ليتفرغ لأمور أخرى أكثر جدوى وفائدة للبشرية. وهكذا دعا إلى عقد اجتماع



حضره علماء كثيرون من أميركا وأوروبا واليابان ودول كثيرة أخرى للبحث في أمر طالما فكّر فيه، وهو تلميذ في المدرسة: تعديل محور الكرة الأرضية.

لم يكن واثقاً في الحقيقة من أن مثل هذا الأمر ممكن أساساً وقابل للتنفيذ، بسبب ثقل الكرة الأرضية وحجمها الكبير جداً، ولكنه كان يستحق المحاولة أو التفكير فيه على الأقل. وقد كانت له أسبابه الوجيهة التي عرضها على المؤتمر العالمي الذي انعقد بعد شهر من ذلك في عاصمته الصيفية الجديدة الواقعة بين الجبال. فقد أوضح أن انحرافاً صغيراً بمعدل امتار قليلة فقد في محور دوران الكرة الأرضية حول نفسها سوف يؤدي إلى إحداث تغيير كامل في الظروف البيئية والطقس، مما سيعني إمكانية تحويل الصحارى نفسها إلى حدائق غناء مثلما سيؤدي إلى إذابة جليد القطبين الشمالي والجنوبي وتوفير مساحات هائلة من الأراضي التي يمكن أن يسكنها مئات الملايين من البشر. صدم الحاضرون في البداية بالفكرة، بيد أن الصدمة لم تستمر سوى لحظات قصيرة حيث وقف الحاضرون على الأقدام وراحوا يصفقون بدون انقطاع للجنرال القديس.

بعد أيام قليلة من ذلك تلقى دراسة وضعها العلماء عن مدى التغيير المطلوب في محور الكرة الأرضية والطاقة الإنفجارية الذرية التي يتطلبها مثل هذا العمل الكبير والموقع الأفضل لذلك، فقال لنفسه: «لا يبدو أن الأمر صعب كثيراً». لم تكن الصعوبة تكمن في الحقيقة في النظرية وإنما في التطبيق، إذ من أين له أن يوفر كل تلك القنابل الذرية التي سوف تحرف الكرة الأرضية عن محورها. لم ينظر أحد إلى الأمر بجد بالطبع، فقد استهزأ الحكام كلهم بخيال هذا الجنرال الشاب الذي نصّب نفسه رئيساً للعالم، ملمحين إلى أن من الأفضل له أن يهتم قبل كل شيء بدفع رواتب موظفيه التي غالباً ما



تتأخر شهوراً عدة بدل التفكير بمثل هذه المشاريع الخرافية. لكن الجنرال الذي ما كان ليطيق النزول من بغلته التي كان قد امتطاها منذ أول يوم لثورته الظافرة ظهر في التلفزيون وراح يوبخ مواطنيه المطالبين بدفع رواتبهم المتأخرة:

ـ ماذا يعني إذا ما تأخر دفع راتب أحدكم شهرين أو ثلاثة؟ يمكنكم أن تستدينوا من بعضكم، أليس كذلك؟ لقد استدنت أنا نفسي من صديقي وزير الداخلية الشهر الماضي مئة دينار لأدبر بها أمور معيشتي حتى استلام راتبي. كلنا نملك أصدقاء يمكن أن نستدين منهم، فلماذا كل هذه الشكاوى الفارغة من المعنى؟ النضال يتطلب التضحية من الجميع وإلا كيف سيتسنى لنا تغيير العالم؟

ولكن سوء الطالع ظل يلاحق الجنرال القديس حتى تخلى عن حلمه في تعديل محور الكرة الأرضية بعد أن تأكد من أن كل ما يهم حكام العالم هو الجلوس بسلام على كراسي حكمهم وأن مستقبل العالم هو آخر ما يمكن أن يفكروا به.

* * *

حينذاك فقط تذكر زوجته بعد نسيان طويل بسبب أعباء الدولة فلجأ إليها معتذراً وجعلها تنتقل إلى وزارة الدفاع، ساكنة في غرفة ملحقة بمكتبه الخاص، واجداً العزاء في حضنها الدافئ الذي افتقده طويلاً، حيث راح يقودها إلى مخدع غرفة النوم مرتين أو ثلاثاً في اليوم، وغالباً في النهار غير آبه بآهاتها وصرخاتها التي كانت تتجاوز أسوار وزارة الدفاع فتصل إلى آذان المارة في الشوارع، أما الجنود في الثكنات القريبة فكانوا يبتسمون، هامسين فيما بينهم:

ـ هو ذا الجنرال يؤدي واجبه نحو الوطن.

ولما لم يكن من اللائق مفاتحة الجنرال أو زوجته السيدة الأولى



بالأمر لجأ آمر الانضباط العسكري إلى حيلة ذكية يتستر بها على رئيسه الواقع في الغرام. استدعى فرقة الموسيقى العسكرية وجعلها تقف على أهبة الاستعداد دائماً، آمراً إياها ببدء عزف النشيد الجمهوري والمقطوعات الحربية الحماسية، حال انطلاق أول آهة من مكتب الجنرال المغلق.

ثم إذ مل الجنرال القديس من زوجته أيضاً في النهاية راح يغري الآخرين، المرة تلو الأخرى، بأن يجربوا حظهم في إطلاق الرصاص عليه، ليثبت لهم أن الرصاص لا يخترق جسده وأنه سينجو كما نجا دائماً من الموت، ما دام يشد على ذراعه التميمة الواقية وملاكه الحارس يقف على أهبة الاستعداد ليحميه من كل خطر. ولذلك عفا عن الفعلة كلهم، وهو يكاد يموت من الضحك عليهم. وحتى عندما ألقي القبض عليه بعد سنين وإثر واحد وثلاثين انقلاباً فاشلاً قادها أعداؤه ضده وأوقف، مسند الظهر إلى الجدار أمام جلاديه الذين صوبوا بنادقهم إلى صدره طلب منهم مبتسماً، حين أرادوا وضع خرقة فوق عينيه:

ـ بدون منديل رجاء.

كان واثقاً من أنه لن يموت أبداً وأن نظراته ستخيف الموت نفسه، فيلوذ منه بالفرار.



٢٨

بعثات الجنرال الدرويش الى قادة الدول

ولكن إذا كان الجنرال القديس قد اشتهر باللاموت فقد اشتهر خلفه بالخرافات. فمما يحكى عن الجنرال الدرويش أنه رأى ذات ليلة هطل فيها المطر مدراراً فأغرق البيوت والشوارع وأدى إلى هلاك الكثير من الماشية حلماً أقض مضجعه، فاستيقظ مذعوراً وظل يطوف قلقاً في ردهات قصره مثل من أصابه مس من الجنون، والعرق يتصبب من مسام جلده، حتى شعر بالتعب فجلس على الأرض وراح يبكي مثل طفل أضاع أمه، دافناً رأسه في حضنه. ثم بعد أن تمالك روعه أرسل حراسه المدججين بالسلاح لإحضار عشرة من كبار العلماء ومفسري الأحلام وفتاحي الفال وضاربي الرمل في جمهوريته، ليفسروا له معنى حلمه الذي ملأ قلبه رعباً وهلعاً. فداهم الجنود بيوت هؤلاء وأخرجوهم من مخادعهم عنوة وهم نصف عراة، إذ ظلوا يرتعشون مرعوبين طوال الطريق حتى بلغوا القصر الجمهوري، غير عارفين بالمصير الذي ينتظرهم. ولم يهدأ روعهم إلا بعد أن دخلوا على الجنرال الذي نهض هاشاً باشاً بهم فقبلوه واحداً واحداً على الكتف، وهو يغص بدموعه، آمراً خدمه بإعداد القهوة لضيوفه الذين كانوا يقاومون النعاس بصمت ما كان يمكن له أن يخدع نظراته الثاقبة.

في تلك الليلة التي سهروا فيها حتى الفجر روى الجنرال



الدرويش قصة حلمه مرّات لا تحصى، وفي كل مرة بتفاصيل جديدة يتذكرها. كان قد رأى نفسه يسرح ويمرح في الجنة، تحيط به الجواري والغلمان ويحتسي الخمرة من نهر الفرات الذي كان يخترق غابة غناء ويأكل التين والزيتون من أشجار، ثمارها تتدلى حتى الفم. ولكن هذه السعادة الغامرة لم تدم طويلاً، فقد رأى، وهو جالس على العشب يداعب أفعى الفردوس التي أغرت حواء بأكل التفاحة، الغائب المنتظر يقبل نحوه ووراءه يسير أربعة عبيد من الملائكة السود، في أيديهم السياط، فترك الأفعى ورمى بنفسه على رجل الغائب المنتظر وراح يقبلها. ولكن الرجل أمره بلهجة صارمة أن ينهض وقال له:

ـ لا تعتقد أن تقبيلك لحذائي الآن سوف يمحو آثار ما ارتكبته من ذنوب في حياتك الماضية.

قال الجنرال الدرويش الذي كان الملائكة العبيد قد أحاطوا به، مخاطباً الغائب المنتظر:

ـ لقد أنتظرتك دائماً، ولكنك لم تأتِ.

رد الغائب المنتظر غاضباً:

ـ كان عليك أن تمهد الطريق أمامي، ولكنك لم تفعل.

ـ ما كنت أعرف كيف أفعل ذلك.

هز الغائب المنتظر رأسه وقال:

ـ لأنك، وقد كنت جنرال الجنرالات، ما انتظرت أحداً سوى نفسك.

ما كاد الغائب المنتظر ينهي جملته هذه حتى أمسك الملائكة السود به وشدوه عاري الظهر إلى جذع نخلة وضربوه بالسياط حتى ملأ صراخه الجنة. ولولا أنه استيقظ على صوت أنينه في النهاية لقضى عليه أولئك الملائكة القساة بالتأكيد.

تملى العلماء ومفسرو الأحلام وفتاحو الفال، مطرقين برؤوسهم



إلى الأرض، في هذا الحلم الذي أدخل الرعب في قلوبهم هم أيضاً، حتى رفع إمام الجمهورية رأسه وراح يمسد بأصابعه لحيته البيضاء، الكثة، كمن يبحث عن الكلمات المناسبة التي يريد أن يقولها:

ـ أبشر يا سيدي الجنرال، أن ما رأيته ليس حلماً وإنما رسالة أوحيت إليك من الغيب!

واعترض الجنرال الدرويش عن حق:

ـ ما هذا الذي تقوله يا ملا؟ لقد كادوا يهلكونني. إنني لم أسمع بأحد أوحي إليه بضربه بالسياط عارياً.

فأجابه الملا الذي راح يحدق في وجوه الحاضرين، متوسلاً تأييدهم له:

ـ إن للّه طرقه في إيصال رسالته إلى البشر، وهي طرق عجيبة وغريبة أحياناً.

قال الجنرال حزيناً:

ـ لا أعرف كيف يمكن لرجل مثلي أن يمهد الطريق أمام الغائب المنتظر. كنت على وشك أن أسأله عن ذلك لولا أنه أمر عبيده بضربي.

أوضح أحد الحاضرين بوثوق:

ـ ما كان ليجيب عليك يا سيدي الجنرال، هذا أمر ينبغي أن تقرره أنت بنفسك.

هذا السؤال قاد الحاضرين في تلك الجلسة التي احتسى كل منهم خلالها عدداً لا يحصى من فناجين القهوة، إلى اجتهادات متضاربة ومتناقضة، لم تكن عملية أو ممكنة التطبيق. فقد اقترح بعضهم أن يغزو الجنرال العالم بجيوشه ويفرض الإسلام على القبائل والأمم الكافرة. ورأى آخرون أن يكتفي بصلب كل من ينكر قدوم الغائب المنتظر. وكان من رأي فتاحي الفال أن يضربوا كل يوم تخت رمل،



فإذا ما بان لهم زمان ومكان ظهور الغائب الكبير ذهب الجنرال الدرويش لاستقباله ومهد أمامه الطريق بالورود والرياحين والجثث، مما أثار حنق الإمام الذي ردّ عليهم قائلاً، وهو يغمز من قناتهم.

ـ أعتقد أن أول ما سيفعله الغائب المنتظر، عجل اللّٰه فرجه، عند قدومه هو قطع رقاب السحرة والدجالين.

فالتزم فتاحو الفال الصمت، متجنبين الدخول في معركة مع حامي العقيدة، قد تثير غضب الجنرال ضدهم، بعد أن رأوا حتى مفسري الأحلام أنفسهم يعلنون عن قناعتهم الكاملة بوجهة نظر سدنة الدين. وانتهز المرشد الخاص لأبناء الجنرال، والأصغر عمراً بين الحاضرين، الفرصة فأعلن رأيه الذي أيده الجميع:

ـ ليس بالحرب وحدها ينتصر الإسلام.

ثم أضاف بصوته القوي المدوي، مخاطباً الجنرال:

ـ أحبذ أن تبعث برسل إلى جهات الأرض الأربع، حاملين رسائل منك إلى ملوك ورؤساء العالم كله، تدعوهم فيها إلى الدين الحق، مثلما كان عليه الأمر في أيام الرسول والخلفاء الراشدين. فقد يفتح اللّٰه صدورهم ويهديهم إلى الإسلام.

* * *

على مائدة الفطور التي اختتمت بها تلك الليلة وفي كل الاجتماعات التي عقدت في الأيام التالية والتي انضم إليها كبار رجال الدولة والجيش والمخابرات ورؤساء الطوائف لم يعد ثمة شاغل للجميع غير الوفود التي قرر الجنرال الدرويش إرسالها إلى ملوك ورؤساء الدول في العالم، حاملة منه معها رسائل دعوة مختومة بالشمع الأحمر.

لم يكن سهلاً معرفة أسماء كل الملوك والرؤساء الذين كان



المشير قد قرر أن يتوجه برسائله وهداياه من الذهب والجواهر والسجاد إليهم، وخاصة أولئك الملوك المجهولين الذين كانوا يقطنون في بلدان بعيدة، لم يصلها أحد من الرحالة القدامى. بيد أن مثل هذا النقص في المعلومات ما كان له ليؤثر قيد أنملة على مشروع كان مضمخاً برائحة الجنة. فقد توجهت البعثة الأولى إلى روسيا الأرثوذوكسية القريبة والثانية إلى الصين الكونفوشيوسية واليابان البوذية والثالثة إلى أوروبا الاتحادية والرابعة إلى إفريقيا الوثنية والخامسة إلى القارة الأميركية الرأسمالية والسادسة إلى جزر الواق واق التي جاء ذكرها في كتاب ألف ليلة وليلة والسابعة إلى تركيا الأتاتوركية.

ولكن سوء الطالع لاحق معظم هذه البعثات وهي لا تزال في الطريق فانتهى الأمر بها إلى الإخفاق الذريع. ففي إفريقيا السوداء إلتهمت قبائل الزولو المتوحشة رجال البعثة بعد أسرهم داخل الأحراش، كما استولى القراصنة البرتغاليون على السفينة التي مخرت بهم عباب المحيط في طريقها إلى العالم الجديد ونهبوا كل ما فيها ثم اقتادوا أفراد البعثة، مشدودين بالحبال، إلى الجنوب الأميركي وباعوهم لتاجر عبيد متعصب للمسيحية يدعى فوكنر، سامهم سوء العذاب، مرغماً إياهم على التصليب ثلاث مرات كلما مروا من أمام الكنيسة التي كان راعيها يهديهم الشوكولاته واللبان، آملاً في أن تميل قلوبهم إلى مسيحه المعلق على الجدار وأمه العذراء، فكانوا يصلبون مرددين بالعربية التي ما كان أحد غيرهم يفهمها بالطبع «اللهم صلِّ على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين!». ثم انتهى بهم المطاف إلى العمل كعبيد في مزارع القهوة حتى أفلحوا ذات ليلة لا قمر فيها، في الهرب إلى الجبال، حيث التقطهم الهنود الحمر واقتادوهم معهم عبر جبال السييرا، ملتحقين بالثورة المشتعلة هناك فاختفى ذكرهم بعد ذلك.



وفي موسكو إستقبل حفيد القيصر رومانوف أفراد البعثة في الكرملين وقدم لهم الفودكا على العادة الروسية فظلوا يجرعون الكأس بعد الأخرى، ظانين أنه عصير لفتح الشهية، وربما لأنهم ما كانوا يريدون جرح مشاعر مضيفهم الذي امتدح الإسلام علناً، مشيراً إلى القصيدة الشهيرة لشاعرهم الكبير بوشكين عن النبي محمد.

ولكن الأسوأ حدث في أوروبا عندما وقع أفراد البعثة في أيدي نصابين طليان اقتادوهم إلى كنيسة تاريخية من القرن التاسع، جلس فيها رجل يرتدي ملابس مزركشة مثل ببغاء، مدعين أنه البابا بولس الرابع عشر الذي وافق بعد حوار قصير معهم على أن يردد أمامهم الشهادتين، مثلما فعل أتباعه الآخرون، فاستحوذوا على كل ما معهم من الهدايا والأموال ثم تركوهم داخل محطة قطار تحت الأرض وهربوا.



٢٩

الجنرال الفلكي يكتشف مجرة أم القرون

قصة الجنرال الفلكي المولع بالنجوم والاختراعات تختلف بعض الشيء، إذ يروى أنه كان يجلس وراء مرصده الموجه دائماً إلى المجرات البعيدة، يحيط به علماؤه ويتذمر شاكياً:

ـ لا أرى أي بيغ بانغ في السماء. هذه النظريات تجعلني أشك في كل شيء.

فيرد عليه أحد الواقفين وراءه.

ـ أنا الآخر لم أؤمن أبداً يا سيدي الجنرال بمثل هذه النظريات الاستعمارية.

ـ كلا، كلا، هناك انفجار أول حتى إذا لم أكن قد رأيته حتى الآن. ذلك أمر منصوص عليه في الكتب.

ـ أكيد أنه يوجد انفجار أول يا سيدي الجنرال، لحسن الحظ أنه لم يقع عندنا وإلا دمر كل شيء.

يهتف الجنرال فجأة:

ـ هذه مجرة جديدة اكتشفتها الآن، انظروا، هل ترونها؟

ـ بالفعل، إنها هناك، سوف نطلق عليها اسمك يا سيدي!

ـ كلا، كلا، هناك اكتشافات أخرى أريد لها أن تخلِّد إسمي. سوف أطلق عليها اسم بقرتي المدللة: مجرة أم القرون.



ـ مجرة أم القرون، يا له من اسم شاعري يا سيدي الجنرال!

ـ المهم هو الوصول إلى ما قبل الإنفجار الأول، إلى العدم المطلق، لأرى ما كان اللّٰه يخطط له.

ـ سوف تصل يا سيدي الجنرال بالتأكيد، لا شيء أهم من العدم.

حينذاك كان يقول، شاعراً بالملل:

ـ كفى اكتشافاً اليوم، حان موعد العمل في السياسة اللعينة التي لا بد منها.

ثم يلتفت إلى مدير مكتب أمنه الخاص:

ـ هل أحضرتم الخونة الذين ألقيتم القبض عليهم اليوم لاستجوبهم بنفسي قبل إطلاق النار عليهم.

ـ نعم يا سيدي الجنرال، إنهم ينتظرونك في السرداب، نصف موتى.

كان هذا المشهد يتكرر كل ليلة تقريباً.



٣٠
الجنرال الشاعر يتفقد أحوال شعبه

وإذا ما انتقل المؤرخ الموضوعي إلى الجنرال الملقب بالشاعر فسوف يرى أنه كان يشرب قهوته بالزيت لتليين عضلات حنجرته، استعداداً لليل الذي يفتتحه دائماً بمقاماته الغنائية التي كان قد سجلها في قديم الزمان على أسطوانات حجرية من صنع شركة بيضافون وأهداها لكل محطات الإذاعة في العالم. لكن الهواية الأقرب إلى قلبه كانت تلك التي تجعله يتفقد أحوال شعبه كل ليلة كلما ضاقت بوجهه الدنيا، حتى إن رقة قلبه كثيراً ما جعلته يسطو خلسة على ملابس أولاده وفساتين حريمه المستوردة من باريس والمعلقة في الخزانات ليوزعها على أيتام وأرامل جنوده الذين قتلوا في حروبه الكثيرة التي شنها ضد جيرانه. ثم تخلى في النهاية حزيناً عن هذه العادة الحميدة، طبقاً لرواة التاريخ، بعد صدمة عصبية تلقاها في آخر جولة له.

ففي ذات ليلة حينما قرعت ساعة السراي القريبة والتي كان العثمانيون قد بنوها لتكون مركز حكمهم، الثانية عشرة ليلاً نظر الجنرال الشاعر ذو القلب العاطفي الرقيق من نافذة مكتبه إلى النجوم المتألقة في السماء وقال:

ـ هذا هو الوقت المناسب لتفقد أحوال الرعية.



تنكر كعادته، كما كان يفعل هارون الرشيد، بأسمال كان يحتفظ بها في خزانته الشخصية مع الوثائق السرية للدولة واصطنع لنفسه لحية مستعارة أحضرها له مدير تلفزيون بغداد بنفسه من قسم التمثيليات وقام بتثبيتها بالصمغ مخرج مشهور في الدراما التاريخية:

ـ هكذا أفضل يا سيدي الجنرال، إنك تبدو الآن مثل موسى، عليه السلام، حينما ارتقى جبل سيناء وتلقى الوصايا العشر.

ـ كلا، كلا، لا ينبغي للحيتي أن تكون طويلة إلى هذا الحد. لا أريد أن أشبه موسى، نبي اليهود، أعدائنا.

ـ سأقصره لك يا سيدي إذا ما شئت لتبدو مثل حمورابي.

ـ كلا أريد أن أبدو مثل فقير هندي، فأنا أنتمي إلى الشعب، كما تعرف.

كانت ثمة حافلة مدنية عتيقة قد وصلت لتوها تتبعها شاحنة عسكرية مليئة بالجنود المسلحين الذين تلقوا تعاليمه الصارمة:

ـ لا تتدخلوا إلا إذا طلبت ذلك منكم بنفسي!

صعد الجنرال الشاعر في الحافلة أولاً، متبوعاً برؤساء أجهزة مخابراته الخمسة وعدد آخر من قادته العسكريين الذين ارتدوا هم أيضاً للتمويه دشاديش شعبية وعصبوا رؤوسهم باليشاميغ المهلهلة. انتظر السائق أمر الرئيس الذي قال له أخيراً بطريقة تكاد تكون مداعبة:

ـ خذنا الى حيث يجتمع الناس لنتفقد أحوالهم.

بدا السائق حائراً من الطلب فقال متهرباً:

ـ سيدي الجنرال، إنها الثانية عشرة ليلاً.

ـ وماذا في ذلك؟ خذنا إلى السينما. السينمات تتأخر، أليس كذلك؟

رد السائق خائفاً:

ـ ينتهي العرض الثاني في الحادية عشرة، يا سيدي.



تراجع قليلاً:

ـ لم يكن الأمر كذلك فيما مضى. كانت الأفلام طويلة وتستمر حتى الثانية صباحاً، إنني أتذكر ذلك جيداً.

ثم أضاف:

ـ حسناً، أي الأماكن مفتوحة الآن أكثر من غيرها؟

ـ المقابر يا سيدي الجنرال، الدفانون وحدهم لا ينقطعون عن العمل.

ـ ولكن لماذا؟ لم يكن الناس يموتون بكل هذه الكثرة فيما مضى.

ـ لقد زاد عدد الخونة الذين يعدمون في عهدك يا سيدي.

امتعض من الأمر فالتفت إلى السائق وقال له بجفاء:

ـ اللعنة على الخونة! حسناً، لا تصعب الأمر علينا، خذنا إلى أي مكان تختاره أنت، ألتقي فيه بالشعب.

وهنا جاءت الصدمة التي لم يتوقعها، جاعلة إياه يفقد أعصابه:

ـ لم يعد هناك يا سيدي الجنرال شعب تتفقد أحواله.

إنفجر صارخاً:

ـ ما هذا الذي تقوله أيها الأحمق؟ أين ذهب الشعب؟

ارتعب السائق:

ـ إنني لا أقول شيئاً.

حينذاك تدخل مدير مخابراته، موضحاً له:

ـ أنت تعرف يا سيدي الجنرال أن معظم الشعب استشهد في حروبك المنتصرة. أما الذين نجوا فقد اكتشفنا أنهم من الخونة الذين أعدمنا الكثيرين منهم، فيما فر الباقون إلى الخارج. طبقنا كل ما طلبته منا يا سيدي. إذا ما رغب الأعداء فينا فلن يجدوا أمامهم سوى أرض



خراب بلا شعب. لم يعد هناك ما نخاف عليه يا سيدي. لن يطمع فينا أحد بعد الآن.

زمجر الجنرال آمراً:

ـ حسناً، حسناً، دبروا لي شعباً آخر لأحكمه، كيف يمكن لي أن أكون رئيساً بدون شعب!

ـ هذا ما كنا نفكر به نحن أيضاً يا سيدي الجنرال.



٣١

اليوم خمر وكل يوم أيضا

لم يعد ثمة سوى القليل من الوقت أمام جمال الساحر لإعادة الأبهة المفتقدة إلى القصر التاريخي الذي اعتاد الناس أن يطلقوا عليه اسم قصر الذكريات. بدأ العمل حال مغادرته قاعة الاجتماعات، قاصداً مكتبه في مديرية الآثار الواقعة في الكرخ لإصدار تعليماته إلى موظفيه بالبدء بتنفيذ الخطة التي كان قد أعدها قبل ذلك وسجلها على الورق خشية النسيان، مقرراً الإشراف، كأي موظف مخلص لعمله، على كل شيء بنفسه، حتى على أدق التفاصيل، لأنه ما كان يريد أن يترك أي فرصة للصدفة العمياء التي قد تخرب كل ما بناه بروية وأناة. فحينما اتصل به المحافظ في المساء ليتشمم الأخبار الجديدة بتوصية من الرئيس الذي أراد أن يظل في الظل أبلغه جمال الساحر:

ـ كل شيء سار على ما يرام.

لكن المحافظ الذي كان يتحرق لسماع القصة كاملة سأله بلهجة لا تخلو من التأنيب:

ـ ماذا يعني أن كل شيء سار على ما يرام؟

عند ذلك واتت جمال الساحر الشجاعة ليقول له:

ـ سوف أجعلهم يحكمون بالفعل.

ثم إذ روى له بقية القصة قال له المحافظ بطريقة محايدة جداً:



ـ إن هذا يشبه مسرحية تقدم على خشبة الحياة.

فأجابه جمال الساحر بكل وقار:

ـ الحياة نفسها مسرحية.

فرد المحافظ مشجعاً:

ـ المهم ألا تكون مسرحية فاشلة.

من المؤكد أنها لم تكن مسرحية فاشلة، ففي تلك الليلة التي شهدت أول جلسة تاريخية للشيوخ منذ خطبة «وداعاً يا أصدقاء السوء» في عام الجراد الذي اكتسح البلاد كلها، سهروا حتى الفجر، كما كانوا يفعلون في الماضي، مغتابين كل من يتذكرونه على عادتهم القديمة. جلسوا، من دون عصيهم هذه المرة، ليثبتوا حسن نواياهم تجاه بعضهم، في الشرفة الزرقاء المطلة على بحيرة الأسماك وتناولوا أولاً عصير الأناناس والبرتقال، ثم الويسكي المثلج المخفف بالمياه المعدنية المستوردة، مستعيدين ذكريات أيام الصفاء وحدها، أيام كانوا سوية في الثكنات، يضعون الخطة بعد الأخرى لانقلابهم على لوح المعركة الذي ملأوه بدمى دبابات وأفواج خفيفة وأخرى ثقيلة وطائرات. حينذاك وبعد أن يكونوا قد تعبوا من وضع الخطط المستوحاة في الأغلب من الأفلام الحربية الأميركية، كانوا ينسلون واحداً بعد الآخر، من فجوات الأسلاك الشائكة للمعسكر، قاصدين البحيرة القريبة ليبصبصوا خفية من بعيد على السابحات الإنكليزيات والآشوريات بعيون نهمة جائعة وأيديهم مدفونة بين أفخاذهم.

لقد كن دائماً هناك في الصيف الطويل، يتناثرن عاريات على الشاطئ أو يخفين أجسادهن المدهونة التي أحرقتها أشعة الشمس بين الأشجار التي كانت تشكل غابة صغيرة أو يدفن أنفسهن بين سنابل المراعي القريبة. لكن الجنرالات لم يكونوا يفعلون ذلك في الحقيقة بدافع المتعة وحدها أو حتى للترويح عن النفس وإنما أيضاً من أجل



الشعب والوطن. فقد كانوا يدركون بطريقة ما أن السلطة سوف تسرق منهم كل وقتهم وربما جعلتهم ينسون الشعب أيضاً. لذلك أرادوا أن يتعرفوا على الشعب الذي سوف يحكمونه بالحديد والنار والوطن الذي سيكون ملكاً لهم. بل إن بعضهم تطرف في الأمر، فراح يجلس في المقاهي ويشرب النارجيلة أو يتحدث إلى الشحاذين، عارضاً عليهم التوسط لهم لتعيينهم في الجيش، وهو أمر أثار سخريتهم على أي حال، زاعمين أنهم لا يريدون أن يكونوا جنوداً في جيش استعماري يحتل البلاد. كانوا يهزون رؤوسهم إعجاباً:

ـ يا لهم من شحاذين وطنيين!

ظلوا حتى ساعة متأخرة من الليل يحتسون الويسكي ويستعيدون قصصاً لا يعرفها أحد سواهم. ولكنها كانت دائماً قصصاً تتعلق بأزمنة ما قبل ثورتهم ضد العهد الاستعماري. حينذاك كان ثمة ما هو أكثر من الصداقة يوحد بينهم وهو خطر المغامرة التي كان يمكن لها أن تؤدي إلى قطع أعناقهم ولكن كان ثمة أيضاً شعورهم بالتضحية في سبيل الوطن. أما ما بعد ثورتهم المنتصرة التي قادوها ذات ليلة مدلهمة، منحدرين بجنودهم من أعالي الجبل، فقد فضلوا السكوت عليه، لأنه كان سينكئ كل الجراح دفعة واحدة، بل إنهم تجنبوا حتى الإشارة إلى ليلة زحفهم الشهير إلى العاصمة، بحكمة ما امتلكوها في الماضي، ربما بفعل الشيخوخة التي جعلتهم أكثر تواضعاً أو ربما أيضاً بفعل النسيان.

رفع الجنرال القديس كأسه بيد مهزوزة وقال كمن يخاطب نفسه:

ـ اليوم خمر وغداً أمر.

ثم أضاف بعد أن جرع ما في كأسه:

ـ في صحتكم!

ورغم أن ما قاله لم يعجب الآخرين، إذ شعروا بما يشبه التهديد



في تلك الجملة الجاهلية التي تنسب إلى امرئ القيس الذي خسر ملك أبيه بسبب سوء الطالع، فأنهم تذكروا أنها كانت جملته المحببة التي يكررها كلما وجد نفسه في مجلس شرب. ومع ذلك رد عليه الجنرال الدرويش مشاكساً إياه، وهو يرفع نخبه:

ـ بل اليوم خمر، وكل يوم أيضاً.

ـ لم أكن أعرف أنك أصبحت يائساً هكذا. الحياة ما زالت مفتوحة أمامنا. وعندما تكون الحياة مفتوحة فثمة أمر دائماً. أم أنك تريد منا أن نتخلى عن كل أمل؟ قل ذلك إذا كنت تؤمن به حقاً!

فرد عليه بحزن:

ـ لقد تعلمت أن أعيش بلا أمل.

ثم راح يبكي، بطريقة جعلت الدموع تنهمر من عيون الآخرين أيضاً، فقد شعروا فجأة أنه كان يمكن لحياتهم أن تتخذ مجرى آخر وأن يظلوا إخوة حتى النهاية. تدخل الجنرال الشاعر الذي ظل صامتاً حتى الآن، متشكياً:

ـ الشعب هو الذي أفسد كل شيء. لقد وثقنا به أكثر مما ينبغي. كان علينا أن نواجهه متحدين، بدل الانحدار إلى مستواه. ينبغي أن نعترف بذلك.

ـ لقد أحبنا الشعب جميعاً، لن تستطيع أن تنكر ذلك.

ـ يبدو أنك نسيت أن هذا الشعب الذي تمتدحه هو الذي أكلني مع حصاني.

ابتسم الجنرال القديس قائلاً:

ـ مثل هذه الأمور تحدث في أفضل العائلات. أنت تعرف أن ثمة من كان يأكل حتى ألهته حين يجوع.

انزعج الجنرال الشاعر من هذا التفسير الغريب:

ـ ولكن تلك كانت آلهة من تمر.



تدخل الجنرال الفلكي هذه المرة ممازحاً:

ـ ربما أخطأ الشعب فاعتقد أنك من تمر أيضاً مثل كل الآلهة. كان من واجبك أن تقول لهم ذلك قبل التهامك.

هكذا تشتت الحديث وتشعب في مجار ومسالك كان يمكن أن ينتهزها الشيطان ليذر بقرنه بينهم ثانية. ولذلك بادر الجنرال القديس إلى رفع كأسه، طالباً منهم أن يشربوا نخب الحاضر وينسوا الماضي:

ـ لقد ولدنا من جديد. فلنشرب نخب أيامنا الجميلة القادمة.

لكن إذ لم يرفع أحد منهم كأسه، انتبه إلى شخيرهم بأفواه مفتوحة وقد تدلت أعناقهم على مساند مقاعدهم، غاطسين في النوم فجأة، فسقطت الكأس من يده وأخذه النعاس هو الآخر، متمتماً مع نفسه:

ـ اللعنة، يبدو أنه لن تكون لنا هنا أيام جميلة قادمة.

حينذاك هرع الجنود الذين كانوا يقاومون الملل والنعاس نحوهم بعد أن رأوهم في نواظيرهم الليلية المقربة التي كانوا يراقبونهم بها خلسة من وراء الأشجار، هامدين على مقاعدهم، قلقين من فكرة أن يسقط الشيوخ ضحية الإسهال تحت لفحات برد الليل القارس، وحملوهم على أكتافهم، ملقين بهم فوق أسرتهم الوثيرة داخل غرف نومهم الدافئة، وغطوهم بألحفتهم المطرزة بنسور ناشرة أجنحتها القوية الطويلة وحوريات عاريات في حوض سباحة، ثم أطفأوا المصابيح ونيونات الإنارة الملونة قبل أن ينصرفوا، سعداء بأن الشيوخ السكارى لن يستيقظوا قبل حلول الصباح وأنهم سوف ينعمون بليلة لا تعكر فيها أحلامهم خطب أو مقامات طنانة، تلقيها أشباحهم البازغة من الظلام.



٣٢

مفاجأة قبل افتتاح قصر الذكريات

في الوقت الذي ظل فيه النجارون والبناؤون والنقاشون وعمال الصيانة يستقطرون مواهبهم، مسابقين الوقت لتحضير قصر الذكريات بطريقة لائقة بالمجد الذي ناله في الماضي والأبهة التي أضفاها الطغيان عليه طوال عقود من الزمن الضائع، انهمك مدير القصر جمال الساحر ومساعدوه في عمل لم يتوقف حتى ليلاً، استعداداً لحفلة الافتتاح الرسمية الكبرى، في الرابع والعشرين من نيسان وهو التاريخ نفسه الذي كان قادة الماضي قد أقسموا فيه يمين ثورتهم، وأيديهم على المصحف الشريف، في وكرهم السري تحت الأرض في جلولاء، والذي اندثر بعد سنين طويلة من ذلك في زلزال ضرب قلب البلاد، مصحوباً بعواصف هوجاء ورياح صر شديدة.

كان جمال الساحر قد ترك مكتبه في مديرية الآثار، قاضياً معظم وقته مع مهندسيه الذين أضفوا على القصر، ليس بدون تجليات ذاكرة الشيوخ الأربعة أنفسهم، لمسات من سحر عوالم ألف ليلة وليلة الخرافية. حينما انتهوا من العمل بادر، معتمداً على توصيات الرئيس وأرشيف وزارتي الخارجية والسياحة بصورة خاصة، إلى تحرير الدعوات التي انتظرها الكثيرون بلهفة، منتقياً ضيوفه بعناية من قادة الحكومة والمعارضة معاً، مضيفاً إليهم الفنانين البارزين ولاعبي التنس



وكرة القدم الدوليين والدبلوماسيين والعسكريين والصحافيين ورجال الدين. وكان رئيس الدولة أيضاً قد أعرب عن رغبته في أن يقوم بنفسه بافتتاح القصر ورعاية الحفل الذي كان يعرف أنه سوف يجتذب محطات التلفزيون الفضائية الغربية، وهي فرصة للظهور ما كان يريد لها أن تفلت من بين يديه.

لقد جرى كل شيء على ما يرام إلى ما قبل ساعات قليلة من بداية الحفل الذي كانت كل فقرة في برنامجه قد اختيرت بعناية، حينما تلقى جمال الساحر الذي كان يقف، مغنياً كعادته، تحت رشاش الماء في حوض حمام بيته، استعداداً لسهرة الليل الطويلة، مكالمة هاتفية من حرس قصر الذكريات، جعلته يهرع عارياً إلى الصالة حتى بدون أن يزيل رغوة الصابون عن رأسه وجسمه. فتحت زوجته باب الحمام، مبلغة إياه بأن القصر يطلبه على الهاتف، فالتبس عليه الأمر، وخشي أن يكون الرئيس نفسه على الخط. لكن ما سمعه كان أسوأ من كل ما كان يخشاه، فظل مبهوتاً للحظة، ثم تمالك نفسه وقال وسط دهشة زوجته:

ـ حسناً، لا تبلغوا أحداً بالأمر. إنني قادم في الحال.

حينما أغلق سماعة الهاتف ظل يلهث من الانفعال فتهالك على المقعد الذي تبلل بالماء الذي كان لا يزال يقطر من جسمه وشعره، دافناً رأسه بين يديه. وإذ وجد أن زوجته تقف فزعة قال لها:

ـ اللعنة، لقد هرب الشيوخ:

فقد الرغبة حتى في أن يكمل حمامه، مشيراً إلى زوجته أن تجلب له المنشفة ليجفف نفسه على الأقل. ارتدى ملابسه على عجل وهو يشتم شيوخه بدون توقف:

ـ هؤلاء الدكتاتوريون السفلة، كان ينبغي لنا أن نطلق النار عليهم جراء جرائمهم، لا أن نقيم لهم الحفلات.



حاولت زوجته أن تواسيه:

ـ سوف يعثرون عليهم بالتأكيد. ربما خرجوا للنزهة.

هز جمال الساحر رأسه:

ـ أنت لا تعرفينهم. لا بدَّ أنهم يحضرون لنا الآن مفاجأة جديدة.

لكن زوجته قالت له، مخففة من وطأة الأمر:

ـ أي مفاجأة، إنهم ليسوا سوى عجائز خرفين بائسين، يجرجرون أقدامهم وراءهم.

هز جمال الساحر رأسه، معترضاً:

ـ هذا ما يوحون به لنا، لكنني لن أفرك عيني مستغرباً إذا ما رأيتهم يشاركون في سباق دولي للركض ويفوزون بالجائزة الأولى أيضاً. ينبغي للمرء أن يتوقع كل شيء منهم.

كان أول ما فعله هو أنه اتصل بعادل سليم الأمير ليسأله عما إذا كانوا قد لجأوا إليه فأبلغه هذا أنه لم يرهم منذ أيام، شاعراً هو الآخر بالخطر الذي يمكن أن يتهدد حياتهم:

ـ حسناً سأترك عملي في المجلة وأخرج للبحث عنهم، أنا الآخر.

رد عليه جمال الساحر:

ـ أرجوك أن تتصل بي إذا ما عثرت عليهم أو عرفت أي شيء عن مكان وجودهم.

ثم خرج، ناسياً حتى أن يمشط شعره، بسيارته الميتسوبيشي اليابانية، متوجهاً إلى قصر الذكريات، وهو يفكر، قلقاً وحزيناً، في الورطة التي وجد نفسه فيها. تساءل مرّات عدة مع نفسه، بدون العثور على أجوبة عن أسئلته التي ظلّت تطن في رأسه. ترى أين يمكن أن يكونوا قد ذهبوا؟ أنهم لا يكادون يعرفون أحداً في المدينة. ولا يعقل



أن يكونوا قد قصدوا أحداً ممن عرفوه في الماضي، وإذا ما بلغت بهم الحماقة حد أن يفعلوا ذلك فإنهم سوف يجدون أحفاده بدلاً عنه، فقد حصد الموت بمنجله الشهير أتباعهم حتى الجذور، في الكثير من المناسبات، في أعوام الحصارات الطويلة والانقلابات التي كانت محطة إذاعة بغداد تذيع بياناتها الأولى دائماً في التاسعة صباحاً، مصحوبة بنشيد «اللّٰه أكبر» التاريخي، في الحروب القارية والأهلية الشهيرة التي خاضوها ضد الفرس والترك والكرد والهنود والعرب المنحدرين من أصول مختلطة، وفي أزمنة الطاعون والهيضة والجدري المتعاقبة، تلك التي شهدت أيضاً غارات البدو الوهابيين القادمين من نجد وأعماق صحراء الربع الخالي على المدن، ناهبين حتى منارات المساجد وشواهد قبور الأولياء الصالحين. وإذا كانوا هم وحدهم قد نجوا من كل تلك الكوارث الطبيعية والبشرية وبقوا على قيد الحياة، فلأن التاريخ منحهم بكل كرم الحق في الاستثناء. لم يكن الأمر يتعلق بضربة حظ أو لعبة قدر، كما يعتقد خطأ بعض مؤرخي السلالات المنقرضة، وهو يرى أنهم أفلحوا دائماً بكل حذاقة وبطريقة سحرية غامضة في أن يحلقوا فوق مستوى الحظ وخارج متناول يد القدر الطويلة الباحثة عن الضحايا، وإنما بتلك الموهبة الغريبة للصمود أمام تقلبات الزمن.



٣٣

في منزول نهلة مراد

حينما وصل جمال الساحر إلى القصر وجد أن كل شيء في مكانه. لم تكن ثمة حتى نافذة واحدة مفتوحة والأبواب نفسها مغلقة. ولذلك وقع في حيرة من أمره أمام لغز لا تفسير له، رغم انه أتهم الحراس وخدم القصر بالإهمال والتقصير في مراقبتهم، وهو ما نفوه بأدلة لا تدحض. فقد تناول الشيوخ فطورهم في العاشرة صباحاً وجلسوا في الحديقة قليلاً، قارئين جريدة الصباح كعادتهم، ثم انسحبوا إلى غرفهم، مغلقين أبوابها وراءهم. هذا هو كل ما استطاع الجنود وخدم القصر أن يقولوه له. لكنه قال لهم مؤنباً بما يشبه الصراخ:

ـ ولكن لا يمكن أن يكونوا قد تبخروا هكذا بكل بساطة في الهواء.

لم يرد عليه الجنود الذين بدوا أكثر حيرة منه، فظل يفكر في ما يمكن أن يفعله ليعثر عليهم قبل بدء الحفل الذي لم يكن قد بقي عليه سوى ساعات قليلة. لم يكن ليريد في الحقيقة أن ينكشف السر ويتحول إلى فضيحة مثلما آمل أن يظهروا فجأة ويقولوا له ضاحكين: ها قد عدنا ثانية، ما من سبب للقلق، لقد أردنا أن ننشط دورتنا الدموية وأن نحرك أرجلنا قليلاً فخرجنا نتجول في المدينة. ولكنه وجد نفسه مرغماً على الاتصال بمدير المخابرات الذي أدرك بالسليقة



خطورة الأمر، فأمر الألوف من جواسيسه بالنزول إلى شوارع المدينة للبحث عنهم، موصياً إياهم بالتنكر كمواطنين عاديين وسياح، تجنباً لإثارة انتباه المارة. ظل جالساً فترة من الوقت على كرسي أمام خيمة الحراسة عند المدخل، وعيناه تراقبان الشارع، كما لو أنه يتوقع ظهورهم هكذا فجأة. بعد ساعة من ذلك رن جرس الهاتف في الخيمة، فرفع أحد الجنود السماعة، قائلاً:

ـ لحظة. نعم إنه موجود.

وأسرع جمال الساحر، مختطفاً السماعة من يد الجندي، ثم غمرت وجهه فجأة موجة من البهجة، حيث قال:

ـ أين أنتم؟ لقد سببتم لنا الكثير من القلق. حسناً أعطني العنوان على الأقل. كلا، كلا، من الصعب هذه الأيام الحصول على سيارة أجرة. إنهم لا يظهرون إلا عندما لا يحتاجهم المرء. أرجوك أن تعطيني عنوان المكان. حسناً، شارع نينوى، رقم ٥٦. سوف أكون عندكم خلال دقائق. انتظروني رجاء.

كان المتحدث على الطرف الآخر من الخط هو الجنرال القديس الذي اتصل به ليطمئنه على أنهم لم ينسوا موعد الحفل وأنهم سوف يعودون إلى القصر في الوقت المناسب. لكن جمال الساحر تمكن ببراعته، وربما أيضاً لثقة الشيوخ به، من انتزاع عنوان البيت الذي كانوا قد لجأوا إليه والذي لم يكن يعرف بالطبع أي شيء عنه. وإذا كان قد تجنب إبلاغ أحد ما بعثوره عليهم فذلك لأنه أراد أن يبقي الفضل كله لنفسه وأن يقلل من خطورة الأمر الذي قد يتحول إلى فضيحة، ربما أضرته هو بالذات. ولولا موقفه الحكيم المتستر هذا لظلت ألسنة السوء الكثيرة في المدينة تلوك سمعته طويلاً وتختلق أكثر القصص خيالية حول الشيوخ.





عندما بلغ البيت في النهاية، ناهباً بسيارته الشارع بعد الآخر، متجاوزاً حتى إشارات المرور الحمراء، وقرع الجرس الخارجي أطلت عليه من وراء الباب الذي انفتح قليلاً فتاة نصف عارية. اعتقد أنه أخطأ العنوان، لكن الفتاة التي كان من الواضح أنها تنتظر وصوله ابتسمت له برقة وسحبته من يده، قائلة:

ـ هيا ادخل يا عزيزي، إنهم ينتظرونك.

لم يكن من الصعب عليه أن يخمن أنه في بيت سري للدعارة، إذ ما كاد يدخل حتى استقبلته فتاة أخرى ذات جمال مدوخ قدر أنها في الخامسة والعشرين من عمرها، ترتدي ثوباً قصيراً فاضحاً وصافحته، مرحبة به بدون أن تفارق الابتسامة شفتيها المضمومتين، هامسة بأذنه، كما لو أنها تسر صديقاً:

ـ إنه لشرف كبير لنا أن تزورنا بنفسك.

ثم قدمت نفسها:

ـ أنا نهلة مراد، سيدة الدار.

ظل جمال الساحر يتأمل مستغرباً صالة الاستقبال التي كانت المرايا تغطي جدرانها، مفتوناً بسحر الفتاة التي راحت تحدق في عينيه وهي تتحدث إليه، منتشياً برائحة العطر التي تفوح منها. ثم أمسكت بكفه ضاغطة عليها قليلاً وسحبته إلى البار الواقع في الجهة اليمنى من الصالة بمقصفه الطويل الذي كانت تقف وراءه شابة تزين ثوبها الأبيض الكاشف عن صدر بض واثب إلى الأمام بوردة حمراء وخلفها رفوف صفت فوقها قناني مشروبات من كل الأنواع. قال جمال الساحر، مدارياً خجله:

ـ بار جميل حقاً.

فردت عليه نهلة مراد:

ـ هنا يحصل الضيف على كل ما تتمناه نفسه. هذا تقليد ثابت للدار.



ثم راحت تسرد له تاريخ منزولها الذي يمتد إلى بدايات العهد الاستعماري والذي أسسته جدتها من أمها للترويح عن علية القوم، فصمد في وجه جميع العواصف التي هزت أركان البلاد:

ـ مع كل ثورة أو انقلاب أو حرب كنا نقفل أبوابنا أسبوعاً أو أسبوعين حتى يأتي من يحمل إلينا أوامر السيد الجديد بالعودة إلى العمل. في كل تاريخنا لم نفرق بين من يأتي ومن يذهب. كانوا جميعاً يعرفون أنهم سيحتاجوننا ذات يوم، مدركين بأننا لن نبخل عليهم بالسعادة والبهجة في أشد أيام المحن التي مرت بالجميع لقد خدمنا الوطن دائماً كما ترى بطريقتنا الخاصة وهي سياسة ظللنا محافظين عليها حتى اليوم.

ثم ضحكت قائلة:

ـ ولكن حفاظي على تقاليد الدار لا يعني أنني محافظة في السياسة أيضاً.

فرد جمال الساحر الذي ظل يحدق فيها:

ـ لا أشك في ذلك.

سألته فتاة البار إن كان يود أن يشرب شيئاً فقال وقد انتبه فجأة إلى ما كان قد نسيه في حضور مضيفته التي كانت تلف ذراعها حول خصره:

ـ شكراً، ليس الآن. جئت فقط لأصطحب أصدقاء يبدو أنهم عندكم في البيت.

تعمد ألا يشير إلى صفة الشيوخ حتى لا يخطئ في تقدير الموقف الذي وجد نفسه فيه. ثم سأل:

ـ أين هم؟ إنني لم أرهم حتى الآن.

انتظر الجواب، لكن نهلة مراد قالت له:

ـ حسناً، دعنا نشرب أولاً نخبك قبل أن أقودك إليهم.



فلم يجد جمال الساحر بدا من أن يرضخ لها. صبت فتاة البار لهما كأسين من البراندي فرفع كأسه، قائلاً:

ـ في صحتك.

لكن نهلة مراد ردت عليه:

ـ بل في صحتك في أول زيارة تقوم بها إلينا.

وطبعت قبلة سريعة على فمه، فارتبك واحتسى كأسه دفعة واحدة، مستغرباً من أن يدله هؤلاء الشيوخ الخرفون بالذات إلى أخفى خفايا مدينة بغداد التي كان يعتقد أنه يعرف كل زاوية فيها. ولكي يخفف من وطأة الأمر على نفسه فكر أنه قد أمضى الكثير من وقته في العمل بين الخرائب، ناسياً أن ثمة حياة أخرى، حياة حقيقية، لا علاقة لها بحفرياته وتنقيباته في معابد الماضي.

عثر جمال الساحر على شيوخه في غرفة الحمام البخاري يلعبون مع أربع فتيات عاريات لعبة الحصان والفارس. طلبوا منه أن يشاركهم هو الآخر اللعبة، لكنه أبدى أسفه، موضحاً أنه لم يتعلم قط امتطاء الخيول، مذكراً إياهم بالحفل الذي ينتظرهم:

ـ تعرفون أننا أقمنا هذا الحفل على شرفكم، لا ينبغي لكم أن تتركوا الضيوف ينتظرونكم.

حينما جرجر الشيوخ أرجلهم بتثاقل، خارجين من غرفة الحمام البخاري وارتدوا ملابسهم بدا أن روحاً جديدة سرت في عروقهم، فقال لهم جمال الساحر مداعباً:

ـ يا إلهي، لقد عدتم شباناً.

رد عليه الجنرال الشاعر:

ـ كان عليك أن تشاركنا اللعبة. إنها أسهل مما تعتقد.

ارتبك جمال الساحر خجلاً:

ـ ينبغي أن نسرع حتى لا نتأخر أكثر مما فعلنا.



لكنه فوجئ بالجنرال الدرويش يقول له:
ـ ليس قبل أن تنفذ شرطنا الأخير.
فابتسم ليخفي وقع المفاجأة:
ـ أي شرط؟ إنهم ينتظرونكم.
تدخل الجنرال الفلكي هذه المرة. كان من الواضح أنهم قد اتفقوا على أمر ما قبل وصوله:
ـ نريد لفتياتنا أن يحضرن الحفل أيضاً. بدون ذلك لن نتحرك من مكاننا.
كانت صدمة لم يتوقعها جمال الساحر، فظل صامتاً يغالب انفعاله، محدقاً في نهلة مراد التي كانت لا تزال تحيط خصره بذراعها والتي تعمدت التدخل في الحديث:
ـ لا تقلق بشأن حضورنا، سوف تتصرف فتياتي كسيدات مجتمع من الطراز الأول. لن تندم على ذلك.
فرد جمال الساحر:
ـ لا أريد لأحد أن يراكم في رفقة السادة الشيوخ. بدون فضائح رجاء.
قالت نهلة مراد:
ـ أعرف ذلك. سوف نحضر وحدنا مثل كل الضيوف الآخرين.
كان ذلك حلاً لا يمكن لجمال الساحر أن يرفضه:
ـ لا أحمل معي الآن بطاقات دعوة، لكنني سوف أستقبلكم بنفسي.
ضحكت نهلة مراد قائلة:
ـ لا داعي لذلك. عندنا ما يكفي من بطاقات الدعوة. لقد فكّر الجنرالات قبلك في كل شيء.



٣٤

حفلة كبرى في حدائق القصر

تجاوزت الساعة السابعة مساء في حدائق القصر التي ازدحمت بالضيوف الذين جاؤوا هم ونساؤهم، مرتدين ثياب السهرة الأنيقة وتحلقوا حول الموائد، فيما كان الندل يطوفون عليهم مقدمين لهم المشروبات. ودار الحديث كما كان متوقعاً حول الشيوخ الذين حكموا البلاد في قديم الزمان وتركوا آثارهم عليها. ظلّت العيون المتطفلة تبحث عنهم طويلاً، ولكن عبثاً، فقد قرروا أن يتأخروا قليلاً، كما كانوا يفعلون فيما مضى، ليشعروا الضيوف الذين ينتظرونهم بأنم ما زالوا هم أنفسهم حقاً. وبالفعل فإنهم لم يغادروا قاعة الموسيقى التي جلسوا يدخنون فيها، ساخرين من سذاجة الجيل الجديد من السياسيين الذين لم يعودوا قادرين حتى على ضبط نسائهم، إلا عندما دوى التصفيق في الحديقة. كان ذلك إشارة بوصول الرئيس الذي جاء مرتدياً بدلة زرقاء وقبعة رمادية مع ربطة حمراء. حينذاك فقط نهضوا بتثاقل وساروا في صف واحد، متكئين على عصيهم، فوقف الجميع مصفقين لهم، فيما صافحهم الرئيس واحداً واحداً، سائلاً عن أحوالهم، ومقدماً إياهم بنفسه إلى الوزراء وسفراء الدول الأخرى الذين كانوا ينحنون لهم تزلفاً ويتملقونهم بكلمات طيبة عن عهودهم الماضية الزاهرة.



بدأ الحفل الذي نقله التلفزيون بالألعاب النارية التي راحت تنطلق عالياً ثم تنفجر مشكلة أشجاراً سماوية بفروع تتدلى من أغصانها ثمار نارية تضيء ليل المدينة. وفيما كانت الصواريخ تنفجر مرعدة ألقى مدير قصر الذكريات كلمة الافتتاح التي تعمد أن يركز فيها على تاريخ الشيوخ المجيد في خدمة الوطن على الطريقة القديمة، مؤكداً على أهمية المعرفة الآثارية التي تحفظ للأمة هويتها الخاصة بها في خضم موجة الحداثة التي تكاد تقتلع المثقفين من جذورهم.

ثم تبعه الرئيس الذي لم يكن قد تناول بعد سوى قدح من الويسكي الذي كان يفضل أن يشربه مركزاً مع قليل من الثلج فرحب كما كان متوقعاً بالشيوخ العائدين من الماضي مثلما تحدث عن التاريخ الذي قال إنه لا يكرر نفسه إلا كمهزلة، طبقاً لمقولة كارل ماركس الشهيرة، معرباً عن سعادته أيضاً بالاستثناءات التي يتضمنها بين الحين والآخر. فها هو التاريخ يكرر نفسه، ولكن كمشروع سياحي استثنائي، سوف تعم خيراته البلاد كلها. ثم أشار، غامزاً من قناة الشيوخ، إلى أن زمن الطغيان قد ولى إلى الأبد، منهياً كلمته بنكتة جعلتهم يشتمونه مع أنفسهم «يا لك من حقير!» إذ قال، مخاطباً إياهم: «لقد عشتم في زمن آخر، ولكن إذا أردتم العودة إلى الحكم ثانية فعليكم هذه المرة بتقديم برنامج انتخابي أفضل من برنامجي، ولكني أقولها لكم منذ الآن: إنكم لن تفلحوا في ذلك».

ثم رفع نخبه، قائلاً:

ـ والآن لنشرب نخب ضيوفنا المضمخين برائحة التاريخ.

كان لا بد بعد ذلك من أن يرد الشيوخ بكلمة تناسب المقام. وهكذا نهض الجنرال الشاعر متكئاً على كتف مدير المتحف الوطني، ساحباً رجليه حتى منصة الخطابة. وقف أمام المايكروفون وقال بصوت مرتعش وبنبرة ريفية ميزته دائماً:



ـ لا بدَّ أنكم تنتظرون مني الآن أن ألقي عليكم خطبة مجلجلة ما، أشكركم فيها، وهو أمر سوف يتضمن الكثير من النفاق الذي لا يليق بنا وبكم. لذلك اسمحوا لي بأن أغني لكم بدل ذلك مقاماً ألفته قديماً في إحدى رحلاتي لصيد الغزلان في البرية، وهو مقام اشتهر بغنائه المرحوم محمد القبانجي أيضاً. وهذا أفضل بالتأكيد من الحديث في أمور السياسة المعقدة التي انقطعنا عن متابعتها منذ زمن طويل. لعن اللّه السياسة.

تعمد أن يكون مقامه قصيراً، مع قليل من الغمز واللمز الذي دار حول الزمان الغادر ودولابه الدائر على الغزال النافر. ومع ذلك قوطع مرّات عدة بالتصفيق، وحينما انتهى صافحه الرئيس، مهنئاً إياه على صوته المحمل بعبق الزمان.

* * *

في تلك الليلة استعاد قصر الذكريات ما ظل ينقصه طويلاً: الحياة. بدأ البرنامج برقصة شرقية من تراث العهد القديم، قدمتها راقصة حلبية مشهورة كانت تعمل في ملهى نزهة البدور الواقع في حي المسبح مثلما غنت منيرة الهوزوز أغنية، فسرها المغرضون بأنها غزل مكشوف بالرئيس حسن السعيد نفسه:

ربيتك زغيرون حسن ليش انكرتني؟

بعيونك الوسعات حسن موزر صبتني

وجاراها المطربون الآخرون أيضاً فغنوا أغاني وبستات لم يكن أحد قد سمعها من سنين طويلة، تبعتها دبكات عربية وكردية، تعبّر عن التلاحم الوطني في الأزمنة السالفة، قادها الشيوخ الأربعة بأنفسهم وشارك فيها الرئيس الذي لم يرد أن يبدو أقل حماسة للوحدة الوطنية من أسلافه الجالسين إلى مائدته. ثم ألقى شاعر عجوز قصيدة مديح



على عادته القديمة، مدح فيها الرئيس والشيوخ الأربعة معاً مثلما أشاد بالعهود القديمة والجديدة على حد سواء، بإنتقالات بلاغية بارعة، جعلت الجميع يصفقون له. بعد ذلك بدأ فاصل الرقص الحديث على الإيقاع الصاخب للفرقة الموسيقية الأميركية التي جلبت من ملهى النجوم. في تلك الليلة اختلط القديم بالجديد والشرق بالغرب، وبدت الحياة نفسها أشبه بحلم، حلم لليلة واحدة على الأقل.

قلق الشيوخ كثيراً في البداية، إذ ظلوا يسألون مضيفيهم بين الحين والآخر عن الساعة، متطلعين باستمرار من وراء نظاراتهم الطبية السميكة إلى المدخل. ولم تهدأ ثائرتهم إلا بعد ساعة من ذلك، عندما وصلت نهلة مراد وفتياتها اللواتي قادهن جمال الساحر إلى مائدة في إحدى الزوايا بين الأشجار، كمن يريد إخفاءهن عن الأنظار، وهو أمر أزعجهم أكثر من ذي قبل فظلوا يتهامسون فيما بينهم حتى نهضوا جميعاً وسط دهشة الرئيس الذي كان يجلس إلى مائدتهم نفسها. قال الجنرال القديس، مطمئناً إياه:

ـ لا شيء، سنعود حالاً. هناك ضيوف نريد أن نسلم عليهم.

بعد قليل عادوا مع الفتيات الخمس اللواتي كن يشبهن ملكات خارجات من أسطورة، فنهض الرئيس وصافحهن واحدة واحدة، مقبلاً أيديهن كما تقتضي الأصول، داعياً إياهن إلى الجلوس، فيما تولى الشيوخ تقديمهن كصديقات قديمات، وهو أمر ما كان يمكن له إلا أن يثير ريبته. فقد كن جميعاً في العشرينات من أعمارهن، ولم يمنعه سوى أدبه عن الكلام. بيد أن حيرته لم تدم طويلاً، إذ بادرت نهلة مراد التي جلست جنبه إلى القول موضحة:

ـ كان السادة الجنرالات دائماً أقرب أصدقاء عائلتي وقدموا لنا خدمات لن ننساها لهم أبداً.

عند ذاك سألها الرئيس بكل أدب:



ـ ومن أي عائلة كريمة أنت؟

ضحكت نهلة مراد وهمست في أذنه:

ـ إنني من عائلة الهوى، ولكن لا تقل ذلك لأحد يا سيدي الرئيس.

اعتقد الرئيس الشاب أنها تمازحه، مستغرباً من جرأتها، لكنه وجد نفسه مذهولاً بها إذ راحت تروي للمجلس قصصاً ونوادر عن الشيوخ في أزمنتهم الماضية، شاركوا فيها هم أنفسهم أيضاً، مما جعله هو الذي لم يكن يعرف سوى القليل عن التاريخ، بسبب ميوله العلمية التي جعلته يدرس الهندسة، أن يسألها:

ـ من أين تعلمت كل هذه القصص؟

فابتسمت له بعذوبة، قائلة:

ـ من الحياة يا سيدي الرئيس، من الحياة نفسها.

ثم همست بأذنه، واضعة كفها من تحت غطاء المائدة على فخذه:

ـ إذا أردت سأعلمك قصصاً أجمل من كل ما سمعت، أيها السيد الرئيس.

وجد الرئيس نفسه محرجاً بعض الشيء، ولكي يمتلك الوقت للتفكير في جرأة هذه الفتاة، نهض فجأة ودعاها إلى الرقص. بدا الرئيس ببدلته الزرقاء مثل طائر يرفرف بجناحيه بين يدي نهلة مراد التي احتضنته، ضامة إياه إلى صدرها، فيما غرق هو في بحر أحلامه المضطرب. ظل يفكِّر مع نفسه غير عارف إن كان ينبغي عليه أن يدعوها لقضاء الليلة معه أم أن يؤجل ذلك إلى وقت آخر. في تلك اللحظة لعن الحظ الذي جعله يكون رئيساً، فلو أخذها معه الآن لأثار انتباه الجميع، وهو ما كان ينبغي عليه أن يتجنبه. والأكثر من ذلك أنه لم يكن يعرف شيئاً عنها. ومع ذلك أدرك أنه لن يستطيع الصمود



أمامها طويلاً. شعر أنه مضطرب بعض الشيء، وهو يضمها إلى صدره وتعثرت خطواته قليلاً، لكنه امتلك القوة ليسألها:

ـ من أنت؟

فردت عليه ضاحكة:

ـ أنا نهلة مراد، ملكة الحب.

ثم أضافت برقة، وهي تضغط على ظهره لتلصقه أكثر بها:

ـ ها أنذا أشعر بقلبك ينبض. تك تك تك تك. هل تشعر أنت الآخر بنبضات قلبي؟

حينذاك امتلك الجرأة ليقول لها:

ـ أريدك أن تكوني ضيفتي الليلة.

ضحكت نهلة مراد:

ـ ليس هذه الليلة، كن عاقلاً أيها السيد الرئيس! ألا ترى أن الجميع يراقبوننا؟

فقال لها لاعناً:

ـ ليذهبوا جميعاً إلى الجحيم! انتظري قليلاً ثم أخرجي بعدي عندما أغادر المكان. سوف ينتظرك سكرتيري الخاص ليقودك إليّ.

قالت نهلة مراد:

ـ لا لن أفعل ذلك. يمكنك أن تصبر ليلة أخرى. لا أعتقد أنك ستموت بسبب ذلك. سوف أعطيك عنواني لتزورني غداً في البيت. ولكن تعال بأقل قدر ممكن من الضجيج. إتفقنا؟

لم يجد الرئيس الشاب بداً من أن يرضخ لها، فقال مستسلماً:

ـ حسناً، سوف أكون عندك غداً في البيت. اللعنة على السياسة وعبوديتها!

كانت حفلة لا تنسى حقاً، تخللتها مشكلة واحدة فقط، حلّت بسرعة وحكمة أيضاً، وذلك عندما أراد الشيوخ تهريب فتياتهم إلى



أجنحتهم تحت جنح الظلام. كان الحفل لا يزال قائماً ولم يكن الرئيس نفسه قد غادر المكان بعد عندما أمسك الحراس اليقظون بالفتيات وهن يحاولن التسلل إلى أجنحة الشيوخ. كان يمكن للأمر أن يتحول إلى فضيحة لولا أن جمال الساحر أسرع وهمس في أذن الرئيس بالأمر، فقال له وهو لا يزال يفكر بنهلة مراد ضاحكاً:

ـ وماذا في ذلك؟ إننا في بلد ديمقراطي حر بعد كل شيء، أليس كذلك؟ رد جمال الساحر:

ـ لا أتصور أنهم سيخرجون أحياء بعد ليلة مع مثل هذه الفتيات اللواتي سوف يمتصنهم حتى النخاع.

طمأنه الرئيس:

ـ لقد خاضوا تجارب أقسى من ذلك. دعهم وشأنهم. يبدو أنهم ما زالوا قادرين على صنع المعجزات.



٣٥

كل شيء بدأ ثانية في حانة الشيطان

في صباح اليوم التالي فتح قصر الذكريات أبوابه أمام زائريه الذين تدفقوا من كل مكان، لرؤية شيوخ الماضي الذين كانوا قد جلبوا النحس على البلاد ذات مرة. كان معظم هؤلاء من تلاميذ المدارس مع معلميهم ومعلماتهم الذين تلقوا تعليمات صارمة في قاعة المدخل بالتزام الهدوء والصمت عند مرورهم من تحت شرفة الشيوخ. كان جمال الساحر يخشى في الحقيقة من أن يقدم بعض المتعصبين ضد العهود القديمة على أعمال عدوانية تخرب المشروع كله. ولذلك شدد في الدليل الذي كان يوزع مجاناً على أن الأمر يتعلق بآثار تاريخية على قدر كبير من الأهمية، راجياً الجميع عدم لمسها أو التعرُّض لها بسوء. وهكذا راحت الجموع تمر من أمامهم صامتة كما لو أنها في جنازة، رغم أن الشيوخ ظلوا يلوحون لها بأيديهم بين الحين والآخر، مستغربين من صمت الناس وهدوئهم المريب. ومع كل هذه الاحتياطات حدث ما خشاه جمال الساحر، فقد رد بعض الزائرين على تلويح زعماء الماضي بعقف الإصبع الوسطى وتوجيهها إليهم. ولكن يبدو أن الشيوخ لم يلحظوا لحسن الحظ تلك الحركات البذيئة، لعجزهم عن رؤية التفاصيل من بعيد. بعد نصف ساعة من الوقوف في الشرفة شعروا بالتعب فانسحبوا إلى القاعة الزجاجية المضادة



للرصاص وجلسوا يحتسون الشاي والقهوة، لاعبين الشطرنج، غير آبهين بالطوابير البشرية التي كانت تعبر الممر، فتقف وتلقي بنظراتها الجارحة عليهم، صامتة. كان الآباء يقفون، حاملين أطفالهم على أكتافهم، ويشيرون بأصابعهم إليهم:

ـ أنظروا، هؤلاء هم زعماء السوء. لقد قتلوا الملايين من الناس.

ولكن الأطفال ما كانوا يرون فيهم سوى عجائز وديعين يبتسمون لهم من بعيد فيصيح بعضهم ملوحاً لهم بيده:

ـ كلا، إنهم يشبهون جدي.

ولكن كان ثمة أطفال آخرون يفلتون من أيدي أمهاتهم وآبائهم ويلصقون وجوههم بالزجاج ليروهم عن قرب فيخرج لهم الشيوخ ألسنتهم مداعبين وممازحين، مما جعل الكثيرين منهم يهلعون ويهربون محتمين بآبائهم وأمهاتهم، مدعين أن الزعماء أرادوا أكلهم، فيضحك الآباء ويقولون لهم:

ـ كلا، إنهم ليسوا سوى عجائز خرفين.

* * *

كان اليوم الأول في الحقيقة هو الأكثر صعوبة، إذ لم يكن مدير القصر واثقاً من أنهم سيتحملون كل ذلك الجهد الذي كان عليهم بذله لترضية فضول الجمهور الذي كان يتوقف تحت الشرفة، منتظراً خروجهم من القاعة الزجاجية، ثم إذ لم يحدث ذلك راح البعض منهم ينادي عليهم بأعلى صوته: «هيا اخرجوا يا عجائز النحس لنراكم!» لكن جنود الحراسة تدخلوا وأبعدوهم عن المكان.

كان يوماً متعباً حقاً بالنسبة لجمال الساحر الذي تعمّد أن يظل قريباً منهم ليراقب الأمور عن كثب، فانتبه إلى أمور لم يفطن لها من



قبل. فقد رأى أن من الصعب عليهم أن يواصلوا حياتهم اليومية المألوفة في قصر الذكريات وسط كل هذه الطوابير البشرية المتدفقة، مفكراً أنه لن يكون من الصحيح أن يسجنهم طوال اليوم في تلك القاعة الزجاجية. وماذا عن قيلولة الظهيرة التي ما كان يمكن لهم الاستغناء عنها ونزهاتهم في الحديقة؟ كان من الواضح أن عليه أن يغير في خطة الزيارات بطريقة لا ترهقهم. وبالفعل فإنه ما إن التقى بهم مساء على مائدة العشاء وسألهم عن انطباعاتهم عن اليوم الأول حتى ضجوا بالشكوى:

ـ كان يوماً مرهقاً حقاً. لا يمكن للأمر أن يستمر على هذا المنوال. صحيح أننا نحترم رغبة شعبنا في رؤيتنا لإظهار ولائه لنا من جديد. ولكن لا بدَّ من الحذر، فقد يألفنا أكثر مما ينبغي بطريقة تفقدنا هيبتنا.

عند ذاك سألهم جمال الساحر:

ـ ماذا تقترحون إذن؟

رد عليه الجنرال القديس:

ـ أحبذ أن نلتقي الشعب في المناسبات والمهرجانات وحدها ونخاطبه كما فعلنا دائماً.

قال مدير القصر:

ـ فكرة جيدة حقاً. ولكن ما الذي يمكن لنا أن نقدمه للجمهور الزائر في الأيام الأخرى؟

أجاب الجنرال الشاعر هذه المرة:

ـ اتفقنا منذ البداية على أن يكون لكل منا أسبوع حكمه الخاص به في الشهر. وهذا يعفي كل الآخرين من التزاماتهم تجاه الشعب طيلة ثلاثة أسابيع.

كانت تلك فكرة صائبة حقاً، أدخل عليها جمال الساحر



لحسينات عدة أخرى بعد استشارة الأطباء الذين حذروه من إرهاقهم أكثر مما ينبغي. فقد حدد الوقوف على الشرفة بنصف ساعة فقط، تبدأ في العاشرة صباحاً والجلوس في القاعة الزجاجية من العاشرة والنصف وحتى الثانية عشرة، أما الفترة المسائية فقد تقرر أن تكون بين الخامسة والسابعة. هذا الحل أتاح للشيوخ الفرصة لمواصلة نزهاتهم اليومية في الحديقة والاستمتاع بالنوم في أجنحتهم بعيداً عن العيون المتطفلة للزوار، مثلما جعلهم يستمتعون بما سمّاه جمال الساحر بالوقت الضائع في اللقاء بالصحافيين المتلهفين لإجراء المقابلات معهم لقاء مبالغ كبيرة. فقد كان يهمه أن يثبت لرؤسائه أن مشروعه أكثر من مجرد فكرة تاريخية وأنه يملك جدواه الاقتصادية أيضاً وقدرته على إدارة نفسه بنفسه في ظل الاقتصاد الحر. طبعاً لم تسر الأمور دائماً بسهولة، فقد راح الشيوخ يلحون مقدمين الطلب بعد الآخر إلى مديرية التقاعد العامة لصرف رواتبهم المتوقفة منذ عقود من الزمان، زاعمين أن ذلك وحده سيعيد الحق إلى نصاب أصحابه الذين راحوا ضحية المكائد والمؤامرات وغدر الزمن.

ولكن الأسوأ جاء من حيث لم ينتظره أحد. فقد اتخذت المعارضة من الأمر قميص عثمان لإتهام الحكومة بالنزوع الضميري الخفي إلى الدكتاتورية ومحاولة بعثها من القبر من جديد، واصفة الشيوخ بالمجرمين الذين ينبغي إعدامهم أو رميهم في السجن على الأقل، لا إحياء الحفلات الساهرة على شرفهم. وتطرف بعض الثوريين واليساريين الذين كانوا يعملون ضمن حلقات سرية فأعلن أنه سيغتالهم ويفجر قصر الذكريات بالعبوات الناسفة، مما جعل الحراس يفتشون الزائرين فرداً فردا قَبل السماح لهم بدخول المكان. كما صدرت كتب كثيرة تناول فيها مؤلفوها حياة الشيوخ، لا لشيء إلا ليشوهوا سمعتهم المشوهة أساساً أمام القُراء، مثلما خرجت مظاهرات



صغيرة، قادها المثقفون كالعادة، مطالبين بتقديمهم إلى المحاكمة لارتكابهم جرائم ضد الإنسانية. ولكن أحداً لم ينظر بجد إلى تلك الدعاوى القائمة على العاطفة وحدها. فالجريمة، أي جريمة، تسقط بالتقادم، وبالذات عندما يتعلق الأمر بالسياسة.

ثم سرعان ما خمدت الحملة وألفهم الناس الذين انشغلوا بمتاعب حياتهم اليومية التي صرفتهم عن الحديث عن جنرالات عجائز عاشوا ذات يوم في الماضي ولم يعد يزور قصر الذكريات سوى السياح الأجانب الضجرين المغرمين بالتقاط الصور التذكارية مع الشيوخ الذين وجدوا الكثير من المتعة أيضاً في حياتهم الجديدة كمتقاعدين حتى انهم كفوا عن التفكير بتدبير انقلابات انتقامية جديدة ضد بعضهم الآخر في الظلام. وفي النهاية كفوا حتى عن الدوام الرسمي الذي كان يلزمهم بالوقوف في الشرفة والجلوس في القاعة الزجاجية، فاستبدلهم جمال الساحر مضطراً بتماثيل بلاستيكية تشبههم تماماً جعلها تقف في الشرفة طوال اليوم وتلوح بأيديها بدون انقطاع وأخرى تجلس في القاعة الزجاجية وتلعب الشطرنج. بل إنه أضاف لمسة إثارة أخرى على الفكرة عندما نصب مايكرفونات عدة في زوايا القصر، مذيعاً على الجمهور الزائر خطبهم المسجلة القديمة التي استعارها من الإرشيف السري لمحطة إذاعة بغداد، مقطوعة بين الحين والآخر بالأناشيد الثورية التي كانت تبدأ بها انقلاباتهم عادة، ثم خصص قاعة خاصة لعرض الأشرطة السينمائية والتلفزيونية المسجلة لهم في تلك الأزمنة النائية. وهكذا تحرر الشيوخ من كل تلك الالتزامات المرهقة التي فرضت قسراً عليهم.

* * *

ومع ذلك ظل ثمة ما يقلق مدير القصر فقد أخذ هؤلاء يخرجون



ويعودون على هواهم بدون أن يحس بهم أحد من الحراس. كان ذلك سراً ظل مغلقاً عليه حتى النهاية، رغم أنه فتش كل زاوية قد تخطر بالبال في قصر الذكريات. وعندما حاول استدراجهم ليبوحوا له بالسر لاذوا بالصمت، رافضين حتى الخوض في الأمر، فلم يعد أمامه سوى أن يقرع جرس الإنذار في كل مرة يختفون فيها. اعتقد في البداية أنهم لا يعرفون مكاناً آخر يلجأون إليه سوى منزول نهلة مراد، لكنه حين ذهب إلى هناك، سائلاً عنهم قِيل له إنهم لم يعودوا يزورون البيت، ليتجنبوا لقاء الرئيس الذي كان قد وقع في غرام نهلة مراد واعتاد أن يقضي الكثير من وقت راحته هناك، بعيداً عن مشاغل الدولة وهمومها الكثيرة، غير مهتم بالقِيل والقال، بل وحتى بخطر انكشاف الأمر وتحوله إلى فضيحة وطنية. ولم تخف نهلة مراد على مدير القصر أن فتياتها يقضين ليلة واحدة في الأسبوع، وهو دائماً مساء يوم الجمعة، مع الشيوخ في قصر الذكريات، مبدية انزعاجها وشكواها من سلوكهم المشين، إذ صاروا يرغمون فتياتها على الجنس الجماعي أو إتيانهن من الخلف ويعقدون الرهانات فيما بينهم على قدراتهم الجنسية، مرغمينهن على الكذب وامتداح فحولتهم، متبجحين أمام بعضهم البعض بأنهم ما زالوا قادرين على ثقب الحجر بآلاتهم، في حين أنهم كانوا يرقدون مثل آلاتهم الميتة التي لم يبقَ منها سوى الجلد شاخرين، تاركين الفتيات لوحدتهن الطويلة حتى الصباح.

بدا الأمر مشبوهاً في نظر جمال الساحر. وفكر: لا بدَّ أنهم يدبرون أمراً ما. فقد كفوا تماماً عن عادة إلقاء الخطب الليلية، رغم أنها كانت تشكل واحدة من المتع الكبرى للمدينة. وعندما فاتحهم بالأمر، ناقلاً إليهم رغبة الشعب في الإستماع إلى أصواتهم في الليل قالوا له بصلافة:



ـ لقد فقدنا الثقة بالسياسة. لم يعد ثمة ما يستحق أن نحرق أعصابنا من أجله.

ـ والشعب؟ إنه لا يزال يتوق إلى سماع صوتكم.

ـ هذا الشعب ليس شعبنا. لقد مات شعبنا منذ زمن طويل.

لم يكن ثمة في الحقيقة ما يخشى منه في استسلام الشيوخ أمام صخرة الحياة القاسية التي أدمت قرونهم. كانوا يبدون لمن يراهم وكأن الشيخوخة قد هدت قواهم وأن كل ما يريدونه من الحياة الآن هو شرب كأسها الطافحة بخمرة السعادة حتى الثمالة. وإذ صاروا يعودون كلما خرجوا بطريقتهم الغامضة لم يعد ثمة مبرر حتى لإغلاق بوابة القصر أمامهم. وهكذا راحوا يخرجون ويعودون من البوابة الكبيرة نفسها، يتبعهم الجواسيس من بعيد، ليس لإبقائهم تحت النظر فحسب وإنما لحمايتهم من الأخطار أيضاً.

في البداية رأوهم يقصدون بصحبة صديقهم عادل سليم الأمير مقهى البرلمان صباحاً ومقهى حسن عجمي بعد الظهر، متناولين «التشريب» دائماً في مطعم الشمس الواقع في الحيدرخانه وإحتساء عصير الزبيب في حانوت الحاج زبالة التاريخي الذي كان قد عرف كل حكام البلاد الغابرين وصافحهم واحداً واحداً بكفه الملوثة بالعصير الأحمر الداكن من الملك فيصل الأول وغازي والأمير عبد الإله وفيصل الثاني ونوري السعيد وحتى الشيوخ الأربعة الذين كانوا قد اعتادوا في قديم الزمان أن يوقفوا مواكبهم وسط الشارع، قاطعين حركة المرور ليشربوا قدحاً أو أكثر من ذلك العصير المثلج اللذيذ الذي كان يمنحهم القدرة على الحس بالحياة.

في مقهى البرلمان كانوا يلعبون الشطرنج، مختارين ضحاياهم دائماً من بين المثقفين والأدباء النفاجين الذين كانوا يدعون القدرة



حتى على غلب كاربوف وأليخين، فيهزمونهم شر هزيمة ويجعلونهم يدفعون عنهم الحساب. وفي أحيان أخرى كانوا يشتبكون معهم في مناقشات سفسطائية حول قصيدة النثر التي يبدو أنها كانت قد شاعت بين شبان بغداد في تلك الأيام، بدعوى الحداثة ومواكبة العصر. كانوا يجلسون قريباً من مائدة الشعراء ويفتعلون المناقشة فيما بينهم، إذ يقوم أحدهم بدور المدافع عن الشعر الحديث ويشتم الشعر العمودي فيما يتخذ الثلاثة الآخرون موقفاً مضاداً لكل ما يقوله:

ـ الشعر الحديث ينبع من داخل الإنسان بعكس الشعر العمودي الذي اتخذ حتى اسمه من عمود الخيمة. هل تريدوننا أن نعود للعيش في الصحراء والنوم داخل الخيام؟ هذا كلام فارغ.

ـ مهلاً، مهلاً! تريد أن تقول إن الشعر الحديث ينبع من بطن الإنسان. ولكن هل تعرف ماذا يوجد هناك؟

ـ ماذا يوجد؟

ـ العفن وحده.

ـ هكذا هم الشيوخ دائماً، يظلون أسرى ماضيهم.

ـ لا تمثل معي دور الشاب، إنني أعرف عمرك الحقيقي.

ـ إنني أصغر منك على أي حال.

ـ بل أنت أكبر مني بسنتين.

ـ هذا ادعاء باطل.

عند ذاك كان يتدخل بعض الشعراء والمثقفين الذين انطلت عليهم حيلة الشيوخ، فيقرب كرسيه منهم، قائلاً:

ـ هل تسمحون لي بأن أتطفل على هذا الحوار المثير بينكم؟

فيبادر أحدهم إلى القول:

ـ طبعاً، طبعاً يا بني!

ثم يشيرون بأيديهم إلى الأدباء الآخرين أيضاً:



ـ اقتربوا جميعاً. نريد أن نسمع رأيكم جميعاً، أنتم الشباب.

فيزحفون بكراسيهم نحوهم، محيطين بهم، جاهلين بالفخ الذي نصبه الشيوخ لهم.

وإذا كانوا قد اعتادوا أن يبدأوا صباحهم بالجلوس في مقهى البرلمان، لاعبين الشطرنج، فأنهم كانوا يقضون فترة ما بعد الظهر في مقهى حسن عجمي، لاعبين دستاً من الطاولي مع عادل سليم الأمير وأحياناً مع صديقه الشيطان المدعو بالأستاذ والذي يبدو أنه كان يعرفهم منذ زمن بعيد، قبل العودة إلى قصر الذكريات لقضاء قيلولة الظهيرة. أما الأماسي فصاروا يقضونها في التسكع على ضفة نهر دجلة في شارع أبي نواس. كانوا يبدأون نزهتهم المسائية أولاً بالجلوس لصق بعضهم على أحد تخوت الرصيف في مقهى مجيد الواقع في منتصف الزقاق الأول المؤدي إلى شارع السعودن والذي دلهم عليه عادل سليم الأمير أيضاً، محتسين بضعة استكانات من الشاي، يلتهمون ما بينها الكبة مع الصمون والتي كان يبيعها عجوز من الموصل، يجلس على الأرض أمام قدره الملفوفة بالخرق للحفاظ على حرارتها، مدعياً أن زوجته تطهوها له على نار التنور. ثم ينهضون، متكئين على عصيهم المذهبة، سائرين على ضفة النهر جيئة وذهاباً حتى يصيبهم الإنهاك فيجلسون في حانتهم المفضلة «شريف وحداد» التي خططوا على موائدها في الماضي مؤامراتهم التاريخية الشهيرة، فيما يتخذ الجواسيس الذين يتبعونهم أينما ذهبوا مائدة أخرى بعيدة عنهم ويسكرون هم أيضاً، على حساب الدولة.

هنا في هذه الحانة بالذات لعب الشيطان معهم ثانية. شعروا بعد أن نسيهم الناس تقريباً أن الوقت قد حان ليسددوا ضربتهم التي ما كان يتوقعها أحد. كان أول من أشار إلى الأمر من طرف خفي هو الجنرال القديس الذي أراد أن يجس نبض أصحابه فقال وهو يجرع



كأس عرقه الزحلاوي مثلما يفعل كل ليلة، مخفضاً صوته بعض الشيء:

ـ هذا الرئيس الجديد الذي يسمي نفسه حسن السعيد ليس سوى عميل مثل جده نوري السعيد الذي سحلنا جثته في الشوارع، تصوروا أن عميلاً يصبح رئيساً لبلدنا، بحجة الفوز في الانتخابات. هذه هي نهاية العالم حقاً.

ثم ظل يحدق في وجوههم ليتبين ردود أفعالهم. هز الجنرال الدرويش الذي كان سريع الانفعال رأسه معرباً عن أسفه:

ـ هذا الطرطور ليس حتى عربياً، أمه شركسية كما تعرفون.

أضاف الجنرال الشاعر:

ـ تصوروا رئيساً يقود شؤون الوطن من بيت للدعارة.

ضحك الجنرال المولع بالفلك والاختراعات قائلاً:

ـ كنا نفعل نحن أيضاً مثله.

عند ذاك هاجت أعصابهم:

ـ هذا ليس صحيحاً. هل تقارننا به؟ كنا نفعل ذلك في أوقات فراغنا على الأقل، وليس أثناء الدوام الرسمي للدولة.

ثم حلّت اللحظة المناسبة عندما سأل الجنرال الشاعر:

ـ حسناً ما العمل؟

كان ذلك هو كل ما أنتظره الجنرال القديس الذي قال بصوت يخنقه الانفعال:

ـ إنني أضع نفسي في خدمة الثورة، إذا أردتم أن نعمل من جديد. وكما تعرفون فإن شعاري المفضل كان دائماً هو «عفا اللّٰه عما سلف».

كانت تلك هي الإشارة التي ذكرتهم بكل أمجادهم السابقة.

وهكذا جلسوا وراحوا يضعون الخطة بعد الأخرى، شاعرين بعودة



الحياة ثانية إلى عروقهم الجافة، حتى انهم رقصوا في الشارع عند العودة إلى قصر الذكريات، غير آبهين بالجواسيس الذين كانوا يتابعونهم من بعيد بنواظيرهم المقربة.

ومع ذلك ظل ثمة خيط من الشك في قلوبهم، حتى بادر الجنرال الدرويش إلى القول:

ـ أخشى أن يوسوس الشيطان في قلوبنا، كما فعل في الماضي، حينما نرى أنفسنا جالسين ثانية على كراسي السلطة الوثيرة. من يضمن ألا يعيد التاريخ نفسه؟

اقترح الجنرال القديس:

ـ نحلف بالقرآن على الولاء لبعضنا.

ابتسم الجنرال الفلكي:

ـ لقد فعلنا ذلك في المرة الأولى أيضاً.

قال الجنرال القديس محرجاً:

ـ ما العمل إذن؟

رد الجنرال الدرويش:

ـ عندي الحل، نذهب إلى ضريح العباس ونشهده على الوفاء لبعضنا. فإذا ما خان أحدنا الآخرين فإن العباس، أبا الرأس الحار، كفيل بأن يتدبر أمره.

كان ذلك هو الحل السحري الذي سينجيهم من غواية الشيطان. إستقلوا في اليوم التالي سيارة أجرة من كراج النهضة، قاصدين ضريح العباس فبلغوا كربلاء بعد الظهر. ولأنهم كانوا متعبين قليلاً في ذلك الجو الخانق المصحوب بالريح الهابة من الصحراء فضلوا أن يتناولوا غداءهم أولاً في مطعم إيراني اشتهر بصنع الفسنجون ويتمددوا قليلاً على التخت في المقهى للراحة، محتسين الشاي ومدخنين النرجيلة قبل التوجه إلى الحضرة الشريفة.



توضأوا كما تقتضي الأصول وصلوا ركعتين قبل أن يطلبوا الكليدار الذي كان في بيته، فجاء متباطئاً ليرى ما يريده هؤلاء الغرباء منه. لم يكشفوا عن أسمائهم له، خشية أن يوصل أخبارهم إلى الحكومة، واكتفوا بأن قالوا له:

- لقد جئنا لنعقد ميثاق الوفاء والأخوة بيننا بشهادة العباس نفسه ونريدك أن تكون حاضراً.

قال الرجل الذي كان في حوالي الستين من عمره ويعتمر كشيدة خضراء:

- حسناً فعلتم، ما كان العباس ليستمع إليكم بدوني.

ثم أضاف مستغرباً:

- ولكن أين هو الخروف؟

- أي خروف يا سيدنا؟

رد الرجل بعصبية:

- خروف العباس بالطبع؟ أم تراكم تريدون تضييع وقته هكذا لقاء لا شيء؟

ثم نادى حتى بدون أن ينتظر جواباً عن سؤاله على بائع أغنام كان يحوم حول المكان وأمره أن يجلب له خروفاً سمينا، ظل يثغو، مطلقاً أصواتاً يائسة حزينة طوال الوقت بعد أن ربطه أحد خدم الحضرة إلى عمود كهرباء في الشارع، قبل أن يبدأ الكليدار مهمته المقدسة مع الشيوخ الغرباء الأربعة القادمين من بغداد والذين ما كادوا يبلغون شباك العباس حتى تشبثوا به وراحوا يهزونه باكين، منتحبين:

- شفاعتك يا العباس، يا أبا الرأس الحار.

أمرهم الكليدار بأن يضعوا أيديهم على سياج ضريح العباس، طالباً منهم أن يقرأوا الفاتحة وآية الكرسي وأن يقبلوا رؤوس بعضهم، مرددين وراءه:



- لينتقم مني العباس ويخرب بيتي إن غدرت بأحد من إخواني بعد الآن.

وهكذا احتضنوا بعضهم من جديد في حضرة العباس الذي صار شاهداً عليهم وبكى كل منهم على كتف الآخر، متحررين من الحقد والثأر. في تلك اللحظة وحدها شعروا أنهم قد غسلوا مرة وإلى الأبد كل الدماء الساخنة التي أريقت في أزمنتهم وعادوا إخوة من جديد مثلما كانوا حينما خططوا لثورتهم الأولى الظافرة.

ولأنهم كانوا أساتذة في تدبير المؤامرات على الطريقة القديمة التي كان قد نسيها الجيل الجديد فقد بدأوا الخطوة الأولى بما أسموه مرحلة «تضليل العدو»، حيث قدم الجنرال الدرويش مذكرة رسمية إلى وزير الداخلية للسماح له باقتناء بضع بقرات يخرج بها إلى مرعى قصر الذكريات ويتسلى بحلبها بنفسه، وهو أمر أدهش وزير الداخلية الذي رد عليه أن ذلك لا يحتاج إلى الموافقة، غامزاً من قناته بالقول «إذ أننا نعيش والحمد للَّه في ظل نظام يوتوبي ديمقراطي، لا دكتاتوري مثلما كان عليه الأمر في العهود الماضية». أما الجنرال القديس فقد سجل إسمه في «نادي النهضة الرياضي» الذي كان يقع قبالة وزارة الدفاع وراح يتمرن على رفع الأثقال. وفي الوقت ذاته اتخذ الجنرال الفلكي من كراج قصر الذكريات الكبير ورشة لتصنيع ما ادعى أنه سيكون أول طبق طائر ينطلق بسرعة تفوق سرعة الضوء بألف مرة لغزو النجوم والكواكب خارج مجرة درب التبانة، وهو أمر أثار ضحك الكثير من علماء الفيزياء الذين تناهى إلى أسماعهم النبأ وراحوا يسخرون منه بكل وقاحة «عجوز خرف لا يفقه ما يقول، فلكي ينطلق أي جسم بسرعة الضوء، وفق نظرية آينشتاين النسبية العامة، يتطلب أن تكون كتلته صفراً، أما إذا زادت سرعته على سرعة الضوء، وهو أمر



مستحيل على أي حال، فإنه سوف يعود القهقرى في الزمان حتى يبلغ أسلافه القردة وهي تتقافز بين الأشجار». أما هو فقد راح يتردد كل يوم، غير أبه بقيل وقال الحساد الموتورين، على سوق الهرج ويشتري حدائد عتيقة يكومها في زاوية من ورشته.

وإذا كان هؤلاء الشيوخ الثلاثة قد وجدوا ضالتهم في تلك الانشغالات العملية فإن الجنرال الشاعر اتجه إلى ما هو روحي، حيث كرّس الكثير من وقته لنظم الشعر، جالساً كل ليلة وراء مرصده الذي تبرع له به رئيس الجمهورية نفسه، مناجياً القمر والنجوم، ومحتضناً في الوقت ذاته فتاته سندس التي استبدل اسمها بليلى، وهي واحدة من فتيات نهلة مراد اللواتي فضلن الإقامة معه في قصر الذكريات. كان ينظر إلى القمر وينفطر قلبه عاطفة وهياماً فيمد يده، متلمساً ما بين فخذي سندس المكتنزين ويمرر أصابعه المتيبسة برقة على عانتها المزغبة، منادياً:

آه، يا ليلى، آه يا ليلى،
ماذا فعلت بقلبي المتيم؟
تعالي أدني مني
وجودي عليّ ولو بابتسامة من بعيد.

فترد عليه مستغربة:

ـ ولماذا الابتسامة يا سيدي الجنرال؟ إذا أردت فسوف أنبطح لك على ظهري بكل سرور.

حينذاك كان يقول لها:

لا تتكلمي بهذه الطريقة البذيئة يا قحبة. إنك تفسدين بذلك عليّ قصيدتي.



وفي النهاية وبعد أن ملأ دفتراً كاملاً بقصائده العاطفية التي ما كان يخفي تأثره فيها بشاعر الحب المعروف نزار قباني، انتمى إلى اتحاد الأدباء الواقع في ساحة الأندلس وراح يحضر أماسيه التي كان يقيمها في الحديقة، عصر كل يوم أربعاء جالساً دائماً في الصف الأول، جنب الشاعر الكبير الشيخ محمد صالح بحر العلوم الذي كان كلما سمع قصيدة تلقى على الجمهور التفت إليه ونبهه «المهم دائماً هو الشكل والمضمون. لا تنسَ ذلك عندما تكتب الشعر!»، وهي نصيحة لم يعرف الجنرال الشاعر كيف يستفيد منها عند التطبيق.



٣٦

خطوات في الظلام

كان الجنرال القديس يعرِف أكثر من رفاقه الآخرين أن الأزمنة تغيّرت كثيراً، فإذا كان قادة الجيش في الماضي يهتاجون لروحهم الوطنية الخالصة فإنهم لن يهتاجوا هذه المرة إلا لرائحة المال الذي يدعي بعض الناس المحبين للمشاكسة أن لا رائحة له. ولذلك فإنه إذا ما أراد للثورة أن تنتصر فإن عليه توفير الكثير من العملة الصعبة لرشوتهم. كان الرجل حائراً تماماً وقد فَقَد كل أمل تقريباً في العثور على حل لثورته التي أغلقت في وجهها الأبواب عندما وصل فجأة، وهو جالس في المقهى مع رفاقه الشيوخ، عادل سليم الأمير يتبعه صديقه الممثل المسرحي الذي كان يلقب نفسه تارة بالأستاذ وأخرى بالشيطان، وثلاثة رجال غرباء قدمهم باسم الإخوة قرقش. ما كاد الشيطان يختلي بالجنرال القديس حتى همس في أذنه:

ـ سأحل لك مشكلتك يا سيدي الجنرال. أرجو ألا تقلق بسبب ذلك.

بوغت الجنرال بالعرض فقال له:

ـ أي مشكلة تقصد؟ هناك الكثير من المشاكل.

ابتسم الشيطان:

ـ لن تستطيع أن تخدعني. أنت تعرف أنني قادر على قراءة أفكارك. أنت تحتاج إلى المال، إلى الكثير من المال. أليس كذلك؟



رد الجنرال:

ـ اللعنة، أنت تعرف كل شيء حقاً.

عند ذاك قال له:

ـ لقد جلبت لك ثلاثة من أفضل أعواني الذين أعتمد عليهم.

تطلع الجنرال في وجوههم قبل أن يسأله:

ـ وماذا يعملون؟

أجاب الشيطان بوقار:

ـ إنهم يا سيدي الجنرال أفضل لصوص شهدتهم أميركا على الإطلاق.

ثم راح يشرح له الخطة التي وضعها لهم لسرقة «بنك أوف أميركا» عن طريق نفق يحفرونه تحت الأرض من كراج قريب.

سأل الجنرال:

ـ ومن يضمن أنهم سيسلموننا تلك الأموال؟

ابتسم الشيطان:

ـ لا يمكن لهم أن يخرجوا على طاعتي وإلا أرسلتهم إلى الجحيم نفسه. سوف أجلب لك الأموال بنفسي بعد منحهم حصتهم منها وفق التقاليد المتبعة بين اللصوص.

ـ هل سيشترك ثلاثتهم في السرقة؟

ـ كلا، اثنان منهم فقط، أما الثالث فهو شاعر يشرف على العملية من بعيد.

ابتهج الجنرال القديس فقال، منادياً الجنرال الشاعر الذي كان يجلس بعيداً عنهم، منهمكاً في الحديث مع الآخرين:

ـ أنظر يا صديقي الجنرال الشاعر، فرصة نادرة، معنا شاعر من أميركا، تعال وتعرف عليه.

اقترب الشيوخ جميعاً وصافحوا ضيوف الأستاذ الذي قدمهم



كأبناء لصديق قديم له. وانغمر الجنرال الشاعر في حديث حميم مع الشاعر اللص، قارئاً عليه بعض قصائده الجديدة التي يبدو أنها أعجبته لعرض عليه أن يعطيه الدفتر كله ليترجم قصائده وينشرها له في أميركا.

لكن الشيطان تدخل فجأة ونهره قائلاً:

ـ أترك يا عبد اللّه قرقش قصائد الجنرال وشأنها. هناك قصائد كثيرة لغيره يمكن لك أن تترجمها.

هذا التدخل الفظ أزعج الجنرال الشاعر وأثار استغرابه، فلم يجد ما يقوله له سوى:

ـ حقاً ينبغي للمرء أن يكون معروفاً أولاً حتى تترجم أعماله إلى لغة أخرى. كان عليّ أن أنشر ديواني قبل ذلك.

عند ذاك جره الشيطان جانباً وقال له معتذراً:

ـ لم أقصد الإساءة إليك، يا سيدي الجنرال. كل ما في الأمر هو أن هذا الشاعر مصاب بعادة غريبة جداً، وهي أنه يسطو على أي قصيدة تعجبه ويترجمها، ناسباً إياها إلى نفسه. ولسوف يفعل الأمر ذاته مع قصائدك إذا أعطيتها له. لقد حذرتك.

فابتسم الجنرال الشاعر:

ـ إنها عادة غريبة حقاً، ولكن لماذا يفعل ذلك؟ ألا يملك مرصداً مثلي يراقب به القمر لتتفتح قريحته.

فقال له الشيطان موضحاً:

ـ لقد فَقَد المسكين قريحته في التجارب الباثولوجية التي أجريت عليه في الماضي، فلم يعد يفيد معه مرصد أو قمر؟

ما كاد الجنرال الشاعر يسمع بنصيحة الشيطان له حتى أخفى دفتر قصائده في عبه ونهض تاركاً المجلس.

* * *

منذ تلك اللحظة أدرك الجنرال القديس أن السير في طريق ألف



ميل الثورة قد بدأ بخطوة صديقه الأستاذ وهمة لصوصه الشاطرين في توفير المال الذي سيحتاجه، تلك الجملة التي تذكرها ثانية والتي كانت هي أهم ما عاد به من الصين الشعبية ذات مرة أيام حكمه الأول، ملبياً دعوة صديقه ماوتسي تونغ الذي استقبله بالأحضان، وهو يقف فوق سور الصين العظيم، متطلعاً بعينيه الصغيرتين المدورتين في القبور الملكية الممتدة أمامه مثل جزيرة طافية فوق السحاب، قائلاً له: «انظر إلى كل هؤلاء الثاوين تحت الثرى! يا إلهي لكم هي الحياة قاسية! هل يعقل يا رفيقي أن يموت مثلاً جنرال عظيم مثلك ويترك العالم وراءه؟» فرد عليه الجنرال الذي بوغت بتلك المجاملة الشرقية التي أخجلته: «بل أنت العظيم الذي حرر الشرق أما نحن فلسنا سوى تلامذة صغار يتعلمون منك». فربت ماوتسي تونغ على كتفه شاكراً إياه وأهداه كتابه الأحمر الذي نسيه الجنرال في رحلة العودة في خزانة ملابسه في الفندق. ولكن الأهم من ذلك هو أن ما قاله الجنرال لماوتسي تونغ كمجاملة دبلوماسية لا بدَّ منها نشر في اليوم التالي في الصفحات الأولى من الصحف الصينية كلها بمانشيتات عريضة باللون الأحمر، كما ترجمته وكالة شينخوا للأنباء إلى العربية وأذاعته محطة بكين ثلاث مرّات في اليوم طيلة شهر كامل.

في المساء حينما التقوا ثانية على مائدة الشراب أوضح لهم الجنرال أنه قد دبر أمر تمويل الثورة بالأموال التي سوف تحتاجها، بدون أن يكشف لهم عن مصدرها، وهو أمر لم ينتبه إليه أحد سوى الجنرال الفلكي الذي قال له:

ـ أرجو ألا تكون المساعدات المالية لنا مشروطة.

فأجابه الجنرال القديس:

ـ دعنا من المثاليات يا صديقي. ترى ما الذي يمكن أن يطلبه أي أحد منا؟

ـ أنت تعرف أن هناك من سيحاول سرقة ثروات بلادنا.



تدخل الجنرال الدرويش ساخراً:
ـ حسناً ليأتوا ويسرقوا من الشعب فقره. ماذا نملك حتى تأتي الامبريالية لتسرقه؟
حينذاك أوضح الجنرال القديس:
ـ الأموال هدية للثورة من صديق قديم لي. وكما تعرفون فإنني رفضت دائماً أن أستلم أي مساعدة من الجهات المشبوهة. إننا سنقوم بثورتنا لحسابنا الخاص وليس من أجل سواد عيون أي كائن آخر فوق الأرض.

بعد هذا الحديث انتقلوا إلى ما أسموه بتوزيع الأعباء، حيث تعهد الجنرال القديس بمهمة كسب الضباط الكبار الذين سينفذون الثورة فيما تولى الجنرال المولع بالفلك والمخترعات مسؤولية الجوانب الفنية والتقنية للعملية مثل تشغيل الإذاعة وتوفير الوقود للطائرات والدبابات والحصول على الأسلحة. وأسندت إلى الجنرال الشاعر مهمة الاتصال بالدول الأجنبية الكبرى والدول العربية لكسب تأييدها لهم. ولكنه إذ اعتبر هذه المهمة بسيطة وسهلة أضيفت إلى واجباته مسؤولية الدعاية السرية. أما الجنرال الدرويش فقد أسندت إليه مهمة التحضير الروحي للشعب، لمعرفتهم بقابلياته الاستثنائية الخارقة في الشعوذة وتحضير الأرواح.

* * *

وهكذا شمروا عن أردان العمل بدون تأخير. ففي الصباح التالي وكان يوم ثلاثاء قصد الجنرال القديس مدير قصر الذكريات جمال الساحر في مكتبه، شاكياً له من نار الحنين التي راحت تتقد في قلبه لشم رائحة البارود في ساحة الشرف والتفرج على الجنود أثناء التدريب وهم يطعنون أكياس الرمل بحرابهم.



لكن جمال الساحر قال له بصراحة:

ـ أنت تعرف يا سيدي الجنرال أنني لست سوى موظف مدني، وهذا أمر يتعلق بالجيش.

ابتسم قائلاً:

ـ بالطبع أعرف ذلك. كل ما أردته هو أن أبلغك بالأمر، باعتبارك مديراً لقصرنا حتى لا نقلقك بالبحث عنا هنا وهناك.

عند ذاك قال له جمال الساحر:

ـ حسناً، سأتصل لك بوزير الدفاع لتقنعه بنفسك بالفكرة.

ما كاد وزير الدفاع العقيد سلمان الفاتح يسمع صوت الجنرال القديس في الهاتف حتى اهتز طرباً وراح يطنب في امتداحه، مبلغاً إياه بأنه اعتبره دائماً مثاله العسكري الذي احتذاه في حياته، لكنه عاتبه بمرارة لتردده في زيارته بمكتبه في وزارة الدفاع وشرب فنجان من القهوة معه على الأقل، فرد عليه الجنرال القديس بمودة:

ـ كنت أعتقد أن الجيش نسينا وأنك قد لا تكون سمعت حتى باسمي.

فرد عليه العقيد:

ـ أي كلام هذا يا سيدي الجنرال! من يستطيع أن ينساكم؟ لقد دخلتم التاريخ من أوسع أبوابه، وهذا أعظم شرف يحصل عليه عسكري في كل حياته.

ثم عرض عليه العقيد:

ـ إذا لم يكن أمامكم ما تفعلونه الآن يا سيدي الجنرال فسوف أرسل لكم سيارة لتوصلكم إلي. أنتم مدعوون على الغداء عندي اليوم.

فرد عليه وقد تلون وجهه المتغضن بحمرة الخجل:



ـ يا لك من تلميذ نجيب. شكراً يا سيادة العقيد. إنني في الانتظار.

حينما وصل الجنرال القديس إلى وزارة الدفاع ضمن موكب خاص من سيارات الحراسة والدراجات البخارية وهي ترفع العلم العراقي شعر بالزهو نفسه الذي كان ينتابه في الماضي كجنرال أوحد للبلاد ونسي حتى شيخوخته وعصاه التي يتوكأ عليها عند السير، كما لو أنه وُلِد من جديد. كان وزير الدفاع قد خرج ينتظره تحت قوس بوابة المدخل الذي طالما قصفته الطائرات المغيرة في الانقلابات الماضية، فعانقه حالما رآه، كطفل انتظر أباه المسافر طويلا. كانت تلك لحظة عاطفية لا تنسى للقاء الأجيال. وبعد ذلك إذ دخل الرجلان وزارة الدفاع واستعرض الجنرال حرس الشرف نسي كل الإهانات التي كان الجنود الريفيون السذج في قصر الذكريات قد ألحقوها به وبرفاقه الآخرين، شاعراً أنه في بيته الحقيقي. وحينما بلغا ممراً تمتد على جانبيه الأشجار وقف فجأة وراح يحدق في الأشجار عادا إياها من اليمين إلى اليسار ومن اليسار إلى اليمين ثم اتجه إلى شجرة ما وراح يتطلع في جذعها كمن يبحث عن شيء ما ثم نادى على وزير الدفاع:

ـ تعال يا سيادة العقيد واقرأ ما كتبته هنا ذات مرة.

تقدم الوزير غير مصدق عينيه بخطوات عسكرية ثابتة وراح يحدق في جذع الشجرة، مردداً بصوت عال:

ـ عائدون نحن إليك يا وزارة الدفاع ولو بعد قرن. الإمضاء: الجنرال القديس.

وحده التاريخ بدا ممحواً بفعل الطقس. وإذ رأى الوزير ينظر إليه مأخوذاً بتلك النبوءة قال له:

ـ هذه آثارنا في كل مكان تدل علينا.



فرد عليه الآخر متأثراً:

- إن آثاركم الحقيقية هي تلك التي تركتموها في قلوب رعاياكم.

رغم كل هذه العواطف الجياشة التي أظهرها العقيد سلمان الفاتح تجاه مثاله العسكري ظل الجنرال ملتزماً جانب الحيطة والحذر على عادته القديمة طوال جلسة الغداء التي أقيمت على شرفه في نادي الضباط والتي حضرها عدد مختار من الجنرالات والعقداء الذين عاملوه كجنرال في الخدمة. كانوا جميعاً ينتظرون متلهفين إشارة منه ليفضوا له بهمومهم الثقيلة، لكنه آثر الصمت، مفضلاً الإستماع إليهم أولاً، حتى يتجنب الوقوع في الفخ، إذا ما اكتشف في النهاية أن الأمر كله قد رتب بمهارة لاستدراجه للبوح بما يضمره في تلك البقعة النائية من صحراء قلبه.

حينذاك وإذا وجد مضيفوه أنه ليس من النمط الذي يثرثر بسهولة فتحوا له قلوبهم. بدأ الحديث العقيد سلمان الفاتح الذي تشكى له من الحال التي آلت إليها قواته المسلحة، درع الوطن، إذ بلغ من وقاحة المدنيين ورئيسهم حسن السعيد حد أن ألغوا بقانون أيضاً أفضلية الجندي على المدني في صف الانتظار. ثم استطرد قائلاً:

- هل تعرف أن رئيسنا هذا يحكم الوطن الآن من بيت للدعارة، مشيعاً بين مؤيديه أنه سيحل الجيش الذي لم يعد مفيداً، بدعوى أن الحروب صارت موضة قديمة لا تليق بالمتحضرين وأن الأمر الحاسم الآن في حروب القرن الجديد هو الاقتصاد؟ واللّه لو كان الأمر بيدي لفتحت فمه الأخرق وصببت في جوفه التيزاب أو قطعت لسانه بالمقص على الأقل.

توقف لحظة وقد بدا التأثر على صوته المتهدج، قبل أن يقول منفعلاً:

- كان يمكن لنا أن نغض النظر عن كل ذلك يا سيدي الجنرال،



حتى نخرس ألسنة السوء التي تشيع دائماً بأن الجيش عدو للشعب بالضرورة، لولا الإهانة التي ألحقها المدنيون بكم، وهي إهانة موجهة إلى شرف الجيش نفسه، عندما وضعوكم أنتم، رموزنا التاريخية، في متحف ليتفرج عليكم الأطفال والسياح.

عندما وصل إلى هذه النقطة لم يستطع أن يقاوم دمعة ساخنة انحدرت من عينه اليمنى على خده المكتنز فمسحها بكم سترته العسكرية وراح يحدق في وجه الجنرال، منهياً حديثه بجملة مؤثرة:

ـ حسناً، أهذا هو جزاء الشعب لنا، نحن ضباطه الأوفياء؟

أطرق الجنرال القديس برأسه قليلاً ثم رفعه وراح يحدق في الوجوه الصامتة المنتظرة قبل أن يقول:

ـ هل اعتقدتم أننا كنا غافلين عن ذلك؟ لقد جعلناهم منذ البداية يعتقدون أننا لسنا سوى عجائز خرفين، في حين أننا كنا ننصب لهم الفخ بعد الآخر. هل تعرف من عرف هذا الرئيس حسن السعيد على نهلة مراد ومنزولها؟ أنا الذي فعلت ذلك، لأنني خمنت أنه سيقع في حبائلها بكل غباء. وقد صورنا أفلام فيديو كاملة له وهو عار في السرير في أوضاع جنسية تقشعر لها الأبدان، سوف نعرضها على الشعب ذات يوم ليتبين الحقيقة. حسناً، كل شيء جاهز، متى التنفيذ؟

ما كاد يطرح سؤاله هذا حتى دوت صالة الطعام بالتصفيق وألقى العقداء والجنرالات بأنفسهم على الجنرال القديس مقبلينه وباكين على كتفيه من الفرح واحتضنه وزير الدفاع بكلتا يديه، دافناً رأسه في حجره، قبل أن يرفع رأسه ويقول له:

ـ الأمر متروك لك يا سيدي الجنرال القديس لتحدد ساعة الصفر. إننا نعتبر أنفسنا تحت الإنذار منذ هذه اللحظة.



٣٧

آخرويون ودنيويون

لم يعد ثمة الكثير من الوقت ليضيعه الشيوخ العائدون ثانية إلى المسرح الذي مثلوا على خشبته أجمل أدوار حياتهم. كان الجنرال القديس قد كتب منذ أن كان طالباً في الكلية العسكرية نص فصول مسرحيته التي وضع لها عنواناً مثيراً هو «خطوات في الظلام»، تلك المسرحية التي مثلت مرّات ومرات بنجاح منقطع النظير في أماكن كثيرة من العالم. وهذه المرة أيضاً كان لكل دوره الذي حفظه عن ظهر قلب. ومع ذلك وقعت مصادفات غريبة، كادت تفسد كل ما خطط له الجنرال، لولا براعته في جذب انتباه الجواسيس إلى ما لا قيمة له. فقد بالغ رفاقه الآخرون في تمثيل الأدوار التي أسندها إليهم. وكان الأسوأ بينهم هو الجنرال الشاعر الذي كان عليه أن يتصل بممثلي الدول الأخرى. فلكي يبعد الأنظار عن نفسه أقدم على حماقة رومانسية، ما كان ينبغي له أن يقع فيها.

كان أول من فكّر بالاتصال به هو الملحق العسكري الأميركي، لكنه ولكي لا يثير شكوك الجواسيس الذين كانوا يراقبونه أنى ذهب وجد أن أفضل فرصة له لكي يفعل ذلك هي أن يحضر حفل الاستقبال الذي ستقيمه السفارة الأميركية، على عادتها كل عام، لمناسبة عيد الاستقلال في الثالث من تموز ببطاقة دعوة صحافية دبرها له شاعر



يعمل في جريدة «نجمة الصباح»، التقاه في المقهى فأعجب بقصائده ونشر بعضاً منها في الصفحة الأدبية. تعمد الجنرال الشاعر أن يحضر الحفلة متنكراً، داساً نفسه بين الضيوف الكثيرين من الوزراء والسفراء الذين ظلوا يعبون كؤوس الويسكي والشامبانيا، محومين حول الفتيات الأميركيات اللواتي ما كان ليشك في أنهن جاسوسات متنكرات. في وسط تلك المجزرة الغرامية التي وجد نفسه فيها أدرك أن لا حظ له في الوصول إلى واحدة من تلك الفتيات اللواتي امتلكن قلوب الضيوف، ولذلك جرع بضع كؤوس من الشامبانيا وجرب حظه مع نساء الدبلوماسيين العجائز المهملات المنسيات. تعرف في البداية على سيدة هندية ترتدي الساري، سلمت عليه خطأ ظانة أنه مواطن هندي مثلها ولكنها إذ اكتشفت خطأها، قادته مجاملة منها إلى حلقة نساء، بينهن زوجة الملحق العسكري الأميركي وعرفته عليهن، مدعية أنه صحافي كبير. وهكذا قادته الصدفة وحدها إلى اليزابيث بيرتون التي كانت في حوالي الأربعين من عمرها، ترتدي فستان سهرة أسود طويلاً وتضع قلادة من لآلئ مزيفة حول عنقها وتترنح من السكر في مكانها، حاملة في يدها كأساً من الويسكي. شعر الجنرال الشاعر الذي تعمّد الاقتراب منها والحديث معها أنها افتتنت به منذ اللحظة الأولى التي رأته فيها، إذ راحت توجه إليه نظرات ما كان ليخطئ معناها، زاعمة أنها تحب العرب، لأنهم جميعاً رومانسيون مثل هارون الرشيد. كانت تلك فرصته ليجرها جانباً، جالساً معها على مقعد في الحديقة المترامية الأطراف ويهمس بأذنها أنه يهمه أن تدبر له لقاء مع زوجها، فزعقت بوجهه غاضبة:

ـ ما الذي جرى لكم أيها الرجال؟ يبدو أنكم جميعاً مخنثون هذه الأيام.

أراد أن يوضح لها أن الأمر ليس كما تظن، لكنها هزت رأسها، قائلة:



- اعتقدت أنك قد وقعت في غرامي، فإذا بي اكتشف أنك مغرم بزوجي.

ثم أجهشت بالبكاء، فاحتضنها بحنان، قائلاً:

- حسناً سأصالحك إذا أردت.

مدت له فمها وراحت تقبله لاهثة، فاهتاج هو الآخر وراح يهصرها بذراعيه، كأي عاشق متيم. عند ذاك قالت له، جارة إياه إلى وراء شجرة بعيدة:

- حسناً تعال معي وصالحني فعلاً قبل أن أعرفك على زوجي.

هناك نزعت فستانها الطويل الذي لم تكن ترتدي تحته أي شيء وألقت به جانباً ثم ارتمت فوقه على العشب محتضنة إياه:

- هيا أثبت لي أنك تشتهيني.

* * *

إذا كان الجنرال الشاعر قد أفلح في الوصول الى الدبلوماسي الأميركي بتلك الطريقة العاطفية الرومانسية واستمالة قلبه للانقلاب الذي كان الضباط يخططون له بحمية في الظلام، فإن مهمة الجنرال الدرويش لم تكن سهلة بالتأكيد. ومع ذلك فإن قدراته الخارقة في معرفة اتجاه الرياح وتحضير الأرواح ذللت أمامه كل الصعاب، فقد علمته الحياة أنه ما من زعيم سياسي إلا ويحمل فوق عنقه رأس عصفور، وهو دائماً من الخرسانة التي يصعب كسرها. ومع ذلك قرر أن يحمل المطرقة بيده ويكسر بها كل الرؤوس واحداً بعد الآخر. فقد قصد أولاً مسجد أبي غزالة الذي كان إمامه رئيساً فخرياً لحزب الصراط المستقيم، وفي حقيبته شريط فيديو البورنو الذي سجله الجنرالات سراً للرئيس حسن السعيد في منزول نهلة مراد،.مؤدياً صلاة العشاء مع المؤمنين. حينما انتهت الصلاة اقترب من الإمام



ياسين الملا وسلّم عليه بحرارة، مهدياً إياه نسخة من الشريط. عندما سأله الملا:

ـ ماذا أفعل به؟

أجاب بحزن:

ـ لترى ما حلّ بنا نحن المؤمنين في ظل هذا النظام الكافر.

لم يكن في المسجد بالطبع جهاز فيديو ليريا به الشريط، ولذلك دعاه الملا إلى بيته القريب ليطلعا معاً على جسم الجريمة. تناولا العشاء أولاً ثم انتظرا حتى خلد سكان البيت إلى النوم. حينذاك فقط نهض الملا وأقفل باب الصالة بالمفتاح قبل أن يخرج الشريط من عب جبته ويضعه في جهاز الفيديو الياباني، مبحلقاً في شاشة التلفزيون بكل جوارحه. في تلك الليلة شاهدا الشريط الجنسي مرّات ومرات، شاتمين بلا انقطاع الرئيس حسن السعيد الذي انتهك كل الحرمات. حينما غادر الجنرال البيت في تلك الساعة المتأخرة من الليل شاهد الملا الشريط مرة أخرى فاهتاج، لاعناً الشيطان الذي أفقده صوابه. لكنه تمالك نفسه وأخرج الشريط من الفيديو، مخفياً إياه وراء رف من الكتب الخاصة به في غرفته، ثم قصد زوجته وأيقظها من نومها ليطفىء النار المستعرة في جسده.

ولكن إذا كان الجنرال الدرويش قد كسب الآخرويين بشريط ايروتيكي إلى جانب الثورة القادمة فإن الأمر تطلب منه الكثير من الجهد لإقناع الدنيويين الذين كان إيمانهم الغريب بالديمقراطية اليوتوبية قد أعماهم عن رؤية فضائل الدكتاتورية الشعبية. فحينما اتصل بقادتهم ودعاهم إلى الثورة طردوه بطريقة غير لائقة، قائلين له:

ـ لا نريد سفك المزيد من الدماء. يكفينا ما شهده آباؤنا وأجدادنا من جرائم في ظلكم.

كان يعرف في الحقيقة أن هؤلاء السادة لا يملكون شيئاً من



أمرهم. فهم ليسوا سوى تابعين، يتلقون أوامرهم من مدراء الشركات الاحتكارية الكبرى والبنوك العالمية ولا تهمهم سوى مصالحهم الشخصية. وتوصل بعد تفكير عميق إلى أن الفارق بين الدكتاتوريين والديمقراطيين هو أن الدكتاتوريين يؤمنون بالمجد، ولذلك يزينون الشوارع بصورهم وجدارياتهم الكبرى وينفقون ثروات البلاد على الدعاية للشرف القومي الذي يجسدونه هم وحدهم بالطبع. أما الديمقراطيون فهم فئة من النصابين والمهرجين الفاشلين في الحياة والذين تكمن كل مهارتهم في قدرتهم على تضليل السذج من الناس قبل كل انتخابات بوعود كاذبة معسولة يطلقونها بدون حساب، في حين أنهم ليسوا أكثر من دمى، ينفذون رغبات الآخرين في سرقة البلاد. ورأى أن الدكتاتوريين يقطعون على الأقل بإشارة واحدة من أيديهم رأس كل من يضل الطريق، في حين يلفلف الديمقراطيون أقبح الجرائم بدعوى انعدام الأدلة وحق الحماية الدستورية للأفراد أو ما شابه ذلك من المصطلحات الفارغة. وهم لا يعنون بالأفراد طبعاً سوى أنفسهم، فالفقراء لا يملكون المال الذي يدفعونه للمحامين، مثلما يعجزون عن دفع أجور المحاكم فيما إذا خسروا دعاواهم، ولذلك فإنهم غالباً ما ينتهون إلى السجون ويفقدون كل شيء.

ـ أجل، هذه هي الحقيقة.

بعد أن توصل إلى كل هذا فكر أن يقتل الأفعى من رأسها. لذلك قصد مبنى غرفة تجارة بغداد وعرض على رئيسها الذي كان مديراً عاماً لسلسلة من الشركات الأجنبية الكبرى بكل صراحة أن يؤيد الرأسماليون الانقلاب القادم ليضمنوا مصالحهم، لأن أول عمل ستقدم عليه الثورة هو بيع آبار النفط الوطنية لهم بأسعار رمزية، لعجز الدولة عن إدارة هذه الصناعة الكبيرة أولاً وتشجيعاً لفكرة الاقتصاد الحر الذي لا اقتصاد بعده ثانياً. اندهش المدير العام لما سمعه فقال له:



ـ لقد حلمت بذلك دائماً يا سيدي الجنرال، ولكني ما كنت أجرؤ حتى على البوح به خشية الإتهام بالخيانة. ولكن قل لي ألا يمكن لنا أن نفعل ذلك بدون انقلابكم؟

ـ سوف يمزقكم الشعب إرباً إرباً، أما نحن فسوف نعرف كيف نخرس ألسنة السوء.

لم يكن الجنرال يحتاج إلى أكثر من ذلك. فإذا ما وقف الآخرويون والدنيويون مع الانقلاب فإنه يكون قد وضع الشعب في جيبه. لكنه ولكي لا يترك مجالاً للصدفة راح يلقي الخطاب بعد الآخر في الليالي المعتمة عن الحياة السعيدة التي تنتظر الشعب، وهي خطب جعلت الجواسيس الذين كانوا ينصتون هم أيضاً إليها بالطبع يغرقون في الضحك، قائلين لبعضهم البعض:

ـ عجوز خرف يتذكر أيامه الماضية!

وهكذا قصد الجنرال الدرويش حي المنصور وألقى خطبة عن حق الأغنياء المساكين في أن يزدادوا غنى وفي الأعظمية تحدث عن الوحدة العربية التي طال أمدها وفي حي الأكراد ألقى خطبة باللغة الكردية السورانية وفي الكاظمية بشر الشيعة بقرب ظهور المهدي المنتظر وفي مدينة الثورة حمل بيده اليمنى حربة لطخ رأسها بدم خروف مذبوح وباليسرى رفع راية الحسين السوداء، مدعياً أنه قتل الشمر في مبارزة ليلية من أجل فقراء الشيعة المحرومين، هاتفاً بحياة الشيوعية التي ستعم العالم كله وتحول الأرض إلى جنة رغم هزيمتها المؤقتة، لكسب قلوب من تبقى من شيوعيي الأجيال الماضية الذين تحولوا من المظلومية البروليتارية الى المظلومية الشيعية.



٣٨

كل شيء بدأ من جديد

في الوقت ذاته تقريباً أثار الجنرال الفلكي الذي كان يقضي معظم وقته في ورشته العلمية التي أطلق عليها اسم «المختبر الكوني» ضجة علمية كبيرة حينما نشر في مجلة Nature البريطانية بحثاً تحت اسم مستعار هو رجب آشور بانيبال أثبت فيه الأخطاء الكبرى التي اقترفها ألبرت آينشتاين عند صياغته لنظرية النسبية العامة حول الكون. فقد اعتقد هذا العالم الكبير مثل غيره من علماء الفيزياء الفلكية في أوائل القرن العشرين أن حدود الكون هي حدود مجرة درب التبانة وحدها وأنه لا يوجد شيء وراء ذلك، في حين أن الكون الحقيقي يضم مليارات لا نهاية لأصفارها من المجرات الممتدة في الأبدية. لم يكن هذا بالطبع الخطأ الوحيد الذي وقع فيه آينشتاين، فقد قادته معادلاته الصحيحة عن الجاذبية الكونية الى حقيقة رفض هو نفسه الاعتراف بها وهي: إما أن الكون يتمدد أو يتقلص. ولكن لأنه كان يؤمن بطريقة عمياء بأن الكون لا بد أن يكون ساكناً مثل غرفة مغلقة راح يخطئ معادلاته بنفسه، مضيفاً إليها رقماً خيالياً أطلق عليه إسم الثابت الكوني الذي يمكن أن يكون سالباً أو موجباً أو حتى صفراً. حيلة رياضية لطمأنة وهمه الخاص.

ثم أنهى رجب أشور بانيبال بحثه بجملة مؤثرة: أيها السادة، لو



هاد آينشتاين العظيم إلى الحياة اليوم لاعترف بكل شجاعة: وا أسفاه، لقد كان الثابت الكوني خطأ حياتي!

لم ينتبه أحد بالطبع في البداية إلى الأمر حتى راحت الصحف ومحطات الإذاعة والتلفزيون العالمية تتحدث عن الكشف العلمي الكبير الذي حققه العراقيون في ظل نظامهم اليوتوبي. عند ذاك فقط أخذت الصحف العراقية الصادرة في بغداد تترجم المقالة بعد الأخرى وتنشرها بعناوين بارزة، كما انبرى عدد من الصحافيين الانتهازيين إلى كتابة مقالات تمجد عبقرية القيادة الجديدة في تفجير الطاقات العلمية الشابة التي رفعت إسم العراق عالياً. ومع ذلك لم يكلف أحد نفسه عناء البحث عن عالم الفيزياء العراقي رجب آشور بانيبال، ربما لاعتقاد الناس جميعاً بأنه لا بدَّ أن يكون واحداً من أبناء العراقيين الذين غادروا العراق في أيام المجاعات والحروب الشهيرة القديمة إلى أوروبا وأميركا، حتى وقعت الحكومة نفسها في ورطة حقيقية عندما تلقت طلبات كثيرة من الجامعات والأكاديميات في الغرب لتزويدها بنبذة عن حياة العالم الفيزياوي الكبير رجب آشور بانيبال المرشح للحصول على جائزة نوبل في الفيزياء.

ومما زاد في الطين بلة الضجة التي أثيرت أيضاً في الغرب حول الشاعر العراقي شهريار الذي قارنه النقاد بشعراء من مستوى شكسبير ودانتي وغوته. لكن أين هما؟ ومن هما؟ ظلّت أجهزة المخابرات والأمن تبحث عنهما عبثاً.

الجنرال القديس وحده كان يعرف أن كل ذلك من صنع صاحبه الشيطان المدعو بالأستاذ والذي ظهر ثانية، حاملاً معه حقيبة محشوة بالعملات الصعبة التي نهبها لصوصه الشاطرون من بنك أوف أميركا، قدمها له، قائلاً:

ـ إنها هديتي المتواضعة لك يا صديقي العزيز. ترى ماذا كنت ستفعل بدوني؟



لكنه إذ وجد الجنرال صامتاً قال له، هازلاً:

ـ كان ينبغي عليك أن تشكرني على الأقل. ولو كنت منصفاً لعينتني عضواً في مجلس قيادة الثورة القادم، وهو أمر كنت سأرفضه على أي حال، لأن كل متعتي تقوم على التمثيل من وراء ستارة.

حينذاك أعتذر له الجنرال وشكره:

ـ أنت صديق حقيقي.

ـ أعرف، أعرف. لا تبالغ كثيراً في عواطفك تجاهي.

ثم روى له ضاحكاً كيف أنه نشر بحث الجنرال الفلكي حول أينشتاين مع التعديلات الجذرية التي أدخلها عليه والدواوين الشعرية التي نظمها بنفسه ونشرها باللغات الأوروبية باسم شهريار ثم استعان بأعوانه للدعاية لهما. انفجر الجنرال الأول ضاحكاً قبل أن يقول:

ـ ولكن ما جدوى ذلك؟ لماذا فعلته؟

فرد عليه الأستاذ بحكمة الخبير:

ـ لقد فعلت كل ذلك من أجل الثورة. ما زال الشعب يكرهكم، أما إذا عرف أن عالماً مثل آشور بانيبال وشاعراً عالمياً مثل شهرزاد من بين قادة الثورة فسيختلف الأمر كثيراً. وبعد كل شيء فإنني أدخلت جواسيس الأمن والمخابرات في متاهة لا مخرج لهم منها، ملهياً إياهم عن المفاجأة الحقيقية التي تنتظرهم.

قال الجنرال القديس قلقاً:

ـ ما زلت أخشى ألا يقبلنا الشعب لما فعلناه به في الماضي.

قهقه الأستاذ:

ـ لا تخشى شيئاً، فذاكرة الشعب قصيرة. إنه يتشبث بأوهى الأوهام ليظل قادراً على الأمل.

*



في الساعة التاسعة إلا خمس دقائق حينما التقى الجيل الجديد بالجيل القديم في غرفة آمر كتيبة الجبل وأدوا جميعاً من جديد قسم الولاء لبعضهم، كما هي العادة، استلقوا في قاعة الذخيرة على أسرة سفرية، طالبين إيقاظهم في منتصف الليل، مدركين أن ثمة الكثير الذي ينتظرهم في اليوم التالي. كانوا قد رتبوا كل شيء، كما ينبغي له أن يرتب ولم يعد ثمة ما ينقصهم سوى الحظ السعيد. وفي حين غط الشيوخ في النوم حالما انسلوا إلى أسرتهم ظل العقداء الجدد يكابدون الأرق، مفكرين في كل الاحتمالات والمفاجآت التي يمكن أن يحملها الغد إليهم. ثم إذ وجدوا أن لا بدَّ لهم من النوم لجأوا إلى روحهم العسكرية وأصدروا أوامرهم التي لا تقبل الجدل: «أيها النوم إني آمرك أن تغلق عيني!» فلم يطل الأمر كثيراً حتى لبى النوم أوامرهم واحداً واحداً وجعلهم يغفون جميعاً مثل توائم سعداء ولدتهم أمهم بعد عناء.

كان الوقت لا يزال فجراً عندما خرجت الدبابات الأولى من وزارة الدفاع يقودها العقيد سليمان الفاتح بنفسه واتجهت إلى منزول نهلة مراد الذي اعتاد الرئيس أن يقضي لياليه فيه، حيث وجده الجنود سكران، ممدداً على السرير بين ثلاث فتيات عاريات فجروه إلى الحديقة وأطلقوا النار عليه، في الوقت نفسه الذي كانت فيه محطتا الإذاعة والتلفزيون تذيعان نشيد «اللّه أكبر» الشهير المرة تلو الأخرى، مع لقطات عن الحروب القديمة للجيش، فعرف الناس القصة وأيقظت النساء رجالهن الذين جلسوا ينتظرون البيان الأول للانقلاب الذي تأخر به حتى التاسعة والنصف صباحاً، لأن الجنرال الدرويش كان قد نسيه تحت وسادته في مقر كتيبة الجبل، فاضطر الجنرال القديس إلى الجلوس في إحدى غرف الإذاعة وتأليف بيان آخر كتبه كيفما اتفق. وفي أثناء ذلك ظهر الجنرال الدرويش على شاشة التلفزيون، معلناً



بصوته الجهوري المنفعل أن الجيش الباسل ألقى القبض على الرئيس الخليع حسن السعيد في بيت للدعارة، كان يقود منه البلاد فأعدمه ليكون عبرة لكل من تسول له نفسه الخيانة. ثم عرض التلفزيون الشريط الجنسي الذي استمر أكثر من نصف ساعة والذي كان أول شريط بورنو يعرضه التلفزيون العراقي في كل تاريخه، مما جعل الكثيرين من هواة الأفلام الجنسية الممنوعة يتصلون بالتلفزيون طالبين إعادة عرضه المرة تلو الأخرى حتى يتعرف الجميع على فساد العهد اليوتوبي القديم.

عند الظهيرة كان كل شيء قد انتهى، فالتقى الجنرالات القدامى والجدد في الغرفة التي اتخذوها مركز قيادة لهم وتعانقوا مهنئين أنفهسم على السلامة ومنصتين في الوقت ذاته إلى هتافات الجماهير الهادرة الراقصة في الشوارع.

حينذاك فقط شعر الجنرال القديس بأنه بعث حقاً ثانية إلى الحياة وفكر، مختنقاً بفيض السعادة التي غمرته، بأن أجمل ما في الحياة هو أنها تبدأ دائماً من جديد.



الجزء الرابع

زمن أطول من الأبدية




مكتبة
الفكر الجديد

٣٩
في عرين الأسد

حينما كان عادل سليم الأمير يكتب روايته، راصداً فيها الوقائع التي عاشها بنفسه ألح الشيوخ عليه المرة تلو الأخرى أن يطلعهم على ما كان قد كتبه عنهم، إلا أنه تهرب دائماً بذكاء، مدعياً أنه ما زال يريد طرح المزيد من الأسئلة عليهم ليتضح أمامه المشهد العام للرواية والذي قد يوصله إلى ما كان يعتبره العقدة التي سيبني حولها الأحداث التي يريد روايتها.

ـ أي عقدة يا شاب؟ كل ما تحتاجه هو أن تعود القهقرى إلى الزمن الذي عشنا فيه لترى أننا بذلنا نحن أيضاً، رغم سوء الطالع وكل ما يُقال عنا، ما في وسعنا لنكون جديرين بتلك المهمة الصعبة التي ألقيت على كواهلنا. صدقنا أنه لو كان ثمة من هو أجدر منا بالقيادة لتخلينا له عن الحكم طواعية. اسمع يا بني، ثمة حكمة يمانية تقول: كرسي الحكم مغرم، لا مغنم.، مأساتنا هي أن التاريخ نفسه هو الذي حكم علينا بأن نقف في الطابور ونحكم هذا البلد الذي يرفض حتى الشيطان أن يمد إصبعه إليه.

ـ المعذرة، كل هذا يبدو لي غريباً. إنني لا أفهم ما تقولونه، إن لم يكن الكرسي هو ما أردتموه من الحياة، فلماذا قدتم إذن الانقلاب



بعد الآخر ضد بعضكم الآخر وأغرقتم البلاد في الدماء؟ هذه هي الحقيقة، أليس كذلك؟

إنبرى الجنرال الدرويش الذي كان أول المنقلبين، مبرراً:

ـ هذا صحيح، كل الذنب يقع على الشيطان اللعين الذي وسوس في قلوبنا كما يفعل دائماً، فوقعنا في حبائله وفخاخه. نعترف أننا كنا لا نزال سذجاً تنقصنا التجربة.

كان ذلك في الحقيقة جواباً سحرياً يقطع الطريق على كل من تسول له نفسه التشكيك الآن أيضاً في نوايا هؤلاء الشيوخ الذين انقلبوا حكماء فجأة.

ـ أنت ما زلت شاباً يا بني ولا تعرف تماماً ما يدور في القلب الإنساني العامر بالظلمات. أقسى المجرمين في العالم هم ضحايا أنفسهم قبل أن يكونوا ضحايا أي أحد آخر. هذا هو قدر الإنسان إلى الأبد. أجل، إننا كنا ضحايا أنفسنا. هذه هي الحقيقة المريرة.

عندها اقترح الجنرال الشاعر:

ـ اسمع يا عادل، بدل البحث عن عقدة لقصتك في الماضي، لماذا لا تبحث عنها في الحاضر؟ نحن أنفسنا نسينا الماضي ونشعر أننا ولدنا من جديد. هذا ما ينبغي عليك أن تدونه عنا. ها هنا تكمن العقدة التي تبحث عنها لقصتك.

رد عادل سليم الأمير الذي أخذ بالفكرة:

ـ ما تقوله يناسبني تماماً، سوى أنني لا أعرف كيف أنهي قصة تبدأ في الحاضر.

ـ لكل حاضر نهاية أيضاً، كل ما ينبغي عليك فعله هو انتظارها ولسوف تأتي بالتأكيد.





لم يكن عادل سليم الأمير قد شفي بعد من الصدمة التي تلقاها حين اكتشف أن هؤلاء الشيوخ الذين قاده القدر إليهم قد ارتكبوا كل تلك الجرائم التي ينسبها التاريخ إليهم مما جعله يغرق في الوساوس والهموم.

يا إلهي، أي وحوش التقيتها وأي متاهة وصلت إليها! أيكون كل هذا حلماً مثل كل أحلامي الماضية؟ إنه ليس حلماً وإنما شيء يشبه الحلم، طيف مرمي في مهب الذكريات. كنت أرى نفسي حراً من الدم الذي سكب في زمن لم يكن زمني فإذا بي ألتقي أسلافي ثانية. أحس أنا الآخر بالدم على يدي، أغسله المرة تلو الأخرى، لكنه يظل ملتصقاً بجلدي. من قادني إلى هؤلاء الشيوخ الذين كان عليهم أن يموتوا منذ زمن طويل؟ هؤلاء الذين تورطت بهم حتى بت لا أعرف كيف أتخلص منهم؟ إنهم يتشبثون بي كما لو أنني الكائن الوحيد الذي عرفوه فوق الكرة الأرضية. حينذاك عندما صعدت جبل شوان ورأيتهم لم أصدق عيني. قلت لنفسي: ما الذي يفعله هؤلاء الشيوخ المختفون بين الصخور في مثل هذا المكان القاحل؟ فكرت أنهم ربما كانوا قد هجروا العالم ليظلوا أوفياء لأنفسهم، فإذا بي أبلغ قعر حفرة التاريخ.

*

توقفت في ظهيرة ذلك اليوم الذي وقع فيه الانقلاب سيارة جيب عسكرية أمام شقة عادل سليم الأمير، هبط منها ضابط يصحبه ثلاثة جنود، صعدوا جميعاً وطرقوا الباب عليه، مبلغينه بكثير من الأدب أن الجنرال القديس ينتظره في وكره التاريخي في وزارة الدفاع وأن عليهم أن يأخذوه إليه.

رحب مرافق الجنرال، وهو عقيد اعتاد أن يشهر مسدسه الذي يشده في وسطه بسرعة خارقة كلما تناهى إلى سمعه صوت حركة



مباغتة خارج الغرفة، مقلداً بذلك أبطال أفلام رعاة البقر الأميركيين، بعادل سليم الأمير حينما وصل، طالباً منه الجلوس حتى يفرغ الجنرال من الاجتماع الذي كان يعقده في قاعة العمليات مع القادة العسكريين.

كان الجو خانقاً في الغرفة الطويلة التي جلس فيها عادل سليم الأمير في تلك الظهيرة القاتلة من شهر تموز المعروف بلهيبه، رغم الشبابيك المفتوحة المطلة على الحديقة. قال المرافق بما يشبه الاعتذار:

ـ إننا كما ترى نعيش حياة قاسية، وليس كما يُقال عنا. كل هذا من أجل خدمة هذا الشعب الناكر للجميل.

بيد أنه سرعان ما استدرك مبرراً:

ـ لكنه يظل مع ذلك شعبنا، ماذا نفعل من أجله أكثر مما قمنا به حتى الآن؟

ثم راح يروي له كيف أنهم اضطروا إلى اقتلاع جهاز التبريد من المكتب مع وصول الجنرال القديس خشية أن يلجأ العدو إلى تسميم هواء الغرفة بالزرنيخ الذي لن يصعب وضع حفنة منه في برميل الماء الذي كان تحت متناول يد الجميع في الحديقة. فرغم حر الصيف الشديد أوعز الجنرال الذي كان قد ألف خشونة الحياة في المعسكرات وهو ينظر بريبة إلى جهاز التبريد حال دخوله مكتبه:

ـ أبعدوا هذا الصندوق من هنا، لا نريد أنْ نخسر الثورة بسبب قليل من الهواء البارد.

علق العقيد:

ـ المراوح المنضدية أكثر أماناً، أليس كذلك؟

أجاب عادل سليم الأمير مدارياً الموقف:

ـ هذا هو عين الصواب.



لم يكن المرافق كما يبدو يحمل أي فكرة عنه سوى ما كان الجنرال قد أوصاه به: «عامله كواحد منا»، ولذلك قال له:

ـ يخيل إليّ أنك ستعين وزيراً في الحكومة الجديدة!

إبتسم عادل الذي بدا مأخوذاً بالموقف الذي وجد نفسه فيه:

ـ أنا أكون وزيراً؟ ليس الأمر كما تعتقد.

ـ ولماذا لا؟ أنت أول مدني سأل عنه الجنرال. يبدو أنه يكن لك الكثير من المودة.

بدا عادل محرجاً فقال له ليقطع عليه طريق المزيد من الأسئلة التي ما كان يعرف حتى كيف يرد عليها:

ـ كل ما في الأمر هو أنني صديق قديم للجنرال ورفاقه. ربما أرادوا أن يطمئنوا على أوضاعي في مثل هذا اليوم.

ـ ليس هذا هو السبب بالتأكيد. إننا نحتاج إلى الشباب من أمثالك.

وإذ شعر عادل بالضجر من الحديث مع هذا العقيد الذي كان ينهض بين الحين والآخر ويطل برأسه من النافذة إلى الحديقة ثم يعود وقد اطمأن إلى مكانه، راح يراقب من مقعده الضباط والجنود المتكدسين في الممر وفي أيديهم الرشاشات. ثم أخرج بحركة آلية علبة سيجايره من جيبه وأشعل لنفسه سيجارة، متأملاً في ما يحدث أمامه، كاتماً ضحكة كادت تفلت منه، وهو يرى نفسه جالساً في عرين الثورة، كما قال له العقيد المرافق.

ثم انفتحت الباب أخيراً وخرج الجنرال مع رجاله فنهض عادل، رامياً السيجارة في المنفضة وهو لا يكاد يصدق ما تراه عيناه. لم يعد أصحابه الأربعة أولئك الشيوخ الهرمين الذين عرفهم في شعاب جبل شوان أو في قصر الذكريات كأنما لم تكن الشيخوخة سوى قناع آخر من الأقنعة الكثيرة التي ارتدوها في حياتهم. عانقوه بمحبة مفرطة



وقال له الجنرال القديس مداعباً وهو يقدمه إلى الضباط الآخرين الذين استغربوا كل هذا الاهتمام به:

ـ أين كنت يا بني؟ تعال انظر كيف يعيد التاريخ نفسه.

فرد عادل الذي بدا مبهوتاً في حضور الضباط:

ـ هذا ما تعلمته الآن منكم.

ضحك الجنرال الشاعر وهو يربت على ظهره:

ـ أنت ما زلت شاباً، هناك الكثير الذي ستتعلمه في المستقبل منا.

ثم التفت إلى الضباط الآخرين الذين راحوا يطيلون النظر في الشاب الواقف أمامهم، كما لو أنهم يريدون اكتناه سره:

ـ إننا ندين بالكثير لهذا الشاب الذي لولاه لضعنا إلى الأبد. فقد وقف إلى جانبنا حينما أنكرنا الجميع.

عند ذاك نادى وزير الدفاع حارسه ودفع له خمسة دنانير، طالباً منه أن يجلب لهم الكباب من مطعم أربيل القريب مع الكثير من البصل والطماطة، ثم قائلاً لعادل:

ـ حسناً، ستتغدى معنا اليوم، حتى يكون بيننا الخبز والملح.

حينما وصل الكباب صف الجنود مناضد عدة لصق بعضها وغطوها بورق جرائد قديمة قبل أن يضعوا فوقها أطباق الكارتون السفرية المليئة بالكباب الذي رش فوقه السماق فجلس قادة الثورة القدامى والجدد ليأكلوا غداءهم الأول في العهد الجديد فيما كانت راديوات الترانزستر الموضوعة أمامهم تذيع المارشات العسكرية وبرقيات التأييد من قادة الجيش ورجال الأمن ومختاري المحلات.

بعد ذلك وحينما قدم لهم الشاي تمدد الجنرال القديس على سرير مغطى ببطانية سوداء، هو نفس سريره الذي كان ينام عليه في الماضي، فيما قرب الآخرون كراسيهم منه، مشكلين نصف دائرة حوله، وراحوا



يتحدثون، ساخرين من الحكومة التي سقطت بإطلاقة مدفع واحدة والرئيس الذي فر من السرير الذي كان ينام فيه بين ثلاث عاهرات، محاولاً الاختباء في حمام بيت نهلة مراد فجروه مثل فأر مذعور وأعدموه أمام كاميرة التلفزيون الحكومية الوحيدة. اعتقد عادل أنهم قد نسوه تماماً حتى التفت الجنرال القديس إليه فجأة:

ـ لا يليق بك يا بني عادل أن تظل مرتدياً مثل هذه الملابس المدنية السخيفة.

قال عادل سليم مستغرباً:

ـ إنها الملابس التي ارتديتها دائماً يا سيدي الجنرال، كما تعلم.

ـ ليس بعد الآن. إنني أعينك ملازماً أول باسم الثورة.

ثم نادى على أحد ضباطه وأمره أن يدبر له من المخزن في الحال بدلة مناسبة.

عاد الضابط بعد قليل، حاملاً بيده بدلة مقدم وقال معتذراً:

ـ لم أعثر يا سيدي إلا على بدلة مقدم.

قال الجنرال مبتسماً:

ـ حسناً، هذا أفضل حقاً، إنني أعينك يا عادل سليم الأمير مقدماً في جيش الثورة.

ما كاد الجنرال ينطق بهذه الكلمات حتى دوى التصفيق ونهض الجميع ليصافحوه، مهنئينه على الشرف الكبير الذي أغدق عليه. أصيب عادل أولاً بالخرس من هذه الصدمة التي لم يتوقعها في أبعد أحلامه حتى تماسك نفسه وقال بصوت مرتجف، مخاطباً الجنرال القديس:

ـ لكنني لا أعرف ما يمكن أن أفعله يا سيدي.

رد الجنرال عليه ممازحاً:

ـ ستكون شاعري الخاص لتمدحني إذا أردت وتكتب لي



تصريحاتي وخطبي بأسلوبك الأدبي المنمق. ليس الأمر صعباً كما ترى.

وكمن تذكر أمراً ما أشار بيده إلى منضدة لا تزال بقايا الكباب عليها، قائلاً:

ـ سيكون هذا مكتبك لتظل قريباً مني دائماً وتكتب قصتنا التي كنت تفكر في كتابتها.

ثم نهض خارجاً ليلقي كما كان يفعل في الماضي نظرة على رجال الأمن القدامى الذين كانت جموعهم قد احتشدت منذ الصباح أمام وزارة الدفاع، مغنية وراقصة في الشارع، فرحة بعودة جنرالها الذي طال غيابه.

*

فاجأ الانقلاب الجديد الناس بطريقة لم يتوقعوها، إذ لم يخطر في بالهم قط أنه يمكن للموتى أن يبعثوا من قبورهم حقاً. فهؤلاء الرجال العائدون من الماضي لم يكونوا في نظرهم سوى تماثيل في متحف، يتفرجون عليها تزجية للوقت. ولأنهم لم يكونوا يعرفون الكثير عنهم راحوا يبحثون عن الكتب التاريخية التي تتحدث عن زمنهم ليعرفوا كيف يتعاملون معهم. ومع ذلك لجأ الكثيرون منهم إلى بيوتهم عندما رأوا مظاهرة رجال الأمن في الشوارع تهتف بحياة الجنرالات القدامى، مثيرة استغرابهم. لكنهم حين سألوهم ببراءة: «ما الذي يجعلكم تؤيدون هؤلاء الموتى؟» ردوا عليهم بذلك المثل العراقي الذي كان قد انتشر في أزمنة الطاعون الماضية: «من تزوج أمي صار عمي»، وهو أمر استنكره آخرون بالطبع، كاتمين ما يعتمل في نفوسهم من غضب، خشية الانتقام منهم.

ولكن كل ذلك لم يمر بدون مقاومة بالطبع، فقد انتفض الشبان



في أحياء كثيرة في بغداد ضد من أسموهم بالمتمردين واحتل القناصون منارات الجوامع، مطلقين منها النار على دبابات الانقلابيين التي راحت تطلق نيرانها على الجميع، هادمة البيوت فوق رؤوس سكانها مثلما أغارت الطائرات على مناطق المقاومين وقصفتها بصواريخها الروسية والأميركية الموجهة إليكترونياً. ثم انسحبت الدبابات فجأة حينما قدمت دبابات جديدة تحمل صور دليلة الملاك والأعلام اليوتوبية، فترك الناس مواقعهم وخرجوا للترحيب بها، غافلين عن الفخ الذي نصبه العسكريون لهم، ذلك الفخ الذي طالما استخدموه في انقلاباتهم كلها بنجاح منقطع النظير.

بعد يومين أو ثلاثة اختفى كل أثر للمقاومة بعد أن قتل الجنود الألوف من المقاومين الذين كانوا يصفونهم على الجدران ويطلقون النار عليهم مثلما امتلأت السجون بالمعتقلين والمستشفيات بالجرحى. ومع ذلك صدر كالعادة بيان وصف فيه الجنرالات انقلابهم الجديد بـ «الثورة البيضاء»، فقد كان عدد القتلى هذه المرة أقل من كل المرات السابقة، حسب زعمهم.

ـ عاشت ثورتنا البيضاء!

ـ عاش الجنرال القديس إلى الأبد!

لم يفلح عادل سليم الأمير في التخلص من الورطة التي وجد نفسه فيها والخروج إلى الشارع إلا في اليوم الثالث من الانقلاب، حيث أوصلته سيارة جيب عسكرية إلى شقته التي وجد أن دليلة الملاك وأحمد كانا قد لجآ إليها. لكنهما ما كادا يريانه وهو يرتدي بدلته العسكرية حتى وقفا يحدقان فيه بدهشة. ثم قالت دليلة مستغربة:

ـ ما هذا الذي فعلته بنفسك؟

رد عادل بشيء من الخجل:



ـ هم الذين فعلوا ذلك بي. لم أستطع الإفلات من أيديهم إلا الآن.

ضحك أحمد:

ـ مقدم هكذا دفعة واحدة؟

ـ لا تسخر مني. لم يكن ثمة خيار آخر أمامي. لقد كنت في عرين الأسد نفسه. فلو رفضت عرضهم لأطلقوا النار علي.

واسته دليلة:

ـ إنني أفهم ذلك تماماً، ولكن أرجو ألا تظل طويلاً متشبثاً بهذه البدلة المضحكة.

ـ ما هذا الذي تقولينه؟ إنك تجرحينني عندما تعتقدين أنني سعيت إلى ذلك بنفسي. ماذا كان يمكن لي أن أفعل؟

ـ لا شيء، لقد قلت لك إنني أفهم ذلك.

ـ حسناً قولي لي الآن كيف أتخلص منهم.

ـ سوف تتخلص منهم عندما تحين اللحظة المناسبة، وحتى ذلك الحين لا بدَّ من الانتظار.

تدخل أحمد:

ـ إنني أرى ألا تفرط بمثل هذه الفرصة. فقد تكون مفتاحنا لإنقاذ البلد منهم.

سأله عادل:

ـ ماذا تقصد بذلك؟

رد أحمد بهدوء:

ـ ينبغي أن نقتلهم جميعاً.

قال عادل مضطرباً:

ـ لا أستطيع أن أقتل أحداً.

لكن أحمد رد عليه حانقاً:



ـ أما أنا فأستطيع، لأنني سأنقذ بذلك حياة الناس كلهم.

تدخلت دليلة:

ـ دعنا من هذه الترهات يا أحمد. لا يمكن للموت أن يكون طريقا الى الحياة.

فرد أحمد بحدة:

ـ لا تاريخ للحياة في هذا البلد سوى تاريخ الموت.



٤٠

شهر عسل الذئاب

ما كاد يمر شهر واحد على الانقلاب، وهو الشهر الذي أطلق عليه خصومهم بعد ذلك تندرا إسم «شهر عسل الذئاب»، حتى بدأت المشاكل تخرج رؤوسها الأفعوية من مخابئها كالعادة. فقد انتشرت فجأة ظاهرة جديدة لم تعرفها بغداد من قبل، إذ راح الناس يرمون بكلابهم التي طالما دللوها في الماضي متذمرين إلى الشوارع بعد ركلها على قفاها مما جعلها تتكاثر كالوباء، محتلة الساحات والأزقة، بطريقة صار من الصعب على المرء فيها أن يغادر بيته في الليل بدون هراوة يحملها في يده:

ـ على الكلاب أن تعيل نفسها بعد اليوم. إن رواتبنا القليلة لا تكاد تكفينا نحن أنفسنا.

هكذا راح الناس يبررون أفعالهم تلك، ملقين باللوم على عاتق الحكومة التي قالوا إنها جلبت الدمار لهم.

ومع هذه القطعان السارحة التي لا تكف عن النباح والعواء وقعت حوادث كثيرة نهشت فيها الكلاب سيقان ضحاياها، ولكن أسوأها حدث للعقيد سلمان الفاتح نفسه، ففي ذات يوم وهو يهبط من سيارته أمام بيته ليتناول الغداء الذي كانت قد أعدته له زوجته هاجمه قطيع من الكلاب المتوحشة التي خرجت فجأة من وراء جذوع



الأشجار في الحديقة، فسحب مسدسه وراح يطلق النار عليها كيفما اتفق، مطارداً إياها في الشارع، مردياً ثلاثة منها، فضلاً عن إصابة عابر سبيل برصاصة طائشة في رجله.

كان العقيد يكره الكلاب في الحقيقة منذ نعومة أظفاره بطريقة تكاد تكون غريزية، لشعوره بالغثيان من رائحتها التي كانت تذكره برائحة زيت الخروع الذي كانت أمه ترغمه، إذ كان صغيراً، على ابتلاع ملعقة منه قبل النوم، فيشعر كما لو أنه يشرب بوله ذا الرائحة المدوخة، بدعوى قدرته السحرية على إشفاء ضيق الصدر الذي كان يجعله يختنق أثناء النوم، رائياً في كوابيسه الكلاب والقطط تجثم فوق صدره وتلعق دمه. ولكن ربما أيضاً، رغم مرور أعوام طويلة على الحادث، لأن كلباً سائباً عضه ذات مرة، وهو يخترق أحد الأزقة في طريقه إلى المدرسة ومزق سرواله الوحيد عند الركبة. لم ينبح الكلب لينذره بالخطر. هجم عليه فجأة وأنشب أنيابه في لحمه الغض ثم عاد وقرفص في زاويته تحت جدار ذلك البيت الخرب، مولولاً. لكن انتقام العقيد الذي كان لا يزال صبياً حينذاك من الكلب كان مريعاً. فقد أعطته أمه، وهي أرملة ناقمة على العالم كله، قطعة لحم شكتها له بالإبر، رماها للكلب الذي ما كاد يلتقمها ممتناً حتى راح يتلوى من الألم ويتمرغ بالتراب. في اليوم التالي حين مر بالخرابة وجد الكلب قد فطس.

ولذلك استدعى في اليوم نفسه الذي هاجمته فيه الكلاب مدير الشرطة وأوكل إليه مهمة إنشاء شعبة خاصة في دائرته لقتلها بدون رحمة والقضاء عليها:

ـ إنها من آثار الماضي البغيض الذي يجب القضاء عليه!

وهكذا صار يخرج كل صباح عشرون شرطياً إلى الشوارع، . مرتدين زياً خاصاً بهم، أشبه ما يكون بقلنسوة سوداء ذات قناع يغطي الوجه فلا تبين منه سوى العينين، فوق بدلة صفراء من قطعة واحدة،



استخدمها لأول مرة الجندرمة العثمانيون الذين كانوا يتحرون عن ضحايا الطاعون في المحلات والأزقة فيغلقون عليهم أبواب بيوتهم ونوافذها بالمسامير ويشعلون فيها النار.

كانوا يسيرون من زقاق إلى آخر، متبوعين بقوافل من الأطفال المتبرعين لإرشادهم إلى أوكار الكلاب المختبئة، حيث كانوا يقرفصون مادين أذرعهم إلى الأمام ومسندين بنادقهم، وهي من طراز برنو وويبلي، إلى أكتافهم ويسددون النار إلى رؤوسها. ولكن حدث أيضاً ما لم يكن في الحسبان، فعندما أطلقت النار على بعض الكلاب التي يبدو أنها شمت الخطر فحاولت النجاة بجلودها الجرباء أضلت الرصاصات طريقها فجرحت واحداً أو أكثر من المارة وأفزعت النساء الحوامل مما جعل مدير الشرطة يوقف العمل في شعبة قتل الكلاب السائبة حتى تفتق ذهنه عن فكرة أخرى أثبتت جدواها تماماً. قرر باقتراح من العقيد نفسه أن يدفع ربع دينار لكل من يأتيه بجثة كلب قتيل، ثم إذ رأى حماسة الشعب للفكرة شمل القطط أيضاً بقراره، ولو بمبلغ أقل من ذلك، مئة فلس فقط، مطلقاً اسماً جديداً أكثر تحضراً هذه المرة على الشعبة هو «شعبة تطهير البيئة».

نجحت الفكرة في الحقيقة بطريقة لم يتصورها أحد. فقد صار في إمكان المرء أن يرى الآلاف من الرجال العاطلين عن العمل، يجوبون الشوارع والأزقة، مطاردين الكلاب والقطط من مكان إلى آخر، مهشمين رؤوسها بالهراوات التي كانوا يحملونها في أيديهم، قبل وضعها في أكياس السكر والرز الفارغة التي جلبوها معهم. وفي كل يوم بعد الظهر كان يقف أمام مركز شرطة السراي مئات من حاملي أكياس الجثث التي جاؤوا بها ليسلموها إلى الشرطة لقاء وصولات ممهورة وموقعة من قِبل المعاون نفسه بعدد الكلاب والقطط المصروعة ثم يأخذونها بعد ذلك إلى دائرة الحسابات العامة لصرفها لهم.



ومثلما هو متوقع دائماً في مثل هذه العمليات التي تتطلب رقابة حكومية صارمة كانت تنعدم مع كل إنقلاب جديد تشهده البلاد وقعت حوادث فساد أيضاً، كشفت عنها جماعة سرية أطلقت على نفسها اسم «جمعية أصدقاء الكلاب والقطط» التي شهرت في منشور سري مكتوب على الآلة الطابعة، ألصقته ليلاً على جدران المدينة، بمدير الشرطة، زاعمة أن عمليات القتل البربرية للكلاب والقطط اتخذت ذريعة لسرقة خزانة الدولة. فالكلب الواحد المقتول يصبح في القوائم المسجلة ثلاثة أو أربعة أو خمسة كلاب وكذلك الأمر مع القطط. وأسوأ ما في الأمر هو أن هذه الجثث التي يفترض حرقها كل يوم يُعاد الكثير منها إلى أصحابها لبيعها ثانية وثالثة ورابعة مما أدى إلى انتشار أوبئة لم يعرفها الناس من قبل مثلما زكمت رائحتها النتنة الأنوف. ثم أوضحت الجماعة أن الدول المتحضرة تهتم بالكلاب والقطط حتى أكثر من اهتمامها بالإنسان نفسه، ذلك لأن الإنسان يستطيع أن يتدبر أموره بنفسه بعكس الكلاب والقطط التي لا معيل لها سوى البشر، مشيرة إلى أنه في بلد مثل ألمانيا يحصل الكلب على راتب شهري من الدولة، إن لم يكن صاحبه قادراً على إعالته. ثم ختمت بيانها بهتافات ثورية على الطريقة الشائعة في صفوف العاملين في الأحزاب السرية:

ـ لتعش الكلاب، صديقة الإنسان الوفية، آمنة مطمئنة في عراقنا العظيم!

لتعش القطط سعيدة فوق أرض الرافدين!

وليسقط الجلادون القتلة!

لم يصدق مدير الشرطة أن الأمر يتعلق بالفعل بالدفاع عن الكلاب والقطط وإنما بتلطيخ سمعة الإنقلابيين. كان كل ما ورد في البيان صحيحاً، ما عدا أنه لم يكن طرفاً فيه ولذلك بادر، بعد أن



استدعاه العقيد ووبخه على ما آلت إليه الأمور، إلى معاقبة المفسدين من رجاله، مشرفاً بنفسه على تسلم جثث الكلاب والقطط لقاء وصولات وحرقها أمام عينيه كل يوم. وفي الوقت ذاته تقريباً تولى رجال الأمن الذين عادوا إلى أعمالهم السابقة البحث عن أعضاء تلك الجمعية المدافعة عن الكلاب والقطط حتى اعتقلتهم كلهم، وهم ثلاثة أصدقاء وافدين إلى المدينة من قضاء كفري، أرغموا تحت التعذيب على إعلان كرههم للكلاب والقطط وتأييدهم للخطوات الحكيمة للدولة كشرط لإطلاق سراحهم بكفالة، بعد أن عفا عنهم العقيد.

لكن هذه الحادثة العابرة لم تمنع العقيد الذي تلقى تقريراً عن النجاح الذي حققته الحملة في العاصمة من التفكير بتعميمها على البلاد كلها بعد أن تلقى شكاوى كثيرة من الصحافيين الأجانب الذين قدموا إلى العراق لإجراء مقابلات مع القادة الجدد ولكن أيضاً من أولئك العاملين في شركات النفط المنتشرة في البلاد بأنهم لا يكادون يجرؤون على مغادرة بيوتهم ليلاً بسبب قطعان الكلاب الشرسة التي تخرج إلى الشوارع فتحتلها حتى صباح اليوم التالي، مطاردة كل من يقترب منها أو يمر بها. وهكذا طلب من وزيري الداخلية والصحة بالأخذ بالفكرة وتخليص العراق من وباء الكلاب والقطط السائبة خلال شهر من الزمان، وهو الأمر الذي جعل الناس يشمرون عن أردانهم ويخرجون إلى الشوارع في كل مكان، مصطادين مئات الألوف منها خلال أيام قليلة بطريقة أرهقت ميزانية الدولة حتى صدر بيان رسمي من وزارة الدفاع يعلن نظافة العراق من الكلاب والقطط.

* * *

ومع ذلك لم يكد يمر شهران أو ثلاثة على نهاية الحملة حتى امتلأت البلاد بها، كما لو أنها بزغت من باطن الأرض ثانية، بدون



أن يعرف أحد كيف أفلحت كل هذه القطعان من النجاة من المجزرة. ورغم أن الكثير من الناس آملوا في صدور بيان جديد يحضهم على قتلها، كأسرع وسيلة للحصول على النقود، إلا أن العقيد الذي كان قد يئس من القضاء عليها ولم يعد قادراً على تبديد المزيد من الأموال التي كان يحتاجها لتسليح جنوده تركها تسرح وتمرح على هواها وتعض من تشاء حتى بدون أن تجد من يتصدى لها.

هذا الفشل أثار نقمة الجنرال القديس الذي انتقد الحملة في النهاية:

ـ كان ينبغي عرض الموضوع على مجلس قيادة الثورة أولاً. ما الذي سيقوله الناس عنا الآن؟ لقد هزمتهم الكلاب السائبة نفسها. على الثورة أن تثبت أنها قادرة على فعل كل شيء تريده، وإلا فقدت احترام الناس لها.

حاول العقيد التخفيف من وطأة الأمر:

ـ الأمر يتعلق بالكلاب، لا بالبشر، يا سيدي الجنرال. لم أعتقد أنني لا أملك حتى صلاحية قتل الكلاب السائبة.

ـ إنني لم أقل ذلك، المشكلة هي أن الحملة انتهت إلى الفشل، وهو أمر لا يليق بنا.

رد العقيد مبرراً:

ـ لقد قضينا عليها تماماً، وفي إمكاني أن أثبت ذلك بشهادات لا تدحض. وإذا كانت قد عادت وتكاثرت مرة أخرى فلأن كلاباً جديدة تسللت إلى البلاد من الخارج. الذنب كله يقع على حرس الحدود.

ثم أضاف منزعجاً قبل أن يترك الاجتماع غاضباً:

ـ وفي كل الأحوال فإنني وزير للدفاع عن البلاد ضد الأعداء وليس للحرب ضد الكلاب.

لم تكن هذه في الحقيقة هي المرة الأولى التي يجد فيها العقيد



نفسه عرضة للنقد واللوم من قبل «عصابة الأربعة»، كما راح يسميهم في مجالسه مع الضباط المقربين منه. وقد راودته نفسه أكثر من مرة في أن يضع حداً لذلك، لولا قدرته الغريبة على ضبط أعصابه والسيطرة عليها، معتقداً أن هؤلاء الشيوخ العائدين من الموت والذين ما كان عمر الواحد منهم ليقل عن المئة عام بالتأكيد ليسوا سوى فزاعات مليئة بالقش، لن تصمد طويلاً أمام رياح الحياة الجديدة. كان يعرف بالطبع مدى قدرتهم على الحقد، ولذلك وضعهم منذ اليوم الأول تحت رقابة عيون رجاله الساهرة استعداداً لليوم الذي يعيدهم فيه ثانية إلى الجحيم. كانوا لا يزالون مفيدين في نظره، مؤقتاً على الأقل:

- إنهم يتصرفون كزعماء حقيقيين، غير مدركين أن المرء لا يلعب الدور نفسه مرتين في الحياة.

مثل هذه المناكدات اليومية استمرت بضعة شهور أخرى، ليس فقط بين الجنرالات الشيوخ والعقداء الشبان وإنما بين الشيوخ أنفسهم أيضاً، فقد وقعت أحداث ما كان أحد من الناس ليتصورها حتى في خياله، ومن بينها ذاك القرار المتعلق بوزن الوزراء والدبلوماسيين والعسكريين ورجال الشرطة وموظفي الدولة وقياس أطوالهم لاختبار مدى صلاحيتهم للخدمة، مرة كل شهر، طبقاً لجدول خاص يتناسب فيه الطول مع العرض، وهو أمر تحايل عليه الكثيرون على أي حال، حين راحوا يرشون الوزانين وقائسي الأطوال الذين نصبوا موازينهم على الأرض العارية ورسموا المقاييس المترية على قماشة بيضاء ملصقة على جدار ما في غرفة، وضعت تحت تصرفهم في كل وزارة ودائرة. وهكذا توجب على الجميع في أيام فحص اللياقة البدنية، وهو الاسم الرسمي للعملية، أن يقفوا حفاة وهم لا يرتدون سوى سراويلهم الداخلية في صف طويل في انتظار دورهم، مرتعبين من



فكرة رسوبهم وطردهم من الخدمة. وقد دفع الخوف من الطرد البدناء منهم إلى الانقطاع قبل أسبوع من ذلك على الأقل عن تناول الطعام أما القصار منهم فقد ألصقوا بالصمغ اللاصق طبقات كثيفة من جلد البقر تحت باطن أرجلهم لتزيد من أطوالهم بضعة سنتيمترات على الأقل. وبدا الأمر مضحكاً بعض الشيء للمرء وهو يرى مديراً عاماً أو وكيل وزارة يتوسل إلى الوزانين ليسجلوا له المقاس المثالي:

ـ عيني سجل ١٧٠ سم x ٦٥ كغم، هذا طولي ووزني دائماً.

فيرد عليه أحد الوزانين مبتزاً إياه:

ـ سيدي أنت غلطان، قياسك هو: ١٦٠ سم x ١٢٠ كغم.

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أنا أعرف نفسي أكثر من غيري. سجل ما قلته لك حتى أصرف لكم الإكرامية التي تستحقونها.

ـ صحيح يا سيدي أنا غلطان، وزنك الطبيعي هو: ١٧٠ سم x ٦٥ كغم، وهو مقاس سيظل ثابتاً إلى الأبد بإذن اللّه.

ـ الرشاقة من الإيمان.

* * *

ثم حانت أخيراً اللحظة التي بلغ بها السيل الزبى. فقد أرسل الجنرال الدرويش المولع بفكرة الانتقام من خصومه ذات مرة حرسه إلى بيت في المنصور لاعتقال شاعر كان قد هجاه في قصيدة شاعت على ألسنة الناس قبل أكثر من نصف قرن من الزمان، ولكنهم إذ وجدوه ميتاً قبضوا على ابنه الذي كان في الثمانين من عمره، طالبين منه أن يدلهم إلى القبر الذي دفن فيه والده، فعثر عليه بعد بحث استمر ثلاثة أيام، وحينئذ أمرهم الجنرال الدرويش بنبش قبره وحمل هيكله العظمي إليه، فجلبوه داخل كارتون من المقوى ووضعوه أمامه في مكتبه.

جلس أياماً يمسح العظام بنفسه قطعة قطعة بالديتول، بعون من



طبيبه الخاص ويلصقها ببعضها بالصمغ حتى إذا انتهى من ذلك وضع بيرية على جمجمته، كما اعتاد الشاعر أن يفعل عندما كان لا يزال على قيد الحياة، وركنه جانباً في مكتبه قبل أن يصدر بياناً من الإذاعة دعا فيه الشعب إلى حضور احتفال إعدام الشاعر في الباب الشرقي، ليكون عبرة لمن اعتبر.

لم يفهم الناس القصة بالطبع، ولكنهم إذ رأوا الهيكل العظمي للشاعر يتدلى من المشنقة، ببيريته القديمة وقد علقت فوق صدره لوحة خطت عليها كلمة «الخائن» ظلوا صامتين قليلاً أمام هذه الإهانة التي ألحقها الانقلابيون الشيوخ بشاعرهم الذي كانوا قد حفظوا العديد من قصائده عن ظهر قلب في المدرسة حتى انطلقت فجأة هتافات منفردة مدوية من الخلف «الموت للانقلابيين» و«تسقط الدكتاتورية» ثم اتسعت وشملت الجمهور المتفرج كله، فهجم الناس على رجال الأمن والشرطة الواقفين تحت المشنقة، وأشبعوهم ضرباً وركلاً، محررين الهيكل العظمي لشاعرهم الكبير من حبل المشنقة وحامليه على الأكتاف وهم يهتفون:

ـ المجد والخلود لشاعرنا الكبير.

وفي النهاية وضعوا الهيكل العظمي فوق كتفي تمثال السعدون الذي يقف عند مدخل الشارع الذي يحمل اسمه وراحوا يغنون متحدين بصوت هادر نشيدهم اليوتوبي القديم.

اتخذ الجنرال القديس من هذا الأمر حجة لا ليتخلص فقط من الجنرال الدرويش والعقيد سلمان الفاتح الذي شعر أنه راح يتآمر ضده وإنما أيضاً من منافسيه كلهم. فإذا كانت سذاجته قد قادته ذات مرة إلى الإعدام رمياً بالرصاص فإن عليه الآن أن يمسح ذكراهم مرة وإلى الأبد. فكر في البداية أن يشنقهم جميعاً في احتفال عام أمام الشعب حتى لا يشك أحد بعد ذلك في موتهم الذي كانوا يعودون منه دائماً،



ولكنه فضل في النهاية أن يلعب معهم بطريقة يكسب بها قلوب اليوتوبيين الداعين إلى الحب. في المساء صدر بيان من الجنرال كشف فيه عن مؤامرة دبرها العقيد وزير الدفاع مع الشيوخ الثلاثة الآخرين الذين أغواهم الشيطان ثانية ضده، ملقياً باللوم كله على عاتقهم في المجازر التي شهدتها البلاد، مذكراً الناس بتاريخهم الأسود القديم ونكرانهم للجميل بعد أن عفا عن جرائمهم في كل مرة كانوا يتآمرون فيها ضده:

- لا ينبغي للمرء أن يلدغ من الجحر نفسه مرتين.

ولم ينسَ أن يضمن بيانه التقارير التي حررها الأطباء عن خرفهم الذي لا شك فيه بسبب الشيخوخة ثم قال:

- كان في إمكاني أن أعدمهم جميعاً، لكن الرحمة فوق العدالة دائماً، لذلك وضعتهم في المكان الصحيح الذي يناسبهم فعلاً: دار العجزة.

بيد أن إبقاءه على حياة رفاقه الشيوخ لم يكن بدون ثمن دفعوه غالياً، وهو ما لم يشر إليه على أي حال في بيانه ذاك. فقد أمر في اليوم ذاته جراحي الكلية العسكرية ببتر الرجل اليسرى حتى الفخذ للجنرال الدرويش الذي كان أول المنقلبين ضده في الزمن الأول وبقطع اليد اليمنى لجنرال الفلك الذي كان وزير دفاعه ذات مرة. أما الجنرال الشاعر الذي كان يشتمه في كل مقامة يغنيها فقد قلع لسانه من الجذر، مثلما سمل عينيه حتى لا يرى القمر الذي كان يجعل قريحته تتفتق شعراً منمقاً. ولكن الأسوأ حدث مع وزير دفاعه، فعندما اقتحم الجنود بيته لإلقاء القبض عليه واقتياده إلى الجنرال وجدوه قد ترك كل شيء وراءه، هارباً بسيارته العسكرية باتجاه إيران، فلاحقته طائرات الهليكوبتر التي ظلت تمطره بالصواريخ عبثاً حتى أفلح في اجتياز الحدود، واصلاً طهران في اليوم ذاته، حيث عقد مؤتمراً صحافياً



أعلن فيه عن تشكيل جيش جديد باسم «عسكر خلاصي مستضعفي إسلام» قال عنه إنه سيحرر الوطن مرة وإلى الأبد من حاكمه المجنون.

كان ذلك كافياً بالطبع ليجعل الجنرال القديس يحكم عليه بالإعدام ويتهمه بالخيانة، بدعوى ارتباطه بالسافاك وتواطؤه مع الشاه رضا بهلوي تارة ومع الخميني تارة أخرى منذ أن كان مقيماً في أحد أزقة النجف، زاعماً أنه كان يجلب بنفسه كل يوم الآلاف من الكلاب السائبة داخل شاحنات عسكرية مغلقة تنتظرها عند الحدود، ويطلقها بعد ذلك في شوارع وأزقة المدن العراقية لتعض السابلة الأبرياء العائدين إلى بيوتهم في الليالي. وقد تساءل الجنرال في بيانه الذي نشرته الصحف كلها وتناقلته محطات الإذاعة والتلفزيون العالمية: ترى هل يمكن لأي عاقل في العالم أن يصدق ولو للحظة إمكان إخفاق جيشنا الباسل وشعبنا العظيم في القضاء على الكلاب السائبة، ما لم يكن وراء الأكمة ما وراءها؟ ولكن ليعلم الأعداء قبل الأصدقاء أننا لسنا قادرين فقط على القضاء على الكلاب السائبة داخل حدود بلادنا فحسب وإنما سنطاردها في أوجارها البعيدة أينما كانت.

ما كاد هذا البيان يصدر حتى دوت المدفعية على طول الحدود فأخرج الجنود الإيرانيون المتمسكون بأهداب الدين خرائطهم الحربية القديمة وردوا على الغارات العراقية بصواريخهم التي ضربت العاصمة بغداد، مستهدفين قبل كل شيء تدمير الحانات الواقعة على طول نهر دجلة والنوادي الثقافية التي كانت تقدم العرق والخمور بأسعار زهيدة لزبائنها الذين اتهموهم بالخروج عن الطريق القويم.

* * *

ـ هذه الحرب ليست سوى نزهة صغيرة لجنودي في طريقهم إلى تحرير الأراضي المقدسة.



ـ ولكن فلسطين تقع في الطرف الآخر من العالم، يا سيدي الجنرال!

ـ وماذا في ذلك؟ لقد أثبت ماجلان أن الكرة الأرضية دائرية، أليس كذلك؟

هكذا قال الجنرال في مؤتمره الصحافي ثم ولكي يخرس ألسنة السوء التي قد تذكر الناس بماضيه أعلن بحماسة العودة ثانية إلى الفكرة اليوتوبية التي قال إنه هو نفسه كان أول من فكر بها قبل زمن طويل حتى قبل دليلة عندما أنتخبه مندوبو وممثلو الشعوب رئيساً للعالم، زاعماً أنه كان ينوي البدء بتطبيقها لولا خيانات جنرالاته المستمرة:

ـ بيد أن كل ذلك انتهى والحمد للّه، مما سيجعلني أكرس ما تبقى من حياتي هذه المرة لحمايتها قبل كل شيء من مكائد الأعداء حتى نفلح في تصديرها إلى العالم كله.

ولم يفت الجنرال بالطبع أن يمجد الشاعر الذي يحبه الشعب، مبشراً مواطنيه الأوفياء، بإصدار أوامره إلى كبار النحاتين لتنفيذ الفكرة نفسها التي اقترحها الشعب وهي صنع تمثال للشاعر يمتطي فيه كتفي تمثال السعدون، كإشارة رمزية إلى أنه ينبغي على رجال الدولة أن يدللوا الشعراء إلى الحد الذي يحملونهم فيه على أكتافهم:

ـ لقد مللنا من الشيوخ الخرفين، ليذهبوا إلى الجحيم!

وهكذا تنفس الناس الصعداء ثانية، رغم الحرب الدائرة بعيداً عنهم والشك الذي ظل يهصر أفئدتهم في حقيقة الجنرال الذي تحول فجأة إلى حمل وديع في الداخل، حينما رأوا ثلاثة من أولئك الشيوخ الذين حولوا حياتهم إلى جحيم يختفون وراء الباب المغلقة لدار العجزة التي أمر الجنرال ببناء سور حولها تحرسه كتيبة مدرعات كاملة، جلبها من معسكر الرشيد. ولكي يقلع التاريخ من جذوره قاد



بنفسه الجرافة الأولى ضمن احتفال شعبي عام هدم فيه قصر الذكريات الذي سوي بالأرض في اليوم ذاته.

ـ هكذا ندفن الماضي المرير. عاشت جمهوريتنا اليوتوبية خالدة إلى الأبد.

ويا لدهشة الناس! لقد عاد القائد شاباً ثانية مثلما بدأ سيرته كجنرال ذات مرة قبل سنين طويلة، طويلة جداً.

ـ قدري هو أنني أولد في كل مرة من جديد.



٤١

البحث عن دليلة المختفية

كان رجال الأمن قد بدأوا بحثهم عن دليلة الملاك منذ اليوم الأول لانقلاب الجنرالات الأول بدون أن يعثروا لها على أثر، فأصيبوا بما يشبه الجنون، بل أن الوقاحة بلغت بهم حد اعتقال الأستاذ الشيطان نفسه، حيث علقوه من كتفيه إلى مروحة في السقف وراحوا ينهالون عليه ضرباً بالعصي والأسلاك المعدنية قبل أن يدخلوا في مؤخرته دزينة كاملة من قناني الويسكي الفارغة التي كان مدير الأمن قد احتسى قبل ذلك ما فيها مع ضيوفه، احتفاء بالنصر، في الليالي الطويلة التي كان يضطر إلى البقاء فيها على مقربة من ضحاياه في الزنزانات. وبالطبع لم يبح الأستاذ الذي كان يعرف كل شيء بمكان وجودها.

إعتقد عادل في البداية أن الأمر يتعلق بخطأ وقع فيه رجال الأمن حتى تأكد من أن الجنرالات كانوا يتابعون بأنفسهم كل ما يحدث هناك. ومع ذلك دخل عادل على الجنرال وقال له:

ـ أعتقد أن ثمة التباساً في الأمر، لقد اعتقلوا صديقك الأستاذ يا سيدي الجنرال.

رفع الرجل الذي كان يقرأ في بعض الأوراق الموضوعة أمامه رأسه وقال له:



ـ هيا اجلس يا عادل! أنت تعرف كم أنا أقدر الأستاذ، ولكن الولاء يأتي قبل كل شيء. لقد استدعيت الأستاذ بنفسي وطلبت منه أن يدلنا على مخبأ دليلة، لكنه رفض بعناد أن يقدم لنا أي عون في القبض عليها.

تدخل عادل مبرراً:

ـ أنت تعرف يا سيدي الجنرال أن الأستاذ عمل معها فترة طويلة من الزمن في فرقة فنية واحدة. وربما كان لا يعرف حقاً بالمكان الذي تختبئ فيه.

ضحك الجنرال:

ـ الأستاذ يعرف كل شيء.

ـ ولكن اعتقاله سيحوله من صديق إلى عدو.

ـ أنت لا تعرف يا عادل طبيعة الحياة. إذا أردت أن تكسب ولاء أحد من الناس فاكسره أولاً حتى العظم. ولذلك سوف نجعله يزحف على ركبتيه ليعترف لنا بكل شيء ويؤمن بنا في النهاية.

تظاهر عادل بأنه يفهمه، لكنه ما كاد يخرج من عنده حتى فكّر بالخطر المحدق بدليلة. فقد يعرف الزعيم بطريقة ما أنها الفتاة الوحيدة التي أحبها في حياته وأنها مختبئة عنده في شقته. وبالفعل حينما قرع جرس الشقة بعد يومين من ذلك اللقاء رأى الجنرال نفسه واقفاً أمام الباب:

ـ جئت أزورك بنفسي لأطمئن على أحوالك.

ارتبك عادل قليلاً من المفاجأة فقاد الجنرال إلى الصالة، متبوعاً بحراسه الذين فضلوا الوقوف على الأقدام طوال الوقت، مراقبين النوافذ. ألقى الجنرال نظرات سريعة على غرفتي النوم قبل أن يلقي بنفسه فوق الأريكة العريضة:



ـ هذا شرف كبير لي يا سيدي الجنرال أن تزورني في شقتي المتواضعة هذه.

حينما رأى الجنرال مادلين تغسل الصحون في المطبخ سأله، غامزاً إياه بعينه:

ـ من تكون هذه الفتاة الجميلة؟

إحمر وجه عادل بعض الشيء قبل أن يقول له:

ـ إنها السيدة مادلين التي تعتني بأموري المنزلية.

فصافحها بمودة:

ـ لم أكن أعرف أن عادل يملك مثل هذا الذوق الرفيع.

خجلت مادلين من إطراء الجنرال لها، لكنها تمالكت نفسها وسألته:

ـ ماذا تشرب يا سيدي الجنرال؟ هل أعد لك الشاي أم القهوة؟

رد عليها برقة:

ـ القهوة رجاء.

حينما اختفت في المطبخ قال الجنرال لعادل مداعباً:

ـ لم تقل لي أبداً أنك تملك مثل هذه الصبية الجميلة.

رد عادل:

ـ إنها أم لطفلين ومتزوجة.

داعبه الجنرال ثانية:

ـ هل تريد أن نخلصك من زوجها؟ قل لي ذلك ولا تخجل. على المرء أن يتخذ القرار الصحيح في الوقت المناسب.

إرتعب عادل:

ـ ليس الأمر، كما تظن يا سيدي الجنرال. لقد عشت فترة في غرفة في بيت كبير، فعاملتني مادلين وسيدة أرمنية عجوز كواحد من



أسرتيهما. إنهم فقراء يا سيدي، ولكنهم يعرفون كيف يحبون أصدقاءهم. إنهم في الحقيقة من أقرب الناس إلي.

سأل الجنرال:

ـ ولماذا لم تبلغني بالأمر؟ كان عليك أن تفعل شيئاً من أجلهم الآن على الأقل، ما داموا أصدقاءك كما تقول.

وجد عادل الفرصة مناسبة، ليفاتح الجنرال بالأمر الأهم الذي كان يفكر فيه منذ مدة:

ـ الحقيقة هي أنني كنت أفكر بطريقة ما أرد فيها لهم جميلهم الكبير علي.

ـ حسناً، قل لي الآن!

ـ كنت أفكر بأمر العجوز الأرمنية وزوجها اللذين يريدان الالتحاق بابنهما الوحيد الذي يدرس في أميركا على نفقته الخاصة، وهو أمر ليس سهلاً كما تعرف.

ضحك الجنرال:

ـ لا أعتقد أن ثمة صعوبة في الأمر. سوف أبلغ وزير التعليم العالي ليسجل ابنهما ضمن قائمة طلبة بعثتنا الحكومية هناك، مثلما نضع فيه العجوزين بالطائرة ونرسلهما إلى أميركا بجيوب محشوة بالدولارات. أكتب لي غداً كل المعلومات المتعلقة بالأمر. هل هذا يكفي؟

شكره عادل:

ـ إنه أكثر من كاف يا سيدي الجنرال.

حينما عادت مادلين بفناجين القهوة طلب منها الجنرال الجلوس جنبه، قائلاً:

ـ لكنك لم تطلب شيئاً لمادلين يا عادل.



قالت مادلين خجلة:

ـ إننا نطلب سلامتك.

ضحك الجنرال:

ـ آه، إنني رجل عجوز، لم يعد يخيفني حتى الموت.

ثم التفت إلى عادل ممازحاً:

ـ أحياناً يغني الحب عن كل ما عداه.

* * *

حينما غادر الجنرال الشقة تنفس عادل الصعداء وراودته الشكوك بأن مفاجأته بتلك الطريقة لم تكن خالية من اللؤم، إذ ربما اعتقد الجنرال أنه سيعثر على دليلة في الشقة عنده. كان عادل في الحقيقة قد شعر بالخطر في اليوم نفسه الذي أعتقل فيه الشيطان، ليس خوفاً من الشيطان، وإنما من الجنرال المستعد للتضحية بأقرب الناس إليه للوصول إلى ما يريده، فقام بنقل دليلة من شقته إلى بيت صديقه أحمد الطيار، وأسكنها في غرفة عندهم على السطح، بعيداً عن أعين الرقباء، ظلّت دليلة مختبئة هناك حتى الانقلاب الثاني الذي تخلص فيه الجنرال من غرمائه الآخرين.

وقع عادل مرة أخرى في الحيرة:

ـ هل يعقل أن الجنرال كان يمثل دوراً طوال الوقت وأنه خدع الجميع ليوجه ضربته حيث لا ينتظرها أحد؟

كان خائفاً في الحقيقة من النظر في عيني الجنرال الذي قد يكتشف الحقيقة، لكنه كان واهماً تماماً، فقد اتصل به الجنرال بعد أيام من ذلك، طالباً منه أن يمر عليه بعد الظهر ليستشيره في بعض الأمور الخاصة به. عندما وصل عادل ذهب حارسه الخاص لإيقاظه من نومه في غرفة الذخيرة، فنهض بالبيجاما وسأل الحارس:



ـ كم الساعة؟

ـ إنها الثالثة بعد الظهر يا سيدي.

ـ أوصيتك أن توقظني في الثانية، هل نسيت مرة أخرى؟

ـ كلا يا سيدي، لقد رأيتك مرهقا فلم يطاوعني قلبي على إيقاظك.

قال الجنرال:

ـ حسناً، قده إلى مكتبي وقدّم له القهوة. سوف آتي حالاً.

ثم دخل الحمام.

احتضن الجنرال عادل بين ذراعيه، لاثماً إياه:

ـ لماذا لم تتصل بي حتى الآن؟ هل خشيت أن أعتقلك أنت أيضاً؟

قال عادل وقد صدمته صراحة الجنرال:

ـ تعرف يا سيدي الجنرال أنني وجدت نفسي في وضع لا يحسد عليه.

رد الجنرال:

ـ طبعاً أعرف ذلك مثلما أعرف أنك أنقذت حياة دليلة عندما خبأتها عندك طوال الشهور الماضية. كنت أعرف ذلك منذ البداية. هل اعتقدت أنك تستطيع خداعي، ولكن حسناً فعلت، إنني أغفر لك ما فعلته.

حاول عادل أن يزوغ عن الموضوع:

ـ لقد ورطتني يا سيدي الجنرال بارتداء هذه البدلة التي لا أعرف حتى كيف أرتديها. إنني لم أُخلق لمثل هذا الأمر، ولذلك سأكون ممتناً لك لو قررت طردي من الجيش.

ضحك الجنرال:



ـ ولكنك لم تعين في الجيش حتى تطرد منه. كل ما في الأمر هو أنني منحتك البدلة للوجاهة ولذلك يمكن لك أن تخلعها متى ما شئت، ومع ذلك لا أريدك أن تظل بعيداً عني، فإنني أعول عليك وعلى أسرتك كثيراً في خططي للمستقبل. وما دمت قد صرت عاطلاً عن العمل بعد طردك من الجيش فيهمني أن أعهد إليك الإشراف على شيوخنا الثلاثة القابعين الآن في دار العجزة لتكمل كتابة روايتك عنهم على الأقل. أما أنا، فقد عدت شاباً كما ترى وخرجت من قصتك.

ـ شكراً يا سيدي الجنرال.

* * *

حينما وصل عادل الى المقهى الذي كان يقع في شارع السعدون على مقربة من نصب الجندي الجهول والذي كان المرء يرتقيه بسلالم تكاد تشبه سلالم الصعود إلى الطائرات وجد دليلة تدخن منتظرة إياه وأمامها فنجان من القهوة. جلس وروى لها كل ما دار بينه وبين الجنرال، لكنها حذرته من الثقة به:

ـ إنه يستغل إسمي الآن لتبرير ما يقوم به. كن حذراً معه دائماً يا عادل ولا تثق إلا بما يأمرك به قلبك.

قال عادل:

ـ طلبت منه أن يطردني من الجيش فوافق حالاً.

ـ لا بدَّ أنه يبيت لك أمراً آخر.

ابتسم عادل:

ـ ما الذي يمكن أن يبيته لي؟ أعتقد أنك تسيئين الظن به، إنه



ليس أسوأ من الآخرين على أي حال. لقد كان يعرف بمكان وجودك عندي، لكنه كتم الأمر عن الآخرين.

ـ لنترك ذلك الآن. هيا انهض لنغادر هذا المكان.

دفع عادل الحساب وخرجا إلى الشارع.

ـ هل نذهب إلى شقتي؟

ـ كلا، هناك محاضرة يلقيها الأستاذ في غاليري «يوتوبيا» أريد الاستماع إليها. تعال أنت أيضاً.

ـ أهي محاضرة عن الفن؟

ابتسمت دليلة الملاك، قائلة:

ـ كنت أعتقد أنه قد وجّه الدعوة إليك أيضاً.

ـ إنني لم أره منذ أن أطلق الجنرال سراحه.

قالت دليلة:

إنها محاضرة بعنوان «غابة الشوك»، يبرر فيها موقف الشيطان ويتهم البشرية بالغباء.

ـ سوف يكشف نفسه بنفسه إذا ما فعل ذلك. إنه أذكى من أن يورط نفسه بهذه الطريقة المفضوحة.

ضحكت دليلة:

ـ آه، لا تخف عليه. سوف يطرح الأمر كموضوع أدبي من صنع الخيال ويبهر الحاضرين كالعادة.

وصل عادل ودليلة الملاك في اللحظة التي كان فيها الأستاذ يتجه إلى المنصة في القاعة الصغيرة الملحقة بالغاليري، لكنه ما كاد يراهما حتى هبط وصافحهما، فقال له عادل، ممازحاً:

ـ من كان يعتقد أن في إمكان البشر الفانين اعتقال الشيطان نفسه وتعذيبه! لماذا لم تهرب منهم؟ كنت قادراً على الأمر، أليس كذلك؟



ضحك الشيطان وقال:

ـ كان جلادوكم أكثر دهاء ومهارة مني، فقد أحاطوا عنقي منذ البداية بقلائد الثوم التي تسلبني كل قدرة على المقاومة.

ثم قادهما ضاحكاً إلى الصف الأول وصعد على المنصة ليلقي محاضرته.



٤٢
حرب الجنرال الكبرى

بعد شهور حينما خفتت العاصفة التي أعقبت انقلاب التطهير الذي أطلق عليه الجنرال القديس اسم «حركة العودة إلى المبادئ» ظهرت أُم عادل ثانية في العاصمة بغداد وقد جلبت معها فوجاً من نساء محلتها ليخطبن دليلة الملاك التي سألن عن بيت أهلها، ولكن عبثاً، إذ ما كان أحد يعرف عنوانها ولا في أي حي تقيم. وأصيبت أم عادل بخيبة أمل أخرى عندما أبلغها ابنها أنه لم يعد يفكّر في الزواج الآن:

ـ عليّ أن أنهي دراستي في الكلية أولاً.

فردت عليه أمه وهي تكاد تبكي:

ـ أنت تختلق الأعذار لتتهرب من الزواج من دليلة الملاك. لا بدَّ أن هناك امرأة أخرى لعبت بعقلك؟

ضحك عادل:

ـ ما هذا الذي تقولينه؟ دليلة موجودة وسوف تكونين حماتها ذات يوم.

لكنها لم تقتنع:

ـ أريد أن أرى أولادك في حياتي.

وفيما كانت أم عادل تبحث عن دليلة الملاك في أبعد الأحياء في



العاصمة وتسأل عن أصلها وفصلها، منزعجة من ابنها الذي رفض مد يد العون لها في مسعاها ذاك قطعت محطتا التلفزيون والإذاعة برامجهما فجأة حيث ظهر الجنرال وألقى خطبة طويلة أعلن فيها أن قواته دخلت إمارة الحفيظ الليلة الماضية وحررتها من شيخها الفاسد الذي يقضي معظم وقته في التسكع في حي سوهو بلندن أو يلعب القمار في موناكو أو يتزحلق على الجليد في الجبال السويسرية. حدث كل ذلك فيما كان سكان الحفيظ يغطون في نومهم، بيد أنهم ما كادوا يفركون عيونهم بأيديهم ويستيقظون، خارجين إلى الشارع حتى رأوا صور الجنرال معلقة في كل مكان من مدينتهم. كان يمكن لمثل هذا الأمر أن يدفع أم عادل إلى العودة إلى مدينتها كركوك وتأجيل أمر الخطوبة لولا أنها سمعت بنفسها الجنرال يقول إن زوجها الشيخ سليم الأمير قد استعاد حقه الشرعي في حكم الحفيظ وعين أميراً جديداً عليها بعد أن هرب أميرها القديم إلى الصحراء التي كان قد جاء منها ذات مرة، ناجياً بجلده. حينما سمعت قدرية ذلك قالت:

ـ ما هذا الذي يقوله الجنرال؟ لقد أعاد لنا الأمير كل حقوقنا وأكثر. أهدانا خمس آبار للنفط، جعلتنا أغنياء والحمد لله. ماذا نريد أكثر من ذلك؟ ما هذه المصيبة التي وقعت على رؤوسنا؟

وهكذا راحت تدمدم مع نفسها حتى وصل الجنرال بنفسه إلى بيت شاكر الطيار الذي كانت تقيم فيه في محلة البتاويين وحملها معه في سيارته الشخصية إلى دار الضيافة الحكومية القريبة والتي يطلق عليها اسم القصر الأبيض، فيما استقلت النساء الأخريات السيارات العسكرية التي شكلت موكبه.

خاطبها الزعيم في البداية عندما دخل البيت:

ـ جئت بنفسي لأنقلك يا سيدتي الشيخة أم عادل إلى دار الضيافة، فقد صرتم، أنت وحاشيتك، منذ اليوم ضيوفاً على الحكومة.



فقالت له:

ـ ولماذا كل هذا التعب يا بني؟ إننا بخير هنا أيضاً كما ترى.

ـ أعرف، أعرف يا شيخة. لكن علينا واجب الضيافة بعد الآن.

وقفت أم عادل وصاحباتها مشدوهات، وهن لا يكدن يصدقن أن يحدث كل ذلك معهن، أمام كاميرات المصورين الذين راحوا يتقافزون كالقردة ملتقطين لها الصور من زوايا مختلفة مع الجنرال الذي بدا في عجلة من أمره فصاح بهم:

ـ هذا يكفي، لقد التقطتم ما يكفي من الصور. اللعنة على الصحافة.

وأخيراً حينما انصرف الجنرال تاركاً النساء في حديقة دار الضيافة التي يحرسها الجنود قادهن مدير الدار بنفسه مع الخدم إلى الغرف التي خصصت لهن. لكنهن فضلن الجلوس على الأرض في الصالة الواسعة، محتسيات الشاي مع الكعكة. وقلدت صاحبات أم عادل الخدم الذين كانوا ينادونها بالشيخة منحنين لها، فانفجرت غاضبة:

ـ ما هذا الهراء؟ كنت أشتم الشيوخ طوال حياتي، فإذا بي أصير شيخة هكذا دفعة واحدة. قلبي يقول لي إن هذا الأمر لن ينتهي على خير.

كانت تعتقد أن زوجها لا يزال في كركوك حتى أبلغها الخدم بأن الشيخ سليم الأمير سوف يظهر في التلفزيون ليوجه كلمة إلى الشعب، فجلست تترقب ظهوره وهي تلطم على خدها:

ـ كان من الأفضل له أن يظل مهرباً للأسلحة بدل توريطه بخيانة أعمامه.

اعترضت صاحباتها عليها:

ـ ما هذا الذي تقولينه يا شيخة؟ إن حقه في الإمارة ليس أقل من حق الشيوخ الآخرين. لقد كان شيخاً دائماً.



وأخيراً ظهر سليم الأمير على الشاشة، جالساً على كرسي الإمارة الذهبي في الحفيظ، مرتدياً العباءة والعقال وخلفه عدد من الجنود المسلحين الذين رفعوا أصابعهم بإشارة النصر. كان يبدو شاحب الوجه وساهياً عما يحيط به، فلم يفتح فمه بكلمة واحدة. ما كادت قدرية تراه حتى قالت:

ـ إنه سجين. أعرف ذلك. لقد ورطنا الجنرال مع أعمامه، يا للمصيبة!

ثم نهضت ونادت على مدير الدار قائلة له:

ـ بلغ الجنرال أنني أريد الالتحاق بزوجي.

لكن هذا الطلب لم يجد أذناً صاغية عند الجنرال الذي بعث إليها من قال لها إن زوجها الأمير مشغول كثيراً الآن وسوف يأخذونها إليه عندما تنتهي الحرب الواقعة حتماً:

ـ لم تكن تنقصنا سوى الحرب، أعرف أنهم سوف يقتلونه.

ثم راحت تبكي على أيام سعادتها التي لم تدم طويلاً.

كانت مخاوف قدرية في الحقيقة مبررة تماماً، فقد ألقي القبض على سليم الأمير وهو جالس في مقهاه في كركوك قبل يوم واحد فقط من ذلك اليوم الذي زحف فيه الجيش واحتل إمارة الحفيظ، فظن سليم الأمير أن الأمر يتعلق بوشاية ما عن الأسلحة المهربة التي كانت قد وصلته في اليوم ذاته، لكنهم بدل أن يتحروا بيته كما هي العادة اقتادوه إلى طائرة عسكرية خاصة نقلته إلى بغداد وهو لا يفقه من الأمر شيئاً حتى وجد نفسه في مكتب الجنرال الذي نهض واحتضنه، مقبلاً إياه على خده، معتذراً له عن الطريقة التي جلبوه بها إليه:

ـ أنت تعرف قيمة السرية. لا ينبغي للأعداء أن يفطنوا للأمر قبل توجيه الضربة القاضية إليهم.

سأل سليم الأمير، وقد شعر بأهميته ثانية:



ـ أي أعداء وأي ضربة يا سيدي الجنرال؟
عند ذاك عرف بما جعله يرتعب في داخله:
ـ إنني أفعل ذلك من أجلك، سوف أستعيد لك حقك الضائع في حكم إمارة الحفيظ. لا يمكن لي أن أقبل باغتصاب حق أحد من مواطني.
تلعثم سليم الأمير الذي لم يجد ما يقوله سوى:
ـ شكراً يا سيدي الجنرال، لا يستحق الأمر اهتمامكم، فنحن كما تعرف أبناء عم، وقد تصالحنا وانتهى الأمر.
رد الجنرال وهو يفتعل الغضب:
ـ كيف انتهى الأمر؟ ما هذا الذي تقوله يا عزيزي الشيخ؟ كلا، كلا، لا يمكن للأمر أن ينتهي هكذا بسهولة.
أجاب سليم الأمير، مبرراً:
ـ لقد سجلوا خمس آبار نفط باسمي كما تعرف، يا سيدي الجنرال، وهذا أمر ما كنت حتى لأحلم به.
ربت الجنرال على كتفه:
ـ هذا قليل، قليل جداً، سنسجل باسمك مئة بئر للنفط إن شئت، أنت تستحق أكثر من ذلك.
صمت سليم الأمير، متهيباً من مواصلة الإعتراض على ما كان يدبره الجنرال له وراح يبحث في رأسه عن طريقة ما للخروج من الفخ المطبق عليه. لم يكن قد فكّر في حياته كلها في السلطة، مدركاً أن قبوله بما يطلب منه الآن سيؤدي به في النهاية إلى ضياع آبار نفطه الخمس التي سجلها أبناء أعمامه باسمه، ولكنه أدرك أيضاً أن رفضه يمكن أن يقوده إلى المشنقة. لم تعد أمامه من وسيلة أخرى سوى اللجوء إلى الحيلة في انتظار الفرصة المواتية التي ينقذ فيها نفسه، لذلك قال، مطمئناً الجنرال:



ـ حسناً، إذا كان هذا رأيك فإن مصلحة الوطن تأتي قبل روابط القربى.

فرد الجنرال مبتسماً:

ـ هذا ما كنت أتوقعه منك.

وفيما كانت الإذاعة تنقل البلاغات العسكرية عن تحرير الحفيظ وجد عادل نفسه محجوزاً في دار العجزة، بدعوى البقاء قريباً من الجنرالات الشيوخ، كان ذلك أكثر مما يطيقه، فأحدث ضجة وجلبة كبيرتين في وجه الحرس الذين منعوه من مغادرة المكان، شاتماً إياهم بأقذع الكلمات، حتى اتصل به الجنرال نفسه، مبلغاً إياه بأنه يريده أن يبقى قريباً من الشيوخ الذين قد يستغلون الوضع فيتآمرون من جديد عليه:

ـ إننا نعتمد عليك في مراقبتهم. لن يطول الأمر كثيراً حتى أعينك وزيراً للثقافة. اصبر قليلاً يا عادل!

فرد عليه عادل غاضباً:

ـ إنني لم أخلق لأكون جاسوساً يا سيدي.

شعر الجنرال بالحرج، بيد أنه تدارك الأمر بالضحك:

ـ ما هذا الذي تقوله يا عادل؟ إنني أريد أن أعينك وزيراً للثقافة، لكنك بدل أن تشكرني على ذلك تتحدث كطفل.

ثم أغلق الخط بوجهه لكي لا يترك له مجالاً للإعتراض.

لقد بدأ كل شيء هكذا في لحظة غضب حين رأى الجنرال على شاشة التلفزيون الحفيظيين يشتمون علناً أفراد الفريق الوطني العراقي لكرة القدم حين نزلوا إلى الساحة، مرتدين قمصاناً عليها صورة الجنرال ثم ضربوهم عندما رفض اللاعبون العراقيون الاعتراف بهدف سجله الحفيظيون في مرماهم، باعتباره تسللاً مفضوحاً، وهو ما رفضه الحكم الباكستاني الذي زعمت الجرائد الصادرة في بغداد في اليوم



التالي أن شيوخ الحفيظ كانوا قد رشوه ليضمن الفوز لفريقهم. كان ذلك في الحقيقة كل ما انتظره الجنرال الذي أراد مذ كان طفلاً، أن يدوّن هو الآخر اسمه في سجل الخالدين في التاريخ، مدركاً أن طريقه إلى المجد لن يمر إلا عبر حرب كبرى يشعل أوارها. وإذا ما صدقنا ما ينقله المؤرخون عن آمه الأرملة فإنه كان قد تكلّم في المهد بعد ثلاثة أيام فقط من مولده، إذ رفع رأسه وقال لها:

ـ لماذا تبكين يا أماه؟ لا يهم إن كنت قد وُلِدت يتيماً، لأن التاريخ نفسه سيكون أبي.

وبالطبع لم تفهم أمه وهي ريفية جاهلة قول رضيعها اليتيم، بل إن أحداً من الناس لم يصدقها حينما روت لهم القصة، فقد كان الناس لا يزالون حينذاك أبرياء، قليلي المعرفة بأسرار الحياة.

كان الجنرال يهز رأسه، مزدرياً كلما حدَّثه أحد ما عن انتصاراته في حروبه القديمة:

ـ آه، إنها لم تكن سوى نزهات حربية صغيرة!

لم يكن الجنرال يريد في الحقيقة حرباً مثل كل تلك الحروب الصغيرة التي تقوم عادة بين بلدان العالم المتخلّف والتي سرعان ما ينساها المرء، فلا تدخل في التاريخ الكبير للبشرية، وما كان يأبه حتى بالنصر، فما يهم بعد كل شيء هو أن تكون حرباً تحفظ ذكراه من النسيان.

كان قد استعد في واقع الحال لكل شيء، إذ راح يراقب بلهفة وفرح وصول الجيوش والأساطيل الأجنبية من قارات العالم البعيدة، تحت ستار الرأفة بشيخ الحفيظ الهارب الذي انتهى به الأمر إلى الفقر، بعد أن خانه الدهر الذي غالباً ما يقلب ظهر المجن للناس المتنعمين حتى انه باع سيارته الرولز رويس التي هرب بها ليلاً تحت جنح الظلام ليسدد إيجار الفندق الذي يقيم فيه على حافة الصحراء



والذي ظهر في التلفزيون، دامع العينين، واعداً شعبه بتحويل الحفيظ إلى جنة حقيقية إذا ما طرد العالم له الجنرال الشرير الذي احتل بلاده وراح ينفق أموال النفط على بناء المخابئ الذرية التي حولها إلى قصور تحت الأرض لينعم بها في حياته، والأهرامات التي دفن اسمه في أساساتها، لتضم رفاته بعد الموت، كاشفاً لأول مرة عن أسرار مدفعه الذي قال إنه اقتبس فكرته من قصة لجول فيرن وإن طوله يبلغ كيلومتراً على الأقل وإن في إمكانه أن يصيب القمر نفسه ويحوله إلى حطام، مدعياً أنه هو الذي قام بتمويل نصبه وبنائه من جيبه الخاص، أيام كان الجنرال يسلي نفسه بخوض الحرب ضد الآخرين، متوهماً أن ذلك سيجعله يكسب ود العراقيين له. هذه الإتهامات والمبالغات ملأت قلب الجنرال في الحقيقة بالزهو، فراح يردد مع نفسه: كان عليه أن يعرف قدري قبل فوات الأوان، لا أن ينتفخ مزهواً كديك بانتصار فريقهم على فريقنا الوطني لكرة القدم.

وبالطبع توقع العالم من الجنرال أن يحرق نصف الكرة الأرضية على الأقل كما وعد، إذا ما جرؤ الآخرون على مهاجمته، لكنه غيَّر رأيه كما يبدو في اللحظة الأخيرة، إذ أمر جنوده بعدم الرد على هجوم الأعداء في حربهم العالمية ضده، ليثبت لهم أنه رجل سلام قبل كل شيء، مؤكداً في بيان قرأه بنفسه من محطته السرية الواقعة تحت الأرض قول المسيح الشهير إذا ما ضربك أحد على خدك الأيمن فأدر له خدك الأيسر.

وهكذا دفن الألوف من الجنود أحياء في مخابئهم وخنادقهم التي سوتها الدبابات بالأرض فيما استسلمت ألوف أخرى من الجنود الذين كانوا قد أرسلوا إلى الحرب ببنادق خالية من الذخيرة، خشية الإرتداد على الجنرال والزحف على العاصمة التي سلمها لعشيرته البدوية التي أقسمت على الإنتقام من كل من تخول له نفسه الانقلاب على ابنها



الجنرال البار. وفيما كانت الطائرات تُغِير على المدن والصواريخ تقصف الجسور والثكنات العسكرية والأحياء السكنية أخرج الجنرال من مخازنه العسكرية التي كان يحتفظ بمفاتيحها في جيبه دائماً، كل ما يملك من صواريخ ألعاب نارية كان قد ادخرها لمهرجانات أعياد ميلاده وراح يطلقها على جبهات الأعداء، مقرونة بكلمات إنكليزية حار الكثيرون في تفسير معناها:

- *From the General with Love!*

كل ذلك جعل المهاجمين يغرقون في الضحك حتى انهم رأوا أن أفضل عقوبة لبلاده هي أن يتركوه يحكمها، ما دام قادراً على كل تلك الفكاهة التي أظهرها في حربه ضدهم، وهكذا راحوا يبررون له أفعاله بدعوى أن الأمر لا يتعلق به وإنما بالشعب نفسه، زاعمين أنه اضطر إلى احتلال الحفيظ إرضاء للغوغاء اليوتوبيين الذين ما كان في إمكانه لجم عنانهم. فقد ظهر الحفيظيون في التلفزيون، رافعين أيديهم إلى السماء، وهم يرددون:

ـ اللهم لا تترك في بلادهم حجراً فوق حجر. اللهم دع الجنرال يحكمهم إلى الأبد.

مثل هذه الصلوات والدعاءات جعلت الناس تشعر بالمهانة فهبت هذه المرة ضد الجنرال الذي أذلهم بتلك الطريقة الشائنة، مثلما أخذ الجنود الناجون من المجزرة يطلقون النار على جدارياته التي كان قد ملأ بها البلاد كلها والتي أخفى داخلها كاميرات يراقب بها الشوارع والساحات العامة. وهكذا راحت المدن تسقط الواحدة بعد الأخرى في أيديهم في احتفالات شعبية عامة يعدمون فيها كل من يقبضون عليه من رجال الشرطة والأمن وعشيرة الجنرال وأنصاره، معلنين العودة ثانية إلى الجمهورية اليوتوبية التي قالوا إن الجنرال قد خانها منذ البداية.



حينذاك فقد الجنرال القديس أعصابه وراح يزمجر داخل مخبئه الحصين:

ـ إنهم يتحدثون عن اليوتوبيا وأيديهم ملطخة بالدماء.

ثم أمر قواته التي ادخرها لنفسه فزحفت مبيدة كل ما صادفته في طريقها. أحرقت المدنٍ بعد أن قصفتها بالمدافع، فيما ضربت الجبال التي اختبأ فيها الثوار بالصواريخ الكيمياوية، فهرب الناس باتجاه الحدود البعيدة الوعرة مع إيران وتركيا، جارين وراءهم حميرهم وبغالهم وخرافهم وسط الأمطار الغزيرة، حيث جرفت السيوف الكثيرين منهم إلى الوديان العميقة، فامحى ذكرهم إلى الأبد.



٤٣

قلب ذهبي لقرن آخر من الزمان

ظل الجنرال غائباً عن الأنظار شهرا كاملا حتى اعتقد الكثيرون أنه ربما كان قد هرب هو الآخر، لاجئاً إلى عشيرته في قلب الصحراء، بيد أنه خيّب ظنهم عندما ظهر ثانية في الشارع في عربة ذهبية ليحتفل بالنصر الذي حققه على أعدائه. حينذاك هز حتى أقرب الناس إليه رؤوسهم وراحوا يتهامسون فيما بينهم:

ـ أي نصر؟ لا بدَّ أن جنرالنا قد أصيب بالجنون.

لكنهم حينما رأوه يقف على حطام بناية قصفتها الطائرات ويخطب فيهم ثانية استعادوا معنوياتهم بعد هبوطها إلى الصفر وراحوا يصفقون له حتى انه سحب مسدسه وراح يطلق النار في الهواء، ابتهاجاً:

ـ هذا هو اليوم الذي يحق لنا أن نحتفل فيه بنصرنا الكبير الذي حققناه على أعدائنا في صولة الحق ضد الباطل. لقد جلبوا كل جيوشهم، لكنهم فشلوا في مسعاهم الخبيث للنيل من رمز كرامتكم الذي هو أنا. ماذا يهم إن كان مئات الألوف من جنودنا البواسل قد استشهدوا في الحرب؟ إنهم يتنزهون الآن سعداء متنعمين محترمين في جنات الخلد، تحيط بهم الحور الحسان. أهذه خسارة؟ كلا بالتأكيد. إن نساءنا الماجدات سوف يلدن لي المزيد من الجنود، أما الجسور والعمارات التي هدمتها صواريخهم فلا قيمة لها عندي لأنني سوف



أبني ما هو أفضل منها. المهم هو أننا دافعنا عن شرف فريقنا الوطني لكرة القدم.

ومع ذلك فإنه ارتكب حماقة حياته عندما اعتقد أنه يمكن أن يسحر الشعب بكلماته هذه المرة أيضاً مثلما كان يفعل في الماضي، فقبل أن ينتهي من خطابه أخرج فجأة أحمد الطيار وشاب آخر، اسمه مصطفى كان يقف جنبه بين المصفقين، رشاشتيهما من تحت معطفيهما وأطلقا النار عليه فأصاباه في رأسه وقلبه مثلما أرديا عدداً من وزرائه واثنين آخرين من حراسه الواقفين خلفه والذين ردوا عليهما برشاشاتهم الأتوماتيكية فقتلوا وجرحوا عدداً من الواقفين قربهما، في حين أفلحا هما في الانسحاب مع الحشد المرعوب، منسلين إلى زقاق قريب، فيما الصيحات تتعالى:

ـ لقد قتلوا الجنرال.

كان الحراس قد انشغلوا بالجنرال الذي سقط مضرجاً بدمائه على الأرض، وكاد أحمد ورفيقه يفلتان تماماً لولا أن شرطي أمن أحمق ظل يطاردهما، مطلقاً النار عليهما، فأصاب أحمد في ذراعه اليسرى وتقدم نحوه يريد الإجهاز عليه، لكن أحمد الذي كان قد هوى على الأرض بعد إصابته استدار فجأة نحوه وضغط على زناد رشاشته، ممطراً إياه بزخة رصاص جعلته يسقط على ظهره بدون حراك:

ـ خذها مني يا ابن الكلب.

نهض أحمد ثانية فيما الدم ينزف منه، متكأ على كتف رفيقه مصطفى الذي جره حتى الطرف الآخر من الشارع، حيث أوقفا السيارة التي كانا قد جاءا بها، فقادها أحمد بنفسه، غير آبه حتى بألم الرصاصة التي كانت قد استقرت في عضلة ذراعه، قائلاً لرفيقه الذي كان لا يزال مأخوذاً بهول العملية التي قاما بها:

ـ أرجو أن نكون قد أرسلنا الجنرال إلى الجحيم.



رد رفيقه:

ـ لا بدَّ أنه مات، لقد رأيته يسقط على الأرض.

ـ سوف نعرف الأخبار بعد قليل.

لكن الجنرال لم يكن قد مات في الحقيقة وإنما فقد القدرة على الكلام فقط، مثلما جعله الشلل الذي أصيبَ به يعجز عن السير. كان قد تحول إلى ما يشبه الخرقة بيد أن أحداً من أعوانه لم يجرؤ على قول ذلك له. كان الجميع يتمنون موته سراً كل يوم، في الوقت نفسه الذي يرددون فيه أمام بعضهم الآخر:

ـ حمداً للّه الذي أبقى لنا الجنرال علي قيد الحياة.

وبعد شهر من ذلك حينما كان لا يزال بعد في المستشفى العسكري وإذ فقد الأطباء كل أمل في احتمال شفائه صنعوا له عربة مقعدين متحركة، ربطوها بكومبيوتر يتكلم بدلاً عنه كلما أراد قول شيء ما بصوت ممثل كان يتقن تقليد صوته تماماً مثلما استبدلوا قلبه التالف بقلب اصطناعي من الذهب والبلاتين يعمل ببطاريات تستمر لمدة قرن من الزمان على الأقل. وهكذا فإنه ما كاد يفتح فمه الكومبيوتري الجديد ويتحسس قلبه الذهبي البلاتيني حتى قال لوزرائه وضباطه المحيطين به، ضاحكاً:

ـ هذا أفضل كثيراً، إنه نصر جديد أسجله على أعدائي. بمثل هذا القلب غير القابل للصدأ لن أموت أبداً.

ثم نادى على أحد الأطباء القريبين منه:

ـ قل لي، كيف يمكن شحن بطاريات قلبي؟

رد الطبيب مبتسماً:

ـ لا تقلق يا سيدي الجنرال، سوف نستبدلها لك مرة في كل قرن.

مازحه الجنرال، قائلاً:



ـ ستكون ميتاً حينذاك بالتأكيد، لا شك أن طبيباً آخر غيرك سيقوم بالعملية.

تنحنح الطبيب، متملقاً:

ـ هذا صحيح يا سيدي، كلنا سنموت، نحن البشر الفانين، المهم أن تظل أنت وحدك على قيد الحياة.

بعد ذلك اختلى الجنرال بوزرائه وقادة جيشه ليبلغهم بتعاليمه الجديدة لقرن آخر من الزمان.

* * *

لم يكن الناس حينذاك يعرفون بعد الكثير عن الحروب التي طالما اعتقدوا أنها تتعلق فقط بمجد قادة التاريخ، حينما يعدد التلاميذ مآثرهم في الامتحانات المدرسية. صحيح أنهم كانوا يعرفون أن ثمة من يقتل فيها، وهو ما كانوا قد شاهدوه في الأفلام الأميركية والروسية والبلغارية التي يعرضها التلفزيون بين الحين والآخر أو في السينما مثل فيلم «في كل كيلومتر مقاومة» أو «الحرب والسلام»، إلا أنهم نادراً ما كانوا يحزنون على القتلى، شاكرين اللّه على أنهم لا يعرفونهم حتى يحزنوا عليهم، ولكن أيضاً لأن البطل الطيب كان ينتصر دائماً في النهاية، فلا يفكر أحد بعد ذلك بالذين سقطوا في المعركة. وماذا يهم إن كان ثمة قتلى، فهم في الأغلب من جبهة العدو الذي ما كانوا يشعرون بأي عاطفة تجاهه، هذا إن لم ينبروا إلى شتمه علناً؟ فذات مرة في السينما حينما كانت الدبابات الروسية تدخل برلين مقتحمة الشوارع في فيلم عن الحرب العالمية الثانية، والسكان يهرعون إلى رفع خرق حمراء يلوحون بها كأعلام من شرفاتهم حتى لا تقصفهم الدبابات ظهرت في الفيلم لقطة تبحث فيها فتاة ألمانية عن خرقة حمراء ترفعها هي الأخرى كعلم أمام شقتها، فلم تعثر لسوء حظها



على ما تبحث عنه. لكنها فطنت وهي تكاد تموت من الرعب إلى الحل المنقذ في آخر لحظة. نزعت سروالها الداخلي الأحمر الصغير وأسرعت إلى الشرفة، ملوحة به للجنود الروس

ـ فيفا تفاريش.

في مثل تلك اللحظات العاطفية التي كان الروس فيها يمثلون دور الأبطال الطيبين والألمان دور الأعداء الشريرين ارتفع بطريقة استفزازية من نهاية القاعة المعتمة صوت حاد اخترق ظلام الصالة كنصل حاد في الجلد:

ـ هذا علمكم أيها الروس!

كان ذلك الأحمق الحاقد قد انتهك بصيحته تلك كل قاعدة في الذوق السليم في التعاطف مع الأبطال وخدش عاطفة الجمهور الذي هب لتأديبه، فلم يستطع إنقاذ نفسه من بين الأيدي التي تقاذفته يميناً ويساراً وكادت تفتك به إلا بعد أن راح يهتف هذه المرة بأعلى صوته:

ـ عاش ستالين، عاش الجيش الأحمر.

شعر الناس هذه المرة أن الحرب ليست فيلماً يشاهدونه في السينما وإنما قنابل تنفجر فوق رؤوسهم وصواريخ تصيب بيوتهم وتوابيت يشدها سائقو الباصات التي ينقلونها من الجبهة عبر الصحراء إلى المدن الأخرى بالحبال إلى سطوح سياراتهم، فتجتذب رائحتها الكريهة الذئاب التي تظل تطاردها من مكان إلى آخر. لم تعد بغداد نفسها، فقد غيّرت الحرب طبائع الناس وجعلتهم ينسون كل ما تعلموه في حياتهم. تغيّرت أشكال الناس أيضاً، فقد امتلأت المدينة بجنود فقدوا أعينهم أو أرجلهم أو أيديهم في الحرب، فافترشوا أرصفة الشوارع، وعلى صدورهم أنواط الشجاعة والبطولة، يستجدون المارة الذين حالفهم الحظ، فظلوا على قيد الحياة. مثلما عمرت الشوارع بشبان قطعت آذانهم أو نقشت على جباههم بالحديد الحار المكوي



علامة الصليب كإشارة أبدية إلى جبنهم في معارك حرب الجنرال القديس. وفي كل محلة وزقاق كانت تعقد حفلات من نمط لم يعرفه الناس من قبل. كان يظهر فجأة عشرون أو ثلاثون شخصاً يجرون وراءهم أربعة أو خمسة شبان مربوطين بالحبال، حاملين معهم لوحاً من الخشب السميك، يسندونه إلى جدار ما ويوقفون ضحاياهم أمامه، في انتظار موتهم. كان هؤلاء الشبان هم الهاربون من الحرب أو من خدمة العلم، وفق التعابير العسكرية. وفي أثناء ذلك كان ثمة من يطرق أبواب بيوت المحلة، طالباً من النساء والرجال والأطفال الخروج للتفرج على تلك الحفلات المهيجة لروحهم الوطنية، حيث تقف أمهات الشبان المجهزين للموت في الصف الأول، فيما ينبغي على آبائهم أن يحملوا معهم ما يكفي من النقود لدفع ثمن الرصاص الذي سيمزق أجساد أبنائهم، كعقوبة لهم لإساءة تربيتهم. كانت تلك حفلات ببرنامج لا يتغيّر أبداً. ينشد الشبان الذين ينتظرون موتهم أولاً بصوت كورالي موحّد:

نحن الشباب
لنا الغدُ
وذكره المخلدُ

فيصفق الحاضرون وتطلق النساء اللواتي يرافقن فرق الإعدام لرفع الروح المعنوية للشعب هلاهلهن، موزعات الملبس والشكرلمة على الجمهور الذي يتوجب عليه أن يغني بصوت عال المرة بعد الأخرى:

نموت نموت
ويحيا الجنرال
ثورتنا
ثورة أبطال



ثم يتلو رئيس فرقة الإعدام بطريقة حماسية من ورقة يحملها في يده قرار الحكم على الشبان الذي تكون المحكمة الشعبية قد اتخذته، تلبية لرجاء ورغبة أبناء المحلة في إعدام أبنائها الذين مرغوا سمعتها وشرفها بالوحل لجبنهم وفرارهم من المعارك الخالدة للجنرال، وهو قرار يمهر عليه في النهاية مختار المحلة بإبهامه اليمنى ويوقعه أثنان من الشهود الكبار في السن. حينذاك يتقدم رئيس فرقة الإعدام ويسأل الشبان المحكومين بالموت واحداً واحداً:

- هل تعرف يا بني لماذا ينبغي علينا أن نعدمك؟

فيرد عليه الشاب المرعوب، مطرقاً برأسه إلى الأرض:

- نعم سيدي، لأنني جبان وخائن للوطن.

فيقول له مبتسماً ومشجعاً:

- هذا صحيح، حتى نقطع دابر الخيانة والجبن، فنحن العرب أهل الذمة والشرف. هل سمعت باسم خالد بن الوليد؟

- نعم سمعت باسمه يا سيدي، إنه بطل.

- كان عليك إذن أن تتعلم منه البطولة والرجولة.

بعد ذلك كان الجلادون يقرفصون على الأرض، مسندين بنادقهم إلى أكتافهم ويسددونها باتجاه صدور الشبان الذين تتبلل سراويلهم وتتسخ في حضور الموت، ثم يطلقون النار فتنبثق نافورات من الدم تختلط بوحل وتراب المحلة وتتهاوى أجسادهم الغضة على الأرض، ثم ينهض الآمر، حاملاً مسدسه في يده ويقترب منهم، مطلقاً رصاصة الرحمة على رأس كل واحد منهم. بعدها كان يعيده إلى غمده في وسطه، متقدماً ببطء نحو آباء وأمهات القتلى ويصافحهم مواسياً كمجاملة لا بدَّ منها:

- إنه لم يكن سوى ابن خائن، على المرء أن يبتر عضوه الفاسد،



لقد فعلنا ذلك من أجل شرف أسرتكم الذي اقتضى أن يُراق على جوانبه الدم. بدون بكاء أو تعاز رجاء حتى لا نضطر للعودة ثانية إليكم.

ثم كانوا يغسلون لوحهم الخشبي بخرقة إسفنج مبللة بالماء، ماسحين الدم المرشوش عليه قبل أن يحملوه على أكتافهم وينصرفوا، تاركين الجثث في مكانها.

* * *

ومثلما غيّرت الحرب حياة الجميع ألقت بظلالها الثقيلة أيضاً على الحياة الرتيبة في دار العجزة التي وجد عادل سليم الأمير نفسه محجوزاً فيها مع الشيوخ الثلاثة الآخرين الذين راحوا يتابعون الحرب بدون ملل، رغم كل المرارة والألم.

فقد رفع الجنرال الدرويش رأسه في اليوم الأول من الحرب وراح يتطلع إلى السماء من وراء نظارته السميكة، متكأ على عكازته وقال مخاطباً نفسه: «إنني لا أرى جيداً، أين هي الطائرات؟ إنني أرى أشباحاً فقط. لقد بدأت الحرب إذن. عملها صاحبنا الجنرال القواد، خائن الأمانة، لكنه سوف يخسرها، بعد أن تخلى عنه أقرب الناس إليه». كان يجلس على كرسيه في زاوية من الدار، ماداً رجله السليمة إلى الأمام في الشمس الساطعة التي كانت تسقط عمودياً فوق رأسه. لم يكن يرى جيداً، ومع ذلك ظل يشعر أنه يشم رائحة الحرب بكل حواسه، وهي رائحة جعلته يغلق عينيه حتى سقط في النعاس:

ـ هل أنت نائم أيها الجنرال؟

استيقظ من نعاسه الذي داخله بسبب الشمس وراح يحدق في الوجه المرتفع أمامه:

ـ أوه. . . إنه أنت! ما هي أخبار الحرب يا عريف؟



جلس عادل على كرسي من المعدن إزاء الجنرال وقال له مفتعلاً الغضب:

ـ لست عريفاً، أنت تعرف أن الجنرال القديس كان قد عينني مقدماً، لماذا تقلل من شأني؟

ابتسم الجنرال:

ـ حقاً، حقاً، لا تزعل يا عادل، لم يعد ثمة فارق بين العريف والمقدم في هذه الأيام.

قال عادل:

ـ منذ الصباح والطائرات تهاجم المدينة، لا بدَّ أنهم أسقطوا الكثير منها.

ـ هذا ليس مهماً، قل لي: هل بدأ المشاة زحفهم؟

ـ ومن أين لي أن أعرف ذلك؟

ـ كيف لا تعرف ذلك إذا كنت مقدماً في الجيش وليس عريفاً كما تدعي؟ إنني لا أسمح لأحد من جنودي بمثل هذا الجواب.

ضحك عادل:

ـ أولاً إنني لست جندياً عندك وثانياً لسنا في ساحة حرب يا سيدي الجنرال الدرويش. إننا في دار للعجزة، هل نسيت ذلك ثانية؟

امتعض الجنرال:

ـ دار عجزة! ما هذا الكلام؟ لا تقل لي ذلك مرة أخرى يا عادل. أنت تعرف أننا سجناء سياسيون، بعد أن خاننا الجنرال كعادته، لكن لينتظر حتى يرى كيف سينتقم منه العباس، أبو الرأس الحار الذي قد يمهل ولكن لا يهمل.

ابتسم عادل ساخراً:

ـ بالطبع، بالطبع، ولكن ماذا يمكن أن تفعل يا سيدي الجنرال الدرويش وأنت تتكئ على مثل هذه العكازة؟



ـ ها أنت تلمح إلى رجلي المبتورة يا عادل، ماذا يهم ذلك؟ إنها ليست سوى رجل بعد كل شيء.

رد عادل:

ـ إنني لست أفضل حالاً منكم، كلنا هنا أسرى الجنرال.

ـ كلا، كلا يا بني، أنت تختلف عنا، ربما أراد الجنرال الملعون إبعادك فقط عن الحرب، ربما كان يدخر لك واحدة من مفاجآته الكثيرة، إنه يحتاجك الآن أكثر من أي وقت مضى، ربما كان يريد إسناد إمارة الحفيظ إليك بدل والدك! ذلك محتمل، أليس كذلك؟

ـ لن تنطلي عليّ حيله بعد اليوم.

سأل الجنرال:

ـ أنصت، إنني أسمع أصواتاً في الشارع.

ـ آه، لا شيء، إنها الحرب فقط.

ثم نهضا عائدين إلى غرفة الطعام.

* * *

وفيما كانت الأحداث تتعاقب ظل الشيخ سليم الأمير يفكر طوال تلك الشهور القليلة التي أمضاها متربعاً على عرش دولة الحفيظ، كواجهة فحسب، في طريقة ما يفلت بها من الورطة التي أوقعه الجنرال فيها، ولكن بدون أمل في العثور على منفذ للنجاة بنفسه، إذ وجد هو وسائقه شاكر الطيار الذي أصر على المكوث معه الطرق كلها مغلقة أمامه، فقد ظل جنود الجنرال الذين اعتبروا أنفسهم حراساً له يلازمونه حيثما ذهب، مثلما رفض الجنرال كل طلباته في السماح لزوجته قدرية ولابنه عادل بزيارته على الأقل، بدعوى أنه لن يقبل أن يعرضهما للخطر في الحرب التي يتوقعها والتي ستدور رحاها بالتأكيد قبل كل شيء في الحفيظ. كان كل منهما يشك في نوايا الآخر، وعن



حق بالطبع. فقد كان الجنرال يخشى هروب شيخه ولجوءه إلى أعمامه فيما إذا ضمن وجود ابنه وزوجته إلى جانبه، أما إذا احتفظ بهما رهينتين عنده فسوف يشله عن الحركة. ولم تكن لتنقص الشيخ سليم الأمير الفطنة ليعرف أنه سيفتك بهما إذا ما جرؤ على إثارة غضبه عليه.

وهكذا ظل أسير قصره الأميري حتى هزيمة جيش الجنرال القديس أمام الدبابات التي قدمت زاحفة من قلب الصحراء نحو مدينة الحفيظ المحترقة وفرار الجنود الذين كانوا يعسكرون في حديقة قصره، مترصدين كل حركة يقوم بها. وما كان يمكن له هو الآخر أن يتأخر أكثر مما فعل، مرتعباً من فكرة أن يأسره الجنود المارينز أو حتى أن يردوه قتيلاً، لذلك صعد في سيارته المارسيدس إلى جنب شاكر الطيار الذي انطلق بها، سالكاً ذلك الطريق الصحراوي الطويل الذي اشتهر في التاريخ باسم طريق الموت، حيث آلاف المدرعات والشاحنات والدبابات المحترقة والجثث المتناثرة والمكومة على الجانبين والذئاب والضباع وأبناء آوى التي راحت تلتهم الجيف غير آبهة حتى بطوابير الجنود السائرين مشياً على الأقدام عبر الصحراء، طالبين النجاة بأنفسهم، فيما الطائرات تغير بين الحين والآخر وتقصف كل ما تصادفه أمامها. تعلق في الطريق بعض الجنود بباب السيارة، يريدون إيقافها مثلما أطلق بعضهم الآخر النار عليها، لكن شاكر الطيار ظل يقودها بأسرع ما يقدر عليه، حتى لا تقع بأيدي أولئك الجنود المهزومين الذين لن يتوانوا عن قتلهما أو إنزالهما منها على الأقل، تاركينهما في الصحراء.

ورغم أنهما كانا قد أفلحا في عبور الصحراء بعد رحلة استمرت يومين إلا أنهما وقعا في الأسر أخيراً حينما كانا يهمان بعبور أحد الجسور الواقعة على نهر الفرات، حيث حجزا في البداية في معسكر اعتقال مسيج بالأسلاك الشائكة، أقيم مؤقتاً في الهواء الطلق. وبعد



يومين من ذلك دل الجنود الأسرى أنفسهم آسريهم عليهما بعد أن اكتشفوا هويتهما، فنقلتهما طائرة هليكوبتر خاصة، عائدة بهما ثانية إلى الحفيظ، حيث استلمهما الأمير العائد من منفاه بنفسه.

لم يكن سليم الأمير يجهل المصير الذي ينتظره حينما وقف أمام مجلس الأسرة التي اجتمعت لتحاكمه على نكرانه الجميل:

ـ أنتم تعرفون أن لا يد لي في الأمر. ما كان في إمكاني أن أفعل شيئاً أو أن أعترض على جنرالنا المجنون، حفاظاً على حياة أسرتي التي احتفظ بها رهينة عنده. لقد فكرت بالطبع في الهرب، لكن جنوده لم يغفلوا عني لحظة واحدة. أنتم تعرفون أن الدم لن يتنكر للدم. إننا أولاد عم بعد كل شيء.

كان هذا في الحقيقة كل ما يمكن أن يدافع به سليم الأمير عن نفسه أمام عشيرته وبدا أن الأمير الشيخ يفهمه، فقد هز رأسه، قائلاً:

ـ هذا صحيح يا ابن العم، كنا نعرف ذلك منذ البداية، ولكن للضرورة أحكام.

ثم كمن تذكر شيئاً ما:

ـ حسناً، قل لنا لماذا هربت، مسرعاً هكذا باتجاه بغداد؟ أما كان من الأفضل أن تبقى هنا وتنتظر وصولنا لترحب بنا.

أخفض سليم الأمير رأسه:

ـ خشيت يا محفوظ السلامة من مثل هذا الموقف الذي أجد نفسي فيه الآن.

هز الأمير الشيخ رأسه:

ـ حسناً، حسناً، ما دامت أسرتك لا تزال في بغداد فمن الأفضل أن نعيدك إليها، لكني أخشى ألا تصلها سالماً، ليكن اللّه معك، لقد سببت لنا يا ابن العم الكثير من وجع الرأس.



وهكذا اقتاد الحرس سالم الأمير ومعه شاكر الطيار إلى طائرة الهليكوبتر نفسها التي كانت قد جاءت بهما، فحلقت هذه المرة باتجاه البحر، حيث حطت بعد ساعة أو أكثر بقليل على حاملة طائرات أميركية، كانت تجثم في الخليج، فاستلمهما جنود المارينز الذين وضعوا الأصفاد في أيديهما واقتادوهما إلى منصة مرتفعة ثم حشروهما صامتين داخل تجويفي صاروخي كرويز عملاقين أغلقوا فوهتيهما جيداً بعد أن كتبوا اسميهما بالطباشير عليهما وأطلقوهما باتجاه العراق.



٤٤

خائن رغما عنه

كان أحمد قد انطلق مع رفيقه مصطفى بالسيارة في المساء الذي بدأ يخيم على المدينة، قاصداً الوكر الذي كان عليهما أن يلجآ إليه أولاً قبل الانتقال إلى مكان آخر، غير شاعر حتى بجرحه النازف، مأخوذاً بالعملية التي كانا قد قاما بها. فقد حدث كل شيء بسهولة كبيرة حتى انه لم يفكّر في العواقب. فقد نظر إلى مصطفى الواقف قريباً منه وقال حينما كان الجنرال القديس يخطب: «الآن»، ثم سحب رشاشته الأوتوماتيكية من تحت معطفه وأطلق النار قبل أن ينهي الجنرال جملته التي ظلّت ناقصة وخيل إليه أنه قد التقط نظرة من عينيه الحجريتين رغم نظارته الطبية. أجل نظر إليه، كمن يريد أن يقول له «لقد عرفتك»، لكن الوقت كان قد فات، فأطلق أحمد النار عليه، ولكنه إذ رأى الدم يلطخ صدر الجنرال أحس بلذة تشبه تلك اللذة التي تنتابه حينما يكون مع امرأة ما في السرير. «إنه لم يكن سوى الجنرال»، بيد أنه شعر بشيء من الغيظ على ذلك الأحمق، شرطي الأمن الذي تعقبهما بمسدسه مثل كلب صيد، قائلاً لنفسه: لم يكن ثمة بد من قتله. ما كان يمكن لي أن أترك شرطي أمن تافهاً مثله يقتلني. ليذهب إلى الجحيم ما دام قد أراد ذلك لنفسه. حينما بلغا الوزيرية خفف أحمد من سرعته ونظر إلى مصطفى، قائلاً:



ـ لقد نجونا.

لكن رفيقه رد عليه:

ـ هل تعتقد أنه مات؟

ثم أضاف:

ـ لولا ذلك الشرطي لسار كل شيء على ما يرام. هل يؤلمك الجرح كثيراً؟ لقد أوشكنا على وصول البيت.

حينذاك فقط شعر أحمد بالألم، بيد أنه كتمه، قائلاً بترفع:

ـ لا أعتقد أنني سأموت بسببه.

أوقفا السيارة في زقاق قريب واتجها في الظلام نحو البيت الذي كان يقع في الطرف الآخر من سدة القطار. قبل أن يمد مصطفى يده ليقرع الجرس وجد عطا نجم الدين، وهو مدير مبيعات في شركة أوروزدي باك، واقفاً وراء الباب ينتظرهما، حيث بادرهما بالقول:

ـ هيا أدخلا بسرعة. أرجو ألا يكون قد شاهدكما أحد من الجيران.

فقال له أحمد وهو يضغط بيده على الجرح، داخلاً إلى البيت، مطمئناً:

ـ كلا لم يشاهدنا أحد.

ـ ما الذي حدث؟

ـ أصبت في ذراعي.

وخرجت زوجته ليلى عمران، وهي حلاقة في محل في الأعظمية يملكه فلسطيني مهاجر من يافا، إلى الممر الذي يخترق حديقة البيت وقالت حالما وقع نظرها على أحمد:

ـ يا إلهي، أنت تنزف، هيا أدخل بسرعة.

حينما بلغوا الصالة ألقى أحمد بنفسه على أحد المقاعد، ماداً يده المصابة على الطاولة أمامه:



ـ ينبغي تعقيم الجرح أولاً وإيقاف النزيف. أريد مقصاً.

أخرج يده اليمنى من المعطف الذي كان يرتديه، ملقياً به خلفه على المقعد، ثم قال لليلى التي وقفت حاملة المقص الذي راحت تطقطق به في يدها بحكم العادة، ساهية عن نفسها:

ـ قصي لي كم المعطف من الأسفل.

ثم إذ بلغت الجرح أمسك صاحبه مصطفى بطرفي الكم المفتوح وشقهما حتى الكتف فانزلق المعطف إلى الوراء، ثم قص القميص أيضاً، شاداً ذراعه من الأعلى بخرقة، غاسلاً الجرح بالويسكي من قنينة كان قد جلبها له عطا نجم الدين الذي قال له:

ـ كل هذا لا يفيد، سأذهب وأستدعي طبيباً ما.

ابتسم أحمد، مخفياً ألمه:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ ما من طبيب يرضى بمعالجة مصاب برصاصة من دون علم الشرطة. هل تريد أن تتسبب في إعدامنا جميعاً. دعك من هذا، ليس الأمر خطيراً جداً.

إعترض عطا نجم الدين:

ـ لكنك ستموت إذا ما ظلّت الرصاصة في مكانها، لا بدَّ من إخراجها.

ـ لا لن أموت، أنظر، طرف الرصاصة ظاهر، لن يصعب علينا إخراجها. هل عندك كلابة في البيت؟

فتحت ليلى عمران الراديو:

ـ لنستمع إلى الأخبار على الأقل. أرجو أن يكون الجنرال قد مات.

قال مصطفى بشيء من الزهو:

ـ لقد ثقبنا صدره بالرصاص. لا يمكن أن يظل حياً بعد ذلك.

كان يمكن لكل شيء أن يسير على ما يرام لولا ذلك الكلب شرطي



الأمن الذي ظل يلاحقنا حتى أرداه أحمد بصلية من رشاشته. لا بدَّ أنه كان يفكر في الحصول على مكافأة ما من الجنرال.

كان من الواضح أن ثمة أمراً ما سيعلن، إذ واصلت إذاعة بغداد بث المارشات العسكرية والأناشيد الحماسية التي تصحب دائماً الأحداث والأخبار الخطيرة التي تحدث في البلد.

طلب أحمد من عطا نجم الدين ومصطفى أن يضغطا على عضلة ذراعه بشدة نحو الأسفل، وهو يمسك الكلابة بيده:

ـ سوف أخرج هذه الرصاصة اللعينة بنفسي.

اعترض عطا نجم الدين مستغرباً:

ـ سيكون الألم شديداً ولن تتحمله، دعني أفعل ذلك بدلاً عنك.

لكن أحمد صده بإشارة من يده اليمنى:

ـ كلا، كلا، كل ما ينبغي عليكما فعله هو الضغط على العضلة من الجانبين لدفع الرصاصة إلى الخارج.

حينما ضغط الرجلان على العضلة أطلق آهة شديدة فتصبب العرق من جبينه، لكنه صر على أسنانه وانحنى بالكلابة على الرصاصة، ممسكاً بها من طرفها ثم جرها بكل قوة، فسقطت الكلابة ومعها الرصاصة على الطاولة، فيما أتكأ هو على المقعد بما يشبه الإغماء، هامساً:

ـ لقد انتهى الأمر.

أسرع عطا نجم الدين فسكب المزيد من الكحول فوق الجرح ثم ساعدته زوجته ليلى في غسل الجرح وشده بالشاش:

ـ سأذهب لأشتري من الصيدلية حقن بنسلين وحبوباً مخففة للآلام.

قالت ليلى:

ـ لا بدَّ من ذلك حتى لا يلتهب الجرح.



وبدا أن أحمد قد غفا، إلا أنه فتح عينيه بعد قليل وقال:

ـ أريد شاياً. الآن يمكن لنا أن ننتظر إعلان بيان موت الجنرال التعيس.

رد عليه عطا نجم الدين الذي كان قد رأى ذلك في أفلام الكاوبوي الأميركية:

ـ من الأفضل أن تشرب قليلاً من الويسكي، إنه يساعد على تخفيف الألم.

نهض مصطفى وهو ينظر إلى ساعته، قائلاً:

ـ لا يمكن لي أن أتأخر أكثر مما فعلت، عليّ أن أخرج الآن. هناك من سينتظرني في الشارع لنقلي إلى البيت الذي سأقيم فيه لبعض الوقت.

قال عطا نجم الدين:

ـ حسناً، انتظرني قليلاً حتى نخرج سوية.

حينما خرجا قال أحمد الذي كان العرق يتصبب من جبينه لمصطفى، وهو يسلمه مفتاح السيارة:

ـ قل للرفاق أن ينقلوا الرشاشتين إلى مكان آخر ويمسحوا كل أثر للدم على السيارة.

وصل مصطفى إلى الباب المعظم، متأخراً ببضع دقائق عن الموعد المتفق عليه ووقف ينتظر أمام بوابة دار الطلبة، حاملاً بيده نسخة من جريدة نجمة الصباح، حسب الإشارة المتفق عليها، إذ لم يكن يعرف الذين سيأتون إليه ليصطحبوه معهم إلى الوكر الذي أعد لاختفائه. انتظر بضع دقائق حتى رأى شاباً يتقدم نحوه ويسأله:

ـ هل تعرف أين تقع دار الطلبة؟

ابتسم مصطفى وهو يرد عليه:



ـ لا طلبة الآن في دار الطلبة، إنهم في عطلة.

صافحه الشاب وقال له:

ـ حسناً، تفضل معي أيها الرفيق. أرجو ألا نكون قد تأخرنا عليك كثيراً وجعلناك تنتظر في الشارع في مثل هذا اليوم.

ـ كلا، لقد وصلت أنا الآخر قبل قليل.

ثم أضاف:

ـ لحسن الحظ أنهم لم يعلنوا منع التجول حتى الآن.

رد الآخر مبتسماً:

ـ إنهم ما زالوا مأخوذين بالمفاجأة.

تبعه مصطفى إلى سيارة فولكس فاغن من طراز باسات كانت تقف قريباً، وجلس على المقعد الخلفي، مسلماً على الشابين الآخرين اللذين جلس أحدهما جنبه، فيما احتل الآخر المقعد الأمامي قرب السائق الذي انطلق بهم باتجاه الأعظمية في الظلام.

قال الشاب الجالس قربه:

ـ هل سمعت آخر الأخبار؟

ـ كلا، ماذا هناك؟

أجاب سائق السيارة:

ـ لقد نجا الجنرال مرة أخرى.

علّق مصطفى، مستغرباً:

ـ لا يمكن ذلك، لقد أطلقنا عليه ما يكفي من الرصاص.

ثم انتبه إلى أنه ما كان ينبغي له أن يتباهى أمامهم بتلك الطريقة الاستعراضية، بيد أن الوقت كان قد فات ليتراجع عما قاله، مفكراً بأنهم يعرفون هم أيضاً بالأمر ما دامت المنظمة قد أوكلت إليهم مهمة إخفائه.



حينذاك وجد الشاب الذي يجلس قربه يرفع يده فجأة بمسدس ويسدده إلى رأسه:

ـ حسناً لنرى كيف ستتعامل معنا. لقد وقعت أخيراً في الفخ أيها البطل.

اضطرب مصطفى في مكانه وتلعثم:

ـ ليس هذا وقت مزاح. ماذا يعني كل هذا؟

رد عليه الشاب الذي يجلس قرب السائق بكل برود:

ـ من قال إننا نمزح. نحن من رجال الأمن، وقد قبضنا على الشخص الذي كان سيتصل بك فاعترف لنا بكل ما يعرفه عنك. فإن لم تعترف أنت الآخر الآن بكل شيء وتدلنا على أوكاركم كلها فإننا سنمزق جسدك بالرصاص هنا.

كانت السيارة قد بلغت شارعا يمتد على طول نهر دجلة:

ـ لنرى ما يمكن أن نفعله معك.

ثم توقفت السيارة بعد قليل في مكان ما بين الأشجار المسربلة بالظلام فصاح مصطفى مضطرباً:

ـ ماذا تريدون مني؟

إلتفت السائق والشاب الآخر الذي يجلس جنبه وفي يد كل منهما مسدس مصوب نحوه:

ـ من الأفضل لك أن تعترف لنا الآن بكل ما تعرفه. لا أعتقد أنك ستتحمل التعذيب.

قال مصطفى الذي تملكه الذعر:

ـ لا أعرف شيئاً عما تتحدثون عنه.

لطمه الشاب الجالس لصقه:

ـ اعترف أيها الحقير، كنت تتباهى أمامنا قبل قليل ببطولتك في



إطلاق النار على الجنرال القديس، ماذا فعل الجنرال بكم حتى تطلقوا النار عليه؟

ظل مصطفى صامتاً، لا يعرف ماذا يفعل، ثم قال بلهجة تنم عن تخاذل:

ـ خذوني إلى الموقف إذن إن كنتم حقاً من الأمن!

نزل السائق من السيارة وفتح الباب الخلفية:

ـ نريدك أن تعترف الآن أمامنا، لا وقت لدينا للانتظار، وإذا ما فعلت ذلك فقد يعفو عنك الجنرال القديس على عادته، أنت تعرف كم هو طيب القلب.

ثم جر مصطفى من السيارة، ضاغطاً بالمسدس على عنقه:

ـ سوف نقتلك هنا ونرمي بجثتك في النهر. لا يمكن أن تنكر علاقتك بالأمر أمامنا، نحن الذين نعرف كل شيء.

حاول مصطفى أن يمثل دور من أنهار فجأة:

ـ حسناً سأدلكم على الوكر الذي يختفي فيه شركائي الآخرون في العملية.

سأله أحدهم:

ـ أين؟

أجاب:

ـ في المنصور.

عندها ضربه الشاب الذي كان يجلس قربه في السيارة بعقب مسدسه على رأسه فراح يصرخ، مدركاً الخطر الذي صار يتهدد حياته:

ـ لماذا تضربونني، قلت لكم إنني سأدلكم على الوكر، ماذا تريدون أكثر من ذلك؟

لكن السائق فاجأه بالقول:

ـ لا شيء سوى أننا نكره الجبناء المنهارين.



وأكمل الشاب الذي كان يجلس قبل قليل جنبه:

ـ هل صدقت أننا من رجال الأمن أيها الجبان؟ كل ما في الأمر هو أننا أردنا أن نختبر صلابتك وشجاعتك فيما لو وقعت بيد العدو، فإذا بك تخرى على نفسك من أول صفعة. كنا نعتقد أنك بطل حقيقي سوف تضحي بحياتك من أجل رفاقك، أي غبي اختارك لمثل هذه المهمة؟

صدم مصطفى مرة أخرى بالأمر فراح يتوسل إليهم:

ـ شكراً للّه، هل صدقتم ما قلته لكم؟ لقد عرضت نفسي للخطر حين أطلقت النار على الجنرال. ألا يكفي هذا لإثبات شجاعتي وإخلاصي؟

رد السائق عليه:

ـ لكل شيء حسابه. لماذا اعترفت إذن بمثل هذه السهولة؟

ـ إنني لم أعترف، لا أساس لما قلته لكم، كنتم تهددونني بالموت.

ـ وماذا في ذلك؟ كان يمكن لك أن تموت أيضاً عندما أطلقت النار على الجنرال.

إنهار مصطفى:

ـ ذلك أمر مختلف.

ثم راح يبكي، ممسكاً برأسه بين يديه. قال له سائق السيارة:

ـ لا يمكن لنا أن نتهاون مع الخونة.

ـ لكنني لست خائناً. لقد أردت كسب الوقت فقط، ليس ثمة وكر للمنظمة في المنصور، ما كان يمكن لي أن أعترف على رفاقي. تأكدوا من الأمر على الأقل!

وإذ وجد مصطفى أن كلامه لم يعد يعني شيئاً لهم انتفض فجأة وهجم على سائق السيارة الذي بوغت بالحركة فأطلق النار عليه،



مصيباً إياه في صدره، حيث سقط مولولاً على ظهره والدم يتدفق من جرحه. لم يمهله الاثنان الآخران كثيراً إذ أطلقا عليه هما أيضاً عدة رصاصات، أصابت إحداهما رأسه.

ـ كان سيخوننا بالتأكيد في النهاية، إنني أعرف هذا النمط من البشر.

قال الشاب الذي كان يجلس جنبه في السيارة، كمن يريد أن يخفف من وطأة الأمر على نفسه.

ـ هيا، لنبتعد عن هذا المكان.

تركوا القتيل مرمياً بين الأشجار بعد أن أخرجوا من جيوبه كل ما يمكن أن يشي بهويته وانطلقوا بالسيارة ثانية في الشارع المظلم الطويل.



٤٥

ضياع في غابات إفريقيا

بعد ثلاثة أسابيع من ذلك وكان جرح أحمد قد التأم ارتدى ملابسه الجديدة التي كان قد اشتراها له عطا نجم الدين من مخازن أوروزدي باك التي يعمل فيها: بدلة إنكليزية رمادية من الجوخ مع قميص آرو وربطة عنق حمراء مقلمة بالأزرق وحذاء أسود إيطالي من جلد الماعز، فيما تولت ليلى عمران بنفسها قص شعر رأسه، قائلة له:

ـ أعتقد أن قصة شعر جيمس دين هي التي تناسب شكل وجهك.

لكنه حينما وقف أمام المرآة بكامل ملابسه الجديدة قال ضاحكاً لمضيفيه اللذين راحا يظهران إعجابهما بهيئته الجديدة:

ـ إنني أشبه مديراً عاماً في وزارة الخارجية.

عندما كرر قوله هذا فيما بعد أمام جان رينان الذي كان أحمد الطيار قد قصده لأول مرة بعد العملية المخفقة لاغتيال الجنرال، في السرداب المركزي للجنة الثورة العالمية، الواقع في المسبح والذي كان يقيم ويعمل فيه في الوقت نفسه قال له:

ـ صرت تشبه دبلوماسياً مصرياً من عهد الملك فاروق.

ثم سأله:

ـ قل لي يا أحمد، هل تستطيع الحديث باللهجة المصرية؟



فأجابه أحمد هازلاً، وهو يقلِّد اللهجة المصرية التي كان قد تعلمها من كثرة ما شاهد أفلام فريد الأطرش وإسماعيل ياسين:

ـ ده عاوز كلام، ليه يا خواجه بتريد تعرف إن كنت بتكلم بلدي؟

ضحك جان رينان وقال له:

ـ ده باين عليك أنك فعلاً مش حيطة ناصية يا سيدي أحمد، مش كنت عارف أنك بتهذر مصري كمان.

فرد عليه أحمد:

ـ أديك عرفت.

كان جان رينان قد اتخذ في الحقيقة مع قيادة المنظمة قراراً بإخراج أحمد فترة من الوقت إلى خارج العراق، ليس فقط لإبعاده عن أنظار الشرطة وإنما قبل كل شيء للتدرب على حرب العصابات التي كانت اللجنة تريد البدء بها من الأهوار. وهكذا فإنه عندما وجد أحمد مأخوذاً بالفكرة جاءه بعد أيام ومعه جواز سفر دبلوماسي مصري مزور، صعد به أحمد بعد أسبوع في يوم جمعة إلى الطائرة مع فتاة جزائرية من وهران اسمها جميلة، كانت قد أنهت لتوها دراسة الأدب العربي في جامعة بغداد، أنيط بها دور الزوجة المرافقة له، في حين أن ما كان ينبغي عليها القيام به هو مرافقته والترجمة له والتدرب في الوقت نفسه مثله على حرب العصابات. حينما دخل أحمد وجميلة قاعة مطار بغداد الدولي واكتشف مفتشو الجوازات أنهما دبلوماسيان أجنبيان قادوهما بكل أدب إلى صالة الشرف وقدموا لهما القهوة وعصير البرتقال. وإذ وجد أحمد رجل الأمن يمعن النظر في وجهه متفحصاً نادى عليه بإصبعه وأعطاه ديناراً، قائلاً له بلهجة آمرة:

ـ هاك اجلب لي علبة سيجاير روثمان، فقد انتهت سيجايري.

فهرع الرجل وجلب له العلبة، مقدماً له بقية النقود، لكن أحمد ربت على كتفه، وهو ينهض، متوجهاً إلى الطائرة:



ـ إنها لك لتسكر بها.

لم يكن أحمد يعرف في الحقيقة حتى أين تقع بروكسل، وهو أمر لم يشغل باله على أي حال ما دامت جميلة الجزائرية تجلس لصقه على المقعد في الدرجة الأولى، مثلما كان يعرف أن المكان الذي يقصده يشبه تلك التي شاهدها في الأفلام الأجنبية. ورغم أنه لم يكن قد استقل طائرة من قبل فإنه أخفى انفعالاته بمهارة، محتسياً الشامبانيا التي كانت جميلة قد طلبتها والتي لم يكن قد ذاقها من قبل، قائلة له:

ـ يمكن للمسلم يا سيدي أحمد أن يشرب المنكر حتى إذا كان اللّه قد نهى عن شربه، لكن الحرام هو لحم الحلوف.

لم يفهم أحمد ما تعنيه بالحلوف فسألها:

ـ حلوف؟ ما هو هذا الحلوف؟

ضحكت جميلة وهي ترمي بشعرها الطويل وراء كتفيها:

ـ ألا تعرف ما هو الحلوف المذكور اسمه في القرآن؟

قال أحمد:

ـ كيف مذكور اسمه في القرآن؟ ليس هناك حلوف في القرآن، فقد قرأت القرآن عند الملا قبل أن أدخل المدرسة.

قالت:

ـ وحرمنا عليكم الميتة والدم ولحم الخنزير.

رد أحمد وهو يرفع كأسه بيده:

ـ تقصدين الخنزير، كلا، كلا، لا يمكن لي أن آكل لحم الخنزير، إن شكله مقرف تماماً.

كان أحمد قد فكّر منذ اللحظة الأولى التي التقى فيها بجميلة في سرداب جان رينان وعرف أنها سترافقه في سفرته التي ما كان يعرف حتى إلى أين ستؤدي به أنها ستكون صيداً سهلاً له، وبخاصة عندما غمز له جان رينان بعينه قائلاً:



ـ ستجد الكثير من المتعة في التدرب مع جميلة على حرب الأدغال، لكن لا تَمت وعُدْ إلينا سالماً، لأننا سوف نحتاج إليك هنا.

ظل أحمد يفكِّر طوال الرحلة بجميلة، كاتماً عواطفه الملتهبة في صدره، متردداً في الإقدام على أي حركة قد تجعلها تزعل منه، فقد كان مصيره كله متعلقاً بها، عارفاً أنه سيضيع تماماً بدونها. وحتى حينما غفت قليلاً، مسندة رأسها على كتفه قاوم رغبته في أن يمسد شعرها بكفه، قائلاً لنفسه «العجلة من الشيطان، سوف أترك الأمر لها، وهي بعد كل شيء رفيقة لي، لا ينبغي لي أن أخون ثقتها بي». ثم اكتفى بأن أسند هو الآخر رأسه إلى رأسها، متظاهراً بالنوم.

حينما غادرا مطار بروكسل قادته جميلة إلى فندق دي فيل الواقع في الميدان الكبير على مقربة من دار البلدية فوجد نفسه فجأة في غرفة واحدة معها. ألقى نفسه على السرير الكبير، قائلاً لها:

ـ إنني أكاد أموت من التعب.

لكنها ردت عليه وهي تنزع ملابسها متعرية أمامه:

ـ خذ حماماً وستجد نفسك على ما يرام.

بعد تلك الليلة التي لم ينم فيها أحمد إلاّ قليلاً، مكتشفاً أقصى سعادات الجسد، قادته جميلة في ظهيرة اليوم التالي إلى قلب المدينة وراحت تطلعه على معالمها؛ كاتدرائية القديس ميشيل، سجادة الزهور الكبيرة في ساحة السوق، بيت الدوقة فون باربانت وقصر الملك، بيد أنه وجد كل ذلك مملاً، فقال لها:

ـ لنعد إلى الفندق، يمكنك أن تشرحي لي كل شيء هناك.

فابتسمت وهي تقبله من فمه:

ـ لا أريدك أن تقتل نفسك بسببي يا سيدي أحمد، إبق شيئاً من قوتك للثورة العالمية على الأقل.

لم يدم بقاء أحمد وجميلة في بروكسل سوى أسبوعين مرا عليهما



كما الحلم، التقيا خلالهما بالكثير من الشبان ذوي الشعور واللحى الطويلة والشابات الكاشفات عن مفاتنهن والذين راحوا يقودونهما إلى شققهم فيدخنان معهم الحشيش، منصتين إليهم وهم يتحدثون عن أشخاص ما كان أحمد قد سمع حتى بأسمائهم ثم ينامون في الأغلب على أسرة موحّدة.

في آخر ليلة لأحمد في الفندق قال وهو يجر جميلة من يدها إليه، شاعراً بالغيرة عليها بعد أن رآها تتبادل القبل مع بعض الشبان:

ـ سيكون العراق بلجيكا أيضاً ذات يوم، ولكنني لن أسمح لأحد غيري بالاقتراب منك.

فردت عليه ضاحكة وهي تنسل عارية تحت اللحاف:

ـ ماذا ستفعل بي إذن لو أخذتك معي إلى الجزائر؟ لا شك أنك ستقتلني هناك بالبلطة، كما تقتضي العادة السائدة عندنا.

لم يكن أحمد وجميلة يعرفان شيئاً عن الجهة التي سيتوجهان إليها حتى أبلغا بأن عليهما التهيؤ للسفر إلى الكونغو ليلتحقا بكتيبة المنظمة التي كانت قد بدأت هجماتها منذ أكثر من عامين في الغابات الاستوائية ضد الجنود البلجيكيين، حيث يمكن لهما أن يتدربا هناك على حرب الأدغال قبل عودتهما ثانية إلى العراق والجزائر لبدء حرب التحرير الشعبية من أدغال القصب والبردي في الأهوار ومن جبال الأوراس العارية. وهكذا صعد أحمد وجميلة ثانية في طائرة تابعة للخطوط الجوية الملكية البلجيكية، حطت بهما بعد ساعات طويلة مرهقة في نيروبي، فبقيا في المدينة بضعة أيام قبل أن يقودهما جمعة وهو الدليل الذي كان ينتظرهما مع ثلاثة حمالين وسيارتي جيب استأجراها لنقل أغراضهما مع شحنة كاملة من الرشاشات والمسدسات والمتفجرات التي أخفياها تحت المقاعد إلى أعماق الأدغال، بزعم أنهما مبعوثان علميان للمؤسسة الملكية الجغرافية



للتحري عن حقيقة الفهد الذي وجده إرنست همنغواي ميتاً على قمة جبل كليمنجارو، كما أوضحت جميلة أمام السمؤولين المحليين الذين ما كان يهمهم من أمر الفهد الذي لم يسمعوا به أو من أمر هذه البعثات شيئاً سوى البقشيش الذي يدسونه في جيوبهم شاكرين والتوقيع على ورقة يتعهد فيها المرء بعدم تحميل الشرطة المحلية مسؤولية ما قد يتعرض له من أخطار.

تركت تلك السفرة التي استمرت ثلاثة أسابيع الكثير من الأثر في حياة أحمد الذي وجد نفسه فجأة وقد صار واحداً من أولئك الكشافة الأوروبيين والأميركيين المغامرين الذين طالما شاهدهم في الأفلام التي كانت سينما العلمين في كركوك تعرضها في الأعياد، وهم يخترقون أعماق الغابات الأفريقية، حاملين في أيديهم سيوفاً يشقون بها طريقهم عبر الأحراش الكثيفة العالية ويقضون لياليهم في الخيام المنصوبة في العراء والتي تضيئها فوانيس اللوكس، فيما الأسود تزمجر على مقربة منهم والضباع والذئاب تتسلل ليلاً إلى مخيمهم الصغير، باحثة عما تسد به رمقها.

كان أحمد قد استعد في الحقيقة لكل شيء، فقد اشترى له في نيروبي بدلة سفاري خاكية وقبعة صلبة تشبه تلك التي يعتمر بها الجنود في الحرب ونظارات واقية وأخرى مقربة، مثلما ارتدت جميلة سروالاً طويلاً بقميص أبيض بدون أكمام وحذاء مناسباً للسير في الغابات، مزودة نفسها بكمية كافية من حبوب الكنين لمعالجة الإصابة بالملاريا والملح والسكر والقهوة، فضلاً عن بنادق الصيد الضرورية، فيما أخفت الخارطة السرية في الجيب الداخلي لسروالها، وهي الخارطة التي تؤشر لهم الطريق المؤدية إلى معسكر الثوار المختفين في الغابات.

طوال أيام ظل أحمد مذهولاً بخضرة تلك الغابات وقطعان



الحيوانات البرية التي كان قد شاهدها في السينما من قبل، ولكنها بدت له الآن هنا أكثر سلاماً ووداعة؛ أسراب الزرافات الهاربة أمام السيارة والفيلة المنحدرة نحو الغدران في المساء والكركدنات التي تطاردهم، طاعنة السيارتين بقرونها والأسود المتكاسلة المضطجعة في أفياء الأشجار والقردة القافزة من غصن إلى آخر.

ولم يكن من الصعب أيضاً الحصول على الطعام، فقد كانت السهوب تضج بالغزلان التي ما كان اصطيادها ليتطلب سوى أن يضع المرء إصبعه على زناد بندقية الصيد ويضغط عليها. وانتابت أحمد نوبة من الزهو باللقب الجديد الذي راح الحمالون ينادون به عليه:

- *Good morning, Sahib!*
- *Look here, Sahib!*

فشعر أنه يمثل دوراً في فيلم، مما جعله يتعالى عليهم، كما يفعل أولئك الكشافة الإنكليز والأميركيون الذين يقصدون أفريقيا، آمراً إياهم بنصب خيمته له، فيما راح يكتفي هو بالنظر إليهم أو الجلوس جانباً ليدخن سيجارة أو يحتسي كأساً من الويسكي. لم يكن الأمر في نظره حتى ذلك الحين أكثر من نزهة يقوم بها غير مدرك للأخطار القاتلة التي تعج بها هذه الغابات الاستوائية اللانهائية التي تمتد من سيراليون حتى غانا الشرقية ومن غويانا السفلى كشريط على الساحل يبدأ من شرق نيجيريا ويتسع في الكاميرون والغابون ثم يشمل الكونغو حتى السفوح الغربية من جبل روينزوري، حيث الأشجار دائمة الخضرة التي يبلغ ارتفاع بعضها سبعين متراً، معلنة عن ربيعها الأبدي. كانوا قد أوغلوا بعد تسعة أيام من السفر بعيداً، تاركين السيارتين مع سائقيها وراءهم عند قرية لا تبعد كثيراً عن بحيرة فكتوريا المليئة بالتماسيح الفاغرة أفواهها في انتظار فرائسها.

وبعد ستة أو سبعة أيام من ذلك وهم يجتازون غابات إيتوري



البدائية حدث ما لم يكن في الحسبان. كان أحمد وجميلة قد تركا قافلتهما الصغيرة تخيم على سفح تلة بلغاها عصراً وذهبا ليستحما في الشلال القريب المنزوي جانباً، لكنهما عندما عادا بعد ساعة من ذلك لم يجدا أحداً من رجال القافلة الأربعة، كما لو أن الأرض ابتلعتهم فجأة.

صعقا من الصدمة لبعض الوقت حتى تمالك أحمد نفسه وراح يصرخ بأعلى صوته، آملاً في أن يرد عليه أحد من رجال القافلة:

ـ جمعة، يا جمعة، أين ذهبتم؟

ولكنه لم يسمع سوى القردة تتقافز بين الأشجار والطيور تفز محلقة في موجات مضطربة، مرفرفة بأجنحتها. وإذ لم يعد ثمة أمل بالعثور على الرجال المختفين جلست جميلة على صخرة ما وراحت تبكي:

ـ سوف نموت هنا وتفترسنا الحيوانات.

احتضنها أحمد بحنان:

ـ لا تبكي يا جميلة، سوف نجد طريقة ما للوصول إلى أصحابنا، لا بدَّ أنهم وقعوا في الأسر.

ولكن لم تكن حتى ثمة آثار لمعركة. والأسوأ من كل ذلك هو أن أحمد لم يكن يرتدي سوى لباسه الداخلي والمنشفة التي شدها على وسطه، فيما كانت جميلة ترتدي ثوباً قصيراً يكشف عن ذراعيها، فقد تركا كل شيء وراءهما عندما ذهبا للسباحة ما عدا خنجر قتال بحزام ربطه أحمد على وسطه، تحوطاً للطوارئ ومسدس صغير بست طلقات كانت تحمله جميلة معها دائماً.

بحث أحمد طويلاً عن أي أثر قد تكون القافلة تركته وراءها حتى يمكن لهما اللحاق بها، أو إنقاذ أفرادها من الخطر الذي ربما كان قد أحاق بهم، بيد أنه لم يكن يملك حتى الخبرة في تمييز الآثار القديمة



عن الجديدة. ومع ذلك فإنه عثر بين الأشجار على صندوق خشبي صغير، يبدو أن أحد أفراد القافلة تقصد أن يتركه وراءه عمداً، ليشير به إلى الطريق التي سلكوها، ولكن إذ رأى أحمد المساء يقترب حمله وعاد به إلى جميلة التي كانت لا تزال جالسة على الصخرة، دافنة وجهها بين يديها، فنادى عليها:

ـ أنظري يا جميلة إلى ما عثرت عليه.

فرفعت رأسها:

ـ أرجو أن يكون فيه ما يفيدنا.

ـ سوف نستطيع أن نشعل النار على الأقل. هناك علب ثقاب وسيجاير وملح وخبز جاف وبعض المعلبات.

ـ سنظل على قيد الحياة لبضعة أيام إذن.

ابتسم لها أحمد، مشجعاً:

ـ سوف نجد وسيلة للحياة هنا.

ثم أضاف:

ـ علينا أن ندبر أمورنا لهذه الليلة، وفي الغد نخرج للبحث عن أفراد قافلتنا.

ـ ستفترسنا الحيوانات الكاسرة في الليل، لن نعيش حتى ليلة واحدة.

قال أحمد، مطمئناً إياها:

ـ سنعثر على ملجأ يحمينا، يمكنك أن تنامي أما أنا فسأسهر الليلة حتى الصباح.

لم يكن قد بقي الكثير من الوقت للبحث عن مكان أكثر أماناً، ولذلك جلب أحمد بعض الأغصان التي فرشها على الأرض تحت فسحة بين الأشجار، مشعلاً النار فيها، حيث اتكأ على جذع شجرة، فيما تمددت جميلة قربه دافنة رأسها في حجره.



قالت جميلة:

ـ هل تعتقد أننا سنموت؟

طمأنها أحمد:

ـ هذه هي أفضل طريقة لتعلم البقاء على قيد الحياة، سوف نتعلم من هذه التجربة أكثر مما تعلمناه في كل حياتنا، سيكون أفضل تدريب لنا على حرب الأدغال.

لكن جميلة لم تسمعه تماماً، فقد غفت في الدفء الذي كان قد تسرب إليها من النار المشتعلة قريباً منهما، ثم لم يلبث أن نام أحمد أيضاً في السكون الرهيب الذي خيّم على المكان والظلام العميق المحيط بهما حتى استيقظا في الفجر على زقزقة الطيور المرفرفة بأجنحتها، معلنة عن عودة الحياة ثانية إلى الغابة.



٤٦
في قرية الأقزام

مضى على أحمد وجميلة شهران في تلك الغابة البدائية الهائلة التي لا بداية لها ولا نهاية، اعتادا خلالهما على حياتهما الجديدة، مسحورين بجمال الطبيعة وبراءة العالم من حولهما حتى إنهما راحا يجدان الكثير من المتعة في عزلتهما تلك، محاولين نسيان كل ما خلفاه وراءهما. كانت الأيام الأولى صبعة عليهما، حيث أمضياها مثل ممسوسين في البحث عن أية آثار محتملة تقودهما إلى قافلتهما المفقودة أو حتى إلى السكان البدائيين للغابة، رغم معرفتهما بأن بعض هؤلاء «الوحشيين»، كما اعتاد أحمد أن يسميهم، هم من أكلة لحوم البشر، وبأنهم قد لا يتوانون عن وضعهما في قدر طافحة بالماء المغلي وطبخهما على نار متقدة في وليمة ترقص فيها القبيلة كلها.

ولذلك ولكي لا يقعا فريسة سهلة في أيدي أولئك المتوحشين الذين ربما كانوا قد التهموا رجال القافلة بعد أسرهم، أخذ أحمد يتدرب بحمية على القفز في الهواء وهو يتشبث بأغصان وألياف الأشجار العملاقة ويتأرجح فيما بينها، متنقلاً من مكان إلى آخر، من دون أن تمس قدماه الأرض، وهو أمر كان قد شاهده فيما مضى حينما كان طفلاً في أفلام طرزان، ربيب القردة، مطلقاً مثله صيحات حيوانية طويلة، لينبه جميلة إلى وجوده قريباً منها. وبالطبع لم يكن الأمر



سهلاً، كما توهم في البداية، إذ هوى مرّات عدة من علٍ، مصاباً بالرضوض، بيد أنه أصر بعناد على مواصلة محاولاته المخفقة، غير منصت لتوسلات وتأنيبات جميلة له:

ـ كف عن هذا الجنون؟ لا بأس بطرزان في السينما، لكن الحياة الحقيقية ليست فيلماً، سوف تموت وتتركني وحيدة هنا، هل فكرت في ذلك؟ أنت يا سيدي أحمد رد عليّ.

فكان يرد عليها في كل مرة:

ـ لا تخافي، هذه هي وسيلتنا الوحيدة للخروج من هذه الغابة سالمين. أصبري عليّ قليلاً فقط لتري كيف سأتقن الأمر.

وبالفعل لم تمر سوى أيام قليلة حتى كان أحمد يتنقل متقافزاً أسرع من القردة نفسها بين أشجار الغابة، مطلقاً بين الحين والآخر صيحاته الطويلة المخترقة سكونها العميق.

كان أحمد قد فكّر في كل شيء تقريباً، حتى لا يترك مصيرهما معلقاً بمصادفات القدر. فلكي يأمنا شر الأسود والفهود والنمور والذئاب التي قد تهاجمهما ليلاً وتفترسهما وهما غارقان في النوم ولكن أيضاً ليحتميا من الأمطار التي كانت تنهمر كل يوم بنى عريشة عالية من الأغصان بين فروع ثلاثة أشجار عملاقة، متلاصقة، تطل على بحيرة مليئة بالأسماك والطيور، يتسلقها المرء بسلم من الألياف المعقودة، فكان وهو يستيقظ مع شروق الشمس صباحاً يتمطى قليلاً، مالئاً رئتيه بروائح الطبيعة الأخاذة وأريجها قبل أن يقف على الحافة ويقفز غاطساً في البحيرة، تاركاً جميلة نائمة في مكانها، يحرسها قردها الذي كانت قد عثرت عليه في الأسبوع الأول لضياعهما في الغابة جريحاً بين الأشجار فحملته وعالجته، مطلقة عليه اسم أفلاطون، حين رأته ساهماً يفضل الابتعاد عن القردة الأخرى والجلوس طويلاً في ركن ما، متأملاً في الطبيعة وزرقة السماء، فصار



يتبعها حيثما ذهبت ويسهر عليها حين تنام دون كلل أو ملل، غارقاً في تأملاته الفلسفية.

ثم حدث فجأة ما قلب حياتهما رأساً على عقب. كان أحمد قد ابتعد كثيراً في ذلك اليوم المشمس، موغلاً في أعماق الغابة فسمع من بعيد أصوات طبول أفريقية تقرع مثلما رأى دخاناً يتعالى، مما جعله يهرع باتجاه المكان وقلبه يخفق من الانفعال حتى بلغ حافة سهل مفتوح تتناثر في وسطه الأكواخ الأفريقية الدائرية، ثم تسلل حتى مشارف القرية وراح يتطلع بدهشة واستغراب إلى أفرادها الذين كانوا جميعاً من الأقزام العراة الذين لا يزيد طول الواحد منهم عن المتر. ظل ماكثاً في مكانه لفترة من الوقت، آملاً في رؤية أحد من أفراد قافلته التي فكّر أنهم ربما كانوا أسرى عند هؤلاء الأقزام. ولكنه إذ لم يرَ أحداً منهم فضل التسلل، عائداً إلى جميلة ليبلغها بالأمر ويفكر ملياً في ما ينبغي عليه فعله.

حينما روى ما شاهده لجميلة نفت أن يكون هؤلاء قد هاجموا القافلة وأسروا أفرادها، موضحة له، وهو ما كانت قد قرأته في كتاب صدر قبل أعوام باللغة الفرنسية، أن هؤلاء الأقزام الذين رآهم ينتمون إلى قبيلة مبوتي بيجمين التي لم تُر سوى مرة واحدة خلال الأعوام العشرين الماضية، حينما زارهم المكتشف الألماني هانس بيكر وصور فيلماً كاملاً عن حياتهم، إذ لا توجد قبيلة أقزام سواها في الكونغو، وهم مسالمون لا يتعرضون لأحد بالأذى إلا إذا شعروا بالخطر على حياتهم ويعيشون في أعماق الغابة، متجنبين الاتصال بالآخرين.

في اليوم التالي حينما وصل أحمد وجميلة والقرد أفلاطون عند الظهيرة إلى القرية فزعت النساء، جارات أطفالهن من أيديهم، هاربات إلى الأكواخ، فيما وقف المحاربون مثل سد منيع، حاملين في أيديهم الرماح ومحيطين بهما من كل جانب، لكن أحمد وجميلة



لم يأبها بكل ذلك، إذ تقدما بخطوات واثقة ثابتة نحو ميدان القرية حيث كان يقف قزم عجوز أمام جمع من الأقزام الذين احتشدوا وراءه، شاهرين الرماح، فخمن أحمد أنه لا بدَّ من أن يكون زعيمهم ولذلك ما كاد يقترب منه حتى بادره السلام باللغة العربية وهو يرفع كفه باتجاه رأسه، مخمناً أنه لن يفهمه في كل الأحوال:

ـ السلام عليكم.

وهنا حدث ما لم يكن في الحسبان، عندما أجاب عليه زعيم الأقزام باللغة العربية أيضاً:

ـ وعلكيم السلام ورحمة اللّٰه وبركاته.

كان ذلك آخر ما يمكن أن يتوقعه أحمد وجميلة اللذان طفح وجهاهما فجأة بالسعادة والبشر، فقال له أحمد مستغرباً:

ـ يا إلهي، أنت تتكلم العربية!

فابتسم الرجل وقال بلهجة ذات نبرة بصراوية:

ـ والحمد للّٰه.

ثم قادهما القزم إلى كوخه فجلسا بين شيوخ القبيلة الذين اجتمعوا لاستقبال هذين الزائرين القادمين من العالم الخارجي، فيما تكدس الأطفال والنساء أمام المدخل.

سأل زعيم الأقزام، وكان اسمه أنور نور:

ـ ما الذي جاء بكما إلى هنا في هذه الغابات المليئة بالمخاطر؟

رد أحمد، وهو يتطلع في وجوه الحاضرين الذين ظلوا صامتين:

ـ كنا نعبر الغابة حينما اختفت قافلتنا فجأة. ذهبنا إلى الشلال لنغتسل وعندما عدنا لم نجد لها أثراً.

قال الزعيم أنور نور بشيء من المرارة:

ـ لقد رأينا ذلك.

واندهش أحمد:



ـ أنتم تعرفون إذن أين ذهبت قافلتنا؟
ـ نعم نعرف، ولكن ما كان في إمكاننا إنقاذهم. ليرحمهم اللّه.
وسأل أحمد مضطرباً:
ـ ماذا حدث لهم؟
رد الزعيم أنور نور:
ـ لقد هاجمهم ذوو اللحى الجزائريون واقتادوهم معهم إلى معسكرهم الواقع في الطرف الآخر من الغابة.
بدا الأمر ملغزاً بالنسبة لأحمد الذي سأل مستغرباً:
ـ أي جزائريين؟
رد أنور نور بحزن:
ـ إنهم أسوأ من الشيطان نفسه. كانوا قد وصلوا إلى هنا قبل شهور جارين وراءهم عدداً من النساء والفتيات وراحوا يقتلون كل من ترميه الصدفة في طريقهم. فقد هجموا علينا وقتلوا العديد من أفراد قبيلتنا، مما اضطرنا إلى الهرب منهم.
بدا الاهتمام على وجه جميلة، فسألت الرجل:
ـ أي نمط من الناس هم هؤلاء؟
ـ إنهم يقتلون للمتعة.
واصلت جميلة:
ـ أقصد إن كان ثمة ما يميّزهم.
رد أنور نور بعد أن تبادل الحديث مع رجاله الآخرين:
ـ ما عدا اللحى فإنهم جميعاً بدون سبابات. فقد قتلنا خمسة منهم بعد ذلك، وكانوا جميعاً بسبابات مقطوعة.
هزت جميلة رأسها:
ـ هؤلاء هم الأسوأ بين الجميع، لقد عرفتهم، إنهم يطلقون على أنفسهم اسم الغاضبين على اللّه، تصور أنهم يقطعون سباباتهم حتى



يمتنعوا عن أداء الشهادة الإسلامية. يبدو أنهم اضطروا إلى الهرب من الجزائر بعد الجرائم التي ارتكبوها هناك، شاقين طريقهم الطويل عبر أفريقيا إلى هذه الغابات التي يصعب الوصول إليها، آملين في النجاة بأنفسهم من نقمة الجزائريين عليهم.

وبدا أحمد ذاهلاً:

ـ ولماذا هم غاضبون على اللَّه؟

ابتسمت جميلة:

ـ لأن اللَّه كما يزعمون، خلف وعده في القتال إلى جانبهم، فلم يزودهم بجند من ملائكته التي انتظروا وصولها عبثاً على أحر من الجمر لتقاتل كفار العالم انتصاراً لهم. إنهم يقتلون حتى الأطفال ليستفزوا اللَّه الذي تخلى عنهم كما يزعمون، أما النساء فيصبحن سبايا وجواري مشاعات لهم.

سأل أحمد الزعيم أنور نور:

ـ كم يبلغ عددهم؟

ـ إنهم ليسوا أكثر من ثلاثين رجلاً مع أكثر من عشرين امرأة. ولكنهم جميعاً مسلحون بالرشاشات والبنادق والمسدسات.

قال أحمد:

ـ لا بدَّ من العثور على وسيلة للقضاء عليهم، لا يمكن لأمثال هؤلاء القتلة أن يظلوا على قيد الحياة.



٤٧

هجوم مباغت

في تلك الليلة روى زعيم الأقزام أنور نور قصة حياته الغريبة لضيفيه الضائعين في متاهة الغابات الأفريقية. لقد حدث ذلك قبل سنين طويلة جداً وهو لا يزال طفلاً صغيراً، حينما دفع الجوع الذي أعقب القحط الكبير الذي ضرب أفريقيا كلها إلى نزوح قبيلته باتجاه المدن حتى بلغت تخوم مدينة مقديشو الصومالية، متعرضة إلى الكثير من المهالك في الطريق. إنه لا يزال يتذكر الأمر تماماً. كان قد خرج ذات يوم بعد الظهر مع بعض الأطفال للعب في السهل القريب عندما هاجمهم قطيع من الذئاب الجائعة، فهرب متوغلاً داخل الغابة، ولولا أنه أفلح في تسلق إحدى الأشجار، وهو يكاد يموت من الرعب، لمزقته الذئاب وافترسته. فظل في مكانه طوال يومين كاملين فيما الذئاب تحوم أسفل الشجرة، مكشرة عن أنيابها حتى عثر عليه في اليوم الثالث ثلاثة صيادين صوماليين اقتادوه معهم إلى المدينة وباعوه لتاجر من البصرة اسمه عبد الحميد كانت سفينته قد غرقت بكل ما فيها قبل سنين طويلة في البحر وكاد يهلك هو الآخر لولا أنه تشبث بلوح من الخشب فحملته الأمواج، ملقية به على شاطئ المحيط الهندي وهو بين الحياة والموت. ولما كان قد فقد كل ما يملك ما عدا صرة ليرات الذهب الذي احتفظ بها في جيب سري شده على وسطه، ظل



هناك، آملاً في العودة إلى مدينته بعد أن يكون قد عوض عن خسارته، فاشتغل أولاً بتجارة البهارات ثم الأقمشة مع تاجر يماني من لحج، زوجه ابنته الوحيدة، وهكذا ظل يؤجل عودته إلى البصرة العام بعد الآخر حتى مر عليه ثلاثون عاماً أو أكثر. ولأن الرجل كان يعرف كما يبدو عذاب العيش في الغربة فقد رباه مثل واحد من أبنائه وعلمه أصول الدين حتى بلغ الثامنة عشرة من عمره. وهنا بدأت المشكلة، فقد وجد نفسه كقزم محروماً من العثور على امرأة تقبل بالزواج منه، ، فنصحه والده العراقي بالعودة ثانية إلى الغابة والبحث عن قبيلته التي ما كان يشك في أنها سوف تتذكره، فقد كان والده نفسه زعيم القبيلة، مرسلاً معه ثلاثة من أفضل الأدلاء الذين يعرفون كل الطرق في الغابات الأفريقية. ومع ذلك استمرت رحلة العودة شهوراً عدة قبل أن يعثر على قبيلته التي ظلّت تعتقد طوال المدة التي قضاها في رعاية التاجر العراقي في مقاديشو أن الذئاب افترسته. ويا للفرحة، لقد عرفته أمه حال وصوله، منادية عليه باسمه القديم ناكيكي الذي لم يكن قد سمع به طوال كل تلك السنوات التي أمضاها في الغربة.

وهنا سأله أحمد:

ـ لا بدَّ أنك عثرت لك هنا على امرأة تتزوجها.

ضحك أنور نور ثم قال شيئاً ما بلغة الأقزام للنساء اللواتي كن يجلسن على الأرض عند مدخل الكوخ فدخلت أربع نساء صغيرات عاريات الصدر يجرن وراءهن أطفالهن:

ـ لقد تزوجت أربع نساء دفعة واحدة على سُنة اللَّه ورسوله، وهي عادة واصلتها حتى اليوم، فباعتباري زعيماً للقبيلة أملك الحق في تغيير نسائي مرة في العام، وهو ما يكفيني تماماً.

كان أحمد قد سمع من قبل بالعديد من الفِرق الإسلامية أو الخارجة على الإسلام، بيد أنه لم يسمع قط من قبل بأحد يخاصم اللَّه



ويغضب عليه لتوانيه في مد يد العون إليه. فاليزيديون مثلاً، وهم فرقة تجمع بين الإسلام والمسيحية والمانوية، ويعتصمون بجبل سنجار القريب من مدينة الموصل، يعبدون الشيطان، ولكن ليس بدون أسباب وجيهة. ففي رأيهم، وهو رأي يرفضه المسلمون بالتأكيد، أن موقف الشيطان أكثر مبدئية من موقف الملائكة. فعندما أمر اللّٰه الملائكة أن تسجد لآدم رفض الشيطان، وكان حينذاك رئيساً للملائكة، أن يسجد لمخلوق تافه مثل آدم مصنوع من الطين، إذ إن السجود لا يكون إلا للّٰه وحده. وهكذا عصى اللّٰه وقبل بحلول اللعنة عليه، دفاعاً عن حبه للّٰه واستعداده حتى بالتضحية بنفسه دفاعاً عن قناعاته الضميرية. أما أولئك الذين ألهوا علي بن أبي طالب فقد اقتبسوا رؤيتهم من المسيحية التي ترى أن اللّٰه نفسه قد حلّ في جسد المسيح، وهو أمر لا يدل على التنكر لله وإنما على تقديس الرمز إلى الحد الذي يجعلونه يتحد بروح الله. وحتى الملحدون أنفسهم لا يضمرون الحقد على اللّٰه، فهم بإيمانهم بالطبيعة بدل اللّٰه لا يفعلون شيئاً في واقع الأمر سوى استبدال اسم باسم آخر. ولكن ماذا عن هؤلاء الذين يغتصبون النساء باسم اللّٰه ثم يزعلون عليه لتقاعسه في مدهم بملائكة تقاتل إلى جانبهم؟

بدت الفكرة على أي حال ساذجة لأحمد، فتساءل: أتراهم كانوا ينتظرون وصول ملائكة تُغِير على الأعداء في طائرات أميركية أم روسية؟ لا شك أنهم توقعوا وصولهم على متن طائرات حربية أميركية، مثلما كان عليه الأمر في أفغانستان ذات مرة، عندما بدأوا جهادهم تحت تلك الراية المزدحمة بالنجوم.

بدا لأحمد وجميلة الجزائرية أنه لمن الحماقة الإقدام على أي عمل ضد هذه الجماعة المسلحة حتى الأسنان قبل العثور على معسكر مقاتلي الثورة العالمية الموجود في مكان ما من هذه الغابات الأفريقية الهائلة، ولذلك لم يكن ثمة بد من مفاتحة أنور نور الذي كان يعرف



كل ما يدور هناك، فهز رأسه وهو يطلع على خارطة الطريق إلى المعسكر أنه لم يسمع بمثل هؤلاء المقاتلين من قبل، بيد أنه وعدهما بإرسال جواسيسه الذين سيعثرون على المعسكر بالتأكيد، قبل السماح لهما بالسير في هذه الغابات الخطرة. وهكذا هرج ثلاثة من الأقزام في اليوم التالي، حاملين معهم رسائل كتبتها جميلة الجزائرية باللغة الفرنسية، موجهة إلى قائد القاعدة الرفيق غيرت شميدت، وهو ألماني من هامبورغ، كان قد شارك في معظم حروب التحرير الأفريقية. غاب الأقزام الثلاثة شهراً قبل أن يظهروا ثانية ومعهم خمسة من المقاتلين. لقد عثروا عليهم عند سفح جبل منيع قريب من مناجم الماس في الكونغو.

لم يعد يهم أحمد في الحقيقة الالتحاق بفرقة الثورة العالمية بقدر ما كان يهمه القضاء على عصابة الغاضبين على اللّه، ليس فقط انتقاماً لرجاله الذين قتلوهم وإنما أيضاً لإنقاذ قبيلة الأقزام من شرهم. وهكذا جلس الجميع ووضعوا خطة الهجوم عليهم. اكتفى الرجال الخمسة بالرشاشات التي كانوا يحملونها على أكتافهم، أما القنابل والمسدسات فقد صارت من حصة أحمد وجميلة وثلاثة أقزام شبان أبدوا مهارة في استخدامها. كان نجاح الخطة يعتمد في الحقيقة على المباغتة، فقد بدأ الهجوم ظهراً من وراء الأشجار عندما كانت النساء لا يزلن في الغابة القريبة يجمعن ثمار الأشجار والرجال يتمددون وسط المعسكر يدخنون الحشيش، غافلين عن الخطر المحيق بهم. انفجرت القنابل أولاً ثم أعقبتها صليات من الرشاشات التي حصدت العديدين منهم أما الذين حاولوا النجاة بأنفسهم، هاربين داخل الغابة فقد اخترقت صدورهم وظهورهم سهام الأقزام الذين كانوا قد كمنوا لهم بين فروع الأشجار. لم تدم المعركة طويلاً في الحقيقة. فقد قتلوا جميعاً في الدقائق الأولى من المعركة ما عدا سبعة منهم رفعوا



أيديهم، طالبين الإستسلام، فقادهم الأقزام أمامهم إلى أحمد الذي أمر بربطهم بالحبال إلى جذوع الأشجار القريبة. وحينما وصلت النساء اللواتي كانت جميلة قد قصدتهن، ومعها جمع من الأقزام، مطمئنة إياهن إلى إنقاذهن من عبودية الغاضبين على اللّٰه، وقفن مندهشات وهن يرين القتلى المرميين في ساحة المعسكر، ثم انفجر بعضهن بالبكاء، لكن جميلة راحت تحتضنهن الواحدة بعد الأخرى، قائلة لهن:

ـ لقد انتهى كل شيء، سوف نعيدكن إلى أهلكن.

لم تستطع هي الأخرى مغالبة دموعها، ثم إذ انتبهن إلى الرجال الأسرى المشدودين إلى الأشجار هجمن عليهم بالحجارة والعصي ورحن يبصقن عليهم شاتمات، لكن أحمد أوقفهن:

ـ حسناً، هذا يكفي الآن؟ أريد أن أعرف ما حلّ بالأسرى الأربعة الذين قبضوا عليهم في الغابة.

صاحت النساء، مشيرات بأيديهن إلى منحدر صخري عميق مفتوح على سهل:

ـ إنهم هناك.

تبعهن أحمد وجميلة وبعض الأقزام إلى منحدر صخري عميق ينفتح على سهل، حيث رأى هياكلهم العظمية المتناثرة هنا وهناك. قالت إحدى النساء:

ـ لقد ذبحوهم أولاً ثم رموا بجثثهم للحيوانات الكاسرة.

حينذاك قال أحمد:

ـ ماذا تردن أن نفعل بهؤلاء المجرمين؟

صاحت النساء:

ـ أقتلوهم.

وتدخل أنور نور:



ـ إننا نملك الحق فيهم، فقد قتلوا العديد منا أيضاً.

عند ذاك انسحب أحمد وجميلة والمقاتلون الخمسة جانباً ليتداولوا في الأمر الذي لم يستمر سوى لحظات، حيث توجهت جميلة إلى الرجال الأسرى وقالت لهم:

ـ لقد قررنا الحكم عليكم بالموت، هل عندكم ما تقولونه قبل التنفيذ؟

رد أحدهم:

ـ أجل، أريد أن أنام معك لآخر مرة قبل أن أذهب إلى الجنة.

حينذاك ارتفعت يد جميلة بالمسدس الذي كانت تحمله في يدها ووجهته إلى جبهته، ضاغطة على الزناد فتناثر الدم ولطخ يدها:

ـ نم مع أمك في الجحيم إذن أيها الحلوف.



٤٨

بغداد تحت دائرة الصفر

بعد شهور من ذلك ظهر أحمد ثانية في بغداد، تاركاً وراءه جميلة والنساء المختطفات اللواتي عُدن إلى الجزائر، قاطعات الطريق نفسه التي كان قد سلكها الغاضبون على اللّه من قبل، ترافقهن قبيلة الأقزام التي أوصلتهن حتى حافة الصحراء، حيث التحقن بقافلة من الطوارق، كانت في طريقها إلى مدينة عنابة الساحلية. وفي الحقيقة لم يعدن جميعاً، فقد فضلت ثلاث منهن البقاء في الغابات الأفريقية بعد أن وقعن في غرام شبان من الأقزام، فيما أحبت اثنتان منهن شابين، أحدهما ألماني الأصل من جنوب أفريقيا والآخر إيرلندي من دبلن، فانتمين إلى جيش التحرير، عاقدات العزم على تعلم القتال والالتحاق بجميلة عندما تبدأ ثورتها القادمة من جبال الأوراس للقضاء على ذوي اللحى الطويلة والسبابات المبتورة، انتقاماً من الامتهان الذي لحق بهن.

لم يذهب الى بيت أهله الواقع في البتاويين، خشية الوقوع في فخ لم يفكر به، وانما قصد شقة صديقه عادل سليم الأمير في سيارة التاكسي التي استقلها من المطار، وفي جيبه جواز سفر تركي مزور باسم يشار أصلان اوغلو، آملاً في أن يكون صديقه قد خرج سالماً من المحن التي طحنت عظام الجميع، فالتقاه على السلم يوشك على



الخروج إلى الشارع. بدا عادل عكر المزاج بعض الشيء، إذ سأله وهو يصعد معه، عائداً إلى الشقة ليضع حقيبته فيها:

ـ ألا تقول لي أين كنت حتى الآنِ؟ كل الناس تسأل عنك. لماذا غبت عني كل هذا الوقت؟

أجابه:

ـ سأروي لك القصة كلها فيما بعد، ولكن قل لي قبل ذلك، ما هي أخبار والدك ووالدي؟

صمت عادل قليلاً قبل أن يقول:

ـ إنهما مفقودان، كما لو أن الأرض ابتلعتهما. لا أحد يعرف عنهما شيئاً. لقد تغيّر العالم تماماً الآن. لم يعد الناس نفس الناس الذين عرفتهم. هل تعرف أنك ارتكبت خطأ حياتك بعودتك الآن إلى العراق؟ ما من أحد هنا إلا ويفكر في طريقة للهروب إلى الخارج. حتى رجال الجنرال وأقاربه صاروا يتسللون الواحد بعد الآخر عبر الحدود، لاجئين إلى أي بلد يقبلهم. ألم تسمع بما يحدث هنا؟ هل كنت في المريخ؟

ـ بل كنت أتدرب على حرب العصابات في أحراش إفريقيا. لقد عدت لأبدأ الحرب من هنا. لا يمكن أن يضيع كل شيء حلمنا به في هذا البلد، بسبب جنرال مصاب بالجنون.

ـ لم يعد ثمة ما يشدني إلى هذا البلد. لقد اختفى الجميع فجأة. اختفت حتى دليلة التي أصدر الجنرال حكماً بالإعدام عليها، متهماً إياها تارة بالشعوذة لحملها لقب الملاك وأخرى بتدبيرها محاولة اغتياله الفاشلة قبل عام، بدعوى أنها تحسده على المجد الذي حققه في حروبه العالمية الشهيرة. إنهم يبحثون عنها الآن في كل مكان، لكنهم لن يفلحوا في الوصول إليها. أعتقد أنهم تركوني أغادر دار العجزة، آملين الوصول من خلالي إليها. أعرف أنهم يراقبونني،



لكنني سأجد طريقة ما للإفلات من أيديهم. الجميع يهاجرون الآن. عليّ أن أهرب أنا الآخر. لم يعد لي ما أفعله في هذا البلد الذي حكم القدر عليه بالموت.

حينما انتهى عادل من كلامه المرير هذا قال له أحمد، ضاحكاً:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ أعطني صورة فوتوغرافية وسوف أتدبر أمر خروجك بنفسي، لا تقلق بسبب ذلك. جهز نفسك للسفر منذ الآن. عندي أصدقاء يصنعون المعجزات. من الأفضل حقاً أن تغادر هذا البلد اللعين، قبل أن يتذكرك الجنرال ثانية.

* * *

حينما انتهت الحرب التي تركت وراءها الألوف من القتلى الذين لم يجدوا حتى من يدفنهم فافترستهم الذئاب الجائعة، حملت الرياح روائح الجثث المتعفنة إلى المدن والقُرى، ناقلة أمراضاً لم يكن قد سمع بها الناس من قبل، ولكن أخطرها كان ذلك الوباء الذي تسرب من القنابل الجرثومية التي راح كل طرف يتهم الطرف الآخر بتربية جراثيمها في مختبراته السرية ومن ثم إطلاق سراحها لتعيث في الأرض فساداً. ومع الوباء انتشرت في البيوت والأسواق العامة الفئران والجرذان التي صارت تهاجم الناس وتعضهم من سيقانهم في وضح النهار، مثلما صارت الذئاب تهاجم المدن ليلاً، وقد اجتذبتها روائح اللحم البشري فيها، مما حدا بالكثيرين إلى اقتناء الكلاب والقطط ثانية، آسفين على إبادة الكثير منها ذات مرة حينما راق للجنرالات القضاء عليها، كما راح الناس يصطحبون كلابهم معهم إلى المقاهي والسينمات والملاهي التي تظل ساهرة في الليالي، لتحرسهم عند عودتهم إلى البيت فيما ربطوا قططهم من أعناقها. جارينها وراءهم في النهار في الأسواق والشوارع. وهكذا صار من



مألوف العادة أن يتفرج الناس على معارك دامية بين القطط والجرذان، لم يكن يمكن حتى تصورها في قديم الزمان، فقد بلغ من استهتار هذه الجرذان والفئران التي استمرأت نهش الجثث وسمنت بطريقة مريبة أنها صارت تهاجم حتى القطط، مثيرة الرعب في قلوب الناس المطفأة. ومع الحرب وانتشار الأوبئة أغلق الجميع حدودهم مع العراق، فارضين الحصار عليه، تارة بدعوى معاقبة الجنرال على شنه الحرب ضد العالم كله، وأخرى بزعم خوفهم من أن يتسرب الموت إليهم أيضاً. وهكذا راح الناس المصابون بالطاعون يموتون كل يوم بالآلاف وهم يتضورون جوعاً. ومع الجوع والأوبئة وصل الشحاذون الذين امتلأت المدن بهم، ومعظمهم من الريفيين والبدو الذين ما كانوا قد فقدوا إيمانهم بعد بالقدرات السحرية لجنرالهم الذي يدعون النسب إليه، حيث راحوا يستعطفون المارة:

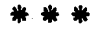
ـ عشرة دنانير، صدقة، حباً بالجنرال.

لكنهم عندما وجدوا الناس يزدردونهم ويميلون إلى المعارضة، قائلين لهم: «ليرزقكم الجنرال نفسه إذن، أيها الشحاذون!» غيروا لهجتهم بسرعة:

ـ «عشرة دنانير، من أجل دعم المعارضة، كرهاً للجنرال».

وهو أمر جعل الناس يضحكون على شطارتهم وسرعتهم في التكيف مع هبوب الرياح، رامين في أحضانهم حفنات من الدنانير العراقية التي هبطت قيمتها حتى صارت بسعر التراب. ثم إذ اكتشف الشحاذون في النهاية قيمة الدولار الذي سمعوا أن المعارضين الهاربين إلى الخارج يزودون به أقاربهم على شكل أوراق من فئة المئة دولار صاروا يتوسلون المارة:

ـ ورقة واحدة من أجل انتصار المعارضة، اللعنة على الجنرال!





حينما قصد أحمد سرداب جان رينان في منطقة المسبح وجده مهجوراً، لكن حارس البناية دله على فيللته الجديدة في الحي الحكومي الواقع في الضفة الأخرى من نهر دجلة والمحاط بسياج يحرسه الجنود، وهو أمر أثار الريبة في قلبه بالطبع، إذ كيف تسنى لجان رينان الوصول إلى مثل ذاك المكان الخطر، لكنه تمالك نفسه وقرر المغامرة ليعرف حقيقة ما حدث في تلك الأشهر التي غاب فيها عن العراق، قاصداً الحي في سيارة أجرة أوصلته حتى الحاجز الذي أقيم وسط الشارع، فأوقفه الجنود الحراس الذين كانوا يحملون رشاشاتهم في أيديهم ثم اقتادوه بعد تفتيشه وجعلوه يجلس على مصطبة خشبية طويلة، ملقين عليه السؤال بعد الآخر عما يريده من جان رينان الذي كانوا يلقبونه بالفرنساوي. لكن أحمد الذي كان يعرف طبيعة هؤلاء الجنود زجرهم بحدة، قائلاً:

ـ هذا أمر لا يهمكم، عندي موعد مهم معه، أبلغوه بوصولي فقط. من الأفضل لكم ألا تورطوا أنفسكم في أمور لا تخصكم.

وهكذا اتصلوا به بالهاتف قبل أن يقود أحد الحراس أحمد في سيارة جيب عسكرية إلى فيللا جان رينان الذي وجده ينتظره أمام الباب، فاحتضنه وقاده إلى الحديقة، حيث جلس أحمد على ما يسمى بمقعد هوليوود متأرجح فيما اتكأ جان رينان على كرسي مواجه له إلى منضدة تتوسطها زجاجة ويسكي بلاك ليبل إلى جانب إناء مليء بالفواكه وآخر لقطع الثلج، حيث صب لنفسه كأساً قبل أن يدفع القنينة إلى أحمد، قائلاً:

ـ إملأ كأسك بالقدر الذي تشاء لنشرب نخب عودتك.

ثم إذ جرع كل منهما رشفة من كأسه قال جان رينان:

ـ والآن يمكنك أن تحدثني بكل شيء.

ظل أحمد ساهماً يحدق في وجهه:



ـ كلا، أريد أن أعرف أولاً هذا التغيير الذي طرأ على حياتك. لا شك أن بيتك هذا أفضل بكثير من سردابك القديم، ولكنني لست واثقاً إن كنت نفس جان رينان الذي عرفته ذات مرة.

أطلق جان رينان ضحكة مدوية:

ـ لا بدَّ أنك شككت بي عندما عرفت بانتقالي إلى هذا الحي، ومع ذلك أشكرك على شجاعتك في المجيء إليّ، فهذا يدل على أنك لم تفقد الثقة بي. إنني لا أزال يا أحمد نفس جان رينان الذي تعرفه، ولكن العالم تغيّر كثيراً خلال العام الذي أمضيته في الخارج، ولم يكن ثمة بد من أن نتغيّر نحن أيضاً معه وإلا جرفتنا العاصفة أمامها.

قال أحمد وهو يشعل سيجارة من العلبة الموضوعة أمامه:

ـ ما الذي تغيّر؟ لا يزال الجنرال يجلس على كرسيه نفسه والشعب يتضور جوعاً فيما يفتك به الطاعون. أتسمي كل هذا تغييراً؟

ـ أجل، يا أحمد! لم نرد أن نبدو في جبهة واحدة مع الإمبريالية القادمة لاحتلال المنطقة كلها. كان علينا أن نختار الوقوف مع أحد الطرفين وإلا انقلبنا على كل ما نؤمن به.

رد عليه أحمد بنبرة متهكمة:

ـ أجل، إنني أرى، لقد اخترت الجنرال.

قاطعة جان رينان:

ـ ليس الأمر كما تعتقد، كل ما في الأمر هو أن الجنرال أبدى استعداده ليقدم لنا كل ما تحتاجه حركتنا العالمية في حربها ضد الامبريالية، إننا نملك الآن معسكرات خاصة بنا، يتدرب فيها أنصارنا على الثورة. إن مهمتنا أبعد من العراق وتشمل العالم كله. أنت تعرف أننا أخطأنا حينما أردنا اغتيال الجنرال. ماذا يعني حتى لو سيطرنا على العراق؟ ستظل الامبريالية قائمة، بل ستكون قادرة على محقنا متى شاءت. المهم: توجيه الضربة إلى رأس الأفعى نفسها، حينذاك



وحده نكون قد بلغنا هدفنا. أعرف كم هو صعب عليك القبول بهذه الحقيقة، مثلما كان صعباً عليّ أنا أيضاً، لكننا لا نملك خياراً آخر.

ضحك أحمد ساخراً:

ـ أنت لست عراقياً، ولذلك سيكون من الصعب عليك فهم ما يدور في هذا البلد. هل تعتقد أن الجنرال جاد في حربه ضد الامبريالية؟ كل ما في الأمر هو أنه ورط نفسه بغباء في قضية لا يعرف طريقاً للخروج منها، إننا لسنا في نظره سوى بضاعة سيبيعها في النهاية للامبريالية، كثمن للعفو عنه. أليس كذلك؟

ـ لكل منا أهدافه الخاصة به، وسوف نستفيد منه بالطريقة التي تخدم حركتنا، ينبغي أن نكون واقعيين يا أحمد، وإلا فقدنا القدرة على رؤية مجرى التاريخ.

جرع أحمد رشفة من كأسه ثم قال له:

ـ وماذا عن الناس هنا؟ ألا يملكون الحق في أن يكون لهم تاريخهم أيضاً؟

صب جان رينان المزيد من الويسكي في كأس أحمد وقال له حزيناً:

ـ كن عاقلاً يا أحمد، نهاية الجنرال في مثل هذه الظروف سوف تعني نهاية البلد نفسه. علينا أن ننتظر اللحظة المناسبة على الأقل، بدل القتال ضد طواحين الهواء. الناس هنا يموتون من الجوع والطاعون، فهل تريدنا أن نضيف إلى آلامهم آلام الحرب الأهلية؟ من يمكن أن يتبعنا؟ لا أحد يفكِّر اليوم بغير البقاء على قيد الحياة.

هز أحمد رأسه:

ـ صحيح ما تقوله، الناس يموتون جوعاً ويفتك بهم المرض، ما عدا الجنرال الذي اقتنى لنفسه قلباً من ذهب، سوف يجعله يعيش إلى الأبد.



ابتسم جان رينان:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ هل تعرف أن الجنرال لم يعد هو نفسه؟ لقد قضيت عليه أنت بنفسك. إنه لم يعد سوى كومبيوتر ناطق، كل ما نحتاجه هو إعادة برمجته بطريقة صحيحة. ولهذا أسسنا فرعاً للبرمجة الكومبيوترية هنا في بغداد، تابع لشركتنا الأم الموجودة في اليابان ووقعنا عقداً مع الجنرال بملايين الدولارات للإشراف على كل ما يتعلق بتجارة الكومبيوترات، لقد وثق الرجل بنا، بعد أن فقد الثقة بالأميركيين الذين لا يكفون عن الحديث عن نهايته القريبة.

رد أحمد الذي لم يكن يملك أي فكرة عن الكومبيوترات:

ـ إنني مصلح سيارات في الحقيقة وأعرف أن ثمة سيارات لا يفيد معها أي تصليح وإنما ينبغي رميها في المقبرة.

ثم نهض قائلاً:

ـ حسناً، عليّ أن أذهب الآن، سأتصل بك مرة أخرى، لنرى ما يمكن أن نفعله مع هذا الجنرال.

قال جان رينان:

ـ ولكنك لم تحدثني بعد عن رحلتك التي وصلني بعض أخبارها.

رد أحمد:

ـ كانت رحلة مثيرة حقاً في الأحراش الأفريقية، سوف أحدثك عنها بالتفصيل في المرة القادمة.

كان أحمد يحاول في الحقيقة التستر على ما يفكّر فيه «اعتقدت أنه سيشعل الثورة في العالم كله، فإذا به يتحول إلى تاجر كومبيوترات». ثم إذ مد يده وصافحه مودعاً عرف أنه لن يراه مرة أخرى فداخله خيط من الحزن وشعر بالمرارة في فمه فرمى بعقب



السيجارة فوق عشب الحديقة، ساحقاً إياها بحذائه وخرج تعصف بقلبه الوساوس.

بعد يومين حين كان أحمد جالساً في شقة عادل، يشرب معه الشاي في حوالي العاشرة صباحاً انفتحت الباب فجأة ودخلت مادلين، مستخدمة مفتاحها الخاص بها كالعادة فنهض عادل واحتضنها بحنان:

ـ يا إلهي، أين كنت؟ لقد سألت عنك في البيت فقيل لي إنك رحلت أنت الأخرى إلى الخارج.

سلمت مادلين على أحمد أيضاً قبل أن تقول:

ـ كلا، كلا، لقد كان ذلك مجرد ذريعة أشاعها رجال الجنرال عني ليخفوا عن الآخرين حقيقة العمل الذي أقوم به.

سأل عادل مندهشاً:

ـ الجنرال؟ ما علاقة الجنرال بك؟ وما هو هذا العمل الذي لا يريد للآخرين أن يعرفوا به؟

ضحكت مادلين:

ـ هل تصدق؟ لقد عينني الجنرال سكرتيرة خاصة له.

قال عادل:

ـ غير معقول.

ابتسمت مادلين وهي تصب لنفسها قدحاً من الشاي:

ـ يبدو أنه أغرم بي منذ اللحظة التي رآني فيها عندك هنا في الشقة.

ضحك عادل:

ـ وهل أغرمت به أنت الأخرى؟

ـ ليأخذه الشيطان، ما الذي يجعلني أغرم به؟ يبدو أنك تغار منه، إنني مغرمة بك وحدك أيها المجنون، ألا تعرف ذلك؟



حينما انصرف أحمد حدثته مادلين ضاحكة وهي تحتضنه في الفراش كيف يطاردها الجنرال بعربته من غرفة إلى أخرى ويتبعها حتى المطبخ حيث تعد له قهوة الصباح، منادياً عليها بصوته الكومبيوتري الأبح:

ـ تعالي لأقبلك يا حبيبتي مادلين.

فتتعمد أن تقبل جزأه الكومبيوتري، حيث يصيح شاكياً:

ـ أي قبلة هذه؟ إنني لم أشعر حتى بها.

فتقول له، متعمدة إغاظته:

ـ لقد انتهى زمانك يا سيدي الجنرال العجوز، ما الذي ستحصل عليه من امرأة شابة مثلي؟

فيرد عليها:

ـ أنت تفضلين الشبان علي، أليس كذلك؟ إذن سأعود شاباً، بل أكثر قوة حتى من صديقك عادل. لقد طلبت أن يرسلوا لي صندوقاً من دواء الفياغرا الذي يقال إنه يصنع المعجزات.

وبالطبع لم تكمل مادلين بقية القصة لعادل، وهي أنها في كل مرة يغازلها الجنرال كانت تمد يدها وتفتح أزرار سرواله وتتحسس قضيبه بأصابعها. ثم تقول له:

ـ لا تهددني بعد اليوم بعضوك يا سيدي الجنرال، إنه ميت كما ترى منذ زمن طويل.

وعند ذاك كان يرد عليها مستنكراً:

ـ أنت لا تعرفين ما يمكن أن يصنعه العِلم في هذا الأيام، لقد طلبت من العلماء أن يستنسخوني، وهو أمر لم يعد صعباً. سوف ترين كيف أعود شاباً وأبدأ الحياة من جديد، معك أنت بالذات.

حينما تركته مادلين، عائدة إلى قصر الجنرال شعر بحزن شديد ينتابه، فقد أرغم نفسه على ألا يبوح لها بما كان يخطط له للهرب من



العراق، خشية أن يثقل الأمر عليها فيفضحه حبها أمام الجنرال الذي ما كان ليشك في أنه اتخذها سكرتيرة له ليبقيه تحت رقابته التي كان يعرف كيف يتستر عليها.

حينما اجتازت الحافلة التي استقلها عادل سليم الأمير الحدود في طريقها إلى المخفر التركي، حاملاً في جيبه الجواز نفسه الذي عاد به أحمد من رحلته الأفريقية باسم يشار أصلان أوغلو، والذي ألصق صورته عليه، غصت عيناه بالدموع، متذكراً قول أمه التي كان قد ذهب إلى كركوك ليودعها:

ـ قلبي يحدثني أنني سأموت قبل أن أراك ثانية. لا أريد أن أفقدك مثلما فقدت والدك.

فقال لها وهو يتصنع المزاح:

ـ ما هذا الذي تقولينه؟ كل ما في الأمر هو أنني أريد أن أكمل دراستي، لن يطول غيابي طويلاً.

ـ فكّر على الأقل في خطيبتك دليلة التي ستتركها الآن وحيدة هنا!

ـ أقسم لك أنني سأعود وأتزوج وأجعلك ترقصين في عرسي. أعرف أن هذا هو ما تفكرين فيه.

ـ سأنتقل إلى بيت خالك حتى يعود والدك، يا إلهي، ما هذه المصائب التي حلّت بنا!

ـ تأكدي أننا سنعود جميعاً، أنا ووالدي، اصبري قليلاً وسوف يحل الفرج.

لكنه كان يعرف أنه يكذب عليها، واثقاً من أن غيابه سيطول كثيراً، وربما إلى الأبد، قائلاً لنفسه:

ـ هذه هي الحياة، ماذا أفعل؟ اللعنة على كل شيء. أين أنت يا دليلة؟ لماذا تركتني وحيداً في هذا العالم؟



بعد أن ختم مفتش الجوازات في المخفر التركي جوازه وخرج ينتظر صعود المسافرين الآخرين معه في الحافلة المتجهة إلى استانبول رأى شرطياً في الطرف الآخر يتكئ على السياج، فأشار له بيده، منادياً عليه بأعلى صوته:

- عندي ما أوصيك به يا أبا إسماعيل! هل تسمعني؟

فرد عليه الشرطي مستغرباً:

- ماذا تريد؟

فقال له عادل:

- قل لسيدك الجنرال أن يذهب إلى الجحيم.

لم يكن من السهل على عادل أن يترك كل ما عاشه وراءه ويبدأ حياته من جديد، لاعناً القدر الذي كتب عليه أن يعيشه من دِون أن يكون مسؤولاً عنه. لقد تعلم وهو في المدرسة من الأناشيد الصباحية التي كان التلاميذ يصطفون قبل بدء الدروس وينشدونها بصوت كورالي موحَّد أن يحب وطنه ويفتخر بناسه الذين قالوا له إنهم صنعوا أولى الحضارات في العالم، ولكن أتراه يمكن أن يغني تلك الأناشيد اليوم أيضاً، من دون أن يشعر بالمرارة في فمه؟ لم يكن يملك جواباً عن سؤاله، ولذلك رفع يده ثانية للشرطي الذي كان يحدق فيه ساهماً وراح يغني له:

بـــلادي، بـــلادي، بـــلادي
لـــك حـــبـــي وفـــؤادي

فهز الشرطي رأسه ضاحكاً وقال:

- يا إلهي، لقد صرنا نصدر المجانين إلى العالم.



٤٩

سر الليل: الموت للجنرال

فيما كان عادل لا يزال في طريقه إلى منفاه الألماني الذي قادته الصدفة وحدها إليه بدأ أحمد حرب العصابات التي كان قد تدرب عليها في الأدغال الإفريقية. كان قد فكّر في البداية أن يبدأ حربه من الأهوار التي ما كان قد رآها من قبل، متأثراً بالإشاعات التي سمعها عنها، لكنه عندما قصدها بنفسه، ليشكل فكرة واضحة عن المكان لم يجد حتى ماء في الأهوار التي كان الجنرال قد أمر بتجفيفها بدعوى القضاء على البعوض الناقل لمرض الملاريا، مثلما أخفق في العثور على المعدان الذين كان قد سمع بهم فراح يبحث عنهم ليرى إن كان في إمكانه الاعتماد عليهم، بدون أن يلتقي أحداً منهم:

ـ تسمع بالمعيدي أفضل من أن تراه، لكن قد تبخر حتى المعدان، عليّ أن أبحث عن مكان آخر أبدأ منه ثورتي.

كان قد فكّر بالطبع في الجبال الكردية الواقعة في الشمال، بيد أنه ما كان يريد أن يضع ثورته تحت رحمة العشائر الكردية التي ما كان ليهمها شيء سوى شن الحرب ضد بعضها الآخر. ثم اقتنع في النهاية بأن المكان الأفضل هو بغداد ذاتها، فهي عامرة بالحدائق ذات الأشجار المتكاثفة وبساتين النخيل الواسعة، فضلاً عن الحزام



الأخضر الذي كان الجنرال قد أحاط به بغداد لتقيه من العواصف الرملية الهابة من الصحراء.

ولكنه حينما اتصل برفاقه القدامى، عارضاً عليهم الأمر، أصيب بما يشبه الصدمة، إذ وجدهم يقولون له:

ـ إذهب وقُم بالثورة وحدك، إننا نكاد نموت جوعا وأنت تدعونا إلى الثورة. هذا الجنرال ليس نمراً من ورق، إنه اللعنة نفسها. لن ينقذنا منه أحد سوى اللّه، وأنت لست اللّه، كلا، كلا، لن نوكل أمورنا إلى أحد غير اللّه بعد الآن.

وهكذا لم يعد ثمة بد أمام أحمد من أن يقوم بثورته وحده، حيث اتخذ له سقيفة في شريط من الأشجار الممتدة على طول نهر دجلة، راح ينام فيها ويعد نفسه للضربة الأولى، مفكراً في طريقة ما يحصل بها على السلاح الذي كان ينقصه حتى تسلل ذات ليلة جمعة إلى معسكر الوشاش من وراء أسلاكه الشائكة، والذي كان يخلو عادة من الضباط والجنود الذين يأخذون إجازاتهم في العطلات، ما خلا أربعة أو خمسة من الحراس الذين يلعبون الورق عادة، حتى بلغ وكر الدبابات التي وجدها مزودة بالصواريخ، فصعد في إحداها وقادها إلى الساحة، موجهاً فوهتها نحو الوكر، وأطلق صاروخه الأول الذي فجّر المكان كله ثم استدار بدبابته، منطلقاً نحو البوابة، حيث رأى الحراس يقفون ويحدقون مشدوهين في الانفجار، فاجتازهم غير آبه بهم، متجهاً نحو قصر الجنرال الذي لم يكن ليبعد كثيراً عن المكان حتى بلغ الثكنة الواقعة جنبه والتي بوغت حراسها بالأمر فخرجوا، حاملين رشاشاتهم في أيديهم، طالبين منه سر الليل، فضحك مع نفسه قبل أن يطلق واحداً من صواريخه عليهم، مندفعاً إلى الإمام:

ـ سر الليل هو: الموت للجنرال.

كان يريد أن يبلغ القصر قبل أن يخوض المعركة ضد الدبابات



التي تناهت أصوات محركاتها إليه، فاندفع غير آبه بها وراح يطلق الصاروخ بعد الآخر على القصر الكبير، مصيباً العديد من أجنحته التي اشتعلت فيها النيران. ثم إذ رأى الدبابات تطلق صواريخها عليه وتتقدم نحوه، وكان قد أطلق آخر صاروخ لديه استدار بدبابته، محاولاً الخروج من المكان، ولكن عبثاً، إذ وجد الدبابات الأخرى قد قطعت عليه الطريق، فلم يجد بداً من أن يندفع نحوها أكثر فأكثر، محاولاً الاصطدام بها، قائلاً لنفسه «لا يمكن أن أستسلم لهؤلاء القتلة! الموت أفضل من الوقوع في أيديهم». لكنها تجنبته فاجتازها باتجاه ضفة نهر دجلة وانحدر بدبابته حتى الأعماق:

ـ وداعاً أيتها الحياة القصيرة.



٥٠

الحياة في زمن السحرة

بعد ذلك تعاقبت الأعوام بدون أن تحدث أمور كبيرة تستلفت نظر الناس الذين ألفوا حياتهم الجديدة، مقتاتين فقط على ما كان الشيوخ يروونه لهم في المقاهي من ذكرياتهم عن تلك الأزمنة البعيدة التي كان الأطفال لا يزالون يذهبون فيها إلى المدارس والجرذان تهاب القطط، وبدا أن الجنرال نفسه قد يئس من مغامراته الفاشلة، ففضل الإنزواء، قاضياً معظم وقته في الإشراف على بناء القصور التي راح يتنقل بينها بدون انقطاع، ليضلل أعداءه الكثيرين الذين قد يعمدون إلى النيل منه بصواريخهم الموجهة إليكترونياً، ونصب جدارياته في الشوارع والساحات والأزقة والاحتفال بأعياد ميلاده الذي ظل تاريخه الحقيقي سراً مغلقاً على الناس حتى النهاية. فإذا كانت الصحف الحكومية قد اكتفت دائماً بوصفه بالجنرال الشاب، مدعية أنه ينبعث في كل مرة من جديد، فإن المؤرخين واصلوا التهامس فيما بينهم:

ـ يا للكذبة، إن عمره لا يقل عن عمر نوح نفسه.

ـ هكذا هي الدعايات الحكومية. إنهم يكذبون في كل شيء.

كان الناس قد استسلموا في الحقيقة أمام ضربات القدر، واضعين ثقتهم كلها في السحر الأسود الذي راج في تلك الأعوام، بحيث صارت أجمل البنات يحلمن بالزواج من السحرة، بعد أن كن



يحلمن فيما مضى بالزواج من الضباط الذين يرصعون أكتافهم بالنجوم حينما فقدوا مع الزمن احترام الناس لهم لكفهم عن تدبير المؤامرات والانقلابات التي طالما اشتهروا بها في الماضي، مطلقين عليهم لقب الأسود الدرداء التي لم تعد تخيف أحداً.

ومع ذلك لم تمر الأمور بسلام تماماً دائماً، فقد وقعت في أيام الجوع جرائم غريبة، لم يكن الناس قد شاهدوا مثيلاً لها إلا في الأفلام البوليسية الأميركية، كان بطلها دائماً مجرماً أطلق الناس عليه لقب «صاحب الساطور»، وهو مجرم غريب الأطوار كان يقتل كل أهل البيت الذي يسطو عليه للمتعة وحدها، كما بدا في الظاهر، قاطعاً رؤوس ضحاياه في البانيو عادة، تاركاً وراءه بطاقة مزينة برسمة قلب يخترقه سهم كيوبيد الشهير كتب عليها «مع أطيب تحيات صاحب الساطور»، مما جعل الناس يصابون بالهلع والرعب حتى انتبهت لجنة التحقيق الدولية التي أوفدها الإنتربول إلى بغداد لكشف غوامض تلك القضية المحيرة إلى أن هذا المجرم الذي لا يشبه المجرمين العراقيين المألوفين ما كان يقتل ضحاياه عبثاً وإنما يختارهم بعناية مفرطة. كانوا جميعاً من الذين تحوم حولهم الشبهات في التآمر ضد الجنرال:

ـ من الواضح أنها قضية سياسية.

في البدء فكّر رجال اللجنة الدولية، بعد أن استمعوا إلى مزاعم المعارضين الفارين إلى الخارج، في احتمال أن يكون رجال الأمن أنفسهم قد دبروا تلك الجرائم لإرهاب الناس الذين ما كانوا يكنون ذرة من الحب للجنرال، حتى قادتهم كلابهم البوليسية التي جلبوها معهم والتي كانت قادرة على شم أي أثر، إلى قصر الجنرال نفسه، فنصبوا كمائنهم على مقربة منه في الظلام، مرتكبين بذلك خطأ حياتهم، إذ وجدهم المارة في اليوم التالي مرميين على الرصيف وقد حزت أعناقهم من الوريد إلى الوريد. ورغم أن الجنرال أعلن الحداد على فقدانهم في



البلد كله ونكست الأعلام ورثاهم الشعراء، لم يكف معارضوه الذين اتخذوا من لندن وواشنطن قاعدة لهم عن إتهام الجنرال القديس نفسه بكونه صاحب الساطور، وهو أمر أثار الضحك والسخرية منهم، إذ من كان يمكن أن يصدق أن رجلاً مقعداً مثله قادر على ارتكاب كل تلك الجرائم، حتى نشرت الجرائد الكبرى المشهورة في العالم صوراً يفترض أن الأقمار الاصطناعية التقطتها من الفضاء الخارجي لحفلة سرية كان الجنرال قد أقامها في حديقة أحد قصوره الكثيرة لجمع كبير من الشبان الذين بدوا أنهم يشبهون الجنرال في كل شيء، زاعمة أن هؤلاء الشبان هم هو نفسه وأن علماءه يعملون ليل نهار في مختبراتهم السرية الواقعة تحت الأرض على صنع مئات النسخ الشابة الجديدة منه، ضمن خطة لاستبدال كل الشعب به، مرفقة تقاريرها بأقوال قديمة للجنرال يقول فيها إنه يريد شعباً يشبهه في كل شيء:

ـ على الشعب كله أن يكون رجلاً واحداً، مثلي أنا، لنواجه الأعداء المتربصين بنا في كل مكان وننتصر عليهم.

لم يصدق الناس القصة بالطبع، ذلك أنها كانت مليئة بالكثير من الفجوات، فما قاله الجنرال كان يمكن أن يفهم كبلاغة كلامية على عادة الحكام في الشرق كله، والأكثر من ذلك إن أي شعب يتشكل دائماً من الرجال والنساء، فإذا افترضنا إمكان استنساخ الرجال، فمن أين يأتي الجنرال القديس بنساء يكن نسخاً مستحدثة منه أيضاً؟ وعلى إثر ذلك انبرت محطات التلفزيون الفضائية التي كانت قد انتشرت في تلك الأيام إلى عقد مناظرات، دعت إليها خبراء مختصين في الجينات الوراثية وعلم السلالات ورجال دين وسياسة، تحت عنوان عام ومثير هو: «هل يمكن استنساخ النساء من الرجال؟» وبالطبع ظهرت آراء واجتهادات كثيرة كما هو متوقع في مثل هذه المناظرات الأفلاطونية حيث احتدم الجدل بين العلماء الذين شكك معظمهم في إمكان



حدوث ذلك، مثيرين غضب رجال الدين الذين ردوا عليهم، بطريقة غير متوقعة:

ـ وماذا في ذلك؟ المرأة تابع للرجل في كل شيء. لقد خلق اللّه نفسه المرأة من ضلع الرجل، أليس كذلك؟

ومع استمرار هذه الحملة التي أجتذبت اهتمام عدد لا يحصى من المنظمات الإنسانية المعادية حتى لاستنساخ الحيوانات ذاتها، كذبت صحف الجنرال ومحطات إذاعته وتلفزيونه ما أسمته بالدعايات الرخيصة التي يروج لها الحاقدون الذين يستلمون رواتب كبيرة من المخابرات الأجنبية، مثلما أكدت في الوقت ذاته على ما وصفته بالمبادئ التي ينبغي على الجميع الالتزام بها، تلك التي تمنح كل دولة الحق في ما تفعله بشعبها داخل حدودها المعترف بها، مشيرة إلى أن الجنرال ليس محتاجاً لاستنساخ الشعب على شاكلته، لأن الشعب كله الآن هو الجنرال.

ومع ذلك ليس ثمة دخان بلا نار، كما يقول المثل، فقد لاحظ الناس الذين كانوا قد فقدوا كل أمل في الحياة وراحوا يموتون بالآلاف كل يوم، تحت وطأة فقر الدم الذي يسببه الجوع والطاعون الذي كان يحصد المحلة بعد الأخرى ويجتاح المدن والقُرى، وساطور صاحب الساطور الذي انتقل بعمله إلى أقصى بقعة في البلد، شباناً متأنقين ببدلات فاخرة وربطات عنق يجوبون الشوارع أو يجلسون في المقاهي الأرستقراطية، مدخنين سيكار هافانا الشهير ويحملون دائماً الوجه ذاته. لم يتعرف عليهم الكثيرون في البداية حتى عادوا إلى الكتب التاريخية القديمة ورأوا صور الجنرال في شبابه. إنه هو نفسه بالذات:

ـ يا إلهي، كيف سنعيش مع كل هؤلاء الجنرالات القادمين من العدم؟



وحينما لم يعد ممكناً إخفاء الأمر أو التستر عليه صار هؤلاء يدخلون إلى أي مكان ويمسكون بتلابيب صاحبه، قاذفين به إلى الشارع بعد ركله على مؤخرته:

ـ لم يعد لك مكان هنا.

كانوا كل يوم يزدادون وقاحة وعدداً حتى انهم صاروا يدخلون على الوزراء والمدراء العامين وجنرالات الجيش أنفسهم ويحتلون مكاتبهم، آمرينهم بأصابعهم:

ـ هيا اخرجوا واذهبوا إلى بيوتكم!

فكانوا يخرجون صامتين بعيون دامعة وقلوب مفطورة، مما جعل الكثيرين منهم يهربون في النهاية هم أيضاً إلى الخارج، ليقاوموا ما أسموه بزحف الجراد الجنرالي الذي التهم كل شيء.

هذا الأمر أثار الكثير من الدول التي كان الجنرال القديس قد خاض الحرب ضدها في الماضي، فاتخذته ذريعة للانتقام منه، متهمة إياه باللعب بقوانين الطبيعة الإلهية ومسخ الحياة الإنسانية، فراحت تطلق صواريخها ثلاث مرات في اليوم من بوارجها البعيدة في البحار على المدن والقُرى المهدمة أساساً وتقتل المزيد من الناس، فيما كانت طائراتها تُغِير كل يوم لتنسف الجسور وتقضي على كل ما تجده في طريقها. وبالطبع لم ينتبه الغزاة إلى أن الجنرال الذي كان قد أخفى نُسخَه الكثيرة من الشبان داخل مخابئ في باطن الأرض قد جرهم إلى نفس ما كان يريده، وهو أن يقضوا له على شعبه الناكر للجميل. بعد كل غارة أو هجمة جوية كان الجنرالات الأبناء يزدادون عدداً فيتدفقون إلى الشوارع ثانية في مظاهرات تحمل صور الجنرال الأب. وأخيراً ضج الناس أنفسهم بالشكوى:

ـ ما الذي يريده هؤلاء البرابرة الغزاة منا؟ إنهم يقتلوننا فيما يتركون الجنرال القديس ونسله ينعمون بالسلام.



وفيما كانت الحرب قائمة كالعادة تذكر الجنرال فجأة صديقه الأستاذ الشيطان الذي كان يرسف في الأغلال في زنزانة تحت الأرض بعد اعتقاله للمرة الثانية بدعوى التآمر كالعادة، فطلب إحضاره إليه ليعتذر منه. وهكذا عندما مثل الأستاذ أمامه عانقه بحرارة، باكياً على صدره كأي صديق قديم ومدعياً أنه ما كان يعرف بوجوده في السجن، مثلما أقسم أمامه على معاقبة رجاله الذين لم يعودوا يحترمون أحداً. ثم رجاه متزلفاً:

ـ تعرف يا عزيزي الأستاذ أن هذه الحرب التي يشنها الأعداء ضدنا قد طالت كثيرا، وما من أمل لي في إنهائها سواك. إنني أحتاج الآن إلى القليل من السلام.

عند ذاك نظر الأستاذ إليه مستغرباً وقال:

ـ وكيف يمكن لي أن أنهي هذه الحرب التي تعرف أن لا علاقة لي بها.

إبتسم الجنرال مداهنا:

ـ كلا، كلا، لا تفهمني خطأ، لم أقل أبداً إنها من صنعك، لكنني أعرف أنك تستطيع إنهاءها بهذه الطريقة أم تلك، بل تستطيع أن تحقق لي حتى النصر على أعدائي.

قهقه الأستاذ:

ـ كنت أعتقد أن الملائكة وحدها موكلة بإحلال السلام فوق الأرض، وليس الشياطين. حسناً، ما الذي يمكن أن أفعله من أجلك؟

وجاءت الصدمة التي بوغت بها الشيطان نفسه:

ـ أريدك أن تصنع لي القنبلة الذرية، إنهم لن يوقفوا حربهم ضدي إلا إذا عرفوا أنني أملك القنبلة الذرية. الصديق في وقت الضيق، كما نقول في الأمثال، فأثبت لي أنك صديقي حقاً!

اعترض الأستاذ:



ـ كلا، كلا، هذا أمر يتعلق بالبشر وليس بي، أنت تعرف أنه لم يسبق لي أن صنعت قنبلة ذرية من قبل.

ـ لا تتواضع يا صديقي، عندك ما يكفي من العلماء القادرين على صنع أي شيء، إنني أعرفك. فكّر في الأمر، لا تخذلني هذه المرة على الأقل، أرجوك.

كان الأستاذ الشيطان قد قرف مما عاشه بين البشر، شاعراً بالغيظ على الجنرال وأعدائه معاً، مما جعله يقدم على آخر عمل له فوق الأرض قبل أن يتركها تغرق في عتمة تاريخها الخاص بها ويرحل إلى مكان آخر:

ـ لا شأن لي بكل ما يحدث هنا. لقد مللت من غباء البشر فوق هذه الكرة الأرضية اللعينة.

وهكذا جلس بعد خروجه من مكتب الجنرال وكتب آخر خطبة له قبل الرحيل والتي اشتهرت بين الناس بعنوان «المقامة الشيطانية»، ثم نهض واستجمع قواه السحرية فأوقف جميع محطات الإذاعة والتلفزيون الفضائية في العالم، ظاهراً بنفسه على الشاشات كلها ليذيع ما لم تسمعه أذن من قبل، مثيراً الحيرة في قلوب الناس الذين اعتقدوا أنهم في حلم سوف يستيقظون منه بعد حين، مستغربين من أن يتحول الواقع نفسه إلى حلم. ومع ذلك ظلّت أعينهم مشدودة إلى الأستاذ وهو يلقي عليهم خطبته المزلزلة، معزين أنفسهم بالقول:

ـ لم يكن سيئاً جداً هذا الشيطان، لقد تذكر الآن أصله الملائكي، ليغفر اللّه له ما تقدم من ذنوبه وما تأخر.



٥١

المقامة الشيطانية

بيان صادر من الشيطان الرجيم الى سكان الكرة الأرضية

والنارِ. ذات الشرارِ.

لست مجنوناً تماماً. كل ما في الأمر هو أنني وقعت في الحال فنسيت نفسي. يا إلهي، لماذا ألقيت على عاتقي كل هذه المسؤولية الثقيلة؟ أعرف، أعرف أني سوف أجرع من الكأس ذاتها. فلأشرب إذن السم كله، أنا سيد المعجزات الذي انتظرتموه طويلاً.

مبارك أنت أيها الخراب.

معمداً أرواحكم باللعنة، جئت، أنا الشيطان، لأختم تاريخكم الدموي هنا، أنتم أيها البشر الأخيرون فوق هذه الكرة الأرضية، قبل أن أقودكم قافلة بعد أخرى في حافلاتي إلى الجحيم. أخيراً ربحت رهاني القديم عليكم، ذلك لأنني عرفتكم جيداً منذ اللحظة الأولى التي رأيت فيها وجوهكم الماكرة الكالحة. كنتم تقفون حينذاك في مجلس الملائكة متظاهرين بالوداعة والبراءة في حين أنكم كنتم تنتظرون على أحر من الجمر فرصتكم لتكشفوا عن الشر الذي يعتمل في قلوبكم والغباء الذي تمتلئ به رؤوسكم. لم يكن ينقصكم سوى إطلاق سراحكم من القفص لتعيشوا في الأرض فساداً. ولكن هل



ربحت رهاني حقاً؟ كلا، لقد ربحت بقدر ما خسرت، ربحت كل شيء وخسرت كل شيء بسببكم. فقد تحولت، أنا الآخر، على أيديكم إلى ضحية، مشجب تعلقون عليه أفكاركم الشريرة. وفي النهاية دمرتم كل شيء وحكمتم على أنفسكم بالموت. فماذا يمكن لي أن أفعل هنا فوق كرتكم الأرضية إذ لم يعد حتى ثمة أحد يمكن أن أغريه على السير في طريقي؟ الآن فقط اكتشفت كم كنت طيباً حينما اعتقدت أنني سوف أجد الكثير من المتعة أيضاً في اللعب معكم. كلا، لم يكن الأمر كذلك. فقد وجدتكم ترتكبون أحط الجرائم حتى بدون أن يرف لكم جفن، ناسبينها إليّ، في حين أن قلبي كان يتقطع من الألم.

انتهت اللعبة، وما من عودة إليها. الآن يمكن لي أن أقول لكم: أجل، كنتم موجودين ذات مرة هنا فوق الكرة الأرضية، تملأون كل القارات، تحبون وتكرهون، تنامون حين يجن الليل وتنهضون من نومكم حين تشرق الشمس، تتاجرون وتكذبون على بعضكم، تتخاصمون وتنتحرون أحياناً. كان ذلك سحركم البشري الخاص بكم. لكنه انتهى الآن بعد أن دمرتم بأيديكم كل ما بنيتموه من قبل. أعرف الآن أنكم ستنقرضون تماماً، تاركين إياي وحدي فوق كوكب ميت، لا أحد فيه سوى الصراصر والجرذان التي سوف تبني حضارتها على أنقاض حضارتكم الزائلة. يمكنكم أن تقولوا إنني كنت شريراً بما يكفي لأضلل هذا القديس أو ألعب مع ذاك الدرويش، لكن لا يمكن لكم أن تنسبوا إليّ شركم الذي لم تكن لي يد فيه. هل كان يمكن لي أن أخترع صواريخ موت تَعبر القرارات؟ هل كان يمكن لي أن أفكر بحروبكم الجديدة ويوم قيامتكم النووية القادمة؟ هذا ما لم أفكّر فيه أبداً. أنتم الذين فعلتم ذلك، لاعبين مع الحياة والموت، دافعين الثمن حتى آخر فلس. الصاعد من وسط الحفرة يؤخذ بالفخ، قال أشعياء ذات مرة، فقتلتموه لتنسوا الحقيقة.



وأسفاه، كل شيء انتهى دفعة واحدة، كما لو أنه لم يوجد قط. هو ذا النهر بلغ مصبه واختفى في البحر المزبد وما من رغبة لي في أن أرمي بنفسي في النهر الجاف، عائداً إلى النبع الناضب لأبدد ما تبقى من حياتي في ما لا جدوى منه. ما فكّرت يوماً أن الأشياء تنتهي هكذا فجأة، معتقداً أنني سوف أملك ما يكفي من الوقت لأدبر أحوالي في النهاية، لأرحل مطمئناً على ما خلفته ورائي. بيد أن ذلك لم يكن سوى وهم عابر، فالمرء لا يملك مصيره، إنه يقع فيه ببساطة فلا يستطيع منه إفلاتاً. وأسوأ ما في الأمر هو أن العصفور لن يملك فكرة عن الفخ الذي ينتظره إلا حين يسقط فيه. لقد كنت أعمى بما فيه الكفاية لأصدق، أنا الشيطان، بكل سذاجة أناشيدكم التي ظللتم ترددونها عن أنفسكم، عن البطولة والتضحية، عن الحقيقة والسعادة، عن التفاؤل والأمل وعن ذلك الشعور الزائف بالتقدم الذي يفترض أنكم حققتموه هنا فوق الأرض. أجل لقد صدقت أنا الآخر كل تلك الأوهام التي راودت شعراءكم منذ هوميروس وآخر شاعر في عصركم الحديث هذا وخشيت أن أخسر رهاني مع اللّه، ناسياً بين الحين والآخر حقيقتكم المفطورة على الشر.

لا، لست حاقداً عليكم، ولكن شكراً للّه أنني أفلحت في النهاية في أن أحل لغزكم، أن أنزع الأقنعة عن وجوهكم وأن أتخلص من آخر عاطفة في قلبي تجاهكم. هذا وحده يمنحني السعادة الآن، سعادة أن أقول رأيي بدون مواربة في هذا الكائن الفكاهي الذي يدب فوق الكرة الأرضية والذي أطلقتم عليه اسم الإنسان الذي يفترض أنه الأكثر كمالاً بين الوحوش كلها. يا لكم من أدعياء! الحق أقول لكم إنكم لستم سوى فصيلة أخرى من القردة الأكثر نذالة ومكراً. فالطيور مثلاً أكثر جمالاً في شكلها منكم، والأسماك أكثر رشاقة وانسيابية والكركدن نفسه أكثر جلالاً ووفاء لطبيعته منكم. إن ما يجعلكم



تختلفون حقاً عن الوحوش الأخرى هو قدرتكم على القيام بأكثر الأعمال دناءة ومجانية وخلوا من المعنى. أجل، إنكم الكائن الوحيد الذي يقتل بني جنسه غدراً أو رغبة في التدمير أو حتى طلباً للمتعة المجردة. حسناً، نحن الشياطين، لا نفعل ذلك. الحيوانات الضارية نفسها لا تفعل ذلك. هل سمعتم بأسد يجوب الغابة، باحثاً عن لبوءة يغتصبها ثم يقتلها بعد ذلك أو يقتلها أولاً ثم يغتصبها؟ ما من حيوان سوى الإنسان يفعل ذلك. هل سمعتم بذئب بلغ به الجنون حد الاعتقاد أن قطيعه هو الأكثر تفوقاً وذئبية بين الذئاب كلها فشن الحرب على ذئاب الأرض الأخرى وقتلها وشردها حتى اعترفت له بدعواه؟ الإنسان وحده يفعل ذلك. هايل هتلر. ألمانيا فوق الجميع. ومع ذلك فإنكم لم تكفوا عن الادعاء بأنكم الجنس الأرقى حتى بدون شعور بالخجل.

لا، لا أريد هنا أن أحدثكم عن الخراب الذي تركتموه وراءكم أينما حللتم وإنما عن الحياة التي لم تعرفوها إلا كطريق دائم إلى الموت. لقد أردت في البداية أن أمثل معكم دور الشرير، كما في فيلم كاوبوي أميركي، فإذا بكم أسوأ مني بألف مرة. تورطت بكم حتى كرهت كل ما لصق باسمي ظلماً وبهتاناً من جرائم يفترض أنني ارتكبتها على مر التاريخ. يا للمهزلة! إنكم لم تكونوا تحتاجون إلى الشيطان لترتكبوا جرائمكم التي لم تخطر في بالي يوماً حتى بت أعتقد أنني أنا نفسي لست سوى كائن اختلقتموه أنتم أنفسكم، لأكون مرآة شروركم. إنني كلما تذكرت جرائمكم التي ارتكبتموها في القرون الوسطى في أوروباكم ضدي وباسمي أيضاً أخجل من المهمة التي أوكلت إليّ، كممثل للشر ومن عار أن أعيش بينكم. كنتم تمسكون بأطفال في السادسة أو السابعة من أعمارهم وتتهمونهم بممارسة السحر ثم تشدونهم إلى جذع شجرة تشعلون فيها النار، صامين آذانكم



عن عويلهم الذي ما زلت أسمعه اليوم أيضاً. هل تعرفون لماذا فعلتم كل ذلك معهم؟ لقد فعلتموه بدعوى إخراج الشيطان من أجسادهم البريئة. كان القسس يقفون ويحدقون بعيونهم المحمرة الممتلئة حقداً على الحياة ويتلون تراتيلهم الوثنية على ضحاياهم المرتعبين. فعلتم ذلك كله باسم المسيح ضدي، ذاك الذي ضحى بحياته من أجل أن يفتدي آثامكم. هل كنتم تستحقون تلك التضحية بالنفس حقاً؟

هل تعرفون كم من الأطفال والنساء والمنبوذين أشعلتم فيهم النار في قرونكم المظلمة تلك؟ ربما نسي الكثيرون منكم الآن عدد ضحاياكم حينذاك، ولذلك سأقوله لكم لتخجلوا قليلاً من دعاواكم المضحكمة في التفوق وفي تمجيد أفعالكم وأنفسكم. لقد قضيتم بأكثر الطرق بدائية ووحشية على خمسين مليوناً من بني جنسكم بدعوى حماية أرواحكم من الشر. أي شر هو أكثر شراً من جرائمكم تلك. يا للخجل!

كان يمكن لي حتى أن أتفهم غباءكم هذا لو وزعتم جرائمكم تلك بالعدل والقسطاس على الناس. كلا، أنتم لم تفعلوا ذلك. كان الذين يقادون إلى المحرقة دائماً هم من أطفال الفقراء ونسائهم، من المجانين والمنبوذين، من المقهورين الذين لا لسان لهم. أجل إنكم لم تتهموا الملوك والأباطرة، لم تتهموا قادة الجيوش المنتصرة ولا مالكي الخزائن والضياع يوماً بممارسة السحر الأسود وإنما دائماً أولئك الذين حرمتموهم من كل شيء، ضحاياكم أنتم أنفسكم.

كنتم تضاجعون نساء الفلاحين ثم تحكمون على نسلهن كأبناء للشيطان. والأسوأ من ذلك أن الشعب نفسه كان يصدق دعاواكم تلك فتتزاحم جموعه إلى السهول لترى الأجساد الملتهبة المشدودة إلى صلبانها تحترق فوق مرتفعات الموت. إنكم لم تملكوا الشجاعة لتسألوا أنفسكم: ما الذي يحصل عليه الشيطان من إغواء امرأة مقهورة



أو من طفل بائس مرمي على قارعة الطريق؟ كان الأولى بكم أن تشكوا بالقسس والملوك والقادة. فلو كان ما نسبتموه إليّ صحيحاً لفضلت إذن أن أعقد صفقاتي مع المنتصرين، لا مع المقهورين.

هل كان يمكن لي، أنا الذي كنت ملاكاً ذات مرة في ملكوت اللَّه، أن ألطخ يدي بدم الأبرياء من الناس؟ مثل هذا العمل لا يمكن أن يقوم به سوى الإنسان. أجل، لقد كتب عليّ في لحظة غضب أن أكون ملعوناً وعدواً للَّه، لكنني أردت دائماً أن أكون عدواً عادلاً يؤدي واجبه بإستقامة وشرف، وهو ما افتقدته عند بني جنسكم. فمنذ اليوم الأول الذي هبطت فيه على الأرض اكتشفت أن الإنسان نذل بما يكفي ليرتكب أي جريمة. أجل، لكل منا نحن المخلوقات حدوده التي لا يتجاوزها بحكم طبيعته. الإنسان وحده هو الكائن الذي يمكنك أن تتوقع منه فعل أي شيء.

*

أمس إذ كنت أحلق فوق سماء مدنكم المخنوقة بالغبار والدخان، متصعلكاً أستكشف العالم على عادتي رأيت ما جعل قلبي يمتلئ رعباً. قلت لنفسي: أنظر وتعجب! ها هي ذي مدن تشتعل بأضوية بحار من النيونات وعمارات عالية تنطح السحاب. قطارات لا عد لها تنطلق من محطة إلى أخرى، سيارات آتية، سيارات ذاهبة. ملايين من البشر في الشوارع. شرطيون يلاحقون مجرمين وفتيات يقفن على الأرصفة أمام أعمدة الإعلانات يصطدن الزبائن. ثمة من يقتل أحداً، ثمة من يبكي. صعاليك يجرون وراءهم كلابهم إلى حدائق معتمة ليشتروا الحشيش من الباعة الأفارقة والعرب المختبئين وراء الأشجار. قلت: حسناً، ماذا يعني أن أغري أحداً من هؤلاء ليبتعد عن الله أو أن أجعله يضل الطريق؟ من عاد يهتم بالطريق إلى اللَّه أو حتى بالطريق



إلى الشيطان؟ هابطاً على الأرض اصطدت لي واحداً من المارة وقلت له مداعباً: «انتظر أيها السيد، أنا الشيطان جئت أعرض عليك صفقة مربحة». ضحك الرجل الذي كان يرتدي بدلة كحلية بربطة عنق حمراء وقال لي بلهجة لا تخلو من الشماتة: «يا لك من مغفل، أو لم تسمع حتى الآن أن الشيطان قد مات». رددت عليه، مستغرباً: «نعم، سمعت دستويفسكي يقول إن اللّٰه قد مات، أما أن يكون الشيطان قد مات أيضاً فهذا ما لم أسمع به.» هز الرجل رأسه وقال لي مواسياً: «لقد ماتا معاً منذ زمن بعد وانتهينا منهما، فاذهب وابحث لك عن مهنة أخرى إن كنت الشيطان حقاً».

أجل، إنكم انتهيتم من الإله والشيطان معاً، لكنكم اتخذتم لكم آلهة وشياطين جديدة صنعتموها هذه المرة بأيديكم ورحتم تنفخون فيها الروح حتى استعبدتكم. هل تذكرون قصة فرانكنشتاين، الوحش الذي دمر خالقه في النهاية؟ حسناً، لقد خلقتم أنتم أيضاً فرانكنشتاينكم الخاص الذي راح يفتك بكل من يصادفه في طريقه. كان يمكن حتى لي، أنا الآخر، أن أقع ضحية بين يديه، لولا الحظ الذي حالفني فنجوت منه. لقد طاردني فرانكنشتاينكم من مدينة إلى مدينة، من قرية إلى قرية، من صحراء إلى صحراء ومن جبل إلى جبل، ليحتكر الشر كله لنفسه بدون منازع.

لم أعد راغباً بعد الآن في أن أقودكم إلى الجحيم. ولماذا أتعب نفسي معكم إذا كنتم أنتم أنفسكم قد حولتم الكرة الأرضية نفسها إلى جحيم؟ كل ما أريده الآن هو أن أغادر كوكبكم هذا لأنعم بالسلام وراحة البال. لم يعد لي ما أفعله هنا بينكم. أصبحت فائضاً في غمضة عين. علي الآن أن أنسحب إلى مغارتي في الأبدية وأتأمل في شركم المطلق.

لقد انتهى زماني. لا أنكر أنني قضيت أياماً جميلة أيضاً معكم



في الماضي البعيد، ولكن كل ذلك انتهى الآن. حينذاك وكنتم لا تزالون بعد أبرياء كان العالم يضج بالقديسين والدراويش الذين وجدت الكثير من المتعة في اللعب معهم وإغوائهم، ناجحاً تارة ومخفقاً تارة أخرى، وهو دور لم أجد غضاضة في القيام به. كل ما كنت أحتاجه هو أن أخرج إلى الشارع لأرى أمامي ألف باحث عن الحقيقة. كنت أمد كفي إلى النهر وألتقط ما شئت من الأسماك. أما الآن فقد صار عليّ أن أبحث عن الإبرة في تل من القش بعد أن أنمسخ البشر أنفسهم إلى شياطين أسوأ مني بألف مرة تعيث في الأرض فساداً.

لقد قرفت منكم، أيها البرابرة، قرفت من عجرفتكم وغطرستكم ومن دعاواكم الكاذبة عن أنفسكم. ما أكثر ما سمعتكم تثرثرون، جالسين في المقاهي والحانات، حول السعادة التي بلغتموها في ظل إلهكم الجديد الذي أطلقتم عليه اسم العلم. ولكن أتراكم أصبحتم حقاً أكثر سعادة من أسلافكم الذين استوطنوا الكهوف؟ لا أبداً. ربما صرتم تأكلون أكثر مما مضى وترتدون ملابس أكثر أناقة وتقودون عربات أكثر سرعة وتحلقون بطائراتكم في الجو وتنتقلون من قارة إلى أخرى. ولكن ما جدوى ذلك كله إذا كنتم قد خربتم أرواحكم ذاتها؟ لقد انتهيتم منذ أن حولتم الإنسان نفسه إلى بضاعة معروضة في السوق وارتضيتم أن تكونوا ذئاباً يفترس بعضكم البعض الآخر واتبعتم كهنة كذبة يدّعون معرفة الطريق إلى الفردوس. ثمة مصانع لا تعد تعلب الأكاذيب وتبيعها على العميان من أمثالكم، وأنتم تشترونها، كأدوية شافية لأرواحكم المريضة. يا إلهي، ما أقسى عبوديتكم!

لم تعد الكرة الأرضية مكاناً صالحاً للسكنى. ثمة إحساس ينتابني الآن بأنني ربما كنت في المكان الخطأ. لقد حولتم الجنة نفسها إلى خرائب. فيما مضى كنت أستمتع على الأقل بمرأى الغابات الممتدة على مدى البصر والسهول الخضراء وأشم روائح الطبيعة المدوخة.



أما الآن فليس سوى روائح مدنكم النتنة ودخان ضباب مصانعكم الخانق الذي تنفثه ملايين المداخن، ليس سوى سموم سياراتكم التي تدب في شوارعكم القذرة المحشورة بالبشر، ليس سوى عماراتكم العالية التي تكاد تكون قبوراً مقلوبة دفنتم أنفسكم أحياء فيها.

حينما أرى بؤس عالمكم أسكت وأكظم غيظي. لقد فقدت حتى لساني، لاجئاً إلى الظلمة العميقة حولي، أخرس إزاء أسئلة لا أجوبة لها. لا أنكر أنني دهشت ذات مرة من جنونكم وأنتم تسيرون بين جدار وجدار، فلا تتعب أرجلكم، مقتاتين على أوهامكم التي كانت تثير ضحكي وشفقتي عليكم، ناسين أنكم من التراب تخرجون وإليه تعودون. لقد أوهمتم أرواحكم بكل ما ليس لها وسفكتم من أجل ذلك الكثير من الدماء. الإسكندر المقدوني، نابليون، ستالين، هتلر وكل الأباطرة الآخرين الذين نصبوا أنفسهم آلهة عليكم، مغرينكم بتشييد الجنة فوق الأرض، بيد أنهم انتهوا بكم جميعاً إلى الجحيم حتى بدون أن يروا الحاجز الذي يفصل ما بين الحياة والموت. أجل ما إن تلطخت أيديكم بالدماء حتى شعرتم بلذة الجريمة فأدمنتموها كأفيون مهدئ لأرواحكم القلقة.

*

لاحظت الفأرة في إحدى حكايات كافكا أن خوفها هو الذي يدفعها إلى الوقوع في الفخ. تشكت من ذلك، لكن القطة أجابتها إن ما ينقصها هو تغيير اتجاهها فقط، ثم افترستها.

أي حقيقة أبحث عنها؟ الزلازل ضربت المدن فحولتها إلى خرائب. ها أنذا أقف الآن فوق الأنقاض وأصرخ. ما من سيارات إسعاف هنا. على الموتى أن يحفروا قبورهم بأنفسهم بعد الآن.

لنتحدث بصوت واهن حتى لا تسمعنا الأشباح.



ذاهب أنا الآن وفي قلبي غصة منكم.
ذاهب إلى كوكب آخر، إلى مجرة بعيدة، ذاهب لأنساكم إلى الأبد وأن أحذفكم من ذاكرتي ومن تاريخي.
ذاهب لأرعى سلالة أخرى من الكائنات.
هذا هو الجحيم فلا جحيم.
قدست النار سارية في الهشيم.

*

ما كاد الأستاذ الشيطان يختتم مقامته الطويلة هذه حتى رآه الناس كلهم على شاشات تلفزيوناتهم في العرض المثير الذي قدمه وهو يجر وراءه أربعة شيوخ تهتز لحاهم وتنبعث منهم رائحة الموت بحبل ربطهم به جميعاً ويصعد بهم عالياً إلى آخر السماء:

ـ عليّ أن أعيد الأمور الآن إلى نصابها، ما كان عليّ أن أنخدع بهم في لعبة الحياة والموت، لذلك سأعيدهم إلى الجحيم ثانية مثلما جئت بهم ذات مرة إلى الأرض، إنني أطلب المغفرة.

سيداتي، سادتي، انتهى عرضنا لهذه الليلة!
أنا الشيطان أعلن النهاية.

*

لكن الناس الذين ظلوا يتفرجون على ما يحدث أمامهم هزوا رؤوسهم، قائلين بيأس:

ـ أي كلام فارغ هذا! لا شيء ينتهي هنا، ماذا إذن عن كل هذه السلالات الوثنية الملعونة التي تركها الشيطان وراءه في كل مكان من مدننا وشوارعنا؟



وراحوا ينادون عليه:
ـ خذهم جميعاً إن كنت صادقاً في دعواك أيها الشيطان، خذ تاريخهم كله معك إلى الجحيم!

لكن الشيطان الذي كان قد انتهى لتوه من أداء دوره المثير في مسرحيته الأبدية التي قدّمها لجمهوره الذي ظل متشبثا حتى النهاية بالأمل في نهاية سعيدة للقصة كلها واصل طريقه بين الغيوم من دون أن يلتفت وراءه:
ـ وداعاً أيتها الكرة الأرضية!




مكتبة
الفكر الجديد

الجزء الخامس

العودة الى ما لا عودة اليه




مكتبة
الفكر الجديد

٥٢

طيران الى بداية الماضي

ثمة غيوم بيضاء تتكوم فوق بعضها، ساطعة في الأسفل تحت الشمس، ومن فجواتها يسطع البحر بين الحين والآخر، أزرق، عميقاً ولا نهائياً:

ـ فوك النخل فوك يا به، فوك النخل فوك.

شعر عادل سليم الأمير، وهو يتكئ على مقعده، لصق دليلة التي بدت ساهية عن العالم كله، وهي تقرأ في ديوان شعر أخرجته من حقيبتها اليدوية، في طائرة البوينغ ٧٠٧ المحلقة عالياً وأمامه كأس من الويسكي، أنه يعود ثانية إلى بداية الماضي كله، حينما كان العالم لا يزال صغيراً جداً حتى ليمكن للمرء أن يقطعه مشياً على الأقدام والمرء يهرم من الملل في الثلاثين من عمره. لكن كل ذلك قد طوته يد النسيان ولم تعد له منه الآن سوى عاطفة باهتة عن الزمن الذي تركه وراءه في دورة الأيام. اكتشف في لحظة ما أن أعواماً طويلة لم يعد قادراً على عدها كانت قد مرت به من قبل وهو غائب عن الآخرين داخل شقته المقبضة التي أغلق بابها على نفسه، خشية أن يفضحه هواه الذي يقذف به في الجنون إلى كل ما لا عودة إليه. لذلك ظل طويلاً يدير المفتاح في القفل مرتين كل ليلة ويجلس في الظلام، متشبثاً بأوهى الآمال، كمن ينتظر دوره في مكتب دائرة ما لينادى عليه. ثم



يهمس لنفسه: لقد انتهى كل شيء، فماذا أنتظر؟ وكان إذ يستبد به الضجر في نهاراته التي ما كان يعرف ما يفعل بنفسه فيها يخرج من درج منضدته ناظوراً كان قد اشتراه قبل سنين من متجر يقع لصق محطة قطار بانهوف تسو في برلين ويحدق به من وراء زجاج النافذة ليرى ما يحدث هناك تحت في الشارع المزدحم بالمارة والسيارات. وفي الليالي كان يتلصص على جيرانه في شققهم المضيئة في العمارات البعيدة، حيث غالباً ما كان يلمح امرأة عارية تضطجع على سريرها أو رجلاً يدخن بانتشاء أو يتناول فنجاناً من القهوة وهو يشاهد مسترخياً فيلماً بوليسياً على شاشة التلفزيون، فيردد مع نفسه، متنفساً الصعداء:

ـ أجل، إنهم هناك، ما زال العالم قائماً كما كان دائماً.

ثم يتدارك نفسه، كمن أخطأ التقدير:

ـ لكن الزمن سوف يعصف بهم مثلما عصف بي أنا الآخر.

أمر به الزمن حقاً؟ كل ذاك الزمن؟ أمر عسير على الفهم، رغم أنه كان يحس به بكل خلية في جسده الذي زحفت إليه الشيخوخة مثل حشرة تنخر داخل قلبه. نظر من الأعلى فرأى الشمس تضيء سطوح غيوم محروقة تتلوى في الريح تحته مثل أفعى أسطورية ذكرته بقصة الخليقة الأولى، حينما لم يكن هو قد وُلِد بعد. حينذاك، ذات يوم ممطر في آذار، عجبت الملائكة من الكون الذي صنعه اللّه فقالت: «يا ربّ هل في خلقك شيء أشد بأساً من الريح؟» قال: «نعم، الإنسان».

أطلق عادل سليم الأمير ضحكة مدوية: الريح والإنسان؟ من لا يعرف أنه ينحدر من نسل القردة! سوف يمر زمن طويل على العالم بالتأكيد قبل وصول قافلة الإنسان الأسمى، ذاك الذي تحدث عنه نيتشه ذات مرة، بفعل اليأس، حين كان يقف على حافة الجنون. الريح تمر، الزمن يمر، الإنسان يمر. قرد ببدلة ألمانية من الجوخ



وربطة عنق حمراء يرتديها في الحفلات التنكرية والمناسبات السنوية.
لا شيء يظل على ما هو عليه. هو ذا الآن في الزمن، تمر به السنون مسرعة من الفزع مثل عربة تجرها خيول عربية أصيلة تعدو في شارع ما، عربة سوداء نقش حوذيها على مشمعها الأسود الذي يهفهف في الريح «في عين الحسود عود». يا للقسوة!

لم يكن قد انتبه إلى نفسه. أعاش هو الآخر حقاً كل ذاك الزمن؟ باغته السؤال بغرابته فشعر بالهزيمة حتى الرغبة في العويل، كما لو أنه ضبط متلبساً وهو يخرج عارياً إلى الشارع، مثلما يحدث له أحياناً في كوابيسه النهارية، كما لو أنه اكتشف مرتعباً أنه يهبط من طائرة في مطار ما بعد منتصف الليل، فإذا به يجد قتلته في انتظاره تحت السلم المتحرك، يبتسمون له من فرط فرحهم بوصوله. لم تكن ثمة أعلام أو لافتات ترحب به ولا حتى طبول تقرع احتفاء بعودته، كحاج عائد من مكة. قتلة أصدقاء يتنكبون بنادقهم ويحدقون في وجهه، هو الشاب الذي صار عجوزاً بفعل النسيان أو ربما بفعل الحقيقة التي أنكرها بعواطفه، وعناده قبل ذلك. نظر إلى يديه فوجد عروقهما نابتة مثل جذور شجرة يابسة، ومع ذلك طمأن نفسه:

- إنني ما زلت أعيش. أجل، إن الإنسان أشد بأساً من الريح، هذا ما قاله نيتشه أيضاً.

لكن الإنسان يموت، وهو أمر ينقصه الإنصاف، في حين تظل الريح تعصف دائماً. في الحقيقة أنه ما كان يستطيع أن يتصور موته الشخصي، فقد كان الموت دائماً خسارة تخص الآخرين وحدهم.



٥٣

الرجل الذي لا يموت

قبل أعوام حين كان لا يزال يؤم المقاهي ويضع رجلاً على رجل، منظراً ومحللاً لأصدقائه أحداث العالم ومصائبه التي ما كانت لتنقطع قط، التقى صدفة روسيا دعيا في الثانية والأربعين من عمره، اسمه ميشا، يعيش في مدينة هامبورغ، كان قد ظهر في التلفزيون، معلناً أنه لم ينم لحظة واحدة منذ سبعة عشر عاماً، وهو أمر أكدت صحته على أي حال زوجته ناتاشا التي كانت تودعه دائماً بقبلة قبل الذهاب إلى النوم، فيظل جالساً في غرفة المعيشة حتى الصباح ينظم الشعر، مقلداً بوشكين وباسترناك، مثلما زعم أنه لا يكبر ولا يهرم أبداً، حيث يمر الزمن به وهو باق على حاله مثل صخرة جلمود، والأغرب من ذلك ادعاؤه الغريب بأنه يعرف أنه لن يموت قط وسيعيش إلى الأبد. بدا له هذا الروسي السكير كالعادة والذي كان أحد أصدقائه قد جاء به إلى مقهاه الواقع في ساحة ألكسندر بلاتز طريفاً بعض الشيء حتى انه دعاه مع صديقه الآخر للنزهة في غابات كوبينيك القريبة من المدينة. هناك سأل عادل سليم الأمير ميشا ثانية:

ـ حسناً، قل لي يا ميشا، هل أنت متأكد بالفعل أنك لن تموت؟

رد ميشا مبتسماً:

ـ طبعاً إنني متأكد، لن يأتيني الموت أبداً، إنني أعرف ذلك.



حينذاك أخرج عادل من جيبه مسدساً، كان قد اشتراه قبل أعوام بمئة مارك من جندي أميركي تقيم وحدته في ميونيخ، وأطلق منه النار فوق رأس ميشا فأصاب جذع شجرة كان يقف تحتها وقال له وهو يصوب مسدسه إلى صدره:

ـ أرجو أن تتأكد الآن إن كنت لا تموت حقاً.

أجاب الروسي ميشا مرتعباً هذه المرة وهو يمسح العرق عن جبينه:

ـ كيف صدقت ذلك؟ سأموت أنا الآخر بالتأكيد، وهو أمر مخيف تماماً. أشكرك جداً على تنبيهك إياي.

ـ لا شكر أبداً حين يتعلق الأمر بالموت والحياة.

يا لهؤلاء الروس من حمقى ومجانين! ما يكاد أحدهم يعب في جوفه قنينة أو قنينتين من الفودكا حتى يعتقد أنه لن يموت أبداً.

أجل، لم يكن قد فطن هو الآخر من قبل إلى أنه قد كبر أيضاً حتى اكتشف ذات مرة وهو ينظر في وجهه في المرآة أنه أكثر هرماً من الآلهة نفسها، سوى أن آلهة الأساطير تحتفظ بشبابها دائماً، وهو أمر يجدر بها، لا ينبغي له أن يحسدها عليه. مليارات من السنين مرت بها منذ أن تسللت، خارجة من العدم، من دون أن تترك أثراً فيها، نافضة الغبار الذي التصق بها، وهكذا ظلّت تجلس دائماً في عرش الأبدية تراقب في وحدتها نفاذ قوانينها على الجميع، ومن ضمنهم ذلك الروسي الأحمق ميشا بالطبع، عبر بلورة مركونة أمامها، أو ربما جوهرة خضراء داخل سحابة من زبد ودهان وبخار، مرمية في نهر الزمان المتدفق أبداً. أما هو فقد عرف الآن على الأقل أنه لم يكن واحداً منها في أي وقت ولذلك هرم هكذا سريعاً. جلده صار يشبه جلد تمساح على ضفة بحيرة فكتوريا. جلد متقرن بحراشف مغطاة



بالإكزيما سوى أن قلبه ما زال ينبض، سوى أنه ما زال يأمل أن يعود شاباً ثانية وأن يكرر حماقاته كما فعل دائماً بدون شعور بالندم.

ما هذا الذي قاله لتوه؟ أمر به الزمن حقاً أم جرفه أمامه؟ آه، لا شيء حدث له. ربع قرن؟ وماذا في ذلك؟ إنه ليس سوى زمن مثل غيره. هذا ليس كثيراً على رجل مثله كان يعرف أن الأبدية نفسها مرت قبله عبثاً، مثلما ستمر الأبدية بعده عبثاً أيضاً، فلماذا يشكو من زمن منفاه الذي مر به؟ هذا ليس كثيراً عليه حقاً، ما دام لا يزال قادراً على أن يحلق ذقنه كل صباح، أن يدخن سيجارته وأن يحدق من النافذة ليرى أن العالم قائم كالعادة وأنه هو الآخر على ما يرام.

ـ فوك النخل فوك يابه، فوك النخل فوك.

هكذا ظل يجلس كل صباح على كرسيه الهزاز في الضوء الذي يأتيه من النافذة. ثمة أيضاً شمس مريضة تسفح نفسها على العمارة المواجهة المحدقة فيه، من بعد أمتار قليلة، نافذة بعيون مفتوحة تخترق نظراتها النابتة نافذته مبتهجة به، عمارة منبعجة، بشرفات شقق مطلية باللون الأزرق. وكان في إمكانه أن يسمع أيضاً أصوات العالم في الخارج، ضجة سيارات تمرق في الشارع. عالم مشغول بنفسه. كل شيء يحدث بحكم العادة. هو أيضاً موجود بحكم العادة.

ـ يا له من عالم عجيب!



٥٤

الحمامة

قبل أيام عشر في شرفة شقته المزدحمة بالنباتات على حمامة صغيرة كانت قد فقست لتوها وراحت توصوص لأمها الجاثمة على الحاجز. فكر أنه لا يليق به أن يطردهما. فلو فعل ذلك لسقطت الحمامة الصغيرة من الطابق الخامس على الأرض وماتت. أمها ستطير بالتأكيد، تاركة إياها لمصيرها. عليه أن يكون رحوماً ورؤوفاً أحياناً. كان الطقس حاراً، لكن الحمامة الصغيرة عاشت، حمامة سوداء قبيحة مثل أمها. ثمة شعور حيواني انتابه فجأة: هي ذا هناك. خمن أنها ربما كانت عطشى. لذلك راح يترك لها الماء كل يوم في قدح صغير ركنه جانباً. كان في إمكانه أيضاً أن يحرمها من الحياة، لكنه لم يكن قادراً على القسوة. بعد أسبوعين من ذلك رآها هي وأمها تعبثان بأصص تمتد على طول واجهة الشرفة ثم تطيران بعيداً. لم يكن ينتظر منهما أن تشكراه على صنيعه معهما، فما فعله فعله من أجل نفسه، فلولاه لشعر بوخز الضمير، رغم أنه ما من شيء كان سيتغير في العالم حتى لو أرغم الحمامة الصغيرة على الطيران إلى حتفها.

ـ «شكراً أيها الرجل»، قالت الحمامتان.

في البدء كانت الدواب أيضاً تتكلم. كان النسر يأتي إلى الحوت في البحر فيخبره بما في البر ويخبره الحوت بما في البحر. تبادل



معلومات في عصر لم تكن التكنولوجيا فيه قد حولت العالم بعد إلى قرية صغيرة تحلق في فضائها الخارجي الأقمار الاصطناعية وتخترقها شبكات الإنترنيت. حينذاك كان العالم مفتوحاً بحجم الزمن.

فكّر أنهما حمامتان مؤدبتان حقاً.

كان في إمكانه أن يكون عاطفياً أيضاً أحياناً بطريقة تشعره بالخجل من نفسه. لكن أكثر ما كان يخجله هو عجزه أمام ما لا مرد له، أمام ما كان يلتهمه قطعة قطعة: قانون الحياة. أجل، إنه ليخجل حين يرى أحداً يموت، حتى إذا كان غريباً عنه. لم يكن ذلك يبدو له عادلاً. «ثمة جريمة في الأمر يرتكبها أحد ما ضدنا هنا فوق الأرض. أحد ما يقتل أحداً ما. لقد دفع هو الآخر ثمن أعوامه التي أمضاها هنا في المنفى. قامر على كل شيء دفعة واحدة وخسر كل شيء، بدون أن تكون له يد في الأمر. إنه الزمن، شروق الشمس وغروبها. قبل ربع قرن كان بعيداً عن الموت بربع قرن. أما الآن فقد اقترب منه بربع قرن. ليس ذلك عادلاً حقاً. قبل ربع قرن كان يحب المستقبل أكثر من الماضي. أما الآن فراح يرى موته في المستقبل وليس في الماضي. في الماضي كان حياً، في المستقبل سيكون ميتاً. ولكن ماذا في ذلك؟ لا شيء بالتأكيد، كل ما في الأمر هو أنه سيموت فقط بحكم العادة. «ذات يوم سأترك العالم ورائي، منهزماً أمام جرثومة ما صغيرة لا يمكن رؤيتها إلا بالمهجر أو ربما فتك ورم ما بقلبي وجسدي. لكن كل ذلك ليس مهماً الآن ولا ينبغي لي أن أحزن بسببه، فأنا ما زلت حياً، مؤقتاً على الأقل، وكل شيء على ما يرام».

سنوات طويلة أغلق الباب على نفسه وأسدل ستائر نوافذ بيته الحمراء الداكنة المغطاة بالغبار. لم يعد يخرج إلى الشارع حتى ليرى إن كان العالم لا يزال قائماً. لم يعد ثمة ما يهمه في الخارج، بعد أن روّض قلبه على تلقي الصدمات وانتهى من كل ما كان يشده إلى



الآخرين، مكتفياً بنفسه إذ راح يقرفص أمام مرآة مستطيلة كبيرة وضعها في غرفة نومه، سارداً على نفسه قصصاً مسلية عن الماضي كان يحفظها عن ظهر قلب. ثم عرف أنه إذ يبلغ المرء منتهى اليأس يبدأ الأمل الحقيقي: أن تجلس في غرفتك وحيداً وتخلق العالم ثانية على هواك. هناك في غرفته المعتمة التي لا يدخلها نور الشمس إلا صدفة شعر حقاً بالرضى الذي افتقده حين كان واحداً منهم. شعر بالرضى عن نفسه، بعد أن انتهى من اللهاث مثل كلب وراء أي عظمة فاسدة مرمية في الشارع.

لكنه حينما هبط أخيراً من غرفته في عمارته البرلينية، منهياً غيابه الذي فرضه على نفسه، كواحد من دراويش الماضي المنزوين في مغاراتهم، رأى الحدائق تمتد أمامه خضراء ساطعة والشمس تملأ المدينة فرفع يديه عالياً وحيا العالم ثانية، الأشجار الباسقة المتفتقة خضرة في الربيع، الغيوم الخفيفة المعلقة في السماء، الأطفال العائدين من المدرسة، حاملين على ظهورهم حقائبهم، والسابلة المتسكعين في الشوارع بعد المطر، مستعيداً ذكرياته حين كان يقطع الطرقات، مشياً على الأقدام، متنقلاً من مكان إلى آخر، ممتلئاً بفرح اكتشاف غبطات الحياة ومسراتها المبذولة.

ما كاد يسير ثانية في الشارع حتى قال مخاطباً نفسه «هذه الطريق للجميع وليست لي وحدي. أريد طريقاً لا يسلكها سواي. من قبل مشيت طرقاً كثيرة وعرفت كل حجارة فيها، فلماذا أنهك قدمي في السير عليها ثانية؟ ألف حذاء تهرأ في رجلي حتى الآن وما زلت في المكان ذاته. ماذا أفعل بالطرق العامة؟».

إذاك، رافعاً رأسه إلى السماء رأى الشمس ترسل بضيائها إلى الكرة الأرضية، قديمة وجديدة في اللحظة ذاتها، تطل المرة بعد الأخرى كل صباح على الشجرة الوحيدة التي تنتظرها في الوادي لتفتح



أزهارها والصخرة المتألقة عند الجرف، على السمكة في النهر، والأسد في الغابة، على الطفل في المهد والشيخ المستند على عصاه، على الطيبين والشريرين، حينذاك فقد عرف أن القديم سيكون جديداً دائماً.

كرم الشمس أخجله فأراد أن يكون مثلها قديماً وجديداً أيضاً، تهتدي بنوره القوافل السائرة في الظلام. ثم رأى أن ما يجعل الشمس بمنجى عن البخل ليس لأنها قديمة أو جديدة وإنما غليان الإنفجارات المدوية في داخلها، تلك التي لا يسمعها أحد. إنها تحترق وتنفجر لنفسها، غير آبهة بأحد ومع ذلك يصل ضوؤها إلى الجميع. انتظر انفجاراته. فكّر أن الحياة نفسها هي الأمل. «إن ما يبدو لك الآن أنه انتهى في الزمان سوف يبدأ ثانية حتى إذا تأخر عن موعده كثيراً. أحد ما سوف يأتيك حيث لا تنتظره بالتأكيد ولسوف تسمع، مستسلماً لأحلامك في الليل، صرير المفتاح في باب غرفتك المغلقة، وأنت مضطجع على السرير، تفتحها مليكة قادمة ربما من كوكب آخر. سوف تقف مبتسمة وتهمس في أذنيك بحنان:

ـ لا تحزن يا صديقي، إذا ما تجبلت الهموم أمامك، يكفيك أن تغلق عينيك لترى الأبدية نفسها في لحظة نسيان.

ثم تخرج متمنية لك أحلاماً سعيدة، موصدة الباب وراءها كلص يتجنب إيقاظ ضحاياه.

ـ ليلة سعيدة أخرى!

ـ ليلة سعيدة يا ملاكي!

كانت دليلة قد غيّرت حياته كلها منذ المرة الأولى التي التقاها فيها. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد حقاً، حينما كان لا يزال بريئاً مثل العالم نفسه. قصة قديمة، لكنه ما زال يتذكر كل مشهد فيها. لم يرها



وحدها في الحقيقة، فقد كان الشيطان يتعقبها حيثما ذهبت حتى سمعها تصرخ به:

ـ لماذا تتبعني؟ انصرف إلى الجحيم أيها الشيطان!

لكن الشيطان رد عليها معتذراً:

ـ لقد قدمنا مسرحيتنا سوية حتى الآن، فلماذا تريدين حرماني من دوري الذي أسنده اللّٰه إلي؟

أجل كان خيالياً حتى العظم، ولذلك رأى الملاك والشيطان معاً.



٥٥

جارية ما بين قرطاجنة وبابل

في البداية الأولى، أيان لم يكن ثمة من يرفق بالبشر والكرة الأرضية مغمورة بالمياه، في طوفان ما قبل كل الطوفانات رأى هناك دليلته تخرج من الظلام، حاملة في يدها فانوسها الزيتي، قاطعة طريق الغابة، عائدة إلى الذين انتظروها دائماً ليبوحوا لها بما لم يقولوه لأحد من قبل.

ـ بدونك ماذا كان يمكن لي أن أفعل بحياتي؟

كانت دليلة تأتيه وتمكث معه حيناً ثم تغيب فلا يعرف عنها شيئاً. وفي ليالي حنينه إليها كثيراً ما ساوره الشك في حقيقتها حتى أعتقد أنها متقلبة ولعوب أيضاً مثل أي امرأة أخرى، سوف تخون حبه، لتنتصر على نفسها. كان يضطجع في فراشه ويفكِّر بأنها ربما لم توجد قط وأنها ليست سوى وهم اختلقه إعتباطاً لنفسه ليخفف من غليانات روحه، حتى إذا ما بزغت ثانية أمامه، راوية له القصة بعد الأخرى عن الأزمنة التي انقضت والأزمنة التي لم تأتِ بعد، عرف كم الحياة جديرة بكأسها التي أراد أن يجرعها معها حتى الثمالة.

ثم ذهبت دليلة ولم تعد. تذكر كيف كانت تجلس إزاءه، محدقة فيه بطريقة طفولية، بعينين باسمتين وشعر غلامي قصير، حاكية له كل ما كان قد نسيه في حياته، مذكرة إياه ببغداد، بلصوصها ومتسوليها،



بتجارها وعسسها قبل ألف عام أو أكثر حين كانت جارية من قرطاجنة، اسمها ضوء القمر، اختطفها قرصان من جزيرة أقريطش، ثم باعها لتاجر من الإسكندرية حملها معه في مركب، مغلولة اليدين، حتى جزائر الحمام، وباعها لتاجر عبيد آخر، كان ينقل الجواري إلى البصرة ويبيعهن هناك.

هكذا واصلت دليلة حديثها المباح حتى الصباح:

ـ وقبل ذلك كنت جارية في بابل أغني للسكارى، في حانة تقع وراء شارع المواكب الذي طالما قطعته عشتار، يتبعها كهنتها الصامتون وأيديهم معقودة على وسطهم، ويحيط بها أسودها، حتى آخر الليل قصائدي التي أنظمها في النهار، متجولة في بستان كان يقع على شاطئ دجلة العامر بالنخيل، قصائد أشتم بها الآلهة، حتى جاءني الجند، ذات ليلة واقتادوني إلى بئر في البرية رميت فيها حية ثم طمروني بالحجارة والتراب قبل أن ينصرفوا إلى أشغالهم.

حينما اختفت دليلة فجأة وهو لا يزال في مقتبل حياته عرف أنه سيظل يبحث عنها حتى النهاية.

ـ يا إلهي كيف يمكن لي أن أصل ثانية بدون دليلة إلى بغداد التي غادرتها ومن سيروي لي بعدها قصص الأولين والآخرين؟

فكر كم هو محظوظ، يكفيه يوم واحد حقاً ليعيش حياته كلها. تكفيه لحظة واحدة للموت كله أيضاً. كان قلبه يبلغه: لا تغلق عينيك، كما الأعمى، خشية النظر، بل افتحهما كما لم تفعل من قبل وانظر أمامك دائماً، لترى الشمس التي أدفأت بها جسدك، إتقاء الليالي الباردة حيث تهب الرياح، مضمخة بروائح السهوب البعيدة، لتذكر شمساً مطلة من وراء زجاج واجهة مقهى كان يقع على الشارع المؤدي إلى سوق القورية في كركوك وشمساً تركتها فوق قمة نخلة في فناء سجن في باب المعظم وشمساً رأيتها في الكاظمية، تلتمع فوق قباب



الذهب وشمساً تسللت إلى وجهك من نافذة سيارة خطفت بكم الطريق إلى النجف الأشرف ذات مرة فشممت من بعيد رائحة ثاني أوكسيد الموتى وعرفت كم كنت أنت نفسك معرضاً للعطب والتلف.

حينذاك وكان الوقت ظهراً قادهم المخبول، ذاك الشاعر الذي كان ينظم قصائد لا رأس لها ولا ذيل عبر أزقة ضيقة، حيث تلتف النساء بعباءاتهن ويختفين فجأة داخل البيوت ويلف الرجال رؤوسهم بعمائم خضراء وأخرى ملونة مستوردة من إيران، إلى سرداب مقبرة كان يحمل مفتاحها دائماً في جيبه وقدم لهم أسلافه واحداً واحداً:

ـ أنظروا ها هم أجدادي، إنهم يرقدون هنا منذ أجيال هادئين وديعين في توابيتهم المصنوعة من خشب الجوز والصنوبر!

هبطوا إلى السرداب بسلم حجري متداع من أربع درجات. سرداب بارد يصلح للنوم حقاً في أيام الصيف اللاهبة، مظلم قليلاً. «لا بأس»، قال، ثم أشعل الفانوس الزيتي المعلق على الجدار. وقبل أن يتمالكوا أنفسهم مد يده القصيرة في حفرة في الجدار وأخرج جمجمة فاغرة الفم:

ـ هاكموها! هذه الجمجمة كانت جدي الأكبر ذات يوم. كان اسمه حمدان القصاص، لكن الناس أطلقوا عليه لقب حمدان البهلوان بعد أن صرع بطل الهند في مصارعة تاريخية حضرها الوالي العثماني داوود باشا بنفسه. تلك قصة تستحق أن أرويها لكم ذات يوم.

ـ حسناً أروها لنا الآن وخلصنا من الانتظار.

ـ إعلموا أيها الأحياء أنه لولا هذه الجمجمة الحقيرة التي ترونها الآن في يدي لما كنت أنا الآخر موجوداً ولما جئتم أنتم أيضاً إلى هنا لتبحلقوا في عظام جدي المصقولة. اللعنة، هذه هي الحياة، لنشرب إذن في صحة أسلافنا الموتى الخالدين! سوف أروي لكم قصصهم واحداً واحداً حينما لا يكون ثمة ما يشغل بالي.



ثم وضع الجمجمة فوق منضدة تحيط بها أربعة كراس من الألمنيوم وأخرج من كيس كان يحمله في يده قنينة عرق وبضعة أقداح من البلاستيك ملأها حتى منتصفها ثم رفع يده بقدحه:

ـ «في صحة هذه الجمجمة العظيمة. في صحة حمدان البهلوان!».

رفعوا كؤوسهم وشربوا:

ـ في صحة الجميع، الأحياء منهم والأموات.

ـ «آمين».



٥٦

مع لاجئي العالم

ثملاً بالحب كان يعبر القيصرية الرطبة المظلمة حينذاك ويقطع السوق الأكثر زحمة بالأعراب والأكراد والتركمان، صاعداً القلعة الحجرية درجة درجة مقتفياً خطى فتاة تبتسم له بمكر قبل أن تدخل بيتاً قديماً في زقاق لا مخرج له فيواصل سيره وحين يعود يجدها واقفة وراء النافذة في الطابق الأعلى تتلصص عليه ضاحكة، كما لو أنها تريد أن تقول له: «لقد ورطتك فانج بجلدك أيها الأحمق!» لكنه حين نجا بجلده وجد نفسه طريداً في مدينة تجلدها الرياح ليل نهار.

ظل يتجول في الشوارع. يدخل حوانيت بواجهات، حوانيت منيرة وأخرى معتمة، تبيع رؤوساً بشرية لجنود ما زالوا يرتدون خوذهم. كان يسير هناك بمحاذاة جدار برلين الشهير ويساوم اللصوص على أسلابهم. إنهم يبيعون كل شيء. التاجر الحقيقي ينتظر ضحاياه، أما هو الزبون فسيكون الملك كالعادة. يمكن له أن يساوم على ما يشتريه وما لا يشتريه. لقد انتهى الزمن الذي كان الناس فيه يؤمنون بالإستقامة. الضمير نفسه سيكون سلعة معلبة يمكن للمرء أن يشتريها بأرخص الأثمان مثل علبة سيجاير يدخنها حتى آخر سيجارة في مقهى محطة في الليل وهو يحدق في إعلان على الجدار العريض أمامه لفتاة تعرض مفاتنها، ملصقة بفمها القاني الشهواني سيجارة تحترق:



- Test the West

هنا في هذه البيوت التي تفوح برائحة الحشيش يتكدس لاجئو العالم في شقق مظلمة بسلالم مهدومة تقود إليها من الفناءات الخلفية، حيث تشتغل المسجلات ليل نهار، وتسمع الأشرطة المرسلة إلى الأمهات أو القادمة منهن المرة تلو الأخرى:

والدتي العزيزة

لا تقلقي عليّ فأنا أعيش الآن هنا كما يعيش الملوك. بدأت أشتغل بالتجارة. أوضاعي تتحسن، ولا يهمني سوى فراقكم الغالي علي.

سلامي إلى والدي وإخواني وأخواتي وكل من يسأل عنا.

ابنك المخلص مصطفى

ثم يرتفع صوت الأم بآهاته وبكائه في الشريط القادم لتوه من الوطن:

ولدي الحبيب

كل إخوانك يسلمون عليك وكذلك خالتك وعمك وعمتك ونحن قلقون عليك في ديار الغربة.

إذا كنت تعيش مثل الملوك كما تقول في رسالتك فلماذا لم تعد ترسل لنا الفلوس؟ والدك مريض، وليس لنا أحد غير اللّٰه وغيرك. تذكر أن مَنْ ينسى أصله لا شرف له. لا تعرف المصائب التي حلّت بنا منذ ذهابك إلى ألمانيا. لكن الحمد للّٰه الذي لا يشكر على مكروه سواه.

أمك أمينة

إنهم يشحذون مادين أيديهم عبر آلاف الكيلومترات. يا إلهي متى ينتهي كل هذا البؤس البشري؟



وانتابه الحزن وهو يتذكر جده سعيد الذي أحاط به أبناؤه وبناته وهو يحتضر أمام أعينهم. كان الجميع واقفين على أهبة الاستعداد في انتظار موته، ما عدا أمه التي جلست عند عتبة الغرفة تراقبهم. وأخيراً ما كاد الرجل العجوز يغلق عينيه حتى هجموا عليه دفعة واحدة، مترامين فوقه، لانتزاع خواتم الذهب التي كان يحلي بها أصابعه، وهي كل ثروته التي ادخرها في حياته.



٥٧

مجيد الكذاب الذي اشترى نصف برلين

كان الأوقيانوس ينفتح أمامه.

خاطب نفسه: إسمع أيها الشاعر العائد من المنفى، سواء أكنت هنا أم هناك، سواء أبقيت أم ذهبت سوف تعرف أنك ستوقد في النهاية نارك في أعلى الجبال، منتظراً يومك التالي لتهبط إلى مدينة لا أحد ينتظرك فيها وستكون وحيداً كما كنت دائماً، وليس لك سوى ملاكك الحارس الذي سيتعقبك من شارع إلى آخر مثل خادم أمين. حينذاك فقط سترى أنك ما زلت حيث بدأت، متذكراً أبداً ظللك المتروك على جدران بيوت الجص المصطفة لصق بعضها في البلد البعيد الذي غادرته، فيما تطل أنت من نافذة قطارك المنطلق أبداً، مرتفعاً فوق سكته على السدة، محدقاً بعينين زائغتين أجهدتهما الرحلة الطويلة في السابلة الأعراب يقطعون الطرق الترابية ذهاباً وإياباً، في المواكب البشرية المتدافعة بالمناكب في رحلتي الشتاء والصيف. ستظل تتذكر حتى النهاية شرطياً بخيطين على كتفه من قرمة علي يسوق أمامه حماراً هزيلاً في عنقه جرس ونساء ملفعات بالسواد يسرن صامتات وراء جواميسهن في هور الحمار. ستتذكر كل ذلك، لتنساه، لأن ما تحمله في دمك سيظل يعذبك حتى النهاية ولسوف يكبر داخلك مع كل يوم جديد يمر عليك.



أجل هناك في المنفى، إذ لم يكن له أصدقاء يمضي معهم الليل سوى نفسه، إذ لم يكن يعرف ما يفعله بنهاره، هناك إذ ظل يخربش دائماً بحكم العادة خرائط جديدة لحياته كان ينساها حالما ينتهي منها، هناك إذ كان جنونه يقوده تارة إلى هنا وتارة إلى هناك كان يقف دائماً على قدميه ويقول:

ـ ما زلت قادراً على السير في الشوارع، شكراً للَّه، هذا يبشر بالخير! هنا لا ينقصني سوى أن أفتح عيني لأرى أن العالم قائم كالعادة وأنني أنا الآخر على ما يرام.

فكر وهو يتذكر مجيد الكذاب الذي تعرف عليه قبل سنين طويلة في بار فندق في برلين أن المرء قد يشف في المنفى تحت وطأه يأسه ليصبح أخف من الهواء، فيرتفع عالياً، ناسياً حتى الأرض التي تقع تحت رجليه. جاءه مجيد الكذاب ذات مرة وروى له كيف أنه عقد صفقة عن طريق ابن عمه الملياردير سوف تجعله يكسب ما لا يقل عن عشرين مليون مارك دفعة واحدة.

ـ يا للَّه، ليس معقولاً، وكيف؟

قال له وهو يهز رقبته بحركة عصبية:

ـ هل ترى هذا الشارع؟ لقد اتفقنا على شرائه بكل ما فيه.

في كل مرة يلتقيه في المقهى كان يروي له قصة ما:

ـ هل تعرف أننا عدنا أمس، أنا وابن عمي، من أبو ظبي في طائرته الخاصة، بعد أن قمنا بجولة ما بين مصر وعمان والكويت والبحرين؟

سأله عادل:

ـ وماذا فعلتم هناك؟

ـ آه، ليس الكثير، صفقات بخمسة مليارات دولار فقط.

ـ ما هذا الذي تقوله؟ خمسة مليارات دولار، أليس هذا كثيراً؟



عندها ضحك:

ـ ولكنها ليست لي. سوف أحصل على الفتات فقط، خمسة ملايين دولار، ما الفائدة؟ لكنه ابن عمي على أي حال.

ومع مرور الزمن وضمن مسلسل الصفقات التي يعقدها في كل مرة كان قد اشترى أو باع نصف ألمانيا على الأقل.

وفي آخر مرة رآه فيها كان قد وصل إلى المقهى، والاضطراب باد على وجهه. جلس وطلب فنجان قهوة قبل أن يقول:

ـ إنني في ورطة وأحتاج إلى مساعدتكم.

قال أحد الثلاثة الجالسين باهتمام:

ـ خير إن شاء اللّٰه؟

رد الكذاب:

ـ إننا نحتاج إلى مديرة لسلسلة النوادي الرياضية التي اشتريناها قبل مدة. وقد فشلت كل محاولاتي حتى الآن في العثور على شخصية لائقة نسند إليها الوظيفة.

تدخل عادل سليم الأمير ضاحكاً:

ـ كفى مقالب يا مجيد، لماذا تريد توريط الناس بمثل هذه القصة؟

أقسم الكذاب بشرفه أنه جاد في الأمر، مبدياً زعله من الشك في ما كان قد عرضه عليهم:

ـ يمكنكم أن تزوروني في مكتبي الجديد إذا أردتم، أنه يقع في المبنى الزجاجي الكبير الذي اشتريناه في نهاية لايبزغر شتراسه.

بعد أيام جاء محمود، وهو أحد الصديقين اللذين كانا معه في تلك الجلسة، إلى المقهى وقد اصطحب معه فتاة ألمانية، قدمها باسم إيلكا إلى الكذاب الذي تظاهر بالاهتمام بها:

ـ لقد جلبت لك أفضل مديرة لمؤسستكم الرياضية في ألمانيا



كلها. هذه إيلكا الحائزة على ثلاث ميداليات أوليمبية. لا أعتقد أنكم ستعثرون على شخص أفضل منها.

هز الكذاب الذي وجد نفسه محرجاً أمام الفتاة:

ـ مديرة؟ أي مديرة؟ إننا نبحث في الحقيقة عن مدلكة مساج، فإذا كنت تملكين الخبرة الكافية والمؤهلات فيمكنك أن تقدمي أوراقك إليّ، وسوف أتابع أمر تعيينك بنفسي.

منذ تلك الحادثة منحه أصدقاؤه لقباً جديداً:

ـ المدلكجي.

واجهه عادل سليم الأمير ذات مرة بالحقيقة:

ـ لا مانع عندي من أن أستمع إلى قصصك، ولكن ألا يمكن أن تجعل أرقام أرباحك تبدو معقولة على الأقل؟

هز رأسه:

ـ ستفقد قصصي حينذاك معناها. إنني أكره الكذابين الصغار.

ثم التفت إلى عادل سليم الأمير وقال له بحكمة:

ـ كن كبيراً في كل شيء وإلا فانس الأمر! الحياة نفسها قصة كاذبة كبيرة، تحتاج إلى شخص كذاب مثلي ليرويها.



٥٨

الشاعر والسياف والأميرة الحسناء

فيما مضى كان يجلس وراء نافذة غرفته العلوية المطلة على بساتين غارقة في العتمة، محدقاً مثلما يفعل كل ليلة في السماء المبقعة بالنجوم، تلفح وجهه نسائم ربيعية، تفوح بأريج الأزهار الأولى المتفتقة. روائح قديمة ظلّت عالقة بأنفه حتى اليوم، رائحة أرض ندية، رائحة نباتات ملتوية تشق طريقها وسط السماد المغمور بالماء، باحثة عن الضوء، رائحة الشبو الليلي والراسقي وزهرة العسل في المساء، رائحة المطر في الميازيب في الربيع. كان يرى نفسه يسير بين السواقي، يلتقط ثماراً ناضجة ساقطة من أشجار تهزها الريح بين فينة وأخرى فتعول كما لو أنها تعلن عن نفسها. ثمة خوف في ذلك النداء المبهم للأشجار، نداء كان يملأ قلبه بالرهبة. إن ذلك النداء القديم ليأتيه اليوم أيضاً، ولكن بدون وجل أو خوف هذه المرة، ليس لأنه صار يعرف أنها الريح تهز الأشجار، وإنما لأنه صار يسمعها بكل جوارحه:

ـ إنها الحياة تعلن عن نفسها.

هي ذي السماء تمتد أمامه، زرقاء وعميقة بلا نهاية. كان يرى أنه يخرج مأخوذاً من النافذة، ليسير في دروب مجرات بعيدة ومتناثرة،



يعبرها نجمة، نجمة، مشغولاً بسؤال قديم طالما أرقه في ليالي وحدته الطويلة «ثمة ما يحدث هناك، ثمة ما لن يعرفه أحد أبداً». مدينة ساكنة، خالدة إلى النوم. «هوذا الكون كله يشخر ما عداك يا رجل المنفى!» كان يؤنب نفسه، ثم يضيف «إنه النوم القديم! النوم الذي يشبه الموت! سوف أنام الأبدية كلها، فلماذا أستعجل الأمر الآن إذن؟» ما من نأمة سوى نباح هائج بعيد لكلاب ربما كانت تطارد ابن آوى شق طريقه بين الأشجار إلى قن للدجاج أو ربما أضر به الجوع فاجتذبته الروائح المدوخة القادمة من البيوت المحتشدة بالناس فراح يعوي معلناً عن نفسه، طالباً الرحمة. «أين أنا؟ في كركوك أم في برلين؟ في بغداد أم في قبرص؟ في سبع أبكار أم في أنتر دين ليندن؟».

خفت النباح أخيراً وتلاشى مثل صدى بعيد في الصمت العميق الذي كان يغلف حياته.

كان يجلس كل ليلة في الظلام على مقعد بلا مسند، متكئاً على حافة نافذة مطلية بلون أخضر فاقع، محدقاً في الفراغ الذي كان يمنحه سعادة تقربه من النشوة، كمن ينتظر أحداً ما، أحداً غائباً يعرف أنه سوف يعود في النهاية مهما طال به الزمن. كان ثمة ينبوع يراه حالماً يغمض عينيه فيقول لنفسه:

ـ أنظر هو ذا ينبوع حياتك المنسي، فعن أي ينبوع آخر سواه تبحث؟

من جبل تكسوه الثلوج، من جبل ربما في الفردوس كان يرى عين ماء تفيض فتحفر جدولاً يجري بين صخور وأشجار باسقة تطل على واد تسرح في منحدراته الغزلان والماعز البري فيقف على صخرة عند حافة جدول جار وينهل بكفيه ماء زلالاً بارداً ثم يظل



يسير عاري القدمين وسط النهر، فوق الحصى الملونة والأسماك الصغيرة التي تقرص رجليه. كان يسير ويسير، فلا الجدول ينتهي ولا هو يتعب.

هو ذا الآن ينهض ليشعل القنديل الموضوع فوق طاولة مغطاة بشرشف من الحرير، مزين بثلاث ببغاوات جاثمات فوق غصن مزهر. على الطاولة كتب لم يقرأها بعد ودفتر كبير مفتوح من النمط الذي يسجل فيه البقالون حساباتهم، يدوّن فيه قصائد الليل، تلك التي اعتبرها دائماً سراً خاصاً به يمسك بطرف منه ملاكه الأمين وبطرفه الآخر الشيطان نفسه، سراً لا يخص أحداً سواه.

ـ النور هنا وليس هناك.

هنا في المنفى تيقن من أنه لم يعد ثمة ما يمكن أن يخسره بعد.

بين النوم واليقظة كان يسمع أجراس كنيسة ما تقرع بعيداً فيعرف أنه الصباح، وإذ يسمع وقع خطى تقترب في الشارع، كان يفتح عينيه المغمضتين فيرى الأنوار الأولى للفجر تغمر الغرفة وتنعكس في المرآة.

ها هم الناس قد بدأوا يوماً جديداً في حياتهم، يوماً سيكون مثل آلاف الأيام التي أمضوها من قبل. كل شيء يتكرر هنا، كما لو أنه ما من جديد قط. أنهم سوف يتبادلون التحايا ذاتها ويضربون الأمثال ذاتها ويروون الحكايات ذاتها، تلك التي كان أجدادهم يروونها في مجالسهم قبل ألف عام.

لا شيء هنا يتغيّر. يولد المرء بحكم العادة ويموت بحكم العادة أيضاً.

أسدل ستارة النافذة. عائداً إلى السرير همس:

ـ لا بدَّ لي من أن أهجع قليلاً قبل أن أبدأ يومي الجديد.



اضطجع على السرير وأغمض عينيه، راجياً النوم. بيد أن رأسه ظل يبرق بلا انقطاع.

انبثقت في الظلام مدن بأكملها أمامه.

ـ إنني أرى في الظلام أيضاً. إنني أرى حتى الألوان.

ثم كان يسقط في إغفاءة، تمتد لحظة قصيرة، تعقبها إفاقة، تكفي ليقول لنفسه:

ـ لقد استيقظت ثانية.

حلم مرة أخرى بقصيدة ما. نهض متثاقلاً ودونها في دفتره الكبير، بعجالة كيفما اتفق وبدون عناية مفرطة بالخط، كما يفعل عادة:

ـ سوف أقرؤها ثانية حينما أستيقظ. قصيدة الظلام هي غير قصيدة النور.

سوف يرى قصيدته في وضح النهار، كما لو أنها قصيدة شخص آخر، شخص لاعلاقة له به. في واقع الحال أنه كان يباغت دائماً بقصائد أحلامه، حتى بات يعتقد أن ثمة شاعراً آخر يقيم معه داخل رأسه ويشاطره حياته.

ـ أتراه يكون شيطاناً هذا الذي يكتب لي قصائدي أم أنه ملاك تائه قادته الأقدار إليّ؟

مرتجفاً تنتابه الحمى فجأة. لم يكن مريضاً، بيد أن كل ما في جسده يصرخ. حينذاك كان ينهض ويعقد يديه حول جسده ليوقف الزلزال الذي يخضه. ثم إذ يهدأ بعد حين يقول لنفسه:

ـ إن شيئاً ما حدث لي، لقد تغيّرت.

إذاك كان يترك سريره ويزيح الستارة قبل أن يفتح النافذة، ملقياً نظرة إلى الزقاق الضاج بالحياة، فيتدفق تيار هواء بارد يشعر به على وجهه، فيهبط السلم ليبدأ حياته من جديد بين الناس.



كان قد عرف أيضاً رجلاً يشتم العالم كلما استيقظ من نومه، باصقاً على الصباح: «يوم آخر، ما أصعب ذلك!» حينذاك، إذ كانت الشمس تشرق أيضاً، صاح به مؤنباً: «لا تشتم الحياة، لا يزال لنا ما نفعله فيها، ماذا نملك في هذا العالم سواها؟».

بدا ذلك في نظره فكاهياً نوعاً ما، فقد عرف حينذاك أيضاً أن الأرواح النبيلة ستدفع دائماً ثمن ما تطلبه، وأكثر من أي شيء ثمن الحياة ذاتها. لم يكن يتحدث عن الجحيم كما اعتاد سارتر أن يفعل، ذلك الفيلسوف الفرنسي الفكاهي الذي كان يحمل دائماً كل ما يملك من نقود في جيبه وينفقها على الفتيات الشابات اللواتي يحطن به في الحانات، وإنما عن الهوى الذي يضج في داخله فيفضحه أمام نفسه. أصعب ما في الجحيم هو هذا الثمن الذي يطلب منك أن تسدده قسطاً قسطاً حتى النهاية المريرة. ففي أزمنة اليأس يؤمن الشاعر حتى بتلك الكتلة الهلامية التي يطلق عليها علماء الاجتماع عادة اسم الشعب. ولكنه إذ يفعل ذلك سيتخلى عن كل ما آمن به من قبل، سينزع أقنعته دفعة واحدة ليبدو مثل أي واحد منهم، طلباً للراحة. كل ما هو استثناء سيطعن من الخلف ومن الأمام وسيشهر به في الشوارع والساحات علناً على رؤوس الأشهاد حتى الجنون.

ثمة سحر في الفكرة التي لا تسفر عن وجهها إلا للمتمردين والخارجين على القوانين كلها. ماذا سيهم سابلة الشارع إن روى لهم الآن تلك الحكاية البربرية التي يقتل فيها السياف كل من يجرؤ على النظر في وجه الأميرة الحسناء الخارجة بهودجها إلى النزهة؟ فهم في كل الأحوال سيطأطئون رؤوسهم مرعوبين من فكرة أن تقع أعينهم ولو بمحض الصدفة على الجمال. الحقيقة تقتل من ليس جديراً بها. لذلك سيقول لهم الشاعر كلما غادر مغارته وخرج إلى الشارع ما سيجعلهم ينتفخون فخورين بغبائهم ولسوف يحتفون به كواحد منهم:



ـ أجل، أغمضوا عيونكم أيها البشر الأوفياء لغبائكم، الأميرة قادمة في موكبها الملكي!

وحده هو الشاعر سيقف على الشرفة ويلوح للأميرة وسيافها معاً.



٥٩

الهبوط الى العالم الأسفل في المنفى

إعتقد طويلاً أن أفضل ما يفعله بحياته هو أن يغلق باب غرفته على نفسه ويمكث فيها. كانت تلك مغارته. غرفة معتمة في الشتاء في مدينة بروسية لم يصلها أحد قبله من الرحالة العرب القدامى. حينما نجا من الفخاخ التي نصبتها الأقدار له في طريقه أراد أن يهرب مذعوراً ومرعوباً إلى أبعد ما يمكن أن تحمله قدماه إليه، أن يبلغ مدينة لا يعرفه أحد فيها، مهما كانت خسائره، بوجه جديد وطاقم جديد مع ربطة عنق تليق بمقام شاعر مثله. ثمة أوقات ينبغي على المرء أن يتخلى فيها عن كل شيء دفعة واحدة وأن يقبل حتى بفنائه، بدون ألم أو ندم أو شعور بالخسارة. هذا ما تعلمه من هزائمه الماضية.

فكر، وهو يضع يده على قلبه: ثمة ما يلح عليّ أن أصرخ به هنا، وسط ميدان المدينة وفي هذه الليلة المعتمة بالذات، سوى أنني لن أفعل ذلك، ربما لأنه سيكون مفضوحاً أكثر مما ينبغي. كلا، ليس الفم الأعوج من سيقول الحقيقة وإنما الروح المطعونة. طويلاً ظللت أشرب كأسي وحيداً، مقتفياً، المرة بعد الأخرى، آثاري نفسها، العلامات المألوفة نفسها، تلك التي تركتها ورائي في متاهة بنيتها لنفسي من الضجر هنا. الجدار قادني إلى الجدار والصخرة إلى الصخرة. قلت مواسياً نفسي: سأضرب هذا الجدار بقبضتي لأهدمه، وقلت أيضاً سأطلق العنان لحصاني ليعبر كل حاجز في طريقه. لكنني



حين نظرت بعد لأي وجدت الصخرة مائلة على التلة وخيط دم يتلألأ بين عروقها النابتة فيما حصاني يتلوى من الألم. كل ذلك انتهى أخيراً ولم يعد لي من النيران التي أشعلتها في الطرق التي سلكتها سوى هذا الرماد الذي أنثره الآن ليكون سماداً للعاصفة التي ستقلع كل قرية ومدينة. الحق أقول: لم يعد لك أيها الرجل سوى ماضيك الذي سوف ترهنه مثل رقيقة ذهب عند مرابين يجلسون في هياكل اللصوص والفريسين لتسدد مرة وإلى الأبد ثمن خسارات حياتك كلها.

خاطب نفسه حالماً كمن يكلم رجلاً غريباً آخر: ما من مدينة بعد هذه المدينة التي وصلتها بمحض الصدفة. وما من عودة أيضاً. ستظل هنا أيها الشاعر، لا خوفاً من المخاطرة ولا خشية العتمة الكثيفة التي تحجب عن ناظريك النجوم التي اهتديت بها قديماً في رحلاتك وإنما لأنك ستظل في المدينة ذاتها مهما استبدلت مدينة بمدينة وقارة بقارة. ها هنا إذ تسير في طريق البحيرة البيضاء الذي يقع بيتك على جانب منه ستسير أيضاً في كل الشوارع التي تنزهت فيها قديماً، حينما كان العالم لا يزال على ما يرام، أو هذا ما اعتقدته حينذاك، قبل أن تقفل على نفسك أبواب مغارتك في هذه العمارة ذات الطوابق الثمانية عشر، مقتدياً بدراويش الماضي الحكماء وقديسيه المختبئين في مغاور الجبال. كنت تلقي نظرة لص متفحصة على العالم من الطابق الخامس لنافذة شقتك التي تصطف على حافاتها الداخلية نبتات متسلقة وأخرى بأوراق في حجم الكف، منحتها يد راعية كل ما يعوزها من الحنان. ها هو ذا العالم يسيل في أخدوده مثلما هو الأمر دائماً. تنظر في تلك الشمس الواهنة التي تطل من بين ثقوب السحب أحياناً وتمد ذراعك إلى الخارج مستكشفاً الطقس كعادتك ثم تحدق في ما يرتديه المارة من ثياب لتقرر ما تلبسه أنت الآخر. يا للّه كيف يفعلون ذلك وبأي بصيرة أو مخيلة يختارون طرق حياتهم.



كان قد عرف سيدة فاضلة قضت نحبها قبل الأوان، نظمت كل ما سيليق بحفل قداس جنازها في الكنيسة بنفسها: التراتيل وأغاني الوداع البهيجة، لون الورود وخشب التابوت أيضاً والقصيدة التي نظمتها لتلقى في ذلك الحفل الحزين. أما هو فقد تحايل على الموت كعادته مثلما تحايل قبل ذلك على الحياة ذاتها، قائلاً لنفسه: «سيان أن أعيش إلى الأبد أو أن أموت اللحظة»، سوى أنه كان يعرف أنه يهذي مثل مهرج أبله يدعي الحكمة في مسرحية هزلية، إذ لم يكن قد قرر بعد، لا أن يموت الآن ولا أن يعيش إلى الأبد.

كل ما كان يريده هو أن يخرج إلى الممر، أن يقف ويضغط على الزر، منتظراً أحد المصعدين ليهبط به إلى الطابق الأسفل، ليتسلل من هناك، منحدراً إلى الشارع. كان يعود ثانية إلى العالم بعد غياب طويل عنه، ينشطر هكذا مثل الفطر في كل مرة ثم يعود فيجمع أشلاءه ليكون ما يروق له، مكتظاً بعواطف تخترقه فيما يهبط به المصعد رويداً رويداً إلى الطابق الأرضي:

ـ أنا الشاعر ذاهب إلى العالم الأسفل، لا لأبحث في عالم الموتى عن سر الحياة مثلما فعل كلكامش ذات مرة. لم يعد ذلك يهمني منذ زمن طويل. لا لست ذاهباً لأنقذ أصدقائي الذين خرجوا ولم يعودوا وإنما لأتنزه حيث لا أحد يفكر بالسعادة. هذا وحده يبرر رحلتي الآن. ماذا يهم إذا عدت خالي الوفاض بعد ذلك؟

في الزاوية أمام السوبر ماركت في الشارع المنحدر إلى فرانكفورت أليه رأى على السلالم الحجرية ثلاثة فيتناميين قصار يقرفصون، بائعين سيجاير ماركة مارلبورو مهربة من بولندة وبلغاريا. أشترى علبة منهم. كانوا يعرفونه كزبون يثقون به مثلما يعرفون جميع زبائنهم. رآهم يجلسون على السلالم في صف واحد هذه المرة. لكنهم غالباً ما كانوا يتوزعون مراقبين غارات مفتشي الكمارك



والشرطة عليهم. شبان كان آباؤهم قد قاتلوا الفرنسيين أولاً ومن ثم الأميركيين. ربما لم يكن أحد من هؤلاء بين أولئك الذين اقتحموا السفارة الأميركية في سايغون ذات يوم. لقد حدث ذلك منذ زمن بعيد قبل أن يولد هؤلاء. لم يكن واثقاً على أي حال، فالوجوه البوذية الصفراء لا تقول الكثير لشخص مثله. إنهم أشبه ما يكونون بالنمال العاملة. يضعون خططاً جهنمية في مواجهة غارات عدوهم وينتصرون عليه في أغلب الأحيان. كان كلما قصدهم تسللوا الى الفسحات المزروعة بالأشجار والورود. يغيبون قليلاً ثم يعودون حاملين إليه علب السيجاير من مخابئ حفروها تحت الأرض في الحدائق لا يهتدي إلى مكانها أحد غيرهم. ولذلك كانوا يفلتون في أغلب الأحيان من الفخاخ التي ينصبها مفتشو الكمارك لهم. كان ثمة دائماً من يحرس الشارع، فإذا ما دقت ساعة الخطر أطلقوا إشاراتهم المعلنة عن اقتراب العدو فيختفون كما لو أن الأرض ابتلعتهم دفعة واحدة. إنهم يمتلكون بعد كل شيء خبرة تاريخية في حرب العصابات. هذا ما لن ينكره أحد عليهم.

لكن كل شيء انتهى، قال لنفسه، المقاتلون تحولوا إلى مهربي سيجاير في السوق السوداء ووحدات الفدائيين الى عصابات مافيا. أمس قرأ في الجريدة عن حرب دارت رحاها بين عصابتين من مهربي السيجاير الفيتناميين والروس في حي مارتسان في برلين سقط فيها أربعة قتلى. قتلى لن يشبهوا أبداً أولئك الذين قتلوا ذات يوم في أدغال آسيا. سوف يدفنون جميعاً هنا في هذا الفردوس الرأسمالي على نفقة الدولة ليظلوا غرباء إلى الأبد.



٦٠

شركة التراب لتأسيس الوطن في المنفى

فكّر في الموت هو الآخر وشعر مقدماً بالفقدان. ثمة شعور غامض ينتابه كلما فكر بالموت. الأكثر إيلاماً في المنفى هو أن تضبط نفسك وأنت تفكّر به. لا أحد يريد أن يدفن هنا، كما لو أن الموت سيكون مختلفاً إن هم دفنوا في بلدانهم. ولكن ثمة من اكتشف طرقاً طريفة يتحايل فيها على الأمر كله، فقد تعرف قبل أعوام على رجل عراقي من كربلاء، اسمه عباس الهندي قال إنه يعمل تاجراً، ولما سأله عن طبيعة تجارته أجاب:

ـ التراب.

كان ذلك أكثر مما يحتمله خيال عادل سليم الأمير الذي قال له بعفوية:

ـ التراب، ومن يشتري التراب، إنه موجود في كل مكان.

ابتسم الرجل الذي كان في حوالي الستين من عمره:

ـ ولكنه ليس تراباً مثل أي تراب آخر.

قال عادل سليم الأمير ساخراً:

ـ وأي تراب هو هذا، إنه ليس مخلوطاً بعروق الذهب بالتأكيد.

رد الرجل بجد:

ـ بل إنه أثمن من الذهب، إنه تراب الوطن.



كان للرجل وكلاء يهربون له بين الحين والآخر أكياساً كبيرة ملأى بالتراب بسيارات النيرن العابرة للصحراء إلى الأردن بعد رشوة موظفي الكمارك في الرطبة ثم يشحنونها من هناك إلى مركز إقامته في إيطاليا، حيث تتولى زوجته وأولاده تعبئة التراب في قنان مختلفة الأحجام وعرضها للبيع في دكاكين يملكها مهاجرون عراقيون وعرب مثلما كان يمكن للمرء أن يشتريها من رسامي الشوارع العراقيين المنتشرين في كل ساحات المدن الإيطالية التي يقصدها السائحون.

قال الرجل الذي كان قد ابتكر لمنشأته اسم «شركة ميسوبوتيميا لتراب الوطن»:

ـ أنت لا تعرف أي محنة واجهناها في البداية. شك الجميع في حقيقة التجارة التي نمارسها، إذ لم يكن معقولاً في نظر رجال الكمارك أن ننفق كل تلك الأموال على نقل التراب إلى أوروبا، ولذلك راحوا ينقلون طرودنا إلى المختبرات ويخضعونها لفحص دقيق، آملين ربما في العثور على الحشيش أو القنابل الكيمياوية والجرثومية التي اشتهر العراقيون بتصنيعها .وبيعها بأسعار متهاودة، لكن كل ذلك انتهى بعد أن قمنا بتسجيل اسم شركتنا رسمياً وتوضيح طبيعة عملها.

أخرج الرجل من حقيبته التي كان قد ركنها جانباً بضع قنان بيضاء بأحجام مختلفة وقال لعادل سليم الأمير:

ـ لقد جلبت معي نماذج منها إلى ألمانيا، أرجو أن تساعدني في العثور على وكيل يتولى توزيعها هنا.

كانت ثمة أوراق ملصقة على القناني تتضمن اسم البضاعة «تراب الوطن» بخط رقعة بارز جرى تصميمه بالكومبيوتر، مع توضيحات حول محتوى القنينة وهو التراب والمكان الذي جرى جلبه منه مثل تراب من بغداد أو من الحلة أو من البصرة أو من الناصرية، وفي



الأسفل اسم الشركة «شركة ميسوبوتيميا لتراب الوطن». ولكن كانت ثمة قنان أخرى أغلى ثمناً وهي تلك التي تتضمن تراباً جرى استيراده من المدن المقدسة، فضلاً عن قنان خاصة بأسعار فاحشة، ملئت بتراب جرى جلبه مباشرة من داخل الحضرة الشريفة نفسها في النجف وكربلاء، مرفق بشهادة الإمام الذي باركه شخصياً وتوقيعه.

وقدم عباس الهندي لعادل سليم الأمير نماذج من الإعلانات التي كان ينشرها في الصحف ويبثها عن طريق الإنترنيت:

تراب الوطن

_ أيها العراقيون الفاقدون لأوطانكم، المشتتون على امتداد الكرة الأرضية من القطب الشمالي وحتى القطب الجنوبي كفى حزناً وبكاء! نحن نعوضكم عن خسائركم، نجلب لكم الوطن نفسه إلى بيوتكم وشققكم حيثما كنتم. اشتروا تراب الوطن الطاهر وافرشوا به حدائقكم، غطوا به قبور موتاكم وانثروه فوق رؤوسكم بين الحين والآخر لتشموا رائحة البراري والصحاري.

_ شركة ميسوبوتيميا لتراب الوطن تلبي كل رغباتكم. أطلبوا التراب من أي بقعة في العراق من ألقوش وحتى الفاو ونحن نجلبه لكم، مشفوعاً بشهادة المحافظ ومختار وإمام أو قس المنطقة.

_ شركة ميسوبوتيميا تؤسس لكم الوطن في المنفى. نحن في خدمتكم دائماً.

اتصلوا بنا ليلاً ونهاراً على عنوان مركزنا الرئيس:

Mseopotemia Co., Garibaldi Str. 16, 20134 Milano, Italy
Tel.: 02-2357601 Fax: 02-3451250
Messopotemia @ hotmail. com



حينما تركه عادل سليم الأمير أهداه الرجل قنينة صغيرة من تراب كركوك وضعها في جيبه. في الشارع فتح عادل سليم الأمير القنينة ونثر ترابها على الرصيف ثم رمى بالقنينة في صندوق القمامة:

ـ ستكون برلين كركوكي بعد الآن، ماذا أريد أكثر من ذلك؟

ماذا يريد المرء من الوطن حقاً أكثر من أن يعيش ويدفن فيه؟ فكرة غريبة، لكنها بشرية على أي حال. فالمرء يحتاج إلى ما ينتسب إليه حتى في موته، وهو أمر يقلق الكثيرين رغم أنهم لا يتحدثون عنه قط. فكر عادل سليم الأمير أن المقابر في وطنه البعيد موحشة تماماً، ثم قال: محدثاً نفسه: «كل المقابر موحشة، وهو أمر لا يدركه سوى الموتى أنفسهم، وخاصة في النهارات الممطرة وفي الليالي». حينذاك امتدت أصابعه بتلقائية إلى جيب سترته وتحسس قنينة صغيرة كان ملأها بتراب حديقة ما في برلين: «سيكون لي منفاي في وطني أيضاً».

في الأعوام التي قضاها في تلك المدينة ذهب ثلاث مرّات إلى مقابر معشبة تقع بين الغابات ليودع أصدقاء له. توجب عليه أن يقف في الصف ليلقي بزهوره في الحفر ويهيل حفنة من التراب على أناس حزن من أجلهم. ثمة قسوة في الأمر: أن تقبرهم بنفسك. من التراب إلى التراب. وهذا كل ما في الأمر. لكنه في الأعوام الأولى من وصوله إلى منفاه كان غالباً ما يقطع المقبرة في طريق العودة إلى شقته. كان ذلك في لايبزغ على ما يذكر. مقبرة تكاد تكون حديقة خضراء. لم تكن الزهور في الحقيقة هي ما جعلته يختار طريقه ذاك وإنما المحرقة التي تنفث دخانها ليل نهار في سماء المدينة. دخان مختلف عن أي دخان آخر، دخان بشري لأجساد كانت مفعمة بالحياة. ها هنا كان يمكن للمرء أن يختار الطريقة التي ينتهي بها: أن



يرموا بجثته في الفرن ويحتفظوا برمادها داخل علبة يكتبون عليها اسمه، ستكون هي كل قبره أم أن يهيلوا عليها التراب:

ـ سيان، كل ما في الأمر هو أن المرء ينتهي بهذه الطريقة أم تلك، في وطنه أم في المنفى.



٦١

جهاز يشتغل على الروح والجسد

حينما نهض من نومه وجد الشمس تملأ الغرفة التي نسي أن يسدل ستائرها المتربة ذات اللون الأحمر الحائل المختفي وراء طبقة كثيفة من السخام والغبار، كما يفعل عادة قبل الإنسلال إلى سريره، تاركاً رجليه خارج لحافه القصير. كان في إمكانه أن يغيّر اللحاف وأن يعثر على لحاف يغطيه تماماً لولا أنه ظل يؤجل الأمر اليوم بعد الآخر حتى نسيه أو ربما اعتاده أيضاً، متذكراً أن طبيباً هندياً اسمه تشاندرا نمارات كان قد نصحه ذات مرة حين كانت الدنيا لا تزال على ما يرام، أنه لا ينبغي للنائم أن يغطي رأسه ورجليه حتى يسهل على الروح الطيبة التائقة إلى النزهة في الأعالي الخروج من الجسد والعودة ثانية إليه، وهو ما تفعله كل ليلة مع النائمين.

لم يكن هو نفسه في الحقيقة يؤمن بمثل هذه الخزعبلات الشائعة في كل بلدان الشرق والتي غالباً ما يرددها الناس بدون تمحيص كبير فيها. بالعكس كان من الفطنة ليحول النقائص نفسها إلى منافع. فقد اكتشف ولو بعد زمن طويل متعة ترويض رجليه وهو مضطجع في السرير، ربما بسبب اشتداد أوجاع الظهر عليه. لم يعد يتذكر تماماً كيف واتته فكرته تلك، وهو أمر ما أهتم به. ففي حياته كلها لم تنقصه الأفكار التي كان يرى أنها تتفجر من ينبوع سري في رأسه. ما كان



ينقصه هو الحظ الذي خانه دائماً، كما اعتاد أن يقول لنفسه. ولذلك قرر ألا يترك أي شيء للصدفة. فالحظ في نهاية المطاف ليس سوى واحدة من اللعب التي تلعبها الحياة مع البشر. والرابح هو من يكون قادراً على الخسارة بدون شعور كبير بالفقدان. فقد اشترى من سوق الأحد في برلين عتلة صدئة لدراجة تنحدر من عهد الحرب العالمية الأولى وركبها على قائم من الخشب مع دواستين للرجل تدوران حول المحور، مكتشفاً بعد التجربة أن جهازه هذا يقدم أفضل علاج لفقرات الظهر التي كان يعاني منها منذ سنوات، حتى لم يعد قادراً على النوم بدون ممارسة هذا الطقس اليومي الذي أدمنه كمخدر للجسد والروح معاً. ما يكاد يضطجع في سريره ويغطي نفسه حتى الصدر باللحاف ويدس رجليه في جهازه ذي العتلة الدوارة حتى يبدأ عمله الحقيقي على جسده وروحه فلا يشعر بنفسه إلا وقد استيقظ في الصباح على أصوات العصافير المزقزقة خارج العمارة العالمية.

فكر في الحقيقة أن يذهب باختراعه ذاك، الذي أطلق عليه اسم «Schlafboot»، والذي اختصره على العادة الألمانية إلى «SB» إلى مدى آخر غير الذي كان قد بلغه، أراد أن يجعل جهازه يشتغل على روحه وجسده معاً أثناء النوم أيضاً. وقد بدا له أن كل ما يحتاجه المرء أثناء النوم هو أن يحرك رجليه بقليل من الضغط على الدواستين حتى يبدأ الشغل الحقيقي. بذل الكثير من الجهود التي أخفقت في البداية، ثم عمد إلى شد رجليه إلى الجهاز بعد أن أمرهما بمواصلة العمل حتى الصباح. لقد سببت له تجربته تلك بعض الخدوش التي لم يأبه بها كثيراً، لكن ما أزعجه أكثر من سواه هو أنه ظل لا يعرف عما إذا كانت التجربة قد نجحت أم لا. فلكي يتأكد من ذلك كان عليه أن يجلب شهوداً يمضون الليل في غرفته ساهرين ليراقبوا حركة رجليه



النحيفتين أثناء النوم، وهو ما حاول أن يتجنبه. فقد كان خليقاً لمثل هذا الأمر أن يتحول إلى مادة للهزل عند معارفه القليلين الذين يلتقيهم بين الحين والآخر في المقهى. ثم تخلى عن فكرة العمل الليلي لرجليه، مكتفياً بما كان متأكداً من نجاحه. بيد أنه ظل حائراً فترة من الزمن عما إذا كان عليه أن يسجل باسمه براءة اختراع لجهازه الرياضي ذاك أم لا. فكر أن يعرض الجهاز على شركة ما، ألمانية أو يابانية، ثم تردد مدركاً أنهم سوف يسرقون فكرته ويطورونها حتى بدون الإشارة إلى اسمه، وبدون أي مكافأة تمنح له بالطبع. لذلك استشار جارة ألمانية، تقيم لصق شقته، وهي سيدة عجوز متقاعدة كانت موهوبة في اصطياد من تتحدث معه، فراحت توضح له بكل دأب أن عليه أن يحمل جهازه معه ويذهب إلى أكاديمية العلوم الألمانية التي يحق لها وحدها البت في الأمر. لكن ذلك بدا له معقداً أكثر مما ينبغي، مما جعله يغفل الأمر ولو مؤقتاً في انتظار الفرصة المناسبة التي قد تقوده إلى نقش اسمه في سجل المخترعين الخالدين. بعد أسبوع من ذلك وبخ نفسه على أفكاره الصبيانية تلك والتي كانت تأتيه بسبب الملل:

ـ لا ينبغي لي أن أنسى أنني شاعر حتى إذا كان التوفيق قد خانني حتى الآن.

كان قد مضى زمن طويل لم يكتب فيه كلمة واحدة جديدة حتى شعر بأنه انتهى ولم يعد يصلح لأي شيء. يداه كفتا ببساطة عن حمل القلم الذي بدا له أثقل من صخرة ولم تعد عيناه تعترفان حتى بالشمس. أعتقد أن كل ذلك حدث له، بسبب اليأس من حياته السابقة التي كانت قد فقدت معناها لكثرة ما رأى من حماقات عند الناس الذين كان مرغماً على التعامل معهم، بحكم العادة أو الضرورة. كان



العالم هناك وكان هو هنا. كل منهما يواجه الآخر كعدوين ينتظران اللحظة المناسبة ليجهز أحدهما على الآخر.

ولكن ذلك انتهى منذ زمن بعيد حينما التقى ذلك الممثل الذي أطلق على نفسه اسم الشيطان. لم يصدقه بالطبع، لكنه كان مخطئاً. كان هو الشيطان بلحمه وشحمه حقاً، هذا إذا ما كان الشيطان يملك لحماً وشحماً على الإطلاق. كل هذا يبدو له الآن أشبه ما يكون بقصة خيالية، يصعب تصديقها. ربما كانت كذلك بالفعل، ولكنه لم يأبه كثيراً بالأمر. فقد كان مفلساً وعاطلاً عن العمل. وما كان يهمه إن كان رفيقه شيطاناً رجيماً أم ملاكاً جاء يزجي وقته المبذول بلا نهاية معه، إذ لم يكن ثمة ما يخسره في آخر المطاف. ولذلك قال لنفسه: «اخدعه، إخدع الشيطان نفسه ولقنه درساً!» فقد كان واثقاً بأنه لا يملك حتى روحاً، تستحق أن يشتريها الشيطان منه، كما فعل ذات مرة، مع فاوست، ذاك الدكتور الألماني العجوز الذي رهن روحه عنده لقاء مغانم عابرة. كان قد أعطاه بعض النقود وأعاد إليه شبابه الضائع، جالباً له دزينة من العاهرات ليصرف لياليه معهن على السرير. ثم إذ استفاق في النهاية من حلمه المرعب راح يبكي، متوسلاً إليه أن يعيد إليه روحه المرهونة:

- يا لهؤلاء الناس من بلهاء، إنهم يرتكبون كل حماقة تخطر بالبال بدم بارد ثم يجهشون في البكاء، مستدرين عطف الآخرين الذين لا علاقة لهم بالأمر.

وهكذا أدمن الجلوس في المقاهي مثل عمل يواظب عليه الجميع، إذ بدون الجلوس في المقهى ساعات طويلة ما كان أحد من أصحابه يعرف ما يمكن أن يفعله بنهاره. هناك كان يلتقي دائماً شلة من أصدقاء يثرثرون حول أي شيء فيثرثر معهم هو الآخر حول أكثر الأمور خطورة وجدية في الحياة. ومع شعوره بالعجز لم يعد ثمة ما



يحظى باحترامه في العالم الذي صار يحتقره كجزء من انتقامه الشخصي منه. وهو ما لم يكن يخفيه على أحد، ممثلاً أحياناً دور الواثق من نفسه إلى ما يتجاوز حدود الوقاحة. ولكن كل ذلك لم يكن سوى قناع شفاف يخفي وراءه الرماد الذي تراكم فوق روحه على مرّ السنين في مواجهة ما كان يسميه خراب العالم والذي لم يكن مسؤولاً عنه.

في تلك الأيام بالذات أشغل نفسه بكتابة رواية خيالية يروي فيها قصة فريق من الجيولوجيين ينقبون عن المعادن في وادي الذهب الواقع في الصحراء الغربية، ينهبهم البدو وتحاصرهم الذئاب فيلجأون إلى مغارة بنفق طويل يقودهم إلى مدينة قديمة مدفونة تحت الأرض، مقطوعة عن العالم الخارجي. وفي النهاية عندما يقررون العودة ثانية إلى سطح الأرض يجدون أن النفق قد انهار والمغارة اختفت من الوجود بعد حرب ما نشبت فوق الأرض وأنه لم يعد ثمة بد من العيش في باطن الأرض حتى النهاية. كان قد تخيّل الرواية بكل تفاصيلها وشخوصها الذين صار يعرفهم ربما أفضل من الكثيرين من أصدقائه، ومع ذلك لم يفلح خلال بضعة شهور من المحاولات حتى في إنهاء كتابة فصلها الأول.

كانت فكرة تلك الرواية قد خطرت له عندما رافق ذات مرة فريقاً من الجيولوجيين الذين يعيشون داخل الخيام، منقبين عن المعادن المطمورة تحت الأرض، في رحلاتهم داخل الصحراء بسيارات اللاندروفر التي كثيراً ما كانت تطمس في الرمل بعد المطر، حيث تتدفق سيول الربيع ماحية كل أثر لطريق العودة فيتيهون في البرية أياماً وتحاصرهم الذئاب الجائعة. كان ذلك عالماً آخر لم ير مثله قط من قبل. الليالي المعتمة والليالي التي تضيئها النجوم وفوانيس اللوكس المتناثرة في المعسكر والذئاب التي تتجول بين الخيام وسهوب الورود



البرية التي تمتد على مدى البصر بألوانها المتألقة ومستوطنات الكمأة التي تنتفخ بها الأرض الرملية المتشققة. كانوا يخرجون كل يوم ويحفرون الأرض، طبقة طبقة، باحثين عن المغاور والكهوف. كل طبقة كانت تعني أن آلافاً من السنين مرت عليها، حاملة علامات الحياة معها كندوب في قلب الأبدية. كان يريد أن يحفر هو الآخر داخل تاريخه.

ستكون الكتابة نفقي إلى مدينة روحي المطمورة تحت الأرض، مقطوعاً عن العالم الذي انسللت إلى خارجه بغتة، قال لنفسه، سوى أنه لم يعد قادراً على الكتابة. كلما كتب جملة ضاع أكثر داخل متاهته. ثم جاءه ذلك الرجل الغريب الذي يدعى الشيطان وعرض صداقته عليه لقاء لا شيء، قائلاً له بكل وقاحة:

ـ لا تجعل من الكتابة هاجساً يقلقك. سوف أكتب لك أجمل أعمالك إذا أردت. كل ما ستحتاجه هو أن تضع اسمك عليها وتنشرها. أمر سهل، أليس كذلك؟ سوف أخرجك من باطن الأرض إلى الحياة.

أجابه غاضباً:

ـ ما هذا الذي تقوله؟ إن ما تقترحه عليّ سيكون سرقة لا تليق بي. كيف أضع اسمي على عمل تكتبه أنت؟ وبعد كل شيء فأنت لم تنظم كما يبدو لي سوى الشعر العمودي الذي انقرض الآن، كما يروى عنك في آثار أسلافنا العرب الغابرين، فضلاً عن أنني أكتب الرواية التي لا أعتقد أنك تملك أي فكرة عنها. فن جديد لم يكن موجوداً في قديم الزمان يا عزيزي الشيطان. كنت أعتقد أنك ستعرض عليّ كنزاً من كنوزك المخبأة. أما أن تكتب لي أعمالي فأمر يشبه النكتة.

ضحك الشيطان وقال:



ـ سوف أثبت لك العكس. إنني قادر على أن أكتب أجمل الروايات أيضاً. اسمح لي أن أكتب قصة حياتك.

ثم خرج مثلما جاء.

ـ ليذهب الشيطان إلى الجحيم. لم يبق سوى أن أسلّم قيادي له.



٦٢

في غابة الشوك

مع الزمن الذي مرّ عليه في منفاه فقد القدرة على الحب وما كان في إمكان أحد أن يحبه، أو هذا ما اعتقده. الحب؟ من يريد هنا أن يتحدث عن الحب؟ أليس الحب كلمة لقناع يرتديه البشر لإخفاء حقيقة أن كل واحد منهم يعيش لنفسه، لإخفاء حقيقة العزلة التي تعصف بروحه. كان الجميع يمثلون دوراً ما. وكان عليه ليكتب أن يمثل، هو الآخر، دوراً لا يليق به. كان عليه أن يحب ما لم يكن قادراً على حبه. ولذلك توقف عن الكتابة. كلا، لم يتوقف عن الكتابة وإنما صار يخجل من أن يكتب. لم يعد ثمة ما يحبه في العالم كله. فلكي يكتب كان عليه أن يحب الشمس والقمر، أن يجلس كل مساء على ضفة النهر في بغداد ويراقب شروق الشمس وغروبها، أن يطلق العنان لرجليه ويتنزه في الشوارع بعد المطر، أن يجلس في مقهى ما، ليحتسي فنجاناً من القهوة وليشاهد على الشاشة فيلماً لمارلون براندو المتحذلق أو جيمس دين الأهوج، أن يحلم في الليلة ذاتها بمارلين مونرو الفاتنة التي اتخذها عشيقة له وراح يتشاجر معها كلما عادت متأخرة في الليل من أستوديوهات شركة مترو غولدوين ماير إلى البيت. لكنه لم يعد قادراً على فعل ذلك. كان في إمكانه أن يفعله في الماضي، أما الآن فقد كان مريضاً. أسنانه تؤلمه منذ أيام، سوى أنه



لم يكن يملك حتى الطاقة ليأمر رجليه المتعبتين بحمله إلى عيادة الطبيب. الأكثر من ذلك هو أنه لم يعد يؤمن بالأطباء الذين صار يتخيلهم عصابة سفاحين يبلغون المرء بأسوأ الأنباء بدم بارد. فكر إن من الأفضل للمرء ألا يذهب إلى الأطباء أبداً ليظل على الأقل بمنجى من الشر، حتى إذا كان هذا الشر ورماً يفتك بجسده. كان يريد أن يموت بهدوء لا أن يزعج نفسه بتلك المعركة الخاسرة من أجل البقاء على قيد الحياة. تلك السن الفاسدة لم تكن في واقع الحال سوى تفصيل في مرض لا اسم له. هل كان مرضه يملك اسماً على الإطلاق؟ لم يكن واثقاً من الأمر تماماً. ولكن لا بدَّ أنه كان مرضاً حتى إن كان بلا اسم.

كيفما اتفق مرّ الزمان. حبل العدم في أبديته فولد الكون. قه قه قه قه. هذا يدعو للتأمل حقاً في الكثير من النظريات الصبيانية الرائجة حول الانفجار الأول. ليس ثمة ما يُقال هنا، لأن ما قِيل قِيل لمرة واحدة فقط وإذا ما قِيل ثانية فسيكون مضحكاً «لي أنا على الأقل». بيغ بانغ ويبدأ العالم. ملهاة في البداية ومأساة في النهاية. هكذا يغمغم فيلسوف التاريخ في متاهته. لكل منا متاهته أيضاً، متاهته التي ستكون بيته. لكن لا يجدر بنا أن نجعل من ذلك قضية للمساومة ما دام ابننا العاق إسماعيل سيحمل هدايا الرب ويرهنها عند الشيطان ليحتسي نصف قنينة من العرق المستكي في الغرفة الخلفية من حانة جورج في شاعر الأوقاف، منصتاً إلى أغاني فريد الأطرش في الإذاعة. فجأة سمع كلباً ينبح. كان ينبح في الإذاعة. من يدري كيف دخل إلى الأستوديو! إهمال موظفين بالتأكيد.

قال الرب: مرحى مرحى للمؤمنين بي. وقال الشيطان: هلموا إليّ لأمنحكم متاع الدنيا.

مرّ الزمان. رائحته في كل الممرات. اقترب مني قليلاً أيها



الناهض من النوم لأجللك بالمحبة، قال الدرويش في عزلته، صاعداً الجبل في الليل وهابطاً إلى السهل في النهار.

ـ كل هذا لا يجدي. الولادة العسيرة ليست شهادة على العذاب. الوليد نفسه هو الشهادة.

ـ ربما لا أحد يربح في نهاية اللعبة. إننا نترك آثارنا على الرمل، سوى أن الريح تنتصر دائماً. كل حكمة هي حماقة جديدة. لا أعتقد أن الحياة انتظرت في أي وقت حكماء يدلونها على الطريق. هذه هي الأخرى حكمة تليق بي، لولا أنني فقدت القدرة على الضحك.

بطريقة ما كان يريد الانتقام من العالم ليكون حراً من كل ما يربطه به.

تنقل طويلاً من مكان إلى آخر، من مدينة إلى مدينة ومن قرية إلى قرية ليس بطراً ولكن بحثاً عن الأمل بدون أن يتملكه الضجر. كان ثمة دائماً ما يحميه من السقوط في الجنون هو رغبته في أن يمتحن كل شيء بنفسه. ولكن الأسوأ في الأمر هو أنه لم يكن يملك خياراً أفضل من خيار قارب مرمي في اليم تتقاذفه الأمواج الهائجة. لم يكن قد فكّر حينذاك بالنجاح وإنما في البقاء على قيد الحياة.

ـ يا إلهي، كيف نسيت أن أبحث عن ذلك الناي المسحور الذي قال الأستاذ الشيطان إن شاعراً ما تركه لي في كركوك منذ قديم الزمان؟ كان يمكن لي أن أسحر به العالم على الأقل وأصنع معجزتي.

لكنه بدل أن يصنع معجزته كان يظل جائعاً أحياناً حتى المساء، حتى اعتاد أن يكتفي بتناول رغيف من الخبز طيلة يوم أو يومين، مطمئناً نفسه بفكرة فكاهية لازمته في تلك الأيام وأنقذته من الموت وهي أنه يدفع بذلك ثمن ما سيكونه في المستقبل. كان ذلك يمنحه الرغبة في أن يتفرج على نفسه، كمن يقف في غرفة معتمة وينظر من



ثقب في الجدار إلى شخص في غرفة أخرى مضاءة ويقول لنفسه: ها أنت ذا موجود في العالم، فلماذا تنكر ذلك؟ ماذا تريد أكثر من ذلك؟

ـ كلنا موجودون في النهاية في هذا الكوكب المقذوف داخل مجرة طريق التبانة. أنا أيضاً موجود داخل طريق التبانة، أحمل تاريخي على كتفي مثل ثقالة وأحلم بأن أعود شاباً ثانية وأكرر حماقاتي أيضاً، رغبة في مكايدة العالم وربما أيضاً لطرد الملل.

فتح النافذة وألقى نظرة على البحيرة القريبة. لم يكن ثمة أحد بعد هناك. بعد ساعتين أو ثلاث ساعات حينما خرج ليتنزه على ضفة البحيرة وجدها تعج بالسابحين والسابحات. إنه الصيف إذن. كانوا يتناثرون على الضفاف أو يختفون بين الأشجار في الغابة البدائية الصغيرة المنزوية أو يدفنون أنفسهم بين سنابل الذرة في المراعي القريبة.

أصياف كثيرة أمضاها هناك، شم فيها رائحة التراب وسمع طقطقة الأوراق تحت قدميه. أصياف كثيرة أنصت فيها إلى نقيق الضفادع الرتيب وأزيز البعوض الذي كان يطير دائماً في كتلة واحدة، أشبه ما تكون بكرة كبيرة. بين الحين والحين كان يقف عند المراعي المسيجة بالأسلاك المكهربة، ذات القوة المخففة والتي كثيراً ما كان الصبية الصغار يجتازونها ليلاعبوا قطيع البقرات الضجرات، باحثاً عن البقرة التي اعتبرها اعتباطاً بقرته، كانت تملك عينين شاحبتين، يملؤهما الكحل، تشبه عيني حبيبة قديمة له.

ما انتهى بدأ ثانية: اقتطع عشباً أهداه إلى بقرته التي كانت تطرد الذباب بذيلها الداكن المنقط بالبياض. اقتطع عرنوس ذرة من الحقل، أكله طرياً فتبللت أصابعه وتدبقت. مرّ بفتيات وفتيان عراة، ينامون متعانقين. رأته امرأة عجوز، يسبقها كلبها الذي كان يشبهها بهدوئه وثقته بنفسه، حدق فيها، حيته: «مساء جميل، أليس كذلك؟» ثم



أضافت: «هذا أول صيف حقيقي يمر علينا منذ عشر سنوات». وافقها الرأي فيما حاول تجنب كلبها الذي كان يعرض صداقته عليه. ودع السيدة العجوز وانحدر إلى البحيرة، حيث رأى صبية صغاراً كانوا يجهدون أنفسهم في اصطياد السمك بقطعة من القماش. مد كفيه داخل الماء وحاول الإمساك بسمكات صغيرات انزلقت من بين أصابعه.

وكان إذا ما حل الليل خرج مع صديق له يتجول في الشوارع الخلفية الضيقة للمدينة، مقتطفين خلسة الثمار من فروع الأشجار المتدلية فوق الجدران الخارجية، سائرين بدون هدى في الحارات الغريبة. هكذا كانا يظلان يسيران من مكان إلى آخر حتى يقرسهما برد الفجر فيعودان، منصتين إلى ضجة آخر القطارات الآيبة إلى محطاتها.

حينما أراد أن ينزع من قلبه أوهامه أخيراً وجد كم الحقيقة مضجرة. شعر أنه بدون أوهامه سيفتقد الحس بالحياة. الوهم يرتبط بالإثارة والمخاطرة وارتكاب أكبر الحماقات أيضاً. لكنه تذكر أيضاً الإسكندر ونابليون وهتلر وكل أولئك الذين استبدت بأرواحهم الأوهام. ثم عرف أن ثمة أوهاماً تقود إلى الجريمة وأخرى إلى الحقيقة. ظل كريستوفر كولومبوس يعتقد حتى النهاية أنه قد بلغ جزر الهند الغربية في حين أنه كان قد اكتشف عالماً بكامله، وماجلان، ذلك البحار البرتغالي الذي تبع وهمه بحثاً عن مضيق خيالي لا وجود له فإذا به يصل إلى مضيق بين محيطين لم تتضمنه خارطة من قبل.

ـ سأؤمن بالشيطان لأصطاد به الملائكة.

أجل، سوف تنتظر الآلهة قرابينها اليومية، لتوزع بركاتها على العالم. كثير من الدم سيلطخ الأيدي والبلطة تهوي فوق الرقبة ليكون حصاد الراعي أوفر في الصيف القادم.

ـ حينما يسقط الظل فوق الروح تكف الإسطوانة عن الدوران.



للوصول إلى الحقيقة ينبغي المرور أولاً بغابة الشوك. ولكننا إذ نخرج في النهاية إلى الضوء نكون قد نزفنا بما يكفي لنموت.

لم يكن عاجزاً عن الكتابة وإنما عن الفرح. كان يعرف أنه قادر هو الآخر على اجتراح المعجزات، مهما بدا عاجزاً ومهزوماً. «ثمة آخرون أفلحوا في أن يحرثوا البحر نفسه. لقد سار المسيح على البحر، أليس كذلك؟ ما الذي ينقصني لأكون مثله؟».

كل ما كان يحتاجه هو أن يسلك تلك الطريق الواقعة ما بين الحياة والموت، ما بين الفرحة الصارخة والحزن الجارح. ستكون المأساة نفسها ملهاة. فكر أن عليه أن يكون المتفرج على نفسه، أن يراقب قصته إذ يكون داخلها، حالماً بالعالم: مشهد أشجار، فيما الريح تدفع الغيوم، ناس يسيرون في طريق غريبة مليئة بقساوسة يجرون وراءهم نعامات وفهوداً. إنهم يتحدثون. ربما كانوا يتشاجرون. حينما لا يعود ثمة مفر من الاعتراف بالحقيقة يتوجب اكتشاف الفرح وربما الأمل أيضاً في كل مرة. على المرء أن يمازح التنين نفسه، ليجعله واحداً مثل أي أحد آخر. وحينما يفعل ذلك سيبدو مضحكاً هو الآخر مثل التنين نفسه.

في لوحة لرسام ألماني: ثلاث نساء عاريات يحتفلن بالحياة داخل مقبرة، مع لافتة تقول «الضيوف قادمون». وعلى شاهد قبر ما قرأ: «الحب ينتهي والإخلاص يبقى».

في إحدى حكايات كوينر جعل بيرتولت بريشت السيد كوينر يرى صورة تخطيطية لدجاجة بثلاث أرجل. عندما سأل السيد كوينر ابنة أخيه الصغيرة عن معنى ذلك ردت عليه قائلة:

ـ تحتاج الدجاجة إلى رجل ثالثة لتدفع بنفسها إلى الأمام حتى تحلق فوق الباحة.



أجل، كان عليه أن يمتلك هو الآخر رجلاً ثالثة ليكون قادراً على صنع المعجزات.

لكن لكي يعبر ايكاروس البحر، هارباً من سجن جزيرته المهجورة سوف يحتاج إلى ما هو أكثر من أجنحة الشمع، إلى الثقة بنفسه، ليتحدى بها الشمس الساطعة، مثلما سوف يتوجب على الحارس بعد اليوم السماح للأطفال باللعب في الغابات مع الأسود.

هكذا تمرن على الحقيقة من أجل نفسه، بعد أن استبدل بطائرة البوينغ ٧٠٧ التي حطت به في مطار لارنكا بقبرص طائرة هليكوبتر كان يملكها مهرب يوناني عاش فترة من عمره في الإسكندرية لتحلق به حتى وادي الحزيمي في الصحراء الغربية، تاركة إياه يهبط بالمظلة فوق الرمال، تتبعه دليلته العائدة من آخر الزمان لتقوده ثانية إلى ماضيه الذي كان يعرف أنه سيبلغه رغم كل شيء.

ـ فوك النخل فوك يا به، فوك النخل فوك.

تعالي يا دليلة وعلمي لنا الطريق إلى بلاد بابل وآشورا

كل شيء بدأ ثانية، كما لو أنه لم يعش كل ذاك الغياب. كسمكة في النهر شق طريقه طافياً فوق سحب هاربة، كطائر خرافي كبير، قذفت به الصدفة وحدها إلى هذه السماء المتوهجة.

«أنظر إلى الأعلى دائماً، لا تفكّر أبداً في السقوط!»، قال لنفسه. «آه، ربما كنت ملاكاً، متخفياً أنا الآخر في إهاب كائن بشري، يرفرف في سماء مفتوحة. لو رآني الشيطان نفسه قبل مئة عام فقط وأنا أهبط هكذا من السماء بمظلتي لآمن بي. معجزة، معجزة حقاً، سوى أنها لم تعد تدهش أحداً. تغيّرت الأزمنة فغيرتنا. إذا ما مددت رجليك إلى الخلف وأزحت الهواء بذراعيك تحولت إلى كتلة طائرة وأنت داخل بدلتك المطاط المشدودة إلى جسدك». من فرحه راح يردد عالياً: «فوك النخل فوك فوك، يابه فوك النخل فوك!»،



سعيداً مثل طفل يلهو مكتشفاً السر بعد الآخر. التفت إلى الوراء ليرى إن كانت دليلة تتبعه:

ـ أين أنت أيتها الصديقة السماوية؟

حين اقتربت منه أمسك بيدها، وجرها إليه، متقلباً في الهواء، هابطاً إلى الأسفل قليلاً. ثم احتضنها، مقبلاً إياها من فمها الطافح بالحياة، صارخاً بأعلى صوته الذي بددته الريح:

ـ لم يقبل حتى آدم حواء وهما يهبطان إلى الأرض. ولكنني فعلته. فوك النخل فوك فوك، يابه فوك النخل فوك.

استدارت الطائرة التي قذفت بهما من أعلى السماء فوق صحرائهما الموحشة قبل أن تنطلق عائدة من حيث جاءت، فرفع ذراعيه عالياً مودعاً إياها، وقد استبدت به عواطف جارحة كان قد نسيها من زمن طويل. ها هو ذا يهبط من طائرة هليكوبتر متلصصة فوق أرض الرمل، بلد السواد، الأرض الملعونة منذ الأبد، بعد كل سنوات غيابه.

ـ آه، لا أريد أن يفتضح أمرنا ونحن لا نزال معلقين بين السماء والأرض. اللعنة يا دليلة! علينا أن نلحق بالقافلة التي سوف تنتظرنا عند مدخل الوادي قبل حلول المساء.

ـ ربما لن ينتظرنا أحد هناك. هؤلاء المهربون الأشرار يقولون ما لا يفعلون، يعدون بإيصالك إلى باب بيتك ثم يتركونك وحيداً في بادية مقفرة، متسللين في الظلام بعد أن يكونوا قد سلبوك آخر نقودك.

شركاء حرس الحدود. يقاسمونهم غنائمهم ويذبحون ضحاياهم الضالين في دروب الصحراء أو يقطعون ألسنتهم.

ـ ثمة مهربون شرفاء أيضاً. لنؤمن بذلك على الأقل حتى لانفقد الأمل في الوصول.



رمال حمراء تلتمع تحت شمس ساطعة، كمرآة كبرى مهجورة، مقطوعة بتلال تتموج على مدى البصر، ليس ثمة جمال أو رعاة بدويون. «شكراً للّه. لا أحد هنا ليفضحنا، ونحن نهبط في هذه المتاهة». شرطة البادية تنصب فخاخها، حارسة الرمال مثل كلاب مدربة.



٦٣
الوصول الى المستقبل

كان عائداً الآن بعد غيابه الطويل إلى كل ما تركه وراءه، كلص قادم من زمان آخر. أعوام كثيرة مرت عليه وهو يذرع شوارع العالم طولاً وعرضاً، حتى صار جزءاً من ديكور كل مدينة حلّ فيها. حين اختفت دليلة من حياته ذات يوم قبل سنين طويلة، طويلة جداً، فقد آخر خيط يربطه بالحياة. لكنه لم يفقد الأمل بها قط، إذ كان يعرف أنها ستأتيه في النهاية ضاحكة ومبتهجة كما تفعل دائماً، وفي عينيها التماعة الفرح، منتصرة على العالم كله.

طويلاً بحث عنها في مدن منفاه الأوروبي، في وجوه فتيات عرفهن، وأخريات لم يعرفهن، في مقاهي الرصيف الضاجة بالسائحين في باريس، في مطاعم البيتزا الرخيصة في روما ونابولي، في الحانات نصف المعتمة في لندن وفي مطاعم الشاورمة التركية في كرويزبيرغ حتى التقاها ذات ظهيرة في مقهى مطل على نهر شبري البرليني يخفي نفسه بين الأشجار. كانت تجلس وحيدة في الشمس ببنطلونها الجينز الذي ظهرت عليه آثار البلى وقميصها الأبيض الطويل المفتوح عند الصدر، تقرأ في ديوان شعر لريلكه. لم يصدق في البداية ما رأته عيناه، لكنه ما كاد يركز النظر فيها حتى اضطرب قلبه وراح يخفق مثل ساعة مصابة بالجنون. تمالك نفسه واتجه إليها، فقالت له بدون أن ترفع رأسها:



ـ هيا اجلس ودعني أسمع أخبارك بعد كل هذه الأعوام!

ـ لماذا تركتني وحيداً في كل هذه المدن الغريبة يا دليلة؟

بطيئاً، بطيئاً يهبط جسداهما المعلقان في الهواء الراكد كراقصين يمتلكان الحلبة كلها. قوة أرضية تجتذبهما إلى الأسفل وقوة سماوية تدفعهما إلى الأعلى. ها هما في هذه الصحراء النورانية، حيث الشمس الساطعة المحرقة تذكرهما بكل ما مضى في الزمان. كانا يهبطان إلى واديهما المقدس، مثلما هبط من ذي قبل آدم وحواء، ليسلكا نفس الطريق التي سلكاها وليستعيدا كل ما كانا قد أضاعاه في دورة الأيام.

حماقة أن يعود المرء إلى ما لا عودة إليه. فكر، لقد انتهى الماضي، فلماذا أعود إليه جاراً ورائي دليلتي؟ أي لآلئ سأعثر عليها في أنفاقه المعتمة؟ آه، لا شيء هنا سوى برابرة، سوف يقطعوننا إرباً إرباً إذا ما قادنا الحظ إليهم. لكن دليلة تبتسم له. مشجعة:

ـ لا تيأس، أفلا تعرف أننا قد تركنا الماضي وراءنا؟ إننا في المستقبل يا عادل!

ـ لكنه يشبه الماضي، أليس محزناً أن ندفع المرة بعد الأخرى كل هذا الثمن الباهظ للزمن؟ يا للمستقبل من زمن غريب!

تفتح دليلة مظلتها، مخترقة غيمة بيضاء معلقة في السماء. يفتح هو الآخر مظلته الزرقاء، فيهبطان رويداً رويداً في الصحراء، كمبعوثين موكلين بمهمة سرية لا يعرفها أحد سواهما من البشر:

ـ أنظر، لقد بلغنا الوادي أخيراً.

ثم بعد قليل:

ـ هل تسمع هذا النداء القادم من بعيد؟

ـ أجل، إني أسمعه، يا إلهي، إنها الحياة تعلن عن نفسها ثانية!



ثم أضاف:

ـ ما كنت أعتقد أني سأراك يا دليلة بعد أن غبت عني كل تلك الأعوام الطويلة. لقد يئست من الحياة كلها في منفاي هناك.

حينذاك أمسكت دليلة الملاك برأسه، جرته من شعره، وقبلته من فمه، قائلة:

ـ ما هذا الذي تقوله يا عادل؟ ما كان عليك أن تيأس أبداً! كيف نسيت أنني أعود إليك في النهاية دائماً؟ يا لخفة عقلك! هيا امش أيها الكسلان، فالطريق لا تزال طويلة أمامنا.

فتمتم عادل سليم الأمير وهو يتذكر طرق حياته التي كان قد سلكها من قبل:

ـ أي طريق يا دليلة؟ أو لم تقولي إننا قد تركنا الماضي وراءنا وبلغنا المستقبل، فإلى أين يمكن أن نذهب أبعد من ذلك؟

جرته دليلة الملاك من يده، منحدرة به إلى الوادي الممتد أمامهما، وهي تحدق بحنان في عينيه الملتمعتين مثل لؤلؤتين قبل أن تقول له:

ـ إلى حيث تقودنا خطانا، لنبدأ حبنا، كما فعلنا دائماً، من جديد.

برلين ١٩٩٢ ـ ٢٠٠٠



إشارات

أغنية «في أسفل القلعة» مقتبسة من أغنية تركمانية شعبية شائعة في كركوك. أما مثنوية «ما من عاشق إلا وسيمر بهذه الحانة/ليقول مسروراً كما المنصور أنا الحق» فمأخوذة من الشاعر التركماني نسيمي البغدادي الذي عاش في القرن الرابع عشر. مشهد أخوات القدر يتضمن لعباً على مشهد الساحرات في مكبث لشكسبير. نشيد «أيها العمال يا جيش الحفاة» هو أحد الأناشيد التي كان الشيوعيون العراقيون يغنونها في السجون في العهد الملكي.

«الحفيظ» في الأصل اسم لمملكة أسطورية سحرية، وهي خرافة شائعة بين سكان الأهوار في جنوب العراق، الذين يعتقدون أن مملكة الحفيظ تتجلى بين الحين والآخر لبعض الناس وسط متاهات المياه، بأسوارها الذهبية وأبراجها العالية الملتمعة من بعيد، فتجتذب إليها الصيادين التائهين والهاربين من الحيف والفقراء الباحثين عن الخلاص، وتبتلعهم إلى الأبد، حيث لا يعود منها من يصل إليها.




مكتبة
الفكر الجديد

هذا الكتاب

يحاول العزاوي في رواية «الأسلاف» قطع الصلة مع تقاليد الرواية الواقعية ليس فقط عبر تغريب الواقع، بل عبر تفكيك وفحص بنيته العقلية التي يقوم عليها منطق الرواية السائدة.

فاطمة المحسن

رواية «الأسلاف» نص لا يقرأ إلا بروية لا متناهية ولا يفقه إلا بتمعن دقيق في أحداثنا المعاصرة. رواية تجعل القارئ يتساءل هل من نهاية لمأساة تتجدد من جيل إلى جيل؟

م. مدائني

كل سطر في رواية «الأسلاف» يحتاج الى تكرار قراءته مرتين، حتى تصدق أنك عشت كل تلك المهازل والكوارث والعذابات.

عبدالستار ناصر

أعترف أنها واحدة من الروايات القليلة التي لم أفوت منها سطراً واحداً، شيء أشبه بماركيز عراقي.

رغد عبدالزهرة

رسمة الغلاف: سالمة صالح



